شخصيات الرواية

لويس الرابع عشر : ملك فرنسا الشاب ، ملك طموح يريد أن يوطد سلطته ، متقلب العواطف ، ولكنه يستمع إلى صوت الحق أحيانا

الامير فيليب : أخوه التوأم ، شاب عاقل رصين ، قضى طفولته مجهولا من الناس، ثم سجن سنوات ، وكان لا يعرف نفسه ولا منبته الرفيع

الملكة آن النمسوية : والدة لويس وأخيه فيليب ، وأرملة لويس الثالث عشر .. ملكة متكبرة، تعاني مرضاً جسمانياً وألماً نفسانياً وتحتفظ بسر مولد فيليب

الدوقة مدام دى شيفريز : كانت صديقة للملكة آن ثم أخنى عليها الدهر ، واطلعت على سر لفوكيه فباعته لكولبير

فوكيه : وزير مالية فرنسا ، رجل وجيه متعال ، يقرب الشعراء والفنانين

كولبير : وكيل المالية ، رجل قدير ماكر ، يطمح إلى منصب وزير المالية

اراميس (الكونت دربلاى) : كان أحد الفرسان الأربعة الأبطال فى عهد لويس الثالث عشر ، ثم صار أسقفا وعمل لاسقاط الملك واجلاس أخيه التوأم مكانه

بورتوس (دى فالون) : أحد الفرسان الأربعة ، ومن أغنى نبلاء فرنسا ، ضخم الجسم كأنه مارد ، شجاع ، طيب القلب

آتوس (دى لافير) : كبير الفرسان الأربعة ، ومن أكبر نبلاء فرنسا

راؤول (دى براجلون) : نجل آتوس ، شاب شجاع مقدام ، أحب الآنسة لويز دى لافاليير احدى وصيفات الأميرة هنريتا ، وتعاهدا على الزواج

دارتانيان : أحد الفرسان الأربعة ، وهو يشغل منصب قائد الفرسان

لويز دى لافاليير : احدى وصيفات الأميرة هنريتا ، أحبها راؤول ، وعاهدها على الزواج ولكنها وقعت فى غرام الملك لويس الرابع عشر

بيزمو : محافظ سجن الباستيل ، يحب أطايب الطعام والشراب ، واقع تحت تأثير أراميس الذي أقرضه أموالا ثم تركها له ، وهو عضو فى جماعة الجزويت

مؤلف الرواية



لقبوه « بالكبير » تمييزا له من ابنه الذي يحمل اسمه نفسه «اسكندر دوماس» . وقد ولد سنة ١٨٠٢ فى قرية فرنسية تدعى « فيلير – كوتريه » وقضى بها أعوامه الأولى خاملا ، ثم انتقل الى باريس وعمل فى مكتبة دوق أورليتز ، ثم اتصل بالبارون « تايلور » ومن طريقه عرف وكيل نيابة اسمه «فيلناف» كان قبل الثورة الفرنسية يكتب فى كثير من الصحف ، فاتخذه أستاذا ومرشدا

ويعد اسكندر دوماس الكبير أكثر الكتاب الروائيين انتاجا ، وقد ترجمت رواياته الى أكثر اللغات الحية ، ومن أشهرها رواية « الكونت دى مونت كريستو » و « ذو القناع الحديدى » هذه

واشتهر طول حياته بالاسراف الشديد ، حتى لقد حجز الدائنون على متاعه أكثر من مرة برغم كثرة ما كان يربحه من مؤلفاته . على أنه مع ذلك كان دائم الفكاهة والابتسام ، لا يبالى ما يقع فيه من الأزمات المالية ، ويتلقاها بالسخرية التي كانت من لوازمه

وقد روى ابنه أنه قال له يوما : « انك يا أبى كأنما ترمى أموالك من النافذة» . فأجابه : « لا بأس !.. فهناك من يلتقطونها ! » . وقال لصديق له عاتبه على اسرافه : « كيف أكون مسرفا مع أننى جئت الى باريس وليس معى سوى قطعة ذهبية واحدة ما زلت محتفظا بها حتى الآن ؟ ! »

وطلب اليه يوما أن يساهم فى التبرع بنفقات جنازة أحد المحضرين ، فتبرع بضعف المبلغ المطلوب قائلا : « هذا لكى تدفنوا اثنين من المحضرين بدلا من واحد ! »

وذهب ذات ليلة الى مسرح الكوميدى فرانسيز لمشاهدة تمثيلية شعرية لصديقه « اسكندر سوميه » . وهناك رأى أحد النظارة نائما فلفت اليه نظر المؤلف مداعبا . ثم حدث فى الليلة التالية أن كانا فى المسرح يشاهدان تمثيلية له هو ، فلفت سوميه نظره الى متفرج نائم فى المكان نفسه فأجابه قائلا : « هذا الشخص هو نفسه الذى رأيناه أمس لم يستيقظ بعد ! »

صديقان قديمان

كان كل موظفى البلاط مشغولين بأعمالهم فيه حينما انسل رجل الى البيت القائم وسط الحدائق خلف ميدان جريف ، يرتدى معطفا أسود يتدلى على جانبه سيف طويل ، وقد أخذ طريقه فى خطى متزنة ثابتة وان يكن قد ودع الشباب ، مما يدل على أنه ذو قلب غير هياب تعود المغامرات !

ولم يكد يجتاز الباب الداخلى حتى دقت الساعة الثامنة . وبعد عشر دقائق جاءت سيدة يتبعها حارس كامل السلاح فقرعت الباب نفسه وسرعان ما فتحته لها امرأة عجوز كانت هناك ، فدخلت وهى ترفع عن وجهها القناع الذى كان يحجبه ، واذا هى سيدة جاوزت سن الشباب ، وتخلى عنها الجمال ، ولكنها مع ذلك ذات نشاط ظاهر ، ولها رأس مرفوع. وقد حاولت اخفاء حقيقة سنها وراء زينتها الدالة على حسن الذوق !

ولم تكد تدخل البهو حتى استقبلها ذلك الرجل الذى سبقها اليه منذ قليل ومد يده لتحيتها قائلا :

ـ يوم سعيد يا سيدتى الدوقة

فأجابته قائلة :

ـ كيف أنت يا عزيزى أراميس ؟

ثم قادها الى جناح فخم تنعكس على نوافذه العالية أشعة الشمس الغاربة. وجلسا فى الضوء الخافت جنبا الى جنب ، دون أن يطلب أحدهما اضاءة الجناح بالشموع ، كأنما راقهما أن يختفيا وراء تلك الظلال ، أو كأنهما يريدان الانزواء فى عالم النسيان !

ثم قالت الدوقة :

ـ انك لم تترك لى ما أعرف به أنك على قيد الحياة منذ حديثنا معا فى فونتينبلو .. وانى أصارحك القول بأن وجودك فى ذلك اليوم حين وفاة الفرنسيسكانى ، ووقوفك على تلك الاسرار ، قد أثارا فى نفسى دهشة عظيمة !

فقال محدثها أراميس : « فى امكانى أن أفسر لك وجودى هناك ووقوفى على بعض الأسرار »

ولكن الدوقة واصلت كلامها قائلة :

ـ دعنا أولا نتحدث عن نفسينا قليلا،فان صداقتنا ليست حديثة العهد!

فأومأ برأسه موافقا وقال : « أجل يا سيدتى ، واذا شاء الله فسنبقى صديقين الى الأبد ! »

وقالت الدوقة : « هذا ما أريده أيها الفارس ، وليس مجيئى الى هنا الا الدليل على ذلك ! »

فقال أراميس : « ان مصالحنا لم تعد موحدة يا سيدتى الدوقة كما كانت من قبل »

قالت : « نعم .. ان لنا الآن مصالح أخرى ، ولكن ما دام كل منا الآن يفهم حديث الآخر كما كنا نتفاهم قبلا ، ففى استطاعتنا أن نتحدث اذا شئت ! »

قال : « انى تحت أمرك يا سيدتى .. لكن كيف عرفت عنوانى ؟ وماذا كان هدفك ؟ »

قالت : « انه الفضول قبل كل شيء !. فقد أردت أن أعرف ما شأنك بالفرنسيسكانى الذى كانت لى به علاقة عمل ، وكان موته فجأة كما تعلم . ولعلك تذكر أننا بعد محادثتنا معا فى فونتينبلو ، وفى الفترة التى تلت اغلاق القبر عليه، كان التأثر قد غلبنا فلم تتح لأحدنا فرصة لاتمام الحديث »

فأومأ أراميس برأسه موافقا وقال : « أجل يا سيدتى ! »

وواصلت الدوقة كلامها فقالت : «على أنى لم أكد أفترق عنك حتى ندمت على أنى لم أتم الحديث معك . ومنذ ذلك الحين وأنا تواقة لان أعرف الحقيقة .. انك أشرفت على جنازة الفرنسيسكانى ، ولم تقل لى كلمة عن علاقتك به ، وأنا أيضا لم أخبرك بما كان من صلات بينى وبينه ، ولم يكن ذلك يجدر بنا ونحن صديقان قديمان . ولهذا أردت أن أقابلك وأتحدث معك لكى أطلعك على معلومات وقفت عليها أخيرا ، ولكن أؤكد لك أن مارى ميشون التى لم تعد فى عالم الوجود قد خلفت وراءها امرأة تحرص مثلها على ذكريات الماضى ! »

فانحنى أراميس على يد الدوقة وطبع عليها قبلة ثم قال :

ـ لا شك فى أنك لقيت نصبا فى الاهتداء الى مقرى !

فقالت : « أجل !. ولكنى أعرف أنك صديق المسيو فوكيه ، وقد أعاننى هذا على تبين الطريق الاقرب اليك »

فقال متعجبا : « صديق المسيو فوكيه ؟!.. هذا شرف كبير لا أدعيه لنفسى !. اننى لست الا قسيسا صغيرا أستظل بحماية ذلك الكبير الكريم، ويسعدنى أن أحتفظ له بواجب الشكر والوفاء ! »

فقالت الدوقة : « لقد جعلك أسقفا !. ولا شك فى أنه منصب لا بأس به وذو معاش حسن لفارس جميل ! »

فابتسم أراميس وقال : « اذن فقد سألت عنى فى ديوان المسيو فوكيه؟»

قالت : « نعم ، وقد كان ذلك أمرا يسيرا ، فقد علمت أنك سافرت معه الى فونتنبيلو ، ثم توجهت الى مقر أسقفيتك ، وهى فى (بل – أيل – أن – مير) على ما أظن ! »

فقال مصححا : « ان أسقفيتى فى (فان) يا سيدتى »

فقالت : « هذا ما قصدت أن أقوله ٠ ولكن لسانى سبق الى ذكر (بل – ايل – أن – مير) التى هى من أملاك المسيو فوكيه ٠ ولهذه المناسبة : هل صحيح أنها محصنة ؟٠٠ أنا أعرف أنك واسع الدراية بالمسائل الحربية »

فقال : « لقد نسيت هذه المسائل منذ دخلت فى خدمة الكنيسة »

قالت : « على كل حال ، كان يكفينى أن أعلم أنك عدت من (فان) وعلى هذا عهدت الى الكونت دى لافير ، صديقنا الذى فطر على الكتمان،فى التحقق من أمر رجوعك ٠ ولكنه اعتذر بأنه لا يعرف عنوانك »

فقال الاسقف لنفسه : « هذه شيمة آتوس ، ان الشهم لا يتغير ! » ٠ ثم قالت الدوقة :

– انك تعلم انى لا أجرؤ على الظهور هنا فان الملكة الوالدة دائمة الغضب على !٠ هل يدهشك ذلك ؟٠ ان لذلك أسبابا لا محل لذكرها الآن ٠ على أنى خلال احتجابى عن الانظار صادفنى شىء من حسن الحظ فلقيت المسيو دارتانيان الذى كان فى الماضى صديقا لك »

فأومأ برأسه موافقا وابتسم قائلا : «ولا يزال صديقى» ٠ بينما واصلت الدوقة كلامها فقالت :

– وقد حصلت منه على بعض المعلومات ، وأرسلنى الى المسيو بيزمو محافظ الباستيل !

فدهش أراميس اذ سمع ذلك وقال للدوقة :

– ولماذا أرسلك دارتانيان الى بيزمو ؟

فقالت : « ليس فى استطاعتى أن أوضح لك هذا الأمر الآن »

وأخذ هو يجهد فكره لعله يعرف السبب ٠ ثم قالت له الدوقة :

– ان المسيو بيزمو مدين لك كما أخبرنى دارتانيان ٠ ومن السهل أن نعرف من المدين عنوان الدائن »

قال : « هذا صحيح ٠ وعلى هذا كان بيزمو هو الذى دلك على عنوانى »

فقالت : « نعم ، وعلى أثر ذلك أرسلت اليك خطابا فى سانت مانديه »

فقال : « لا أزال محتفظا بهذا الخطاب ، وله عندى قيمة كبيرة لان له الفضل فى رؤيتى اياك ! »

وأعقبت ذلك فترة سكوت قطعها هو بعد قليل بقوله :

– لقد وصلنا فى حديثنا الى زيارتك للمسيو بيزمو ٠٠ أليس كذلك ؟

فضحكت وقالت : « بل وصلنا الى أبعد من ذلك ! »

فقال : « أجل ، كنا نتحدث عن الضغن الذى تحملينه للملكة الوالدة »

فقالت : « أبعد من ذلك ٠ لقد كنا نتحدث عن العلاقة التى كانت تربطنا بالفرنسيسكانى ! »

فبدا الاهتمام فى وجهه من جديد وقال :

– نعم ، نعم !٠٠ أتمى حديثك ٠٠ ها أننا كلى آذان صاغية للدوقة مدام دى شيفريز

فقالت الدوقة : « من السهل تفسير تلك العلاقة فانك تعلم أنى أعيش فى بروكسل مع المسيو دى ليك »

– لقد سمعت ذلك

– وأنت تعلم أيضا أن أولادى جردونى من كل ما أملك ؟!

– هذا أمر شنيع يا عزيزتى الدوقة !

– شنيع حقا ٠٠ وقد أرغمنى ذلك على التماس وسيلة للعيش خصوصا أنى ليس لى من يحمينى !

– أنت التى طالما حميت أناسا كثيرين !

– هكذا الدنيا أيها الفارس !٠ وعلى كل حال ففى الوقت الحاضر تتاح لى فرص كثيرة لمقابلة ملك اسبانيا،وقد عين جلالته أخيرا قائداجديدا للجزويت كما هو المعتاد !

– كما هو المعتاد ؟!٠ أواثقة أنت من أن هذا هو المعتاد حقا ؟

– نعم ، كيف لا تعلم ذلك ؟

– عفوا ٠! اننى أعلم ولكن ذهنى كان شاردا !٠

– لا بأس !٠٠ أنا واثقة من أنك تعلم ذلك ما دمت على صلة وثيقة بالفرنسيسكانى٠وقد أردت أن أقول : « ان ملك اسبانيا رأى أن يؤدى لى خدمة فلم يجد خيرا من اعطائى كتابا الى الفلاندر ، يوصيه بى خيرا وبالمسيو دى ليك ، وقرر لى معاشا من أموال الجزويت !

فبدا التعجب فى وجهه ، وتساءل قائلا : « الجزويت ؟! »

فقالت الدوقة : « أجل !٠ وقد زارنى الفرنسيسكانى ، أعنى قائد الجزويت ، ولما كان نظام تلك الجماعة لا يجعل حقا فى الحصول على معاش من خزانتها الا لمن يؤدى لها خدمات ، فقد تفاهم معى على أن يكون لى عمل أستحق به ذلك المعاش »

فقال أراميس : « عجبا !٠ لم أكن أعلم شيئا عن هذا النظام »

فسكتت هنيهة حاولت خلالها أن تتفرس فى وجه أراميس لكنها لم تتبينه تماما لشدة الظلام ، ثم مضت فقالت :

ـ أجل تلك هى القاعدة ٠ وعلى هذا يجب أن أكون ذا فائدة للجماعة ٠ وقد عرضت أن أقوم برحلة لهذا الغرض وتمت الموافقة على ذلك ، على أن المسألة فى الواقع ليست غير شكلية ، لأتمكن من نيل المعاش الذى أنا فى حاجة اليه !

فهمس أراميس قائلا فى صوت متهدج : « انى ليحزننى أن أسمع ذلك٠ أمثلك تضطرين الى أخذ معاش من الجزويت ؟! »

فقالت : « كلا أيها الفارس ، ان المعاش ليس منهم سل من ملكأسبانيا !»

فتنهد وهز رأسه مغمغما : « أليس المورد واحدا ؟ »

فقالت : «كلا أيها الفارس ، ان المعاش ليس منهم بل من ملكأسبانيا !»

فاستطرد أراميس قائلا :

ـ لا شك فى أن ثروتك الطائلة قد بقى منها شىء ؟

فقالت : « لم يبق لى سوى قصر دامبيير ، ولكنه مرهون مثقل بالديون ، ويكاد يصيبه الخراب ! »

فحدجها بنظرة نافذة لكنه لم ير شيئا فى الظلام المحيط بهما ثم قال : « كيف تسكت الملكة الوالدة على كل ذلك ؟! »

فقالت الدوقة : « لقد نسيت الملكة الوالدة كل شىء ! »

قال : « أحسبك سعيت فى سبيل استعادة رضائها عنك ؟ »

ـ أجل !٠ ولكن الملك فيما يظهر ورث عن أبيه كراهيته لى ٠ انى امرأة بغيضة لا يمكن أن يحبنى أحد !٠ أليس كذلك ؟

ـ أرجو يا عزيزتى الدوقة أن تصلى الى الهدف وأن تخبرينى بما جاء بك الى هنا ، لأنى أعتقد أن كلا منا يستطيع أن يخدم الآخر

ـ هذا ما أعتقده أنا أيضا ٠ لقد ذهبت الى فونتينبلو لغرضين : أحدهما خاص بالفرنسيسكانى الذى تعرفه ٠ ولهذه المناسبة خبرنى كيف عرفته ؟ لقد قصصت عليك قصتى ولكنك لم تخبرنى بعد بشىء عن نفسك !

ـ كان طبيعيا أن عرفت الفرنسيسكانى ، فقد كنا زميلين فى دراسة اللاهوت بجامعة بارما ، وسرعان ما توطدت الصداقة بيننا ، ولكن شواغل العمل أو السفر أو الحرب كانت تفرق بيننا أحيانا

ـ أكنت تعرف أنه قائد الجزويت ؟

ـ كنت أشك فى ذلك !

ـ ولكن أى ظرفعجيب جعلك توجد بالفندق الذىاجتمع فيه المسافرون الاخوان التابعون للجماعة ؟

ـ كان ذلك مصادفة لا أكثر !٠ فقد توجهت الى فونتينبلو متنكرا لمقابلة المسيو فوكيه كى يمهد لى السبيل الى مقابلة الملك ، وهناك رأيت الراهب

المسكين يموت فى الطريق وعرفت شخصيته فورا ، وأنت تعرفين الباقى فقد مات بين ذراعى !

ـ أجل !٠ ولكنه خلف لك سلطانا واسعا حتى انك تصـــدر أوامرك وتوجيهاتك وكأنك أحد الملوك !

ـ لقد ترك لى بعض مهام أقوم بها !

ـ وماذا ترك لك فيما يختص بى ؟

ـ ترك لك اثنى عشر ألف جنيـــه ، وأحسبنى وقعت على الأمر الخاص بصرف هذا المبلغ ، ألم تتسلميه ؟

ـ تسلمته ! ٠٠ وقد قيل لى انك تصدر أوامرك بشـكل جعل الكثيرين يعتقدون أنك عينت خلفا للقائد الراحل !

فصعد الدم الى وجه أراميس ، واستطردت الدوقة تقول :

ـ لقد حصلت على معلوماتى هذه من ملك اسبانيا نفسه ٠ وقد بددبعض الشكوك التى قامت بذهنى ٠ انه هو الذى يعين كل قائد للجزويت ،ويجب أن يكون القائد اسبانيا طبقا لنظم الجماعة ، ولكنك لست اسبانيا ، كما أن ملك اسبانيا لم يعينك !

فقال أراميس :

ـ ها أنت ذى ترين يا سيدتى أنك كنت على خطأ فى توهمك ، ما دام ملك اسبانيا نفسه قد بين لك ذلك !

ـ الواقع يا عزيزى أراميس أنى كنت أفكر فى شىء آخر !٠ انى أعرف شيئا عن معظم الأمور ، وقد خطر لى أنك تعرف اللغة الاسبانية !

ـ ان كل فرنسى اشترك فى حرب (الفروند) (١) يعرف اللغةالاسبانية

ـ هل عشت فى فلاندرز ؟

ـ ثلاث سنوات !

ـ وهل مكثت طويلا فى مدريد ؟

ـ خمسة عشر شهرا !

ـ اذن لك الحق فى نيل الجنسية الاسبانية اذا شئت ! فكل ما يشترط لكسب هذه الجنسية هو الاقامة سنتين فى أرض اسبانية ومعرفة اللغة ٠ وأنت قد أقمت أكثر من تلك الفترة وتعرف اللغة الاسبانية

ـ الى أى هدف ترمين٠يا دوقة ؟

ـ الى اننى على صلة حسنة بملك أسبانيا !

فقال أراميس يحدث نفسه : « وأنا لست على صلة سيئة به ! »

(١) حرب داخلية وقعت فى فرنسا فى عهد لويس الرابع عشر حين كان قاصرا (١٦٤٨ ـ ١٦٥٣) بين حزب البلاط تمثله الملكة آن النمسوية ومازارين ، وبين البرلمان الفرنسى

ثم سألته الدوقة :

ـ أأطلب الى ملك أسبانيا أن يعينك خلفا للراهب الفرنسيسكاني ؟٠ اذا لم تكن قد عينت فى هذا المنصب بعد فانى أستطيع أن أؤدى لك هذه الخدمة !٠

ـ ولماذا لم تؤدى هذه الخدمة نفسها للمسيو دى ليك ؟٠ انه رجل موهوب على أنك تحبينه أيضا !٠

ـ أجل ولا ريب !٠ ولكن دعنا الآن من المسيو دى ليك : ألا تحب أنت أن تنال ذلك المركز ؟

ـ كلا !٠ وشكرا لك !

فسكتت هنيهة وقد رجحت أنه قد عين فى ذلك المركز ، ثم قالت له :

ـ اذا أبيت على أن أقدم لك هذه الخدمة ، فان ذلك لا يشجعنى على طلب ما أريده منك !

ـ ما عليك الا أن تطلبى

ـ وكيف أطلب اليك شيئا وأنا غير واثقة من أن لك القدرة على تلبيـــة طلبى ؟

ـ مهما تكن سلطتى ومقدرتى محددتين ، فأرجو أن تطلبى الى ما تريدين

ـ انى محتاجة الى مبلغ من المال لاصلاح قصر دامبيير

فقال أراميس ببرود :

ـ مبلغ من المال ؟٠ حسنا يا دوقة !٠ كم تريدين ؟

ـ انه مبلغ ضخم

ـ انك تعلمين انى لست غنيا !

ـ كلا ولكن جماعة الجزويت غنية فلو أنك عينت قائدا لها ٠٠٠

ـ أحسبك تعرفين أنى لست القائد !

ـ فى هذه الحالة تلجأ الى صديق لك وافر الثروة ٠ أعنى المسيو فوكيه

ـ المسيو فوكيه ؟٠ انه قد أصابه الخراب يا سيدتى !

ـ هذا ما يقال ولكنى لا أصدقه !

ـ ولم لا تصدقين ذلك ؟

ـ لأن عندى ، أو بالاحرى عند دى ليك ، خطابات معينة من الكاردينال مازارين تدل على وجود حسابات غريبة !

ـ أية حسابات ؟

ـ حسابات خاصة بمبالغ مختلفة من المال اقترضت وتم التصرف فيها٠ انى لا أذكر تماما ما فى هذه الخطابات ولكنها تثبت أن وزير المالية قد أخذ ثلاثين مليون فرنك من خزائن الدولة ٠ والأمر جد خطير !

فبدا فى وجه أراميس الاهتمام والقلق وسألها قائلا :

ـ أيمكن أن تكون لديك هذه الخطابات التى تتحدثين عنها ولا تخبرى بها المسيو فوكيه ؟

ـ انى أحتفظ بمثل هذه المســـائل الصغيرة لوقت الحاجة ٠ وقد يأتى اليوم الذى أستمد منها نفعا وعندئذ تسحب من الخزانة التى حفظت بها !

فسألها أراميس : « هل حل ذلك اليـــوم ؟ » ٠ فلما وافقت على كلامه قال لها :

ـ هل اعتزمت أن تطلعى المسيو فوكيه على تلك الخطابات ؟

فقالت : « لقد آثرت أن أتحدث عنها معك ! »

فقال : « لابد أنك فى حاجة ماسة الى المال ، ولهذا تفكرين فى مثل هذه المسائل ، أنت التى كنت لا تكترثين لما يكتبه اليك مازارين نفسه ! »

قالت : « نعم ، الحقيقة أنى فى حاجة الى المال ! »

فقال أراميس ببرود : « لا شك أنه يؤلمك أن تتخذى مثل هذه الوسيلة انه لأمر يشق عليك ! »

فقــالت : « لو أننى أردت الشر بدل الخير ، ما كنت لأطلب الى قائد الجزويت أو الى المسيوفوكيه مبلغ نصف مليون فرنك لاصلاح قصردامبيير٠ بل كنت أطلب هذا المبلغ التافه من صديقتى القديمة الملكة الوالدة٠ولا شك أن خطابات السنيور مازارين كانت تفتح لى بابها حيث لا يكلفنى الحصول على هذا المبلغ الا أن أقول لها : (أود لو أستقبلك فى قصر دامبيير ، وأرجو أن تسمحى لى بأن أجعل ذلك القصر أهلا لهذا الغرض)٠٠أليس كذلك ؟ »

فلم يجب أراميس ببنت شفة ، وبقى ساكتا ، فقالت له : « فيم تفكر ؟ »

فقال : « انى أجمع بعض أرقام ! »

فقالت : « حسنا !٠ انك تجمع الأرقام ، بينما المســـيو فوكيه يطرح أرقاما ٠ أما أنا فأضرب أرقاما بعضها فى بعض !٠٠ حقـــا يا عزيزى ٠٠ ما أبرعنا حاسبين !٠ وما أشد ما يفهم أحدنا الآخر ! »

فقال لها أراميس : « ألا تسمحين لى بأن أفكر قليلا فى الأمر ؟ »

قالت : « ان الأمر بين أناس مثلنا لا يحتاج الى ذلك ، ولا يحتمل الا أحد أمرين : اما القبول واما الرفض »

فقال الاسقف يحدث نفسه : «انه شرك منصوب ، ومن المحال أن تستمع الملكة آن النمسوية الى امرأة مثل هذه » ٠ ثم قال لها :

ـ أحسب أن المسيو فوكيه لا يوجد عنده الآن نصف مليون فرنك

فقالت : « اذن لا فائدة من الكلام فى ذلك، ويمكن أن يصلح قصر دامبيير بطريقة أخرى »

ـ أحسبك لست فى ورطة مالية الى هذا الحد !

ـ بل أنا فى ضائقة شديدة !

ـ لا شك فى أن الملكة ستفعل لك ما يعجز عنه وزير المالية !

ـ نعم ، ولكن ألا ترى من الافضل أن أكلم المسيو فوكيه نفسه فى شأن تلك الخطابات ؟

ـ كلا · ولكن افعلى ما يحلو لك : فان المسيو فوكيه اما أن يشعر بأنه فى هذه المسألة مذنب أو برىء · فاذا كانت الاولى فانه لشدة كبريائه لن يعترف بذنبه · واذا كانت الثانية فان تهديدك اياه يكون اهانة بالغة له

فقامت الدوقة من مقعدها وهى تقول :

ـ ان منطقك كمنطق الملائكة

ـ واذن فستفضحين المسيو فوكيه لدى الملكة ؟

ـ أفضحه ؟· انك تتخذ كلمة شديدة · انى لن أفضحه يا صديقى العزيز · انك تعرف الآن من شؤون السياسة ما يكفى لان تدرى كيف تعالج هذه الأمور · اننى لن أفعل سوى أن أقف ضد المسيو فوكيه ، وفى حرب حزب ضد حزب آخر يكون السلاح الذى يستخدم فى الهجوم سلاحا ذا أثر !· ومتى عادت علاقتى الودية مع الملكة الوالدة فقد أصبح ذات خطر

ـ انك لا تجهلين ان المسيو فوكيه على أحسن علاقة مع ملك اسبانيا ، وعلى ذلك اذا بدأت حربا حزبية ضد المسيو فوكيه ، فانه سيرد عليك بالطريقة نفسها ، وسيتخذ من هذه العلاقة سلاحا للهجوم !

ـ أتريد أن تقول انه سيكون على صلة حسنة بقائد الجزويت يا عزيزى أراميس ؟

ـ قد يكون الأمر كذلك يا دوقة !

ـ اذن أنت ترى أنه سينقطع عنى المعاش الذى آخذه من الجماعة ؟

ـ أخشى أن يحدث ذلك !

ـ حسنا !· يجب أن ألتمس ما أجده من عزاء · ان مدام شيفريز لم يبق هناك ما يمكن أن تخشاه بعد ريشيليو وبعد حرب الفروند وبعد المنفى !

فقال أراميس : « ان المعاش كما تعلمين هو ثمانية وأربعون ألف فرنك »

قالت : « نعم ، هو كذلك ويا للأسف »

قال : « أنت تعلمين طبعا أن الصراع بين الاحزاب لا يدع سبيلا للفرار أمام الخصوم وأنصارهم »

قالت : « أتعنى أن دى ليك المسكين سيشقى كذلك ؟ »

فقال : « أظن أنه لا مناص من ذلك يا دوقة »

ـ ان معاشه لا يعدو اثنى عشر ألف فرنك !

ـ أجل ولكن ملك أسبانيا لا يزال له سلطانه ، وفى استطاعته بايعاز من المسيو فوكيه أن يزج بالمسيو دى ليك فى السجن حتى حين

ـ انى لا يزعجنى ذلك يا صديقى العزيز ، لانى بفضل صلحى مع الملكة آن ، سأجعل فرنسا تصر على الافراج عن دى ليك !

فقال : « هذا صحيح · ولكن فى هذه الحالة هناك أمر آخر تخشينه ! »

فسألته متلهفة : « ما هو ؟ » · فقال :

ـ ستعلمين ، ان لم تكونى قد علمت،أن عضو جماعة الجزويت لن يسهل عليه تركها ، لأن الاسرار التى وقف عليها تصبح وبالا عليه !

ففكرت مدام دى شيفريز هنيهة ثم قالت :

ـ هذا أمر أشد خطرا ، وسأفكر فى الأمر !

وبرغم الظلام الشامل أحس أراميس أن محدثته تنظر اليه نظرة نافذة تكاد تخترق قلبه · ثم قال لها وهو يتحسس بدافع الغريزة خنجرا مخبأ على صدره : « لنتخلص المسألة ولنتفاهم »

فقالت : « أجل !· ان دقة الحساب تسبب صدق المودة ! »

قال : « فلنبدأ بالغاء معاشك »

فقالت : « ولنحسب معه الغاء معاش دى ليك ، فتكون جملة الخسارة ستين ألف فرنك فى السنة · أهذا ما تعنيه ؟ »

قال : « نعم ، ويهمنى أن أعرف ما تكسبينه فى مقابل ذلك ؟ »

فقالت : « نصف مليون فرنك آخذها من الملكة ! »

قال : « لكنك قد لا تأخذينها منها ! »

فقالت : « انى أعرف الوسيلة لحصولى على هذا المبلغ ! »

فازداد أراميس اصغاء وقد أحس أنه بدأ يكسب فى هذا الحوار بمقدار ما تخسر محدثته ، ثم قال لها :

ـ لنفرض أنك ستحصلين على هذا المبلغ ، لكنك ستخسرين ضعفه لانك سيكون لك معاش قدره مائة ألف فرنك بدلا من ستين ألفا ، لمدة عشر سنوات !

فقالت : « ان النقص فى دخلى لن يدوم أكثر من الفترة الباقية للمسيو فوكيه فى منصبه ، وأنا أقدرها بشهرين اثنين لا أكثر ، وأرجو أن تعجبك هذه الصراحة ! »

فقال أراميس : « شكرا لك يا دوقة · ولكنك تخطئين اذ تحسبين أن جماعة الجزويت تدفع معاشك بعد فضيحة المسيو فوكيه »

فقالت : « أنا أعرف كيف أجعلها تصرف لى معاشى ، كما أعرف كيف أجعل الملكة تعطينى ما أريده ! »

فارتسمت على شفتيه ابتسامة حجبها الظلام وقال : « فى هذه الحالة لا مناص لنا من أن نسلم لك ، ولكن ألا يمكن أن تكونى أكثر رحمة ؟ »

ولم تلحظ الدوقة ما فى هذا القول من سخرية ، وقالت له :

— عجبا !. كيف تستكثر مثل هذا المبلغ الزهيد الذى لا يزيد على نصف مليون فرنك ، على حين أن الأمر يتعلق بوقايتك !.. أعنى وقاية صديقك أو حاميك ، من العواقب الوخيمة التى تنجم عن حرب حزبية ؟!

فقال فى هدوء : « لنفرض أن ذلك المبلغ صرف لك،ألا ترين أن المسيو دى ليك فى هذه الحالة سيطالب بنصيبه أيضا ، أى بنصف مليون آخر ؟.كما أن أولادك وغيرهم ممن يلوذون بك سيطالبون بأنصبتهم ولا شك من جديد. فى حين أن تلك الخطابات التى وقع عليها مازارين مهما يكن ما تشتمل عليه لا تساوى ثلاثة ملايين أو أربعة ملايين من الفرنكات !. هل نسيت جواهر ملكة فرنسا ؟ لا شك فى أنها كانت أكبر قيمة منهذه الخطابات ، ومع ذلك لم تكلف استعادتها ربع المبلغ الذى تطلبينه لنفسك ! »

فقالت الدوقة : « قد يكون هذا صحيحا ، ولكن للتاجر أن يقدر بضاعته وفق ما يراه وللمشترى أن يدفع أو يرفض الشراء ! »

فقال : « على رسلك يا سيدتى الدوقة.أتريدين أن تعلمى لماذا لا أشترى تلك الخطابات ؟ اننى لا أشتريها لأنها خطابات زائفة ! »

فضحكت الدوقة وقالت ساخرة : « هذه سخافة ولا شك !. وعجيب منك أن تصدقها ! »

فقال : « الواقع أننى لا أشك فى أنها زائفة ، وأنت تذكرين أنك بعد أن اختلفت مع الملكة بمسعى المسيو مازارين قد مكثت على علاقة وثيقة به. وفى ذلك ما يجعلك فى موقف الجاسوسة ، وصدقينى .. لست أحب أن أطلق عليك هذا الوصف ! »

فقالت ساخرة : « بل اطلق على من الاوصاف كل ما تريد ! »

فقال : « ليس هناك ما يدعو الى هذا . على أنك على الأقل توافقيننى على أن لطفك معه بعد ذلك ليس فوق مستوى الشبهات ! »

قالت : «ربما يكون هذا صحيحا ، ولكن الأصح منه ما تحويه الخطابات»

ورأت مدام دى شيفريز أنها قالت ما فيه الكفاية،فنهضت ومشت خطوات صوب الباب ، غير أن أراميس الداهية سرعان ما أعد مفاجأة للانتقام منها، فدق جرسا هناك واذا بالشموع توقد فورا فى الغرفة المجاورة واذا بالاضواء تنعكس على وجهها النحيل وخديها الذابلين ، وعينيها المغمضتين ، وأسنانها المسودة . وهى واقفة بجانب المرآة الكبيرة ، فوقف يتأملها مرفوع الرأس، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة ، كشفت عن أسنانه اللامعة.وأدركت العجوز خدعته التى كشفت عما جاهدت لاخفائه من قبح منظرها ، فسارعت فى الخروج ، متحاملة على ساقيها المرتعشتين ، بينما انحنى لها هو فى رشاقة الفارس الذى كانه ، ثم قفز عبر الغرفة ليقودها الى الباب

صفقة سياسية

قصدت الدوقة الرفيعة المنبت مدام دى شيفريز ، بعد مغادرتها الدار بميدان (بودوابيه) الى الفندق الذى تنزل به ، وكانت تخشى أن يكون هناك من يتبعها ، فماكادت تصل الى باب الفندق وتستوثق من أن أحدا لم يسر فى أثرها حتى خرجت من باب الحديقة الذى يوصل الى شارع آخر ، وتوجهت بسرعة الى شارع (كروا ديه بيتى شان) حيث يقيم المسيوكولبير وكيل وزارة المالية

وكان الليل قد أرخى سدوله ، والظلمة حالكة ، وقد شمل باريس السكون ، باسطا رداءه على تلك الدوقة وهى تحمل دسيستها السياسية ، وكانت قد ألفت الدسائس السياسية والمؤامرات التى تحاك فى الظلام ، وعرفت أن أى وزير لا يمكن أن يرفض لقاء شابة حسناء فى بيته ، ولا امرأة عجوز كثيرة التجارب !

واستقبلها أحد الخدم فى دار المسيو كولبير ولم يستطع اخفاء دهشته من زيارة امرأة فى مثل سنها لسيده فى مثل تلك الساعة ، وكتبت هى اسمها على رقعة من الورق ناولته اياها ليوصلها الى سيده فى غرفة مكتبه، وقد فوجىء هذا اذ قرأ اسم الزائرة وأمر الخادم بادخالها توا !.

ووقفت الدوقة هنيهة بالباب تتفرس فى وجه كولبير مليا لتدرس شخصيته قبل أن تحدثه ، ورأت أن له رأسا كبيرا مستديرا ، وحاجبين عريضين ، وملامح عاطلة من الجمال ، وقد وضع على رأسه قلنسوة كالتى يرتديها القساوسة . ولم تر فى هيئته لاول وهلة أية دلالة على حب الانتقام أو الطموح . غير أنها قالت لنفسها وهى تتأمل عينيه الصغيرتين النفاذتين ، والغضون البادية على جبينه ، وانطباق شفتيه : « انه الرجل الذى أحتاج اليه ! »

واستقبلها هو مرحبا فى أدب متكلف ، وما لبث أن سألها بعد أن قدم لها مقعدا كبيرا ، فقال فى صوت حاول جاهدا أن يضفى عليه الهدوء :

— أية مسألة يا سيدتى أتاحت لى شرف زيارتك الليلة ؟

فأجابت الدوقة قائلة على الفور :

— انهما مسألتان ، أو مسألة واحدة ذات شطرين هما : حاجتى اليك أيها السيد ، وحاجتك الى فى الوقت ذاته !

فتكلف الابتسام وقال : « أما الشطر الاول فيسرنى أن أضع نفسى فى

خدمة سيدتى الدوقة لعلى أستطيع القيام به . وأما الشطر الثانى ... »

فقطعت الدوقة عبارته قائلة : « مسيو كولبير .. انك وكيـل المالية ، وانه ليسرك طبعا أن تكون وزيرها ! »

ففتح الرجل فمه ورفع حاجبيه دهشة ثم غمغم قائلا : « سيدتى ! » . بينما واصلت هى كلامها فقالت :

ـ فيم الدهشة ؟. ولم الانكار ؟.. ان هـذا يطيل حديثنا بلا موجب ، وهو بعد عبث لا فائدة منه !

فعاد الى ابتسامته المتكلفة وقال : « سـيدتى .. انى ليسعدنى حقا أن أستمع لسيدة عظيمة لها مثل مركزك ولقبك ، ولكن هـذا لا يمنعنى من الاعتراف بأنى ما فكرت يوما فى انتزاع وظيفة رئيسى منه ! »

فقالت : « لم أقل أنك تنتزع وظيفته ، ولم أفكر فى ذلك قط . وأحسب أن كلمة (تحل محله) تؤدى المعنى المراد . وعلى هـذا فانى أفرض أنك يسرك أن تحل محل المسيو فوكيه وزير المالية ! »

فقال : « ان ثروة المسيو فوكيه يا سيدتى تمكنه من أن يحبط كل محاولة من هذا القبيل . ان وزير المالية فى هذا العصر يشبه الى حد كبير تمثال رودس الضخم الذى تسير السفن تحته دون أن تقلبه ! »

قالت : « نعم هذا صحيح ، ولكنى أذكر أن المسيو كونراد عضو الاكاديمية قال يوما : (ان تمثال رودس الضخم هذا سقط من مكانه الشاهق ولم يكن الذى أسقطه سوى تاجر لا أكثر ! . وقد حمل أربعمائة جمل بأنقاضه !) .. تصور يا مسيو كولبير .. لقد فعل هذا تاجر بسيط هو أقل من وكيـل وزارة المالية على كل حال ! »

فسكت كولبير قليلا ثم قال : « لكنى أؤكد لك يا سيدتى أنى لا أريد أن أسقط المسيو فوكيه ! »

فقالت : « حسنا يا مسيو كولبير : ما دمت تصر على أن تبدى لى كل هذه الحساسية ، وكأنك تجهل أنى مدام دى شيفريز ، وأنى قد تقدمت بى السن الى حد ما ، أى أنك بعبارة أخرى تحدث امرأة كانت لها علائق سياسـية بالكاردينال دى ريشيليو ، وليس أمامها وقت تضيعه .. أقول : ما دمت تأبى الا أن تكون هكذا كما أنت فخير لى أن أذهب ، وسأجد أناسا آخرين أوسع أفقا ، وأشد رغبة فى تكوين مستقبلهم ! »

فقال متلعثما : « كيف ذلك يا سيدتى ؟ »

قالت : « انك تعطينى فكرة سيئة عن مفاوضى العصر الحاضر . وأؤكد لك أن المسيو (سانك مارس) الذى كان وكيلا للمالية فى الجيل الماضى ، أيام شبابى ، ما كان ليبدى مثل هذا التردد ، لو أنه سمع عن الكاردينال ريشيليو مثل ما قلته لك الآن عن المسيو فوكيه ، وهذا برغم أن المسيو (سانك مارس) لم يكن خارق الذكاء ! »

فازداد تلعثم المسيو كولبير وقال للدوقة : « أرجو يا سيدتى أن تظهرى شيئا من التسامح ! »

فقالت : « حسنا !.. أتوافق على أن تحل محل المسيو فوكيه ؟ »

قال : « أوافق ولكن فى حالة واحدة .. اذا فصل الملك المسيو فوكيه من منصبه ! »

فابتسمت الدوقة العجوز وقالت : « هذا شرط لا حاجة اليـه . فمن الواضح انك اذا كنت لم تنجح فى ابعاد المسـيو فوكيه عن منصبه فذلك لانه أمر فوق طاقتك . وأنا لست بلهاء الى حد أنآتى اليك الليلة وأخاطبك فى مثل هذا الشأن دون أن أعد للأمر عدته ، وتكون فى يدى كل الادوات التى يحتاج اليها تنفيذه ! »

فقال كولبير بعد فترة صمت قصيرة :

ـ آسف يا سيدتى لاضطرارى مع ذلك الى الاصرار على وجهة نظرى !. على أنى أرى واجبا على أن أنبئك بأن المسيو فوكيه خلال السنوات الست الاخيرة قامت ضده أكثر من تهمة ، ولكنها لم تستطع أن تهزه أو تؤثر فيه!

فحدجته الدوقةبنظرة فاحصة ، ثم قالت فى لهجة ملؤها الثقة والاعتداد بالنفس :

ـ لكل شيء أوان يا مسيو كولبير !. ان أصحاب تلك الاتهامات لم تكن بينهم واحدة تسمى مدام دى شيفريز ، ولم تكن بأيديهم أدلة قاطعة تعادل كتبا ستة تؤيد التهمة موقعا عليها من المسيو دى مازارين !

فتمتم كولبير : « تؤيد التهمة ؟!.. أية تهمة يا سيدتى ؟ »

فقالت فى هدوء : « نعم ، التهمة بل الجريمة التى ارتكبها المسيو فوكيه اذا شئت ! »

فازدادت دهشته وأخذ يردد : « جريمة ارتكبها المسيو فوكيه ؟! »

وواصلت الدوقة كلامها فقالت : « أجل !. لا أقل من ذلك . ومن عجب يا مسيو كولبير أن ملامح وجهك التىكانت جامدة منذ هنيهة قد بدت الآن على عكس ذلك ، وهى تنبىء بوضوح عن شدة اهتمامك بالموضوع،موضوع الجريمة التى اقترفها المسيو فوكيه . ويسرنى أن الأمر على كل حال أثار فى نفسك الاهتمام ! »

فقال : « أليس طبيعيا أنأهتم لذلك يا سيدتى ؟.ان هذه الكلمةالواحدة (كلمة جريمة) تدل على شيء كثير خطير ! »

فقـالت : « نعم ، انها كلمة تتضمن منصب وزير الماليـة لك ، وأمرا بالنفى من البلاد أو النزول بسجن الباستيل للمسيو فوكيه ! »

فسكت قليلا ثم قال : « عفوا يا سيدتى الدوقة ، ان نفى المسيو فوكيه يكاد يكون من المحال . أما أن يسجن أو يوصم بالعار فهذا شيء كبير... »

فقطعت كلامه قائلة : « انى أعـنى ما أقوله تماما !. ولئن كنت الآن

لا أقيم دائما بباريس ، فما زلت على بينة من كل ما يدورَ فيها • وانى لعلى يقين من أن الملك لا يميل الى المسيو فوكيه ، وأنه لن يتوانى عن التضحية به متى لاحت له الفرصة لذلك ! »

فغمغم المسيو كولبير قائلا : « انها فرصة طيبة على كل حال ! »

فقالت الدوقة : «بل هى فرصة طيبة جدا•• تساوى نصف مليون فرنك على الأقل ! »

فسألها كولبير : « من أى وجه ؟ »

فأجابت بقولها : « أعنى يا سيدى أنى اذ أمسك بيدى هذه الفرصة ، لن أدعها تنقل الى يدك الا فى مقابل نصف مليون فرنك ! »

فقال : « انى أفهم ما تقولين تماما يا سيدتى • ولكن ما دمت قد حددت ثمنا •• ألا يحق لمن سيدفعه أن يرى السلع التى يبتاعها ؟ »

فقالت : « انها شىء تافه•وليست سوى ستة خطابات من المسيو مازارين كما أسلفت القول • على أنها لا تعد فادحة الثمن ما دامت تثبت قطعا أن المسيو فوكيه اختلس مبالغ طائلة من خزانة الدولة وأنفقها فى مآربه الخاصة ! »

فلمعت عينا كولبير بسرور ظاهر وقال :

ـ أهى تثبت ذلك بصفة قاطعة حقا ؟

فقالت « أجل بالتأكيد !• هل تحب أن تقرأ تلك الخطابات ؟ »

فأجاب : « أحب ذلك من كل قلبى !•• انها صور من تلك الخطابات طبعا •• أليس كذلك ؟ »

فأومأت برأسها موافقة ، ثم مدت يدها النحيلة الى صدرها وأخرجت رزمة صغيرة من الورق قدمتها له قائلة :

ـ هيا •• اقرأ يا مسيو كولبير

فتناول رزمة الورق من يدها فى شغف ظاهر ، ثم فضها وأخذ يقرأ ما فيها باهتمام شديد ، فلما انتهى من ذلك نظر الى الورقة وعيناه تلتمعان سرورا ، وقال : « هذا بديع !•• بديع جدا يا سيدتى ! »

فقالت وهى تبتسم : « الأمر واضح الى أقصى حد ، أليس كذلك ؟ »

فقال : « أجل يا سيدتى •• أجل !• ان المسيو مازارين قد سلم الى المسيو فوكيه مالا •• ولابد أن هذا احتفظ بذلك المال لنفسه • ولكن أى مال هذا ؟•• ان الخطابات الستة لم يرد فيها ما يوضح هذا الأمر »

فقالت الدوقة بهدوء : « صدقت !• ولك الحق فى أن تسأل : أى مال هذا ؟•• ومتى وصلنا الى اتفاق فسأريك خطابا سابعا يزودك بتفصيل المسألة كلها من أولها الى آخرها ! »

ففكر كولبير هنيهة ثم قال :

ـ وأين أصول هذه الخطابات

ـ هذا سؤال لا فائدة منه ، وما أشبهه بأن أسأل المسيو كولبير مثلا : هل أكياس النقود التى سيدفعها ثمنا لهذه الخطابات مملوءة أم فارغة ؟! »

ـ حسنا يا سيدتى

ـ اذن فقد اتفقنا ؟

ـ كلا !• هناك شىء لم يعره أحد منا أقل التفات • ان المسيو فوكيه لا يمكن أن تتم فضيحته الا بدعوى قضائية يصدر الحكم فيها بادانته !

ـ حسنا !•• فلترفع هذه الدعوى اذن

ـ لا يمكن اتخاذ الطرق القانونية ضده يا سيدتى • فهو النائب العام للبرلمان • ولا شك فى أن جميع الدوائر والمصالح الحكومية فى فرنسا ، ومن بينها ادارة الجيش وادارة القضاء نفسه متصلة كلها اتصالا وثيقا بروح الزمالة • وفى هذه الحالة يا سيدتى لن يسمح البرلمان بأن يقف رئيسه أمام محكمة علنية • حتى لو قدم الى المحاكمة بأمر ملكى فلن يحكم عليه !

فقالت الدوقة فى هدوء : « لا أدرى ما شأنى أنا بكل هذا ؟ »

فقال كولبير : « أعرف ذلك يا سيدتى ، ولكننى أنا لى شأن به !• وهذا ما يقلل من قيمة الدليل الذى أطلعتنى عليه • فالواقع أن أى دليل على جريمة لا يكون ذا قيمة اذا لم يكن هناك مجال لمحاكمة مقترفها ! »

فقالت الدوقة متململة : « ان المسيو فوكيه سيفقد منصبه ولا شك نتيجة لاتجاه الشبهات اليه • أليس هذا كافيا ؟ »

فسكت كولبير قليلا ، وبدت فى وجهه دلائل البغض وحب الانتقام ثم قال : « أهذا كل ما فى الأمر ؟ »

فقالت : « عفوا يا مسيو كولبير،لم أكن أدرى انك شديد التأثر هكذا!•• حسنا !• فى هذه الحالة ما دمت تريد أكثر مما عندى فلا متسع لبحث المسألة معك ! »

فقال : « بل نواصل البحث يا سيدتى !• ولكن ما دامت قيمة بضاعتك قد نقصت ، فيجب أن ينقص ثمنها ! »

فقالت وهى تمعن النظر فى وجهه : « انك تساومنى ؟! »

فابتسم وقال : « ان كل انسان يريد التعامل لابد له من أن يساوم ! »

فسألته متبرمة : « كم من المال تدفع ثمنالتلك الخطابات ؟ »

فقال بعد تفكير قليل : « مائتى ألف فرنك ! »

فضحكت الدوقة ساخرة ••ثم قالت له : « ألا تدفع أربعمائة ألف فرنك؟ بل ثلاثمائة ألف • ما رأيك ؟ »

فبدا عليه التردد ، ولم يجد ما يقوله ، وواصلت هى كلامها فقالت :

— ثلاثمائة ألف لا أقل !٠ فاما أن تقبل واما أن ترفض !٠٠ ثم ان هذا كل ما فى الأمر !

— وماذا لديك أيضا ؟

— ان المال ليس كل ما أريده منك ٠ فهناك خدمة أريد أن تؤديها لى أيضا !٠٠ انك تعلم أنى كنت مقربة من الملكة الوالدة ، وأنا الآن أود لو أقابلها وأحدثها !

فبقى ينظر اليها ساكتا ، ثم غمغم يقول : « الملكة ؟٠ تقابلين الملكة الوالدة ؟ »

فقالت له : « أجل يا مسيو كولبير ، أريد أن أقابل الملكة ٠٠ انها لم تعد صديقتى منذ فترة طويلة ، ولكنها ستعود الى صداقتى اذا أعطيت فرصة لمقابلتها ومحادثتها ! »

فقال كولبير : « لكن جلالتها لا تقابل أحدا الآن ٠ انها تعانى من مرضها آلاما شديدة ، ونوبات الألم تعتريها الآن فى فترات متقاربة ! »

فقالت الدوقة : « هذا نفسه ما يدعونى الى طلب مقابلتها ٠ ان مرضها العضال الذى حار أطباؤها فى علاجه ، كثير الانتشار فى اقليم الفلاندر ، ولاسيما بين النساء ٠ وكثيرات منهن استطعن التخلص من آلامه وتم شفاؤهن ! »

فسألها كولبير متعجبا : « أتعنين السرطان ؟٠ انه مرض خطير لا يوجد ما يشفى منه حتى الآن ! »

فقالت : « لا تظن ذلك يا مسيو كولبير ، ان فلاح الفلاندر رجل فطرى ، وزوجته تعمل وتكد فى المنزل والحقل وما بينهما ، وانها لتشقى بذلك أكثر مما يشقى البغل أو الحمار ، ثم هى الى ذلك قليلة العناية بنفسها ، ولهذا تصيبها الامراض المختلفة ٠ وكثيرا ما يأبى زوجها أن يكتفى بتركها تشقى هكذا بينما هو يدخن غليونه ، فيضربها ضربا مبرحا يترك فى جسمها رضوضا قد تسبب اصابتها بالسرطان ، فاذا اشتد بها الألم التمست الشفاء عند الراهبات فى (بروجز) وهن خير طبيبات لكل نوع من المرض ، وعندهن سوائل مفيدة لمختلف الاوجاع ، وتكفى قارورة منها ومعها شمعة يعطينها للمريضة لكى تشفى من ذلك المرض الوبيل ٠ وسأذهب الى الملكة ببعض ذلك الماء ، وستشفى جلالتها وتوقد من الشموع ما تراه ملائما ٠ وها أنت ذا ترى يا مسيو كولبير أنك اذا حلت دون مقابلتى للملكة كنت بمثابة قاتلها ! »

وكان يصغى الى حديثها بكل جوارحه ، فلما انتهت منه قال لها : « الحق يا سيدتى الدوقة أنك ذات مقدرة بالغة ٠ على أنى أعتقد أن هذا العطف المحمود من جانبك على الملكة يخفى وراءه صالحا شخصيا ولو ضئيلا !٠٠ أليس كذلك ؟ »

فقالت الدوقة : « أنا لم أحاول اخفاءه عليك يا مسيو كولبير ٠ وهذا الصالح الشخصى ليس ضئيلا كما تقول ، بل هو فى الواقع صالح كبير جدا ٠ والآن ما رأيك ؟٠٠ انك اذا مكنتنى من لقاء الملكة على انفراد فسأقنع بالثلاثمائة ألف فرنك التى طلبتها ٠ والا فانى أحتفظ لنفسى بالخطابات الستة ـ اللهم الا اذا أعطيتنى فى هذه الحالة خمسمائة ألف فرنك ! »

وتحركت الدوقة فى مقعدها كأنما تهم بالنهوض والانصراف ، فاشتدت حيرة المسيو كولبير ، ورأى ألا فائدة من مواصلة المساومة ، برغم فداحة الثمن الذى تطلبه ٠ وما لبث قليلا حتى قال لها :

ـ سيسرنى يا سيدتى أن أدفع لك الثلاثمائة ألف فرنك ، ولكن كيف أحصل على الخطابات الأصلية ؟

فقالت : « تحصل عليها بأبسط طريقة يا عزيزى المسيو كولبير ٠ من الذى تثق به فى أداء هذه المهمة ؟ »

فضحك كولبير حتى بدت نواجذه وقال : « لا أثق بأحد ! »

فقالت وهى تشاركه الضحك : «يمكنك على الأقل أن تستثنى نفسك!٠ أعنى أن تكلف نفسك الذهاب معى الى المكان الذى توجد به الخطابات فتتسلمها وتستوثق منها ! »

فأومأ برأسه موافقا وقال : « صدقت يا سيدتى الدوقة » ٠ فقالت : « لا تنس الثلاثمائة ألف فرنك ، فأنا أيضا لا أثق بأحد ! »

فصعد الدم الى وجهه حتى بلغ أطراف أذنيه ، فهو ككل الرجال البارزين المشتغلين بالارقام لا يرضى أن يتطرق الشك الى نزاهته ٠ ثم قال لها :

ـ سآخذ معى اذنين بالمبلغ على خزانتى ٠ أيرضيك هذا ؟

فقالت : « بودى لو كان الاذنان بمليونين أو أكثر من الفرنكات ٠ واذن كنت أريك طرقا عدة تؤدى كلها الى غايات لا تصل اليها الا فى الاحلام ! »

وهنا نظر فى ساعته ، ثم قال لها : « أتسمحين لى أن أطلب عربتى ؟ »

فقالت : « ان عربتى تنتظر بالباب ! »

فسعل كولبير بشكل يدل على التردد ٠ وخطر بباله فى هذه اللحظة أن ما عرضته الدوقة عليه انما هو شرك نصب لايقاعه فيه ، وربما يكون هناك من ينتظرهما لدى الباب ، أو تكون هى قد اتفقت مع المسيو فوكيه من قبل على بيع تلك الخطابات اليه !

ولما بان عليه التردد نظرت اليه الدوقة وقالت له : « أتؤثر ركوب عربتك ؟ » ٠ فقال على الفور : « أعترف بذلك ! »

فابتسمت وقالت : « لعلك تحسب أنى ربما أقودك الى شرك ؟ »

فاحمر وجهه مرة أخرى وقال : « يا سيدتى الدوقة ٠٠ انك تبدين جرأة نادرة وقلة مبالاة ٠ ولكنى رجل له سمت الجد والصراحة ، فأية لعبة تلعب على قد تسىء الى سمعتى ! »

فقالت : « الحقيقة أنك خائف ! ٠٠ ولكن لا بأس ٠٠ هيا اركب عربتك وخذ معك من الخدم أى عدد تشـاء ، ولكن اصـغ الى ما سأقوله لك : ان ما ندبره فيما بيننا لا يعلمه سوانا ، واذا علم به أى شـخص ثالث فكأن العالم كله قد علمه ٠ وأنا لا أبالى كما وصفتنى ، وستتبع عربتى عربتك ، وحسبى أن أركب عربتك عند ذهابى الى الملكة ! »

فغمغم يقول : « الملكة ؟ » ٠ فقالت :

ـ أنسيت هكذا بسرعة ؟٠ كيف يفوتك أهم بند من بنود اتفاقنا ؟

وهنا التفت اليها قائلا : « لقد فكرت يا سيدتى ولن أصحبك ! »

فسألته : « ولم لا ؟ » ٠ فقال : « لأن لى بك كل الثقة ! »

فقالت : « شكرا لك ٠ ولكن بشرط أن أحصل على المبلغ الآن ! »

فقال : « ها هو ذا يا سيدتى ! »

وكتب بضعة أسطر على رقعة من الورق وسلمها الى الدوقة

فتناولت الورقة وقالت : « ان مسلكك راق وسأكافئك عليه ! »

وضحكتضحكة مخيفة ٠٠ ثم فتحت صدر ثوبها وأخرجت من طيـاته رزمة صغيرة من الورق ومدت يدها بها اليه وقالت وهى لا تزال تضحك :

ـ هاك الخطابات الأصلية يا مسـيو كولبير ٠ انها الآن ملكك ٠ وان مستقبلك الآن مكفول ٠ هيا الآن اصحبنى الى الملكة !

فبهت مرة أخرى وقال : « الآن ؟٠ انك اذا تعرضت مرة ثانية لغضب جلالتها وعرف فى البلاط أنى كنت الواسطة فى دخولك القصر ، فان الملكة لن تسامحنى ما عاشت ٠ كلا !٠ بل يوجد فى القصر بعض أناس مخلصين لى وهم سيتولون أمر استقبال الملكة اياك ، دون أن يذكر اسمى »

فقالت : « كما تشاء ، ما دمت سأتمكن من دخول القصر ! »

قال : « ستدخلين القصر فى زى راهبة من راهبات مدينة بروجز »

قالت : « معذرة ولكنى لا أحب أن أتعرض لرفض المقابلة »

ـ هذا أيضا شأنك أنت يا سيدتى ٠ سأصدر تعليماتى الى رئيس خدم الأمين المختص بخدمة صاحبة الجلالة ، كى يسمح بدخول راهبة ، تحمل الى جلالتها دواء يشفى آلامها ٠ خذى هذا الخطاب واعملى على أن تحصلى على الدواء وعلى كل المعلومات اللازمة ٠ انى أعترف بمعرفتى لراهبة ، ولكنى أنكر انى أعرف أى شىء عن مدام شيفريز !

منصب للبيع

سلم كولبير الخطاب الى الدوقة ، ثم سارع الى ازاحة الكرسى الذى كانت واقفة وراءه من طريقها الى الباب ، فحيته بايماءة خفيفة براسها وغادرت الغرفة حيث أوصلها خادمه الى عربتها المنتظرة بالباب الخارجى فاستقلتها وانصرفت

وكان كولبير قد عرف خط مازارين منذ تبينه فى الخطابات ، فما كادت الدوقة تنصرف حتى دق الجرس لسكرتيره ، فلما جاء هذا مسرعا أمره أن يدعو اليه المسيو فانيل المستشار بالبرلمان ، فقال السكرتير :

ـ ان المسيو فانيل جاء منذ هنيهة ليقدم كعادته لسيدى الوكيل بيانا بما دار خلال اليوم بالبرلمان

واقترب كولبير من أحد المصابيح وقرأ مرة اخرى خطابات الـكردينال المتوفى ، وابتسم ابتسامة الرضا اذ ادرك قيمة الأوراق التى تسلمهـا من مدام دى شيفريز ، ثم أسند راسه الى يديه واستغرق فى تفكير عميق ، وفى أثناء ذلك دخل الغرفة رجل طويل القامة ضخم الجسم يدل وجهـه النحيل ونظرته الثابتة وأنفه الأقنى ، على ثقة بالنفس مع التواضع ٠ وكان يتابط رزمة ضخمة من الورق فوضعها برفق على المنضـدة التى أستند اليها كولبير ٠ وقال له هذا وقد تنبه لدخوله وقطع تفكيره :

ـ عم مساء يا مسيو فانيل

فحنى الرجل رأسه وقال : « عم مساء يا صاحب المعالى ! »

وخفق قلب كولبير اذ سمع هذا اللقب وقال للمستشار : « لماذا تلقبنى بصاحب المعالى ، ليس هناك ما يدعو الى ذلك ! »

فقال فانيل : « ان هذا من حقك يا سيدى فانت وزير وهذا اللقب حق للوزراء ! »

فزم كولبير شفتيه ثم قال : « لم يحن الوقت لذلك بعد يا مسيو فانيل ، وما أنا الآن الا (مسيو) فقط ! »

فسارع المستشار الى الرد قائلا : « لا يا سيدى !.. انك وزير فى الواقع ، وعلى هذا يجب أن تدعى صاحب المعالى ٠ واذا كنت تكره أن افعل ذلك علنا فاسمح لى بأن أناديك بهذا اللقب فيما بيننا »

فرفع كولبير راسه ونظر اليه مليا كانما يريد أن يستشف مدىاخلاصه ، ثم قال له كولبير فجأة :

ـ فانيل .. انك ذو جلد على العمل كما اعلم فهل تستطيع ان تعمل اثنتى عشرة ساعة فى اليوم ؟

فقال : « الواقع اننى اعمل خمس عشرة ساعة كل يوم ! »

ـ هذا مستحيل . ان عمل المستشار فى البرلمان لا يحتاج الى اكثر من ثلاث ساعات

ـ انى أعد بعض بيانات لصديق لى فى قسم الحسابات ، ولما كنت مع هذا اجد فراغا من الوقت فانى أدرس اللغة العبرية !

ـ ان لك سمعة عالية فى البرلمان يا فانيل

ـ شكرا لله على ذلك يا صاحب المعالى

ـ يجب الا يصيبك الصدأ ببقائك فى منصب المستشار

ـ وماذا ينبغى لى أن افعل لأحول دون ذلك ؟

ـ اشتر لنفسك منصبا رفيعا . ان المطامع الصغيرة الحقيرة يصعب ارضاؤها

ـ الواقع أن ملء اكياس النقود الصغيرة أصعب من ملء الأكياس الكبيرة

ثم قال له كولبير : « أى منصب ترنو اليه ؟ »

ـ لست ارنو الى أى منصب !

ـ هناك منصب معين ، ولكن لا بد ان يكون الانسان ملكا تقريبا حتى يستطيع أن يشتريه ، بل أحسب الملك نفسه لا يرغب فى شراء منصب النائب العام !

وهنا نظر فانيل الى كولبير نظرة غبية ، فلم يدر كولبير افهم فانيل قصده أم لم يفهم . ثم قال له فانيل :

ـ لماذا تحدثنى يا صاحب المعالى عن منصب النائب العام للبرلمان ؟. انى لا أعرف منصبا من هذا القبيل الا ذلك الذى يحتله المسيو فوكيه الآن

ـ نعم ، هذا صحيح يا عزيزى المستشار

ـ عفوا يا صاحب المعالى ، ولكن قبل أن يشترى هذا المنصب يجب أولا أن يكون معروضا للبيع !

ـ أعتقد يا مسيو فانيل أن هذا المنصب سيعرض للبيع !

ـ للبيع ؟ !. ماذا ؟. منصب المسيو فوكيه النائب العام للبرلمان ؟ !

فسأله كولبير بجد : « أخائف أنت من هذا المنصب ؟ »

ـ خائف ؟ ! كلا ، ولكن .. هل من المعقول أن مستشارا بالبرلمان لا يتمنى أن يصبح النائب العام !

ـ حسنا يا مسيو فانيل ، ما زلت اقول لك أن هذا المنصب سيكون للبيع عما قريب

ـ انى اقول يا صاحب المعالى أن هذا محال ، فان الانسان لا يرمى الدرع التى يذود بها عن شرفه ومستقبله وعن حياته نفسها

ـ من الناس من يبلغ بهم الحمق ان يظنوا أنفسهم بمنجاة من كل اذى !

ـ اجل يا صاحب المعالى ، ولكن هؤلاء الناس لا يركبهم الشطط لصالح رجل مثلى

ـ ولم لا ؟

ـ لسبب واحد بسيط وهو الفقر !

ـ صحيح أن منصب المسيو فوكيه قد يكلف مبلغا طائلا من المال . ماذا تدفع فى مقابله يا مسيو فانيل !

ـ ثلاثمائة الف فرنك أو أربعمائة الف

ـ وقيمة المنصب ؟

ـ مليون ونصف على أقل تقدير . انى اعرف اناسا عرضوا مليونا وسبعمائة الف فرنك دون ان يستطيعوا اغراء المسيو فوكيه بالبيع . واذا فرضنا أن المسيو فوكيه يريد بيع منصبه ـ وهو ما لا أعتقده برغم ما سمعته ..

ـ اسمعت شيئا عن ذلك ؟. ممن سمعته ؟

ـ من المسيو دى جورفيل ، والمسيو بليسون وآخرين !

ـ حسنا !. اذا كان المسيو فوكيه يريد البيع حقا . . .

ـ لا يمكننى بعد ان اشترى المنصب لأن المسيو فوكيه سيطلب الدفع نقدا ، وليس لأحد مليون ونصف من الفرنكات لكى يقدمها فورا

فقطع كولبير كلامه باشارة متعالية ، اذ كان قد بدأ يفكر . ولما رأى فانيل اهتمام سيده ومواصلته الكلام فى الموضوع ، مكث ينتظر الحل دون أن يتعجله . ثم قال له كولبير :

ـ أوضح لى المزايا التى لصاحب هذا المنصب

ـ له حق اتهام اى مواطن فرنسى لا يكون اميرا من الأسرة المالكة ، والحق فى ابطال الاجراءات القانونية التى تتخذ ضد أى فرنسى غير الملك والأمراء . ان النائب العام هو يد الملك اليمنى فى معاقبة المذنب ، وهو الأداة التى يمكنه بها ان يتفادى تطبيق العدالة . ومن ثم فان المسيو فوكيه يمكنه أن يقف أمام الملك . ان النائب العام يمكن أن يصبح اداة جد نافعة او ذات خطر بالغ !

فقال له كولبير فجاة : « اسمع يا فانيل : اتحب أن تصبح نائبا عاما ؟ »

ـ لقد بينت لك أنه يعوزنى نحو مليون ومائة الف فرنك لكى اكمل المبلغ اللازم لشراء هذا المنصب

ـ اقترض هذا المبلغ من أصدقائك ، انك رجل شريف نزيه !

ـ أوه يا صاحب المعالى !. وددت لو ظن الناس كما تظن

— احسبك كذلك وفى هذا الكفاية . واذا اقتضى الأمر ضامنا لك فى ذلك المبلغ فأنا على استعداد لذلك

— لا تنس يا صاحب المعالى المثل الذى يقول : « من كان مسئولا عن آخر فلا بد أن يدفع ثمن هذه المسئولية »

ونهض فانيل وهو فى عجب مما عرض عليه فجأة على غير انتظار ، ثم قال لكولبير :

— لعلك لا تسخر منى يا صاحب المعالى

— انتظر : لقد قلت لى أن المسيو دى جورفيل خاطبك فى شأن منصب المسيو فوكيه !

— أجل . وكذلك فعل بليسون

— أكان كلامهما فى ذلك رسميا أم من تلقاء نفسيهما ؟

— لقد قالا : « أن رجال البرلمان قد أوتوا من الكبرياء مثل ما اوتوا من الثروة . وينبغى لهم أن يجمعوا فيما بينهم مليونين أو ثلاثة ملايين ليقدموها للمسيو فوكيه حاميهم وكوكبهم المنير ! »

— وبماذا اجبت أنت ؟

— قلت : انى مستعد لأن اقدم عشرة آلاف فرنك اذا اقتضى الأمر ذلك

فقال له كولبير مدفوعا بعامل البغض لفوكيه :

— أنت اذن تحب المسيو فوكيه ؟

فقال فانيل : « كلا ! ولكن المسيو فوكيه رئيسنا . وهو مدين وفى طريقه الى الافلاس والخراب . وينبغى لنا أن نحفظ شرف الهيئة التى نحن اعضاؤها ويهمنا . . . »

فقطع كولبير كلامه وقال : « نعم ، وهذا يوضح لنا أن المسيو فوكيه سيبقى فى أمان وسلام ما دام يشغل منصبه الحالى فى البرلمان ! »

ثم عاد المسيو فانيل فقال : « ذكر لى المسيو دى جورفيل أن تقديمنا أية اعانة مالية للمسيو فوكيه قد يسىء الى كرامته ولا شك أنه سيرفضه . ولذا ينبغى لرجال البرلمان أن يكتتبوا فيما بينهم ليشتروا منصب النائب العام ، وفى هذه الحالة يتم كل شىء على ما يرام ، فنحفظ شرف هيئتنا ونحفظ على المسيو فوكيه كرامته واباءه »

فابتسم كولبير ساخرا وقال : « هذا فتح للموضوع ! »

وقال فانيل : « لقد حسبت ذلك يا صاحب المعالى »

— حسنا يا مسيو فانيل . اذهب توا وابحث عن المسيو دى جورفيل أو المسيو بليسون . أتعرف اى صديق آخر للمسيو فوكيه ؟

— أنا على صلة حسنة بالمسيو لافونتين

— لافونتين الشاعر ، مؤلف القصص الشعرية ؟

— أجل . لقد كان يكتب أشعارا لزوجتى حين كان المسيو فوكيه احد أصدقائنا

— اذن . . اذهب اليه ، ويحسن أن تحصل ايضا على موعد لمقابلة وزير المالية

فقال فانيل : « سأفعل كل هذا يا صاحب المعالى ، ولكن المهم هو الحصول على المال المطلوب »

— اطمئن يا مسيو فانيل ، فى الموعد المحدد لاتمام الصفقة ستزود بالمال المطلوب ، فلا تقلق من هذه الناحية

— ما أعظم هذه الأريحية يا صاحب المعالى . لقد فقت الملوك فى سخائهم !. بل لقد تفوقت على المسيو فوكيه نفسه فى سخائه !

— انتظر لحظة . لا تدع مجالا لسوء الفهم بيننا . اننى لست اقدم لك مليونا وأربعمائة الف فرنك هدية لك يا مسيو فانيل ، بل عندى أطفال أعولهم ، ولكنى انما اقرضك هذا المبلغ !

— حدد أية فائدة تريدها ، واطلب أى ضمان يرضيك . . اننى مستعد لأى شىء يا صاحب المعالى . وبعد الوفاء بكل شرط ما زلت اقول انك فقت الملوك ومسيو فوكيه فى الجود والكرم . فما هى الشروط التى تفرضها ؟

— الوفاء بالدين فى خلال ثمان سنوات ورهن المنصب نفسه !

— حسنا !. أهذا كل ما تشترطه ؟

— وسأحتفظ لنفسى بحق شراء المنصب منك ، بربح قدره مائة وخمسون الف فرنك ، وهذا اذا لم تقم بأعباء المنصب بالطريقة التى تحقق صالح الملك وتتفق مع مشروعاتى !. هل لديك اعتراض على شىء ؟

— لا . . يا صاحب المعالى

— حسنا !. سنوقع على اتفاق بيننا بهذه الشروط فى اى وقت تشاء . والآن اذهب بأقصى سرعتك الى أصدقاء المسيو فوكيه ، واحصل على موعد معه ، ولا تشتد حيال ما يطلب منك . ومتى تمت الترتيبات كلها . . .

— سألح عليه فى التوقيع على عقد الصفقة

— كلا !. بل حذار أن تفعل ذلك . لا تحدث المسيو فوكيه بشىء عن التوقيع أو الوثائق ، بل لا تطلب اليه كلمة شرف والا فقدت كل شىء . وكل ما عليك أن تغريه بمصافحتك دلالة على الموافقة . أفهمت ؟

— فهمت يا صاحب المعالى !

سر بين صديقتين

كانت الملكة الوالدة فى غرفة نومها بالقصر الملكى ومعها مدام دى موتفيل والسنيورا مولينا . وكان حضور الملك منتظرا منذ بداية النهار ولكنه لم يحضر ، فنفد صبر الملكة الوالدة وصارت تسأل عنه كل حين ، وكان جو البلاط كله ينذر باقتراب عاصفة ، وقد تفادى رجال البلاط وسيداته الالتقاء فى الردهات حتى لا يتحدثوا عن أمور شائكة . وكان الامير اخو الملك الاصغر قد صحب جلالته منذ باكورة الصباح فى رحلة صيد . ومكثت زوجة الامير (التى يشيرون اليها بلفظ المدام) فى جناحها لاتلقى احدا

وبعد أن تلت الملكة الوالدة صلواتها باللغة اللاتينية اخذت تتحدث مع صديقتيها عن مسائل منزلية بلغة قسطلة (من اقاليم اسبانيا) . وكانت مدام دى موتفيل تجيب باللغة الفرنسية برغم معرفتها لتلك اللغة . ولما استنفد النساء الثلاث كل وسائل التصنع والادب الملفوف للتعبير عما فى مسلك الملك من اقلاق للملكة والملكة الوالدة يجعلهما تذوبان كمدا وغيظا ، وبعد أن أبدين كل ما بنفوسهن من سخط على الآنسة دى لافاليير بعبارات مهذبة كثيرة الحيطة ، بعد ذلك كله اتمت الملكة الوالدة كلامها بقولها :

— آه من هؤلاء الاولاد !

والحق أن هذه العبارة على ايجازها كانت كافية للدلالة على ما يعتمل فى نفس الملكة آن النمسوية ، التى عرفت بمقدرتها على كتمان أخطر الاسرار

واجابت مولينا قائلة :

— اجل ، أولئك الاولاد الذين تضحى الامهات فى سبيلهم !

ثم عادت الملكة تقول :

— ان الام تضحى بكل شىء !

ولم تكد تتم كلمتها حتى رفعت راسها ونظرت الى صورة زيتية كبيرة للملك لويس الثالث عشر بحجمه الطبيعى وبوجهه الشاحب ، فخيل اليها أن شعاعا من الضوء ينبثق من عينيه فى تلك الصورة ، وأن خياشيمه قد امتلأت حنقا وغضبا ، وكأنما دبت الحياة فى الصورة !

وخيم السكوت على أثر الكلمة الاخيرة من الملكة الوالدة ، واخذت مولينا تقلب الاشرطة والمخرم لملاءة منضدة كبيرة ، وعجبت مدام دى موتفيل من نظرة تفاهم تبادلتها الملكة وصديقتها موضع ثقتها فأرخت عينيها كما يخلق

بامرأة كتوم وتظاهرت بأنها لم تلحظ شيئا مما يدور أمامها ، لكنها ازدادت أصغاء لما يقال ، وان لم تسمع شيئا سوى همهمة من جانب الوصيفة الاسبانية التى يتمثل فيها الحذر ، وآهة عميقة من جانب الملكة ، فنظرت الى هذه توا وسألتها :

— اتتألمين ؟

— كلا يا موتفيل . لماذا تقولين ذلك ؟

— لأن جلالتك تأوهت الآن !

— صدقت ! .. لقد تأوهت حقا

— ان المسيو فالو ليس بعيدا من هنا ، واحسبه فى جناح المدام !

— لماذا هو هناك ؟

— لأن المدام عندها نوبة عصبية !

— حقا انه مرض لطيف ! .. لا فائدة من وجود المسيو فالو هناك ، على حين أن طبيبا آخر يستطيع أن يشفى المدام

فبدت الدهشة فى نظرات مدام دى موتفيل وقالت :

— طبيب آخر غير المسيو فالو ؟ .. من الذى تعنينه ؟

— اعنى الشغل، شغل الفراغ . اذا كان هناك احد مريضا حقا فهو ابنتى المسكينة !

— وجلالتك ايضا

— نعم ، على أنى أقل مرضا فى هذا المساء !

فقالت دى موتفيل : « لاتركنى الى ذلك يا سيدتى »

وما كادت تتم عبارتها حتى شعرت الملكة بألم حاد ، فعاد وجهها شاحبا كوجوه الموتى ، واستندت الى مؤخرة كرسيها ، وظهرت عليها دلائل الاغماء المفاجىء . فسارعت مولينا الى خزانة مذهبة ذات غطاء من الصدف ، واخرجت منها قارورة فيها عقاقير للشم ، ووضعتها تحت أنف الملكة فاستنشقتها هنيهة ثم تمتمت قائلة :

— ان هذا سيعجل بوفاتى .. لتكن مشيئة الله !

فأعادت مولينا القارورة الى الخزانة وقالت للملكة :

— بعد عمر طويل !

وسألتها مدام دى موتفيل : « أتشعرين جلالتك بتحسن الآن ؟ »

فقالت الملكة : « احسن من ذى قبل ! »

ووضعت اصبعها على شفتيها لتدعوهما الى السكوت . ثم قالت مدام دى موتفيل بعد قليل :

— حقا .. انه لأمر عجيب

فسألتها الملكة : « ماذا تعنين ؟ »

فقالت : « هل تتذكرين جلالتك اليوم الذى شعرت فيه بهذا الألم أول مرة ؟ »

قالت : « اذكر أنه كان يوما حزينا جدا فيما يختص بى ! »

فقالت مدام دى موتفيل : « لكن جلالتك لم تعدى ذلك اليوم دائما يوما حزينا ؟ » .

ونظرت اليها الملكة متسائلة ، فواصلت كلامها قائلة :

ـ فى ذلك اليوم ، منذ ثلاث وعشرين سنة ، ولد جلالة نجلك

فندت عن صدر الملكة آهة حزينة ، وأخفت وجهها بين يديها ، وظلت دقائق مستغرقة فى تفكير أليم . وألقت مولينا نظرة غاضبة على مدام دى موتفيل ، وكانت هذه قد اشتد بها الندم على ما قالته للملكة ، ولم تدر له معنى يؤلمها ، حتى أوشكت أن تسألها ، ولكن الملكة آن قامت وهى تقول :

ـ أجل ! .. يوم ٥ سبتمبر ، لقد بدأ حزنى يوم ٥ سبتمبر ، شعرت فى ذلك اليوم بأعظم فرح ، ثم شعرت فى غده بأشد حزن عرفته فى حياتى ، وكان هذا كفارة عن ذلك الفرح البالغ

وبقيت دقائق ساكتة زائغة البصر وقد تدلت يداها وكأن الحياة فارقتها !

وقالت مولينا : « يجب أن نضعها فى فراشها »

فأشارت اليها الملكة قائلة : « نعم يامولينا . وليكن ذلك فورا .. ! »

ثم قالت الوصيفة الاسبانية : « لندع الملكة وحدها ! »

وحينئذ نهضت مدام دى موتفيل ، وأخذت تنظر فى أسف شديد الى الدموع تجرى على خدى الملكة ، بينما قالت لها هذه :

ـ أجل ياموتفيل ، دعينا وحدنا ، اذهبى !

وقد أحدثت هذه الكلمة أثرا سيئا فى نفس الوصيفة الفرنسية ، اذ دلتها على أن هناك سرا قديما بين الملكة ووصيفتها الاسبانية توشك أن تفضى به اليها على حدة ، دون أن تقف عليه هى ، فتمهلت وقالت للملكة :

ـ أتكفى مولينا وحدها لخدمة جلالتك الليلة ؟

واذ أومأت الملكة برأسها موافقة ، لم يسع مدام دى موتفيل الا ان تنحنى وتنسحب ، لكنها قبل أن تصل الى الباب فوجئت بفتحه ودخول وصيفة عجوز ترتدى ثيابا كثياب سيدات البلاط الاسبانى سنة ١٦٢٠ ، وما لبثت هذه أن اقتربت من الملكة وهى ما زالت تبكى . وقالت لهـا : « الدواء يا مولاتى ! »

فسألتها الملكة آن : « أى دواء ؟ »

فقالت الوصيفة العجوز : « دواء يذهب عن جلالتك الآلام ! »

وهنا سألتها مدام دى موتفيل : « من الذى أحضره ؟ .. المسيو فالو ؟ »

فقالت الوصيفة : « لا ، بل أحضرته سيدة من اقليم الفلاندر »

فدهشت مدام دى موتفيل وقالت : « من اقليم الفلاندر ؟ .. أهى أسبانية ؟ »

وبدا على الوصيفة أنها لاتدرى ، فعادت مدام دى موتفيل تسألها : « من الذى بعثها ؟ .. وما اسمها ؟ .. وما مركزها فى الهيئة الاجتماعية ؟ »

واجابت الوصيفة العجوز بقولها : « لقد ارسلها المسيو كولبير ، وهى لم تفصح عن اسمها ، وستشرح بنفسها كل شىء عن شخصها ! »

فازدادت دهشة مدام دى موتفيل وقالت : « أعجوز هى أم شابة ، وماذا يدل عليه وجهها ؟ »

واجابت الوصيفة قائلة : « انها تضع قناعا على وجهها ، ولذلك لم اتبينه تماما ! »

وكانت الوالدة تستمع لذلك الحوار ، فالتفتت الى مولينا وقالت لها :

ـ اذهبى يامولينا وانظرى ماذا هناك ؟

وهنا انبعث من وراء الستار المسدل على الباب صوت حازم يقول : « لاحاجة الى ذلك » . وفىاللحظة نفسها انفرج الستار ودخلت امرأة مقنعة ، فى زى يشبه زى الراهبات ، ثم قالت قبل أن تنطق الملكة ببنت شفة :

ـ مولاتى .. اننى مندوبة من جماعة الراهبات فى مدينة (بروجز) ، وقد جئت ومعى الدواء الكفيل بشفاء جلالتك من آلامك .

ثم وقفت فى مكانها ساكتة ، ولم تنطق احدى الحاضرات بكلمة حتى قالت لها الملكة : « تكلمى »

فقالت : « سأتكلم حين أكون وحدى مع جلالتك ! »

ونظرت الملكة آن الى وصيفتيها فانسحبتا توا ، وعندئذ تقدمت الراهبة بضع خطوات نحو الملكة وانحنت لها فى اجلال ، بينما نظرت الملكة اليها فى ارتياب محاولة أن تعرف هويتها بنظراتها الفاحصة الى وجهها الذى أخفاه قناعها ، ثم قالت لها الملكة :

ـ لابد أن ملكة فرنسا فى مرض شديد حتى ان نبأ مرضها وصل الى دير الراهبات فى بروجز ؟

فقالت : « ان مرض جلالتك لايعز على الشفاء ! »

ـ ولكن خبرينى : كيف علمت بنبأ مرضى ؟

ـ ان لجلالتك أصدقاء فى الفلاندر

ـ من هم أولئك الاصدقاء الذين بعثوك الى ؟ .. اذكرى اسماءهم

ـ هذا محال يا مولاتى ما دامت ذاكرة جلالتك لم يوقظها قلبك !

فعادت الملكة آن ترسل نظراتها خلال قناع الراهبة لتستشف غرضها ، ولما عجزت عن ذلك قالت لها :

— لعلك لا تعلمين ان الشخصيات الملكية لا تخاطب من وراء قناع ؟

فقالت الراهبة : « ارجو أن تغفرى لى ذلك »

وقالت الملكة : « لن اغفر لك الا اذا خلعت نقابك ! »

فقالت : « لقد اقسمت يا سيدتى على أن أساعد كل شخص يتألم دون ان أسمح له برؤية وجهى ، ولعل فى استطاعتى ان أخفف من آلام جسمك وذهنك ، ولكن ما دمت جلالتك لا تسمحين لى بذلك فانى أنسحب ، وداعا يا مولاتى ! »

ونطقت هذه الكلمات بجد واحترام ذهبا بغضب الملكة وارتيابها ، وان تكن قد بقيت على فضولها ، وقالت لها :

— انك على صواب ، فلا يليق بمن يتألم أن يرفض وسيلة لتخفيف الله أرسلها الله اليه ، تكلمى اذن ، وعسى أن تقدرى على تخفيف الالم الذى أضنى جسمى

— لنتحدث أولا عن الالم الذى بذهنك ، لأنى موقنة بأن الذهن يتألم أيضا !

فرددت الملكة متعجبة : « ذهنى ؟ ! »

وواصلت الراهبة كلامها قائلة : « توجد انواع من السرطان ، خفية فى كنهها حتى ان خفقها لايلحظ . وهذه الأنواع ياسيدتى لا تكاد تنبىء عنها العوارض الظاهرة ، فالطبيب الذى ينحنى على صدر المريض لا يسمع أسنان المرض النهمة وهى تقرض العضلات لأن الدم يستمر فى جريانه ، ومبضع الجراح كان ولا يزال عاجزا عن القضاء عليها ، لأن موطنها هو الذهن الذى تعمل على افساده ، وهى تملأ القلب كله بثغراتها ! »

فرفعت الملكة ذراعها وتأملت هنيهة بياضها الناصع وسرها ان وجدتها عبلة كما كانت فى أيام شبابها ، ثم قالت للراهبة :

— ان الآلام التى تشيرين اليها هى من ظروف الحياة لمن يولد على الأرض رفيع المنبت ، واذا اصبحت تلك الآلام أشد من ان يتحملها الانسان ، فان الله يضع عنه وزرها بالندم والاعتراف ، وهناك نزيح عن كاهلنا حمله ، ونعفى انفسنا من عبء الاسرار التى تثقلها ، ولكن لا تنسى أن الله يمنحنا برحمته قوة تعاوننا على حمل ذلك العبء . وقد حملت عبئى صابرة بفضل هذه القوة

— أراك شجاعة يا مولاتى حيال أعدائك كما كنت دائما ، انك لا تقرين بثقة لك فى أصدقائك !

— ان الملكات ليس لهن أصدقاء ، واذا لم يكن لديك شىء آخر تقولينه لى ،

وحسبت ان الله ملهمك ، فاتركينى ، أرجو منك ، فانى اخشى المستقبل !

فقالت الراهبة بحزم :

— لقد حسبتك تخشين الماضى أكثر من المستقبل !

ولم تكد تتم هذه الجملة حتى قامت الملكة من مكانها فزعة ، وقالت لها بلهجة الامر :

— تكلمى واوضحى ! .. هيا والا ...

— لا تهددينى يا صاحبة الجلالة ، لقد جئت اليك وملء قلبى المحبة والاجلال لك ، ولقد جئت اليك من طريق صديق !

— برهنى لى على ذلك بدلا من مضايقتى

— هذا أمر يسير على ، وسترين جلالتك من الذى يخلص لك فعلا . اى الكوارث نزلت بك فى خلال الثلاث والعشرين سنة الاخيرة ؟

— انها كوارث شديدة ، الم انقذ الملك ؟

— انى لا أعنى كوارث من هذا القبيل ، بل أود لو أسألك : منذ ميلاد الملك هل سبب لك احد الاصدقاء بعدم الكتمان اى قلق أو شر ؟

— انى لا أفهم ما تقولين !

— ساوضح قولى اذن ، ان جلالتك تذكرين ان الملك ولد يوم ٥ سبتمبر سنة ١٦٣٨ فى الساعة الحادية عشرة والربع

— اجل ..

— وعند منتصف الساعة الثانية عشرة نودى بنجلك وليا للعهد بعد ان عمده صاحب الفخامة (دى مو) بحضورك وحضور الملك ، ثم ذهب الملك الى كنيسة القصر القديم فى سان جرمان لحضور الصلاة

فتمتمت الملكة قائلة : « نعم ، نعم هذا ما حدث تماما »

ومضت الراهبة فى حديثها فقالت :

— وقد بدأت جلالتك النفاس فى حضرة المرحوم اخيك والامراء وسيدات البلاط ، وكان بوفار طبيب الملك وهونوريه الجراح فى الغرفة المجاورة ، وتمت جلالتك من الساعة الثالثة الى الساعة السابعة كما اعتقد

— اجل ، ولكنك لا تخبريننى الا بما يعرفه كل انسان

— اننى الآن يا سيدتى أدنو من شىء لايعرفه الا القلائل ، بل لا يعرفه الا بعض القلائل ، أو اثنان فقط ، لأنه فى حينه كان يعرفه خمسة ، ثم مات أهم عارفيه وهو الملك الذى يرقد الآن الى جوار اجداده ، وقد تبعته وشيكا بيرون المولدة ، وأصبح لابورت فى عالم النسيان !

وهنا فتحت الملكة فاها تريد أن تتكلم ، وشعرت بالعرق البارد يتصبب من جبينها ، بينما استطردت الراهبة فقالت :

— كانت الساعة الثامنة ، وقد جلس الملك الى مائدة العشاء بادى السرور ،

تغمره السعادة وترتفع من حواليه صيحات الفرح وشرب الانخاب ، وكان الشعب يهتف تحت الشرفات ، ورجال الحرس السويسرى ، والفرسان ، والحرس الملكى يجوبون خلال المدينة ، والطلبة يمشون سكارى صاخبين ، وازعجت هذه الاصوات ولى العهد الذى كان راقدا بين ذراعى مدام (دى هوزاك) مرضعته ، ولو انه فتح عينيه لراى تاجين فى أسفل مهده ، وبغتة صرخت جلالتك صرخة عالية فجرت اليك مدام بيرون ، وكان الطبيبان يتناولان عشاءهما فى الغرفة المجاورة لغرفتك ، بينما القصر هجره الحراس ، وفحصتك القابلة ثم صاحت صيحة دهشة ، وأخذتك بين ذراعيها ، وأرسلت لابورت توا ليخبر صاحب الجلالة أن الملكة تريد أن تراه فى غرفتها. وكان لابورت كما قد تذكرين جلالتك رجلا هادئا حاضر الذهن ، فلم يفاجىء الملك بما يزعجه ، بل اقترب من جلالته وقال له وعلى شفتيه ابتسامة : « مولاى . ان جلالة الملكة فى سعادة عظيمة وستزداد سعادتها اذا رات جلالتك » . وكان الملك فى أشد حالات السرور والمرح فقام قائلا للجالسين الى المائدة : « أيها السادة : انى ذاهب لرؤية زوجتى » . وجاء جلالته الى سريرك فى اللحظة التى قدمت اليه مدام بيرون أميرا ثانيا فى مثل جمال الأول وهتفت قائلة له : « مولاى . ان الله لايشاء أن تحكم فرنسا ملكات » . وتحت تأثير الفرحة الاولى تناول الملك الطفل بين ذراعيه ورفع رأسه قائلا : « شكرا لك يا الهى ! »

وسكتت الراهبة لترى مبلغ تأثر الملكة ، وكانت هذه قد قبعت فى كرسيها وأخذت تصغى باهتمام دون أن تحرك شفتيها بلفظ ما . ثم قالت الراهبة :

— لقد اقتنعت جلالتك يومئذ بأن المملكة لا ينبغى أن يكون لها غير ولى عهد واحد ، وهكذا نشأ الوليد الآخر بعيدا عن والديه الملكيين ، على أن جلالتك وان سمحت بذلك فقد تعذبت كثيرا ، وكم ذرفت الدموع الغزار ، وطبعت القبل الحنون على محيا ذلك الطفل البرىء فى مقابل حياة البؤس والظلام التى قضت بها ظروف السياسة على توأم لويس الرابع عشر !

وهنا تمتمت الملكة بصوت واهن : « آه . يا الهى ! »

واستأنفت الراهبة كلامها فقالت : « ان الملك قدر ما قد ينجم عن وجود ولدين له متشابهين فى السن وفى حق المطالبة بالعرش ، وأزعجه الخوف على مستقبل البلاد وأمنها . وهكذا أخذ الكاردينال ريشيليو يفكر فى الامر بتوجيه من الملك ، وبعد ان مكث ساعة يفكر وهو فى مكتب الملك خرج يقول : (أمير واحد يمثل الأمن والسلام للدولة ، وأميران اثنان يمثلان الحرب الداخلية والفوضى) . . »

وعندئذ قامت الملكة بغتة من مقعدها وقد شحب وجهها وقبضت يديها وقالت بصوت أجش :

— انك تعرفين أكثر مما ينبغى لك ان تعرفيه من أسرار الدولة . اما الأصدقاء الذين تزعمين انك أتيت من عندهم فهم كاذبون خائنون . وانت



« وخلعت قناعها فجأة ، فصاحت الملكة فى دهشة : مدام دى شيفريز ! »

شريكتهم فى الجريمة التى ترتكب الآن . اخلعى نقابك والا امرت قائد الحرس بالقبض عليك . لا تحسبى أن هذا السر يخيفنى ! انه لن يغادر صدرك ، لأن سرك وحياتك لم يعودا ملكك منذ هذه اللحظة !

ونهضت الملكة آن وتقدمت خطوتين نحو الراهبة . فقالت هذه :

ــ تعلمى ان تقدرى قيمة الأصدقاء الذين نبذتهم ، وأن تقدرى اخلاصهم وكتمانهم للسر !

ثم خلعت قناعها فجأة ، فصاحت الملكة فى دهشة : « مدام دى شيفريز ! »

وقالت هذه فى هدوء : « نعم يا مولاتى ، اننى أنا هى تلك التى لا يعلم بذلك السر سواها ! »

فتمتمت الملكة قائلة : « تعالى عانقينى يا دوقة . وا أسفاه ! انك تقتلين صديقتك اذ تعبثين هكذا بمأساتها ! »

وأسندت الملكة رأسها الى كتف الدوقة العجوز ، وانفجرت باكية . فقالت لها الدوقة : « انك لا تزالين شابة يا مولاتى ، وليس أدل على ذلك من أنك تبكين ! »

□

وجهت الملكة آن نظرة رزينة الى مدام دى شيفريز ثم قالت لها :

ــ أحسبك قد ذكرت اسمى مقرونا بكلمة السعادة منذ قليل ، ولست أكتمك يا دوقة أنى لم آكن أتصور أن أى مخلوق من البشر يمكن أن يكون أقل سعادة من ملكة فرنسا !

ــ ان أحزانك يا مولاتى كانت شديدة حقا . ولكنك فيما يختص بالمآسى التى وقعت لنا نحن الصديقتين القديمتين اللتين فرق بينهما حقد الرجال ، لا تزالين تملكين موارد للسرور قد تكون ضئيلة فى ذاتها ولكنها مما يحسدك عليه كثير من الناس

فقالت الملكة : « موارد للسرور ؟! .. أين هذه الموارد ؟ وماذا يغريك بأن تذكرى كلمة السرور أنت التى اعترفت منذ هنيهة بأن جسمى وذهنى كليهما فى حاجة الى الدواء ؟ »

فجمعت مدام دى شيفريز شتات جرأتها وقالت : « ما أبعد الملوك عن سواد الناس !. انهم لبعدهم عن الناس ينسون أن غيرهم قد يعوزه ضروريات الحياة . مثلهم كمثل ساكن فى جبل بأفريقيا يأكل من الارض الخضراء ويرتوى من جداول الثلج الذائب ، فلا يقدر أن يفهم أن الناس الذين فى السهول الواطئة يموتون جوعا وظمأ وسط أراضيهم التى تحرقها حرارة الشمس ! »

فاحمر وجه الملكة قليلا اذ بدأت تدرك ما ترمى اليه صديقتها القديمة ، وقالت لها :

ــ كان من الخطأ أن أهمل أمرك !

ــ آه يا سيدتى . انى أعرف أن الملك قد ورث عن أبيه كراهيته لى . ولا شك أنه يخرجنى من هنا اذا علم بوجودى فى القصر !

ــ قد لا أستطيع أن أقول انه يميل اليك يا دوقة ، ولكننى قد أستطيع أن أصنع شيئا دون أن يعلم به

فابتسمت الدوقة ولم تجب ، واستطردت الملكة قائلة :

ــ لقد أصبت اذ جئت الى هنا ولو لتكذيب نبأ وفاتك !

ــ هل قيل اذن انى مت ؟

ــ اننا جميعا مصيرنا الى الموت . ولعلك أدركت أن أختك الصغرى كما كنت تسميننى ، تسير مسرعة نحو القبر !

ــ لو أن جلالتك اعتقدت صحة وفاتى ، فلا شك أنك عجبت اذ لم يصل اليك منى نبأ قبل ذلك !

ــ ان الموت كثيرا ما يدهم الناس يا دوقة !

ــ آه يا صاحبة الجلالة . ان أولئك الذين تثقل كواهلهم الأسرار كالسر الذى كنا نتحدث عنه ، يشعرون بحاجة ماسة الى أن يبوحوا بها ، ويرغبون فى تحقيق هذه الرغبة قبل أن يموتوا . ولا يفوتهم أن يرتبوا أوراقهم قبل رحلتهم الأخيرة !

فارتاعت الملكة . بينما استمرت الدوقة فى حديثها قائلة :

ــ ان جلالتك ستعلمين نبأ وفاتى ولا شك ، وسيكون ذلك فى اليوم التالى لهذه الوفاة ، اذ تتسلمين جلالتك رسائل تحوى كل ما دار بيننا من مكاتبات فى الايام الحالية !

فصاحت الملكة منزعجة : « ألم تحرقيها ؟ »

وقالت الدوقة فى هدوء : « ان الخونة ــ وحدهم ــ هم الذين يحرقون ما قد يكون لديهم من المكاتبات الملكية ! »

ــ تقولين : الخونة ؟

ــ أجل يا مولاتى .. وبعبارة أصح قد يدعى أولئك الخونة انهم حرقوا تلك المكاتبات ، على حين أنهم فى الواقع احتفظوا بها لكى يبيعوها . أما الأصدقاء الأمناء فانهم على عكس ذلك تماما ، واذا كان أحد منهم قد احتفظ بتلك الكنوز الملكية ، فلكى يحملها يوما من الايام الى جلالة ملكته المحبوبة قائلا لها : « مولاتى . ان الزمن تقدم بى ، وصحتى فى تدهور مطرد . وحيال خطر الموت أخشى أن يظهر السر ، ولهذا جئتك بهذه الاوراق التى تتضمن سرا خطرا عليك ، لتحرقيها بيدك ! »

فسألتها الملكة : « أية أوراق تشيرين اليها يا دوقة ؟ »

فقالت : « فيما يختص بى لا أمتلك الا ورقة واحدة ولكنها حقا من أخطر الاوراق ! »

ـ خبرينى يا دوقة ما هى !

ـ هى خطاب بتاريخ الثلاثاء الثانى من أغسطس سنة ١٦٤٤ كتبته الى بخطك ، وطلبت فيه الى أن أذهب الى (نوزاى ـ لى ـ سيك) لأرى ذلك الطفل التعس

وهنا ســـاد صمت عميق ، كان ذهن الملكة خلاله يجوس خلال المـاضى وكانت مدام دى شيفريز ترقب نجاح خطتها • ثم تمتمت الملكة قائلة :

ـ أجل • الطفل التعس • انه أشقى طفل فى العالم • لقد عاش الطفل المسكين عيشة حزينة لينهيها بتلك النهاية القاسية !

فصاحت الدوقة : « هل مات ؟ »

ـ لقد مات بالسل • مات منسيا ذابلا كالزهرة التى وهبها عاشق الى حبيبته ، فتركتها فى خزانة مغلقة لتخفيها عن أعين الرقباء !

وعادت الدوقة تكرر قولها : « مات ؟!•• أكان ذلك فى (نوزاى ـ لى ـ سيك) ••؟ •• »

فقالت الملكة : « أجـل !• مات بين ذراعى مربيه ، وكان رجلا مسكينا شريفا لم يعش طويلا بعده ! »

ـ من السهل ادراك ذلك • فقد كان عسيرا عليه أن يحمل تلك الصدمة بعد وقوفه على ذلك السر وكلاهما يرهق الكاهل !

ولم ترد الملكة أن تلحظ ما فى هذا القول من سخرية خفية • ثم قالت مدام دى شيفريز : « مع هذا قد سألت منـذ بضع سنوات عن ذلك الطفل البائس فى (نوزاى ـ لى ـ سيك) • وقد وجدت الناس هناك لا يعتقدون أنه مات حقا ، وهذا هو السبب الذى جعلنى لا أشارك جلالتك فى الحزن ، لأنى لو كنت تصورت صدق ذلك لما أشرت أدنى اشارة الى هذا الحادث ولما رضيت أن أبعث الكمد فى نفس جلالتك ! »

فاعتدلت الملكة فى مقعدها وقالت : « تقولين : ان النـاس لا يعتقدون انه مات ؟!• »

فقالت الدوقة : « لقد قالوا : انه ذات مساء فى سنة ١٦٤٥ جاءت الى هناك سيدة بهية الطلعة ذات كبرياء ، لفتت الانظار اليها برغم قناعها وبرغم المعطف الذى كان يلف جســدها • وكان واضحا أنها ذات رتبة رفيعة بلا ريب ، فوقفت بعربتها عند مفترق الطريق، حيث وافاها بالطفل ذلك الوصى عليه • وفى اليوم التالى غادر الطفل والوصى تلك الجهة »

فقالت الملكة : « ان فيما تحكينه شيئا من الصدق ، والواقع أن الطفل المسكين مات من مرض مفاجىء يجعل حياة جميع الاطفال معلقة بخيط »

ـ لا شك فى أن ما تقولينه جلالتك هو الحق ، لكنه مع هذا يبدو عجيبا،

فان الشخص الذى نبأنى بهذه التفصيلات ، وهو الذى عهدت أنا اليه فى السؤال عن صحة الطفل •••

فقطعت الملكة كلامها وسألتها مرتاعة :

ـ هل عهدت فى هذه المهمة الى أحد آخر ؟ • آه يا دوقة !

فقالت الدوقة : « لا عليك يا سيدتى ، ان هذا الرسول لا يمكن أن ينبس ببنت شفة ، مثله فى ذلك مثل جلالتك ومثلى •ولنفرض أنه أنا يا سيدتى• فالمهم أنه حين مر بمدينة تورين »

فرددت الملكة متعجبة : «تورين ؟!» • ومضت الدوقة فى حديثها قائلة :

ـ نعم ، مر بتورين منذ بضعة أشهر ، وهناك عرف الطفل والوصى • أو بعبارة أصح ظن أنه عرفهما وكلاهما فى عيشة ناعمة ، أحدهما فى ختام حياته ، والآخر فى عنفوان شبابه • فاحكمى بعد ذلك عما فى الشائعات من صدق ! ولكن أحسبنى أتعبت جلالتك ولم يكن غرضى ذلك ، ولهـذا أستأذنك فى الانصراف بعد أن جددت لك التعبير عن اخلاصى واجلالى !

فقالت لها الملكة : « بل امكثى يا دوقة وحدثينى عن نفسك ! »

فقالت بعد زفرة طويلة : « عن نفسى ؟• انى لست أهـلا لأن تلقى على نظرة يا سيدتى ! »

فاقتربت الملكة منها متحببة وقالت : « كلا !• انك أقدم صديقة لى ، أم تراك غاضبة منى يا دوقة ؟ »

فقالت : « أنا غاضبة منك ؟!•• وماذا يحملنى على ذلك ؟!•• لو كان لدى أى شعور من هذا القبيل نحو جلالتك ما أتيت اليك ! »

فسكتت الملكة قليلا ، ثم استأنفت الحديث فقالت :

ـ يا عزيزتى الدوقة •• ان الموت يزحف صوبنا نحن الاثنتين ، ويجب أن نكون يدا واحدة حيال ذلك الموت الذى لن يلبث قليلا حتى يدركنا !

فقالت : «انك تأسريننى يا مولاتى بهذا العطف الذى ليس غريبا عليك»

قالت : « ان أحدا من الناس لم يحبنى ولم يخدمنى مثلك ! »

ـ ان تذكر جلالتك خدمتى انما هو عطف كريم منك ، وهذا ما يجعلنى دائما وكلى ولاء ووفاء لجلالتك

ـ اذن •• ألا تقدمين لى برهانا على صداقتك يا دوقة ؟ يجب أن تطلبى منى شيئا الآن ، انى أعرفك حق المعرفة فليس هناك من هو أصدق منك ولاء أو أكثر نبلا !

ـ لا تمتدحينى كثيرا يا سيدتى

ـ مهما أطنب فى الثناء ، فهذا ولا شك دون ما تستحقين !

فتنهدت الدوقة وقالت : « حقا •• ان السن وســوء الحظ يؤثران فى الناس تأثيرا كبيرا •• ! »

فقالت الملكة : « ان دوقة الايام الخالية ، ذات البهاء والكبرياء كانت تقول دائما : (لا أريد شيئا منك) • أما الآن فما أسعدنى حقا بأن يكون فى استطاعتى اجابة أى طلب لك ! »

— يجب أن أوضح لك الأمر أولا يا مولاتى • ان جلالتك تستطيعين أن تمنحينى أعظم سرور ، ولن يشق عليك ذلك برغم أنك الآن تحت سلطان ابنك كما كنت تحت سلطان زوجك • فهل أنت على استعداد حقا لاجابة ما أطلب يا مولاتى ؟

فقالت الملكة : « نادينى أولا كما كنت تنادينني فى الماضى • وكلمينى بالاسبانية ان كنت لا تزالين تعرفينها ! »

فقالت الدوقة بالاسبانية : « حسنا • يا عزيزتى آن !•• هل تقبلين أن تمنحينى شرف تمضيتك بضعة أيام معى فى قصر دامبيير ؟ »

فنظرت اليها الملكة فى تودد وقالت : « أهذا كل ما تطلبينه ؟ »

فقالت : «انى اذ أطلب اليك هذا ، انما أطلب أعظم شرف لى !•أتقبلين؟»

— أجل بكل سرور • وسأكون سعيدة اذا كان وجودى سيفيدك

وهنا أمسكت الدوقة يد الملكة ، ثم راحت تغمرها بالقبلات ، وقالت لها:

— أتوافقين جلالتك على الانتظار أسبوعين قبل أن تأتى ؟

— أوافق بكل سرور ، ولكن لماذا ؟

— لان الناس وقد عرفوا أنى مغضوب على فى القصر الملكى،لا يرضون أن يقرضونى مائة ألف فرنك لاصلاح قصر دامبيير • ولكنهم حين يعلمون أن ذلك الاصلاح لكى أستطيع أن أستقبل جلالتك فى القصر ، فان كل المال الذى فى باريس يكون تحت تصرفى !

فأومأت الملكة برأسها دلالة على الفهم وقالت :

— سأقرضك هذا المبلغ اذا شئت يا دوقة !

— لا أقدر أن أقبل منك مثل هذا المبلغ

— انك تخطئين اذا رفضت ذلك ، ثم ان مائة ألف فرنك ليست بالمبلغ الفادح • انى أعلم علم اليقين أنك لا تقدرين القيمة الحقيقية لصمتك وكتمانك • ادفعى هذه المنضدة قليلا نحوى وسأكتب لك أمرا الى المسيو كولبير ، بل الى المسيو فوكيه الذى هو أكثر لطفا وأسرع معروفا !

قصة « لافونتين »

كانت ضاحية (سانت مانديه) هى المكان المختار الذى اعتاد المسيو فوكيه وزير المالية أن يستقبل فيه صفوة أصحابه من الادباء الأبيقوريين(١) وكان رب الدار قد مر خلال الفترة الاخيرة بتجارب قاسية يعلمها كل من فى الدار • خاصة بعد أن قلت فيها حفلات البذخ والترف ، وصار معروفا أن صاحبها يعانى أزمة مالية قاسية !

وقد بذل المسيو فانيل جهده حتى يحفظ للدار شهرتها فى الكرم والضيافة ، ولكن أصحاب البساتين الذين يوردون حاجات المطبخ كانوا يشكون من التأخر فى دفع حقوقهم ، وكذلك التجار الذين يوردون النبيذ الاسبانى كانوا يطالبون بما لهم ، والصيادون الذين يعملون فى البحر عند الشاطىء النورماندى • وقد امتنع أكثر هؤلاء عن توريد أى شىء الى الدار ما لم تؤد اليهم حقوقهم المتأخرة !

على أن أصدقاء فوكيه استمروا برغم ذلك فى التوجه الى داره يوم الاستقبال المعتاد ، وكان (جورفيل) والأب فوكيه ـ شقيق الوزير ـ يتحدثان معا فى شأن قرض لم يؤده الثانى للأول • بينما جلس (بليسون) يكتب الخطبة التى يعتزم فوكيه أن يلقيها فى افتتاح البرلمان ، وقد حرص بليسون على أن يجعلها قطعة رائعة من الأدب ، وضمنها كثيرا مما كان المسيو فوكيه خليقا بأن ينساه !

وجاء (لوريه) و (لافونتين) من باب الحديقة وقد استغرقا فى جدل شديد حول سهولة قرض الشعر • فى حين جلس الرسامون والموسيقيون وبقية الضيوف يثرثرون بالقرب من غرفة الطعام،فى انتظار انقضاء نصف الساعة الباقى على موعد اعداد المائدة فى الساعة الثامنة كالمعتاد

ولما اكتمل عقد الضيوف جميعا ، ذهب جورفيل الى بليسون فأيقظه من أحلامه وقاده الى وسط الغرفة ، ثم أغلق الابواب وسأله : «هل من جديد ؟»

فقال له بليسون : « لقد اقترضت خمسة وعشرين ألف فرنك من عمتى وهى معى الآن »

فقال جورفيل : « حسنا !• لا ينقصنا الآن الا مائة وخمسة وتسعون ألف فرنك لسداد أول قسط ! »

---

(١) اتباع أبيقور الفيلسوف اليونانى القديم الذى كان يدعو الى التماس السرور واللذة

فسأله لافونتين : « سداد ماذا ؟ »

فأجاب بقوله : « أهكذا أنت دائما شارد الذهن ؟!.. انك أنت الذى أخبرتنا بأن المزرعة الصغيرة التى للمسيو فوكيه فى (كوربى) سيبيعها أحد دائنيه !. وأنت أيضا الذى اقترحت أن يكتتب جميع أصدقائه لسداد ما عليه من ديون ، بل لقد عرضت أن تبيع جانبا من مزرعتك التى فى (شاتو ــ تييرى) لكى تساهم بنصيبك فى ذلك الاكتتاب . فما بالك الآن قد نسيت كل هذا ، وجئت تسألنا : سداد ماذا ؟! »

فأثارت هذه الملاحظة ضحك الجميع حتى احمر وجه لافونتين خجلا ، ثم قال : « معذرة !. انى لم أنس ولكن ... »

فسارع لوريه الى اتمام عبارته قائلا : « ولكن لم تتذكر شيئا عن الموضوع !. هذه هى الحقيقة،وهناك فرق كبير بين النسيان وعدم التذكر !»

وقال بليسون للافونتين : « حسنا !. هل جئت بنصيبك من ثمن الجانب الذى بعته من المزرعة ؟ »

فقال لافونتين : « انى لم أبع شيئا .. هذه هى الحقيقة »

فسأله جورفيل فى دهشة ظاهرة : « ألم تبع جانبا من مزرعة شاتو تييرى ؟ » . فقال : « كلا !. ان زوجتى لم تدعنى أفعل ذلك ! »

وهنا قهقه الجميع ساخرين وقال أحدهم : «ولكنك سافرت لهذا الغرض؟»

فقال له : « أجل يا سيدى ، وقد سافرت على ظهر جواد ! بل الواقع أنها ثمانية جياد لا جواد واحد تنقلت بين ظهورها خلال الطريق ، وكدت ألقى حتفى غير مرة هاويا من فوقها ! »

فقال له ساخرا : « انك لبارع حقا !.. ولعلك ارتحت بعد أن عدت الى باريس ؟ »

فقال لافونتين : « نعم ، فقد كان أمامى عمل كثير أؤديه ! »

والتف حوله الحاضرون يسألونه عن ذلك العمل الكثير ، فقال لهم :

ــ كانت زوجتى تغازل الرجل الذى كنت سأبيعه الارض ، ولكنه رجع عن عقد الصفقة فدعوته الى المبارزة

وهنا سأله أحدهم : « وهل تبارزتما ؟ »

فأجاب قائلا : « يبدو أننا لم نفعل ذلك ! »

وقال له آخر : « كيف هذا ؟. ألا تدرى أتبارزتما أم لا ؟! »

فقال : « ان زوجتى وأقاربها تدخلوا فى الموضوع ، وقد بقيت أنا ربع ساعة أنتظر وسيفى فى يدى ، ولم أجرح على كل حال ! »

فعاد الرجل يسأله : « وخصمك ؟. أجرح أم لم يجرح ؟ »

فقال : « لم يجرح ، لانه لم يأت الى مكان المبارزة ! »

فصاح آخرون : « هذا بديع !.. لا شك فى أنك غضبت من ذلك ! »

فقال : « أجل !. وقد أصابنى برد . وعدت الى بيتى فشرعت زوجتى تتشاجر معى ! »

وسأله لوريه : « أكان شجاركما جديا ؟ »

فأجاب قائلا : « طبعا !. وقد قذفتنى برغيف كبير أصاب رأسى ! »

ــ وماذا فعلت أنت ؟

ــ قلبت المائدة عليها وعلى ضيوفها ، ثم امتطيت ظهر جوادى قاصدا الى هنا ، وها أنذا قد وصلت !

وكان عسيرا على الحاضرين أن يكتموا الضحك وهم يسمعون تفصيل هذه المهزلة . ولما خف الضحك سأله أحدهم : « أهذا كل ما جئتنا به ؟ »

فقال : « كلا !. بل جئت وفى ذهنى فكرة رائعة !. ألم تلاحظوا أن الشعراء فى فرنسا يكتبون كثيرا من الاشعار الهزلية الاباحية ؟ »

فأجاب الجميع : « أجل !. لاحظنا جميعا ذلك »

فاستطرد لافونتين قائلا : « ان القليل من تلك الاشعار هو الذى يطبع ويذاع ، لان القانون صارم الى حد كبير فى هذا الشأن كما تعلمون ، ولكن هذا لا يمنع من الاعتراف بأن مثل هذه المادة الادبية مادة نفيسة . ولهذا كتبت قصيدة صغيرة من الأدب المكشوف ، وتحوى سخرية لاذعة ! »

وعاد الجميع يضحكون بينما الشاعر مستمر فى وصف بضاعته يقول :

ــ لقد اجتهدت لأجعلها تفوق كل ما كتبه (بوكاشيو) و (لمرتين) وغيرهما من أساتذة هذا الفن !

فقال بليسون : « ان مصير قصيدتك معروف ، فلا شك فى أنها ستصادر ! »

فالتفت اليه وقال : « أتظن ذلك ؟. اننى أؤكد لكم انى لم أكتبها من أجل نفسى ، ولكن من أجل المسيو فوكيه ! »

ولم يتمالك الحاضرون أنفسهم من الضحك مرة أخرى ، بينما استمر لافونتين فى حديثه قائلا :

ــ لقد بعت الطبعة الاولى من الكتيب الصغير الذى تضمن هذه القصيدة بثمانمائة جنيه وانكم لتعلمون أن الكتب الجدية والدينية تباع بنصف هذه القيمة أو أقل !

فقال له جورفيل : « كان خيرا لك أن تؤلف كتابين دينيين بدلا من قصيدتك ! »

فقال جادا : « كلا !. إنهما كانا يجيئان مملين جدا !. وعلى كل حال .. الثمانمائة جنيه معى هنا فى هذا الكيس ، وسأقدمها لتكون نصيبى فى الاكتتاب المقترح ! »

ثم مد لافونتين يده بالكيس الى أمين صندوق الجماعة فتناوله هذا منه ،

وأعقبه الآخرون فأخذ كل منهم يقدم ما اكتتب به ، حتى اذا جاء دور لوريه وأخذ الحاضرون يعدون المائة وخمسين جنيها التى قدمها ، دخل الوزير دون أن يشعر به أحد ، وكان قد سمع كل ما دار من حديث ٠ فوقف ذلك الرجل الذى امتلك ملايين الجنيهات ، ونعم بكل ما فى الحياة من مجد ومتعة ، وأخذ ينظر الى أصحابه والى النقود بعينين اغرورقتا بالدموع ، ثم دنا من كومة النقود الذهبية والفضية الموضوعة على المنضدة ، وراح يعبث بها قائلا :

ـ ان هذه الهبة الضئيلة ستختفى فى أصغر ركن من خزانتى الخاوية ، ولكنها ملأت قلبى حتى فاض بها !٠ شكرا لكم يا أصدقائى ٠ شكرا جزيلا!

ولما لم يستطع أن يعانق جميع الحاضرين ـ وكانوا برغم فلسفتهم لم يتمالكوا أنفسهم من البكاء ـ عانق لافونتين وقال له :

ـ يا صديقى المسكين !٠ اذن لقد ضربتك زوجتك بسببى !

فقال الشاعر : « هذا شىء يسير !٠ لو أن دائنيك يصبرون سنتين اثنتين، لكتبت مائة قصيدة ، ولكان ثمن طبعتين منها يفى بكل الدين ! »

وعلى أثر ذلك مد المسيو فوكيه يده الى المسيو لافونتين وصافحه قائلا :

ـ يا عزيزى الشاعر ٠٠ فلتكتب مائة قصيدة أو أكثر ، لا من أجل المال الذى نفيده منها ، بل لتزيد فى ثروتنا الادبية بروائعك التى لا تقوم بمال!

فقال لافونتين موجها كلامه الى الجميع : « لعلكم تحسبون يا سادة انى لم آت الا بتلك الفكرة البسيطة ذات الثمن الزهيد ؟ »

فتضاحك الحاضرون وصاح بعضهم قائلين :

ـ حقا ! ان المسيو لافونتين لفى أوجه اليوم !

وقال المسيو فوكيه بلهجة ملؤها السرور :

ـ ليبارك الله أفكارك يا عزيزى لافونتين ! لعلها جاءت بمليون فرنك أو مليونين !

فقال لافونتين جادا : « هذا ما أعنيه تماما ! »

وصاح به الجميع قائلين : « قل لنا ، قل لنا ! »

وهمس بليسون فى أذنه قائلا :

ـ انك حتى الآن قد أصبت نجاحا كبيرا ، فلا تغال حتى لا تفشل !

فأجابه بصوت سمعه الجميع : «كلا يا مسيو بليسون !٠٠ ان الأمر ليس فيه أية مغالاة ، وأنا على يقين من أنك ، وأنت المشهود لك بدقة الحس وسلامة الذوق ، ستقر كل ما صنعت ! »

وقال له جورفيل : « لا تنس قبل كل شىء اننا نتكلم عن ملايين من الفرنكات ! »

فأشار لافونتين الى صدره قائلا : « معى هنا يا مسيو جورفيل مليون ونصف مليون فرنك ! »

وهنا صاح لوريه قائلا : « أى هراء هذا !٠٠ بل أى جنون !٠٠ فليذهب الشيطان بهذا الجاسكونى الذى جاءنا من شاتو ـ تييرى ! »

وضحك الحاضرون بينما قال فوكيه للافونتين : «كان ينبغى لك يا عزيزى أن تشير الى العقل الكبير الذى فى رأسك بدلا من الاشارة الى جيبك ! »

فقال له لافونتين : « انتظر هنيهة يا جناب الوزير ٠ لا تنس أنك شاعر أكثر منك نائبا عاما ! »

فانطلقت صيحات الموافقة من كوزيه وكونراد وكل الأدباء من الحاضرين ٠ وواصل لافونتين كلامه فقال :

ـ أجل يا جناب الوزير ٠٠ انك شاعر ورسام ومثال وصديق للأدب والفنون ٠ ولم تخلق لتكون محاميا !

فقال المسيو فوكيه وهو يبتسم : « اننى أعترف بذلك »

واستطرد لافونتين قائلا : « واذا عينت عضوا بالاكاديمية فأحسبك ترفض ! »

فقال الوزير : «نعم أحسبنى أرفض ذلك مع احترامى لرجال الاكاديمية!»

ومضى لافونتين فقال : « حسنا ٠٠ اذا كنت لا تحب أن تكون عضوا فى الاكاديمية فكيف تسمح لنفسك بأن تكون عضوا فى البرلمان ؟ »

وهنا قال بليسون : « أوه !٠ انه يتكلم فى السياسة ! »

ولكن لافونتين استمر فى حديثه قائلا : « أريد أن أعرف : هل رداء المحامى يوائم المسيو فوكيه أم لا ؟ »

فقال المسيو بليسون وقد ضايقه ضحك الحاضرين : « المسألة ليست مسألة رداء »

وقال المسيو لوريه : « ولم لا ؟٠٠ بل الحق أنها ليست الا مسألة رداء !»

وقال كونراد : « فلندع الرداء جانبا ، وبذلك لا يبقى الا المسيو فوكيه الذى لا نجد سببا للشكوى منه٠٠ ولكنكم توافقوننى طبعا على أنه لا يوجد نائب عام بغير ردائه ٠ ولهذا أرى مع المسيو لافونتين أن ذلك الرداء ليس الا شيئا وهميا مخيفا ! »

فقال بليسون : « على أى حال ، نحن جميعا نعلم أن الارانب لا يسعها الا الفرار حين ترى المسيو فوكيه ! »

فضحك الجميع وقال له كونراد : « ولماذا خصصت الارانب بالذكر ؟ »

فقال بليسون : « لأن الارانب هى التى لا يسرها أن ترى المسيو فوكيه تحيط به كل المزايا المستمدة من مركزه فى البرلمان ! »

ثم قال جورفيل : «أحسب أن الرداء الذى تتحدثون عنه ليس سوى شىء حسن ، ولكنى أحسب أيضا أن مليونا ونصف مليون من الفرنكات هى شىء أحسن !

فقال المسيو فوكيه : « أنا أوافق المسيو جورفيل على ذلك ! »

فتمتم بليسون قائلا : « مليون ونصف !٠ ان هناك قصة هندية قديمة أحسبكم تعرفونها ٠ كانت هنـاك سلحفاة لها غطاء تحتمى به كلما هددها عدو ٠ وفى ذات صيف قال لها صديق : (ان هـذا الغشاء يزيدك شعورا بشدة الحر ، ويحول دون ابداء محاسنك ٠ وهنا ثعبان على استعداد لان يشترى غطاءك بمليون ونصف مليون) ٠ وهكذا باعت السلحفاة غطاءها وبقيت متجردة بلا شيء يقيها ، ثم اتفق أن رآها نسر جارح جائع فالتهمها لقمة سائغة٠٠ومن هنا ترون أن المسيو فوكيه لا ينبغى له أن يبيع رداءه !»

فقال المسيو فوكيه : « لو أن السلحفاة لم تبع غطاءها ، لاستطاع النسر الجارح أن يلتهمها أيضا !٠٠ وعلى هذا أحسبها كانت موفقة اذ حصلت على مليون ونصف مليون فرنك ثمنا لذلك الغطاء ، فمن لى بمن يشترى غطائى بمثل ذلك الثمن ؟! »

فقال لافونتين : « لقد وجدت الثعبان الذى يشتريه ! »

فسأله المسيو فوكيه باهتمام : « أتعنى أنك وجــدت مشتريا لمنصب النائب العام الذى أشغله ؟ »

فأومأ برأسه موافقا وقال : « أجل يا سيدى ! »

فقال بليشون : « ولكن الوزير لم يقل قط أنه يريد البيع »

فقال كونراد : « عفوا يا عزيزى !٠ انك أنت الذى تحدثت بذلك ! »

وقال جورفيل : « وأنا شاهد عليه ! »

فقال فوكيه ضـــاحكا : « يلوح لى انه مصر على فكرته الرائعة ، حسنا يا لافونتين ٠ من ذلك المشترى الذى وجدته ؟ »

فقال لافونتين : « انه ثعبان أسود كبير ، يعمــل مستشارا بالبرلمان ، واسمه ٠٠ فانيل ! »

فقال فوكيه . « فانيل ، زوج ٠٠٠٠ »

فقطع كلامه قائلا : « أجل يا سيدى ! زوجها ! »

وقال جورفيل : « ان فانيل يريد أن يقتفى كل خطواتك يا مسيو فوكيه، وأن يفعل كل ما فعلته ! »

فقال الوزير : « هذا مما يسـاعد فى اتمام الصفقة ٠٠ لكن كيف عرفت ذلك يا عزيزى لافونتين ؟ »

قال : « الأمر بسيط ، منذ وقت وجيز لقيته عرضا وأنا أسير فى ميدان الباستيل اذكنت أهم بركوب العربة الصغيرة الموصلة الى سانت ــ مانديه»

فقطع لوريه كلامه قائلا : « لابد أنه كان يراقب زوجته ! »

فقال فوكيه : « كلا ٠٠ كلا !٠ انه أبعد الناس عن الغيرة »

واستطرد لافونتين فقال : « وجاء الى وصافحنى ، ثم أخــذنى الى حانة

تسمى (ليماج سان ــ فياكر) وأخـــذ يبثنى همومه ٠ وهكذا ترون أن الرجل له هموم !٠٠ثم علمت منه أن زوجته تريد منه أن يكون طموحا !٠٠ وأن حديثا نمى اليه عن منصب فى البرلمان يمكنه أن يشتريه ، وذكر له اسم المسيو فوكيه لهذه المناسبة ، ومنـذ ذلك الحين لا تحلم زوجته بشىء سوى أن تسمى (قرينة النائب العام) ٠ بل ان التفكير فى ذلك يؤرقها !»

فصاح لوريه : « يا للشيطان ! »

وقال المسيو فوكيه : « يا للمرأة المسكينة ! »

ثم واصل لافونتين حديثه فقال : « ان كونراد لا يفتأ يتهمنى بأنى لا أدرى شيئا فى عالم الاعمال ٠ وسترون كيف عالجت هذه المسألة !٠٠ لقد قلت لفانيل : (أنت تعلم ولا شك أن المنصب الذى يشغله المسيـو فوكيه فى البرلمان ذو قيمة طائلة ، وقد علمت أنا أنه رفض مليونا وســبعمائة ألف فرنك ثمنا له) ٠ فقال : (لقد قدرته زوجتى بمليون واربعمائة ألف فرنك)٠ فسألته : (وهل يكون الدفع فورا ؟) ٠ فأجاب : (نعم ان زوجتى باعت بعض أملاك لها فى جيين وتسلمت ثمنها) ٠٠»

وهنا تكلم الأب فوكيه فقال : « هذا ثمن لا بأس به اذا دفع فورا ٠! »

وتمتم المسيو فوكيه قائلا : « مسكينة مدام فانيل ! »

وهز بليسون كتفيه وهمس فى أذن المسيو فوكيه قائلا : «انها شيطانة!»

فرد المسيو فوكيه قائلا : « فليكن !٠ ومما يدعو الى الغبطة أن أنفق مال هذه الشيطانة فى اصلاح ما أفسده ملك من الملائكة ! »

فنظر بليســـون بدهشة الى فوكيه وقد بدا عليه أنه اتجــه بفكره الى موضوع جديد ، ثم قال جورفيل : « ان بعض الناس يطمعون فى الجواد على حين أنهم لا يملكون حتى ثمن البرذعة ! »

فقال الأب فوكيه : « نعم !٠ وأحسب أن فانيل سينسحب من الصفقة اذا وجدها جدية ! »

فقال لافونتين : « كلا !٠ لست أعتقد ذلك ٠٠ أنكم لم تسمعوا ختـــام الحكاية : لقد طلب الى فانيل حين علم أنى قادم الى سنان ــ مانديه ، أن آخذه معى ، لأقدمه الى المسيو فوكيه ٠ وعـلى ذلك تركته فى (بل ــ اير) على مقربة من هنا ٠ فما رأيك يا مسيو فوكيه ؟ »

فأجاب المسيو فوكيه قائلا : « ليس من الاحـــترام الواجب نحو مدام فانيل أن نعرض زوجها للاصـــابة بالبرد فى خارج بيتى ٠ ابعث اليـــه يا لافونتين ما دمت تعرف أين هو ! »

فقال : « سأذهب بنفسى لآتى به »

وقال له الأب فوكيه : « سأصحبك فانى أقدر أن أحمل أكياس المال !»

فقال المسيو فوكيه بلهجة جادة : « لا تمزحوا !٠٠ ما دام الأمر جــدا فدعوه هكذا حتى يتم ٠ ولكن أولا كرماء نحو ضيفنا القادم ٠ اعتذر عنى

يا لافونتين اليه وعبر له عن أسفى اذ تركته ينتظر دون أن أعلم ! »

وبعد ربع ساعة قدم المسيو فانيل الى غرفة مكتب المسيو فوكيه ٠ فما كاد هذا يراه حتى نادى بليسون ، وهمس فى أذنه قائلا : « أصغ جيدا لما أقوله٠٠دع كل الآنية الذهبية والفضية والجواهر من كل نوع تعبأ وتحمل الى العربة ، وخذ الجياد السوداء ، وسيصحبك تاجر الجواهر ، وأرجىء العشاء حتى تأتى مدام بلبير ! »

فسأله بليسون : « أأخبر مدام بلبير بذلك ؟ »

فقال له : « كلا !٠ هيا اذهب يا صديقى العزيز »

وخرج بليسون دون أن يتبين غرض صديقه وان كان واثقا من سلامة تصرفه ٠ بينما انحنى فانيل للوزير وهم بأن يلقى خطابا ولكن المسيو فوكيه قال له بلطف :

ـ لا تتعب نفسك يا سيدى ٠ لقد قيل لى انك تريد شراء المنصب الذى أشغله ، كم من المال تدفع فى مقابله ؟

ـ انك أنت يا صاحب الفخامة الذى تحدد المبلغ الذى تريده ٠ انى أعلم أنه عرض عليك شراؤه

ـ علمت أن مدام فانيل تقدره بمليون وأربعمائة ألف ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، وهذا كل ما نملك !

ـ أيمكنك أن تدفع لى المبلغ فورا ؟

فعجب فانيل من بساطة هذا الرجل التى بلغت حد العظمة ، وقد كان يتوقع خلافا وعقبات واعتراضا من كل نوع٠وقال : « لم أحضر المبلغ معى !»

فقال له فوكيه : « متى تستطيع احضاره ؟ »

قال : « فى أى وقت تشاء يا صاحب الفخامة ! »

ـ لولا أن يشق عليك الرجوع الى باريس لقلت لك أنى أريد المبلغ فورا٠ ولكن لا بأس ٠٠ فليكن الدفع والتوقيع على العقد صباح غد !

وشعر فانيل بالدم يصعد الى رأسه اذ أربكه نجاحه السهل فى هذه المهمة وأحس رعدة تسرى فى أوصاله ، ثم مد يده اليه فصافحه فوكيه قائلا : « الى اللقاء ! »

واندفع فانيل بعدئذ مسرعا الى الباب ، وانصرف لا يلوى على شىء !

جواهر مدام دى بيلير

لم يكد فوكيه يصرف فانيل حتى أخذ يفكر فى الأمر ، ويحدث نفسه قائلا : « انه لقليل حقا كل ما يفعله الانسان فى سبيل امرأة نعم زمانا بحبها !٠ وما دامت مرجريت يسرها أن تكون زوجة نائب عام ، فلماذا لا أمنحها هذه المسرة ؟٠٠ ولكن أين هى الآن تلك المرأة الاخرى التى أبدت لى غاية الاخلاص والوفاء ؟٠ لقد كان يجب أن تكون مدام دى بلبير هنا فى هذه الساعة ! »

ثم التفت الى الباب السرى فى الغرفة الخاصة التى خلا فيها الى نفسه ، فى بيته ، وفتح ذلك الباب فبدا خلفه ممر تحت الارض يؤدى الى الدار التى تسكنها مدام دى بلبير فى شارع فنسين ٠ وكانت فى يده رسالة مطوية فوضعها تحت الباب الآخر فى أقصى الممر ، ثم عاد الى غرفة مكتبه ينتظر ما يكون

ولم تمض الا دقائق معدودات حتى تسلمت مدام دى بلبير تلك الرسالة فاذا هو يقول لها فيها : « تعالى يا مركيزة ، اننا أرجأنا العشاء حتى تحضرى ! » ٠ وما هى الا دقائق أخر حتى وقفت بها عربتها عند مدخل داره حيث كان جورفيل هناك فى انتظار وصولها واستقبالها ٠ ولم تلحظ أن عربة فوكيه بجيادها السوداء وصلت فى الوقت نفسه عائدة الى هناك وبها بليسون وتاجر الجواهر نفسه الذى باعته جواهرها وتحفها من قبل

وأدخل بليسون تاجر الجواهر غرفة مكتب فوكيه،فاستقبله هذا مرحبا، شاكرا له أنه أبقى تلك الجواهر والتحف وديعة عنده ، على حين كان له كل الحق فى بيعها لو شاء٠ثم ألقى نظرة على الحساب الذى قدمه له التاجر فاذا به مليون وثلاثمائة ألف فرنك ، وسرعان ما جلس الى مكتبه وكتب أمرا بصرف مليون وأربعمائة ألف فرنك للتاجر ، على أن تدفع له فى خزانته قبل الساعة الثانية عشرة ظهر غد ، وما كاد يتسلم الأمر من الوزير ويطلع على ما تضمنه حتى صاح متعجبا !

ـ معنى هذا أنى أربح مائة ألف فرنك ، حقا يا سيدى ما أكرمك !

فربت فوكيه كتف التاجر متلطفا وقال :

ـ ان من المروءة أيها السيد ما لا يمكن أن يجزى حق الجزاء ٠ ولا شك فى أن هذا الربح الذى تنوه به ، كان فى استطاعتك أن تحصل عليه لو

انك بعت تلك الجواهر والتحف · وعلى هذا يجب أن تحصـــل على مكافأة خاصة

ثم فك من كمه زرا من الماس وقدمه للتاجر قائلا :

ـ هذا تذكار مني !

وغلب التأثر على التاجر اذ قدر قيمة هذا الزر بما لا يقل عن ألفي فرنك، ثم قال لفوكيه وهو يصافحه مودعا :

ـ أنت يا سيدى أنبل رجل عاش على ظهر الارض !

وما كاد تاجر الجواهر ينصرف ، حتى سارع فوكيه الى اسـتقبال مدام دى بليير ، وكانت قد أحاط بها المدعـوون ، ووقفت بينهم باهرة الجمال والفتنة كعادتها ، بل كانت فى تلك الساعة أجمل وأروع فى عينى فوكيه منها فى أى يوم مضى ، ولهذا لم يسعه الا أن يهتف بجماعة الضيوف وهو يشير اليها قائلا :

ـ ألا ترون يا سادة ان المركيزة تبدو فى هذه الليلة وقد ازدادت جمالا على جمال ؟

فقال أحد الحاضرين : « ان المركيزة ولا شك أجمل النساء قاطبة ! »

فقال فوكيه : « وهى كذلك خيرهن بلا استثناء !·· ومع هذا ···· »

فقطعت المركيزة كلامه وقالت له وهى تبتسم : « أهناك استثناء تذكره الآن ؟! »

فقال : « كلا !· بل أردت أن أقول ·· ان جميـــع الحلى والجواهر التى تحملها المركيزة الجميلة الرائعة الليلة ليست الا من النوع الزائف ! »

فاحمر وجهها خجلا ، وصاح بعض الضيوف قائلين :

ـ أوه·أوه !· لا يمكن أن يقال هذا عن السيدة التى تملك أنفس الجواهر والحلى فى باريس !

وهنا قال فوكيه لبليسون بصوت منخفض : « أرأيت ؟ »

فقال له بليسون : « لقد فهمت قصدك أخيرا ، وقد أحسنت التصرف! »

ثم جاء رئيس الخدم وقال لفوكيه : « لقد تم اعداد المائدة يا صـــاحب الفخامة »

وســـارع الضيوف الى قاعة الطعـام حيث واجههم منظر باهر ، ففوق البوفيهات ، وفوق المناضـــد الجانبية ، بل فوق مائدة الطعام نفسها بين آنية الازهار ،كانت تسطع مجموعة من التحف الذهبية والفضية النفيسة، كلها من صنع فنانى فلورنسا المشاهير لأسرة دى مديتشى العريقة·وكانت هذه التحف الغالية قد أخفيت خلال الحرب الداخلية ثم أظهرت بعـدها ، وقد حفر على كل قطعة منها الحرفان الأولان من اسم المركيزة !

على أنه كان هناك على المائدة أيضا ما هو أروع وأبدع من هذه التحف

التاريخية الثمينة ، فقد أمر فوكيه بأن توضـع أمام المركيزة مبـاشرة ، مجموعة أخرى من الجواهر النادرة كلها من الماس والزمرد والعقيق ، وقد أبدعت تنسيقها أيدى الفنانين فى آسيا الصغرى ، كماكانت هناك حلى من الذهب بين أساور وخواتم وغيرها

وشحب وجه المركيزة حين فوجئت بهذا المنظر ، فقـد عرفت جواهرها وحليها وتحفها من أول نظرة ، وأدهشها أن تجدها أمامهــا بعد أن باعتها منذ حين !

وساد الصمت فترة بدا الجميع خلالها وقد تملكهم التأثر ثم قال فوكيه :

ـ أيها السادة : ان كل هذه الجواهر والحلى والتحف كانت ملكا لمدام دى بليير ، ولكنها لما وجدت صديقا لها فى ضائقة باعتهاكلها الى تاجر الجواهر، ان هذا العمل النبيل من صديقة وفية مخلصة لجدير بأنيقدره رجال أوفياء مثلكم · وما أسعد الرجل الذى تحبه هذه السيدة مثل هذا الحب ، هيا بنا نشرب نخب مدام دى بليير !

فهتف الجميع تحية لها ، على حين قبعت هى فى كرســـيها وقد ألجمها التأثر · ثم قال المسيو بليسون :

ـ لنشرب أيضا نخب الرجل الذى ألهم مدام دى بليير هذا المسلك النبيل، لأن هذا الرجل يستحق أن يحب مثل هذا الحب !

وجاء دور المركيزة فوقفت شـــاحبة الوجه وقد ارتسمت عـلى ثغرها ابتسامة باهتة ، ثم أمسكت كأسها ورفعتها ، فلمست أصابعها أصـــابع فوكيه وتلاقت نظرتها المفعمة حبا بنظرة عاشقها الولهان !

واستمر العشاء الذى بدأ هكذا وكأنه وليمة عرس أو عيد ، وكان الجميع فى أوج سرورهم ، يقولون النكات عفوا ودون اجهاد فكر · ونسى لافونتين نبيذ جوزى الذى يؤثره ، وترك فانيل يسقيه من نبيذ الرون · وبلغ من رقة الأب فوكيه ووداعته أن قال له جورفيل : « حذار أيها الأب لا تكن كثير الرقة هكذا حتى لا تؤكل ! »

ومضت الساعات فى حبور حتى ان الوزير ، على غير عادته ، لم يغـادر المائدة قبل تناول الحلوى · وكان يبتسم لأصدقائه وقد انتشى قلبه بفرط سروره قبل أن ينتشى رأسه بما شرب من خمر !· وفجأة سـمع الحاضرون صوت عربة فى فناء الدار ، ومن عجب أن صوتها كان واضحا برغم الضجة السائدة · فأصغى فوكيه بانتباه ، ثم أخذ ينظر الى الردهة · وخيل اليه أنه يسمع وقع خطى ، وأن هذه الخطى كأنما تقع على قلبه · وسرعان ما جاء الحاجب يقول : « الســـيد دربلاى أسقف فان » · ثم بدا أراميس بالباب بوجهه الجاد ونظرته الصارمة ، فكاد فوكيه يهتف مهللا برؤية هذا الصديق الآخر الذى وصل الى بيته ، ولكن أراميس لم يتح له فرصة لذلك ، اذ بقى واقفا بالباب ، وفى نظراته اليه ما يوحى بأن لديه ما يحب أن يتحدث فيه معه على حدة !

وقال له فوكيه : « ماذا وقوفك يا اراميس ؟٠ ألا تتناول معنا الحلوى ؟٠ أم أنت لا يروقك مثل هذا الصخب الذى نحن فيه ؟ »

فقال له اراميس باحترام : « يا صاحب الفخامة ٠ انى أعتذر اذ كدرت صفو اجتماعكم السار ، وأرجو أن تمنحنى دقائق نتحدث خلالها على حدة فى شأن بعض الاعمال ! »

استرعت كلمة (الاعمال) انتباه (الأبيقوريين) الحاضرين ، ثم نهض فوكيه وهو يقول للأسقف :

– الاعمال قبل كل شىء يا مسيو دربلاى ٠ ان مما يسعدنا ألا تأتى الاعمال فى ختام الوليمة !

ثم أمسك يد مدام بلبير وقادها الى غرفة مجاورة لغرفة المائدة وهى تنظر اليه بقلق ، وتركها هناك مع أعقل أصحابه ٠٠ ثم تأبط ذراع أراميس وقاده الى غرفة المكتب ٠ وما كاد اراميس يدخل هذه الغرفة حتى ترك سمت الاحترام وجلس على كرسى وقال له :

– أتدرى من الذى قابلته هذا المساء ؟

فقال : « يا فارسى العزيز : انك كلما بدأت الحديث على هذا النحو أيقنت أنا بأنى سأسمع أنباء لا تسر ! »

فقال اراميس : « لكنك على خطأ فى هذه المرة يا صديقى العزيز ! »

فقال فوكيه : « هذا ما أرجوه ، والآن دع عنك التشويق والمقدمات ولندخل فى الموضوع ! »

فقال اراميس : « حسنا !٠ لقد قابلت مدام دى شيفريز ! »

– أتعنى الدوقة العجوز ؟٠ ربما تكون قد قابلت شبحها ؟!

– كلا !٠ بل التى قابلتها هى تلك الذئبة بعينها وأنيابها ومخالبها !

– حسنا !٠ أى أذى لى وجدتها تفكر فيه ؟

– انها تريد أن تحصل منك على بعض المال !

– وبأية حجة يا ترى ؟

– انها لا تعوزها الحجج قط !٠ ويبدو أن لديها خطابات من المسيو دى مازارين !

– لا يدهشنى ذلك فان ذلك القس كان ذا مغامرات !

– أجل ولكن هذه الخطابات لا علاقة لها مطلقا بغرامياته ٠ بل هى خاصة بمسائل مالية !

فقال فوكيه : « هذا يجعلها أقل تسلية ! »

وهنا سأله اراميس : « ألم تدرك بعد ما أرمى اليه ؟ » ٠ فلما أجاب بالنفى ، عاد صديقه الأسقف فسأله :

– ألم تسمع قط برفع دعوى لاختلاس أموال من خزانة الدولة ؟

فأجاب فوكيه : « أجل !٠ سمعت بمثل ذلك مئات المرات بل آلافها ٠ بل أنا منذ شغلت بالامور العامة لا أكاد أسمع غير ذلك ٠ ان المسألة غاية فى البساطة ، فكما يتهمك الناس بالفجور وأنت أسقف ، أو كما يتهمونك بالجبن وأنت فارس ، كذلك هم يتهمون بالاختلاس كل وزراء المالية »

فقال اراميس : « انك لم تعلم بعد أن الدوقة تؤكد أن المسيو مازارين أشار فى خطاباته الى مسائل معينة،فهو مثلا قد ذكر مبلغ ثلاثة عشر مليون فرنك ربما يصعب تحديد الوجه الذى أنفقت فيه ! »

فردد فوكيه : « ثلاثة عشر مليونا ؟! » ، ثم استلقى فى كرسيه وأخذ يفكر لعله يتذكر قصة هذا المبلغ ، ثم عاد يقول :

– ثلاثة عشر مليونا ؟!٠ انى أحاول أن أتذكر هذا المبلغ ضمن المبالغ التى اتهمت باختلاسها !

فقال اراميس : « لا تسخر يا سيدى العزيز ، فان الأمر جد ٠٠ ان الدوقة تمتلك بضعة خطابات لها خطرها ولا شك ٠ فقد أرادت أن تبيعنى اياها لقاء خمسمائة ألف فرنك ! »

وهنا أخذ فوكيه يضحك من كل قلبه ، ثم قال : « انها تغالى كثيرا فى تقدير قيمة فريتها !٠ والآن فقط أدركت ماذا تعنيه تلك الذئبة ٠ فهذه الثلاثة عشر مليون فرنك كان المرحوم الكاردينال مازارين قد ربحها من بيع أراض فى (الفالتلين) لكنه حذفها من سجل الايرادات وأرسلها الى لأودعها باسمى ، ثم جعلنى أقدمها له لنفقات الحرب ، وأعطانى ايصالا بذلك ! »

فاطمأن اراميس وقال : « حسنا !٠ اذن لم يبق شك فى وجه انفاقها ، وحبذا لو كان لديك ذلك الايصال »

ونهض فوكيه فى هدوء ، ثم مشى خطوات حتى بلغ مكتبا من الآبنوس مرصعا باللؤلؤ والذهب ٠ ثم قال لأراميس :

– اننى أحب النظام فى كل شىء ، ولهذا لا أتعب فى البحث عن شىء ٠ وفى استطاعتى مثلا أن أؤكد لك أن ايصال مازارين محفوظ بالدرج الثالث من هذا المكتب تحت حرف (م) ٠ وما على الا أن أفتح الدرج فأضع يدى على الورقة التى أريدها !

ومد يده مطمئنا وتحسس رزمة من الورق مكدسة فى الدرج الذى فتحه ثم استطرد يقول : «أكثر من ذلك انى أتذكر تلك الورقة كما لوكنت أراها الآن ٠ انها سميكة ذات أطراف ذهبية وقد سقطت من قلم مازارين بقعة حبر على رقم التاريخ ! »

ومضى الوزير يبحث فى الدرج ، ثم قال فجأة : « هذا أمر عجيب !٠ يخيل لى أن تلك الورقة تعرف أننا نتحدث عنها ونريدها ، ولهذا تتدلل علينا ! »

فقال ارامیس : « ربما تكون ذاكرتك قد خانتك هـذه المرة ، انظر فى درج آخر ! »

وتناول فوكيه رزمة من الورق وأخـذ يقلبها ثم شحب وجهه ، فقال له اراميس : « لا تقصر بحثك على هذا الدرج بل انظر فى الادراج الاخرى »
فقال : « لا فائدة من ذلك !٠ انني على يقين من أنها كانت هنا ٠ ولا أحد سواى يرتب المستندات التي من هذا القبيل ٠ ولا أحد غيرى يفتح هـذا الدرج وأنا وحدى الذى أعرف هذا السر »

فقال أراميس وهو بادى القلق : « ماذا تستنتج اذن ؟ »

قال : «ان ايصال مازارين قد سرق منى٠وهكذا تبدو مدام دى شيفريز على حق يا عزيزى !٠ فما دام ذلك الايصـال غير موجود ، فكيف أدفع عن نفسى تهمة اختلاس الثلاثة عشر مليون فرنك من خزانة الدولة ؟٠٠ اننى الآن لص محتال يا عزيزى ! »

فقال له اراميس : « كلا ٠٠ كلا !٠ لا تثر أعصابك هكذا ، فليس ثمة ما يبرر ذلك »

قال : « بل هناك كل مبرر !٠ ومن السهل أن تتخذ الاجراءات القانونية معى ، ثم يصدر الحكم بادانتى ، وهكذا يزج بصديقك الوزير فى السجن كما حدث لسمبلانساى وماريني ! »

فابتسم اراميس وقال : « ليس بهذه السرعة ! »

فسأله فوكيه : « ولم لا ؟٠ لم لا يجرى الأمر أسرع من ذلك ؟٠٠ وماذا تحسب مدام شيفريز قد فعلت بتلك الخطابات بعد أن رفضت أنت شراءها؟! »

فقال : « أحسبها ذهبت الى المسيو كولبير ، بل أنا متأكد من ذلك ، لانى تبعتها فرأيتها بعد أن دخلت بيتها سرعان ما غادرته من باب خلفى وذهبت مباشرة الى منزل وكيل المالية ! »

فتمتم الوزير قائلا : «اذن ستتخذ الاجراءات القانونية ضدى ، وستتبعها الفضيحة والعار ٠٠ وستنزل بى الصاعقة دون رحمة ! »

وكان يقول ذلك وهو قابع فى مقعده يرتعد ، على مقـربة من الادراج المفتوحة ٠ فدنا منه اراميس ووضع يده على كتفه وقال له بلهجة عطف :
ـ لا تنس أن مركز المسيو فوكيه لا يمكن أن يقارن بمركز سمبلانساى أو مارينى ٠ أعنى أن جميع الاجراءات القانونية فى مثل هذه الحالة لابد أن تبدأ فى البرلمان ، من جانب النائب العام ، وأنت النائب العام !

فصاح فوكيه صيحة ألم وضرب المنضدة بقبضة يده ثم قال : « انى لم أعد النائب العام ! »

ثم قص على اراميس موجزا لما حـدث من مدام بلبير آذ باعت جواهرها وتحفها وكيف رأى أن يرجع اليها هـذه الجواهر والتحف ٠ فكاد اراميس يصعق لهذه المفاجأة لكنه تمالك نفسه وقال له :



« وضرب الوزير المنضدة بقبضة يده ، ثم قال : إنى لم أعد النائب العام ! »

— حقا • هذا مسلك نبيل • ولكن كم كلفك ذلك ؟

— كلفنى المليون والاربعمائة الف فرنك ، ثمن المنصب !

فقال اراميس : « لاتزال أمامنا وسيلة واحدة آمل ألا ترفض استخدامها»

— لن أرفضها اذا كانت وسيلة شريفة !

— انى أعنى رجوع المشترى فى صفقته • من هو ذلك الرجل ؟

— انه مستشار فى البرلمان ، اسمه فانيل !

فتغير لون وجهه اذ سمع ذلك الاسم وقال : « فانيل زوج مرجريت •• خليلتك السابقة ؟ »

فقال فوكيه : « أجل يا عزيزى !• انها تتوق لان تصبح زوجة النائب العام ، وهكذا ترى أنى مدين لفانيل المسكين بهذه الفرصة التى أتاحها لى كى أحقق هذا الأمل لزوجته ! »

فدنا اراميس من فوكيه وقال له : « أتعرف من هو عشيق مدام فانيـل الجديد ؟ »

فقال متعجبا : « ألها عشيق جديد ؟• لم أكن أعلم ذلك ! »

قال : « ان اسمه (جان بابست كولبير) •• وهو وكيل المالية • وقد زارته اليـوم مدام دى شيفريز فى منزله بشـارع كرواديه بتى شان ، لتساومه على شراء خطابات مازارين منها ! »

ومر فوكيه بيده على جبينه وقال : « رباه ! »

فساله أراميس : « ها أنت ذا بدأت تدرك الأمر •• فهل لا تزال مصرا على التوقيع على العقد ؟! »

فأجابه فوكيه قائلا : « نعم ، بدأت أدرك أننى ضائع لا محالة !• ولكنى مع هذا لا أجد بدا من المحافظة على كلمتى ! »

فتمتم أراميس قائلا : « ان الناس الذين جبلوا على العناد يعالجون الأمور بشكل لا يسعنا معه الا أن نعجب بهم ! »

وفى هذه اللحظة دقت ساعة الحائط الموشـاة بالصدف والمحمولة على عمد من الذهب ، ست دقات ، وسمع فى اللحظة نفسها صوت باب يفتح فى الردهة ، وجاء جورفيل يستأذن للمسيو فانيل فى الدخـول ، فأدار فوكيه وجهه كيلا يلتقى نظره مع نظر أراميس ، ثم أذن فى دخول فانيل

صفقة لحساب الشيطان !

عجب فانيل لوجود أسقف فان فى غرفة مكتب فوكيه ، لكنه لم يزد على نظرة الدهشة والتساؤل التى وجهها اليه حين دخوله الغرفة • أما فوكيه السياسى الكامل المسيطر على أعصابه فلم يبد على ملامح وجهه شىء من أثر البشر الذى كشفه له أراميس منذ لحظة ، وهكذا لم يعد الرجل البادى الشقاء كما كان قبـل فترة وجيزة ، بل بدا كعادته مرفوع الرأس بادى الشمم والكبرياء

وكان أراميس يعرف فوكيه حق المعرفة فلم يدهشه ذلك منه ، وقصر مهمته على السماع والاصـغاء ، على أن يشترك فى الحديث فيما بعد حين يصل الى طور يتطلب تدخله

وبدا على فانيل أنه غلب على أمره ، ودخل الى وسط الغرفة وانحنى لكل من فيها ثم قال : « ها أنذا قد جئت يا سيدى »

فقال له فوكيه : « إنك محافظ على مواعيدك يا مسيو فانيل ! »

فقال فانيل : « اننى يا صاحب الفخامة أعد المواظبة فى شئون الاعمال أهم أسس النجاح ! »

وأومأ فوكيه برأسه موافقا ، وتمتم قائلا : « نعم ، بلا شك ! » • بينما أشار أراميس بسبابته الى فانيل ، ثم قال موجها الكلام الى فوكيه :

— معذرة !• هذا السيد كما أظن قد جاء فى شأن منصبك ؟

فدهش فانيل من لهجة التعالى التى اتخـذها أراميس نحوه وقال له : « أجل اننى هو ! »

وقال لهما فوكيه : « هيا أيها السيدان ، ليس لدينـا متسع من الوقت لغير بحث الأمر الذى نعنيه ! »

فقال له فانيل : « اننى يا صاحب الفخامة فى انتظار ما تراه »

فقال فوكيه : « بل أنا الذى أنتظر ما تقوله »

فقال فانيل يحدث نفسه : «لقد فكر فى الموضوع ولا أخالنى الا ضائعا!»• ثم استرد شجاعته وقال لفوكيه : « ليس لدى ما أقوله يا صاحب الفخامة بعد الذى قلته أمس ، وأنا مستعد لتكراره الآن ! »

فقال له فوكيه : « خبرنى يا مسيو فانيل بصراحة •• أليس فى هـذا الأمر عبء ثقيل عليك ؟ »

فقال على الفور : « بالتأكيد يا صاحب الفخامة ، فان مليونا وأربعمائة ألف فرنك ليست بالمبلغ الزهيد ! »

فقال فوكيه . « بل هي مبلغ ضخم حتى انى فكرت فى أنك ربما تكون فى موقف لا يمكنك من الشراء ! • من أجل هذا لن ألومك على خلف وعدك ما دام ناشئا من عدم القدرة على الوفاء من جانبك ! »

ـ كلا يا صاحب الفخامة ، بل انك ستلومني وستكون على حق فى لومى • لأن الانسان يكون اما قليل التبصر واما فاقد العقل اذا أخذ على عاتقه عهدا لا يستطيع الوفاء به !

فاحمر وجه فوكيه ، وبدا أراميس نافد الصبر • ثم عاد الوزير يقول :

ـ انك تخطىء اذا بالغت فى تقدير مثل هذه الأوهام ، ذلك لأن فكر الانسان قابل للتغير ومملوء بالأهواء التى يوجد ما يبررها • وقد يرغب الانسان فى شىء أمس ثم يصدف عنه اليوم !

فشعر فانيل بالعرق البارد يتصبب من جبينه وتمتم قائلا : « يا صاحب الفخامة ! » • وسر أراميس أن رأى الوزير يدير المناقشة بمهارة • وكان واقفا مسندا ذراعه الى منضدة ويده تعبث بمدية ذهبية صغيرة فوقها • بينما سكت فوكيه هنيهة ثم قال لفانيل : « سأوضح لك موقفى ! »

فتولت فانيل رعشة ، واستطرد فوكيه يقول : « اننى كنت راغبا فى البيع أمس كما قد تذكر ، بل قد بعت فعلا ! • ولكنى اليوم أرجو منك أن تسدى الى جميلا فترد الى كلمتى التى ارتبطت بها حيالك ! »

ـ لقد تلقيت كلمتك وأنا موقن أنك ستفى بها !

ـ أعرف ذلك وهذا ما يجعلنى أقدم لك هذا الرجاء !

وسكت فوكيه لان كلمة (الرجاء) التى لم يعتدها كادت تخنق صوته ، وظل أراميس يعبث بالمدية الذهبية الصغيرة وينظر الى فانيل نظرة نافذة يريد بها أن يستشف ما فى ضميره • فلم يزد فانيل على أن انحنى وقال :

ـ لقد قهرنى يا صاحب الفخامة هذا الشرف الذى تمنحنى اياه باستشارتى فى أمر قد تم بالفعل ، ولكن •••

ـ كلا ، لا تقل « ولكن » يا عزيزى المسيو فانيل

فقال فانيل وهو يفتح حافظة نقود كبيرة :

ـ وا أسفاه يا صاحب الفخامة ! • لقد أحضرت معى المبلغ كله كما ترى • وها هو ذا عقد بيع أرض كانت تملكها زوجتى • وأمر الدفع هذا بمثابة نقود حاضرة فى الواقع • وبكلمة واحدة قد تمت الصفقة من جميع الوجوه !

ـ يا عزيزى المسيو فانيل : لا توجد فى العالم مسألة مالية لا تحتمل الارجاء مهما تكن أهميتها ، هذا الى أنك بارجاء هذه المسألة تسدى جميلا الى رجل قد يصبح بعد ذلك صديقا مخلصا لك !

فقال فانيل بارتباك : « لا شك فى ذلك » • وعاد فوكيه يقول : « ولا شك فى أن مودة هذا الصديق قد تكون قدكسبت بجدارة ، نتيجة للخدمة التى أديت له •• والآن ماذا تقول ؟ وماذا قررت ؟ »

فسكت فانيل ولم ينطق ببنت شفة • وفى الوقت نفسه ظل أراميس يرقبه من كثب وقد دلته ملامح وجهه على أنه رجل بخيل طموح ، وأدرك فى الوقت نفسه أن فوكيه أوشك أن ينهزم أمام جمود فانيل ، فسارع الى نجدته على طريقته الخاصة وقال :

ـ معذرة يا صاحب الفخامة ! • أراك قد نسيت أن تبين للمسيو فانيل أن مصلحته تتعارض تماما مع عدوله عن الشراء !

فنظر فانيل الى أراميس متعجبا ، اذ كان لا يتوقع أن يجد فيه معينا له وكذلك سكت فوكيه فى انتظار ما يقوله صديقه الاسقف • ثم قال هذا موجها الخطاب الى فوكيه أيضا :

ـ ألا ترى أن المسيو فانيل قد اضطر فى سبيل شراء منصبك ، الى بيع ملك لزوجته ؟ • ان ذلك ليس بالأمر اليسير • لان الانسان لا يستطيع أن يبيع ملكا بمليون وخمسمائة ألف فرنك فى يوم أو بعض يوم الا اذا تكبد فى هذه الصفقة خسارة كبيرة فضلا عن المتاعب !

فقال فانيل وقد استل أراميس سره من حنايا صدره : « تماما يا سيدى ! »

وواصل أراميس كلامه فقال : « ان أمثال هذه المتاعب تقتضى نفقات كثيرة وعلى الانسان كلما عالجها أن يوجه تفكيره قبل كل شىء الى تلك النفقات ! »

فبدأ فوكيه يدرك ما يرمى اليه أراميس وقال : « أجل ، أجل ! »

وظل فانيل صامتا اذ كان هو أيضا قد فهم مراد أراميس ، ولحظ هذا سكوته وجموده فقال محدثا نفسه : « لا بأس ! • انه ينتظر حتى يعرف المبلغ الذى أعرضه ولعله لا يلبث أن يسلم بعد أن يعرفه »

وهنا قال فوكيه مدفوعا بالسخاء الذى جبل عليه : « يجب أن نمنح المسيو فانيل مائة ألف كرون فى الحال ، بل انى لأشعر بأنه ينبغى لى أن أوقع على أمر بصرف خمسمائة ألف فرنك اليك ، وحتى فى هذه الحالة أشعر بأنى سأبقى مدينا لك ! »

على أن فانيل برغم ذلك لم يبد فى وجهه ما يدل على رغبته فى القبول • ، فنظر أراميس الى فوكيه نظرة يأس ، ثم مضى الى فانيل قدما وأمسكه من سترته وقال له :

ـ يا مسيو فانيل •• انك فى هذه اللحظة لا تفكر فى المتاعب التى تجشمتها ، ولا فى بيع ملك زوجتك ، ولا فى خسارة نجمت من ذلك ، انك تفكر فيما هو أخطر من ذلك • وأنا أقدر هذا منك حق قدره ، فاصغ الى ما سأقوله لك

ثم نظر اليه نظرة نافذة جعلته يرتعد ومضى فى حديثه فقال : « انى

أعرض عليك ، باسم الوزير ، لا ثلاثمائة ألف فرنك ، ولا خمسمائة ألف ، بل أعرض مليونا !٠ نعم أعرض عليك مليون فرنك ، لكى ترد الى الوزير كلمته !٠ فهل سمعت ؟! »

فقال فانيل وقد شحب وجهه حتى عاد مثل وجوه الموتى : « مليون ؟!»٠ واستمر الاسقف فى حديثه قائلا :

ـ أجل مليون !٠ أى دخل قدره سبعون ألف فرنك فى السنة !

وقال له فوكيه : « أحسب أنه لا يمكنك أن ترفض ذلك يا مسيو فانيل»

وسادت فترة صمت ، قطعها فانيل متمتما بقوله : « هذا محال ! »

فعض أراميس على شفتيه من شدة الغيظ ، ثم التفت الى فانيل وقال له وهو يحدجه بنظرته النافذة :

ـ انك اشتريت المنصب بمليون وخمسمائة ألف فرنك ، أليس كذلك ؟٠ حسنا !٠ سيعاد اليك هذا المبلغ وفوقه مثله ، فما قولك ؟

فقال فانيل بصوت أجش : « لا يمكننى أن أقبل ذلك ! »

وكان أراميس ما زال ممسكا اياه من سترته فتركها فجأة وتراجع بضع خطوات ، ثم قال له :

ـ حسنا !٠ ان غرضك من المجىء الى هنا أصبح واضحا ! هيا ابرز لنا عقد البيع ٠ أحسبك قد جئت به معدا فى جيبك كما يخبىء القاتل مسدسه أو خنجره فى طيات ردائه !

وأراد فانيل أن يقول شيئا فصاح به فوكيه : «كفى !٠٠أين عقد البيع؟»

فبحث فانيل بيد مرتعشة فى جيوبه ، حتى وجد ورقة العقد فمد يده بها الى فوكيه ، فى الوقت الذى سقطت من جيبه ورقة أخرى على الارض ، وسرعان ما انقض عليها أراميس والتقطها ، ثم أبقاها فى يده اذ عرف الخط الذى كتبت به ٠ فمد اليه فانيل يده ليأخذها منه قائلا : « معذرة !٠ ان هذه مسودة لعقد البيع »

ولكن أراميس ابتسم ساخرا وقال له :

ـ انى أرى ذلك بوضوح ٠ والذى يعجبنى منها أنها بخط المسيو كولبير ثم ناول فوكيه الورقة قائلا : « انظر يا صاحب الفخامة ، انظر ! »

وعرف فوكيه كذلك خط كولبير من أول نظرة ٠ وبدا فانيل كالفأر الذى يبحث عن جحر يختبىء فيه ٠ ثم قال أراميس لفوكيه :

ـ لو أنك لم تكن فوكيه ، ولو أن خصمك لم يكن كولبير ، ولو أن هذا اللص الحقير ليس أمامك ، لكنت أنصح لك بأن ترفض هذا العقد ، فان هذا الدليل كاف لأن يحلك من كلمتك ٠ ولكن هؤلاء الاوغاد قد يحسبون أنك تخشاهم ولهذا أقول لك : وقع على هذا العقد دون أبطاء !

ثم ناوله قلما ليوقع به ، فضغط فوكيه يد أراميس ، وبدل أن يوقع على

العقد الذى قدمه له فانيل تناول المسودة التى بخط كولبير ليوقع عليها ، فقال له أراميس : « كلا !٠ لا توقع على هذه الورقة ٠ انها وثيقة أنفس من أن تتركها لأعدائك ! »

فقال فوكيه : « بل سأوقع تحت ما كتبه كولبير ، وسأكتب تحت توقيعى : (مع اعتماد الخط) ٠٠ »

وبعد أن انتهى من ذلك مد يده بالورقة الى فانيل ، فتناولها هذا بيد مرتعشة ، ووضع المبلغ على المنضدة ، ثم هم بالانصراف فقال له أراميس :

ـ مهلا !٠٠ أواثق أنت من أن المبلغ هنا كله ؟٠ يجب أن نعده يا مسيو فانيل ٠ ولاسيما أن المسيو كولبير يهدى المال الى بعض السيدات !٠٠ نعم ان المسيو كولبير ليس سخى اليد مثل المسيو فوكيه !

وأخذ أراميس يقرأ كل كلمة وكل حرف من أمر الدفع ، بينما يصب غضبه وازدراءه بوساطة نظراته وحركاته على رأس فانيل زهاء ربع ساعة٠ ثم صرفه أراميس باشارة من يده وكأنه يصرف خادما أو متسولا !

وبقى الوزير والقس بعد ذلك فترة صامتين وأحدهما ينظر الى الآخر ، ثم قطع أراميس حبل السكوت قائلا :

ـ بماذا يوصف الرجل الذى يهم بالدخول فى قتال مع عدو لدود له مسلح من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، فيبدأ بنزع سلاح نفسه ثم يرخى ذراعيه الى جانبيه ويبتسم لعدوه ويبعث اليه بالقبل على أطراف أصابعه ؟٠ ان حسن النية يا مسيو فوكيه سلاح كثيرا ما يستغله الاوغاد ضد الشرفاء فينيلهم مأربهم منهم ٠ وانى أرى أن الناس ذوى الشرف يجدر بهم أن يستخدموا وسائل غير شريفة مع هؤلاء اللئام ، فبذلك وحده يتقون مكايد أولئك الخصوم ، ويسلم لهم من الأذى شرفهم الرفيع !

فقال له فوكيه فى هدوء : « لا تنس يا عزيزى أن مثل هذا التصرف من أولئك الشرفاء يعد عملا منافيا للشرف ! »

فقال أراميس : « كلا !٠ بل يكون منهم مداعبة للحقيقة ٠ وعلى أى حال ما دمت قد انتهيت مع هذا الفانيل ، وما دمت قد جردت نفسك من مسرة ارباكه برفض التوقيع،وما دمت قد سلمته السلاح الذى يقضى به عليك٠٠٠»

فقطع فوكيه كلامه قائلا : «يا صديقى العزيز : انك مثل مدرس الفلسفة الذى حدثنا عنه لافونتين منذ قليل !٠ فقد رأى طفلا يغرق فوقف يتلو عليه محاضرة ذات ثلاثة فصول ! »

فابتسم أراميس وقال : « أجل يا عزيزى !٠ على أن الطفل يمكن انقاذه كما سترى ٠ ولكن لنتكلم فى الاعمال أولا ٠٠ ألم تحدثنى منذ حين عن رغبتك فى اقامة مهرجان فى مدينة (فو) ٠٠ »

فقال فوكيه : « نعم ، ولكن هذا كان أيام كنا فى رخاء يسمح بذلك ! »

فواصل أراميس كلامه قائلا : « وكان الملك سيحضر هـذا الاحتفال من تلقاء نفسه ، أليس كذلك ؟ »

– ان المسيو كولبير هو الذى نصح للملك بأن يحضره !

– لأنه عندئذ يكون مهرجانا فادح النفقات بحيث يجر عليك الخراب !

– أجل !٠ لقد كنت فيما مضى أشعر بالغبطة اذ أظهر لاعدائى أن مواردى المالية لا تنفد ٠ بل كنت أشعر بالفخر كلما لحظت ذهولهم لقدرتى على انفاق الملايين فى ظروف يتوقعون لى فيهـا الافلاس والخراب ٠ ولكنى فى الوقت الحاضر أرتب حسابى مع الدولة ، ومع الملك ، ومع نفسى ، فيجب على الآن أن أصبح رجلا شحيحا مقترا ٠ وسأبرهن للعالم على أنى أستطيع أن أتصرف فى دراهمى المعدودة ، كما كنت أفعل بأكياس مملوءة بالجنيهات ٠ ومن الغد ستباع جيادى وسترهن أملاكى وستنكمش نفقاتى !

فقـال أراميس فى هدوء : « بل من الغد تشـغل نفسك دون ابطاء بالاستعداد لاقامة مهرجان (فو) ٠٠ على أن يتحدث به النـاس بحسبانه أبهر ما أقمت من حفلات فى أحسن أوقات رخائك ! »

فابتسم فوكيه ساخرا وقال : « ماذا تقول ؟!٠٠ ان هـذا يكلف عشرة ملايين أو اثنى عشر مليونا ! »

فقال الأسقف : « بل تنفق عشرين مليونا اذا اقتضى الأمر ذلك ! »

فصاح فوكيه قائلا : « لكن أنى لى هذه الملايين ؟ »

فقال أراميس : « هذا شأنى يا سيدى الوزير ٠ ولا تقلق من هذه الناحية ، وسيوضع المال تحت تصرفك ٠ انى أخلص لك دون حـد ، ولما كنت أنت أصفى عقلا منى ، فاننى أدع لك الاشراف التـام على المهرجان ، الى أدق تفاصيله ٠ ولكنى أترك لك وضع الخطط ، وأحتفظ لنفسى باشراف عام على التنفيذ ٠٠ أعنى أن تجعلنى فى ذلك اليـوم بمثابة مفتش عام ، أو شيئا بين قائد الحـرس ومدير القصر ، وسأعنى بالمدعـوين وأحتفظ بمفاتيح الابواب ٠ وستصدر أوامرك طبعا ولكنك لن تصدرها الا الى وحدى ، فتمر بين شفتى لتصل الى أولئك الذين يقصدون بها » ٠

عاد راءول دى براجلون فجأة من لنـدن وهو فى أشـد حالات الحنق والغضب ، فقد نمى اليه أن هناك خطرا على غرامه ! وما كاد يضع قدمه فى باريس حتى بدا له ذلك الخطر شيئا محققا ٠ على أنه لم يشأ أن يبحث عن الحقيقة كما هو المنتظر من عاشق غيور مثله ، بل انه لم يشأ حتى أن يذهب الى لويز حبيبته نفسها ليسألها : « أصحيح أنك الآن لا تحبيننى ؟ وأنك استبدلت بى حبيبا آخر ؟ » ٠ واكتفى بأن قال لنفسـه : « لقد كتب الى

(دى جيش) يحذرنى ٠ ولا بد أنه وقف على سر خطير ، فلأذهب اليـه وأسأله عما يعرفه »

وكان دى جيش قد جىء به من فونتينبلو الى باريس منذ يومين وقد بدأ جرحه يندمل وسمح له الطبيب بأن يمشى فى غرفته ٠ فلما رأى راءول هتف به مرحبا فرحا ، بينما صاح هذا مندهشا اذ رآه شاحب الوجه نحيل الجسم ظاهر الحزن ، ثم قال له : « هكذا دائما حال الانسـان الذى يحب !٠ ان الحب مرض لا شفاء منه الا بالموت ! »

فابتسم دى جيش وقال له : « ولكن الانسان لا يموت من الحب !٠ وليس أدل على هذا من أنى أستطيع أن أعانقك الآن !٠ وأؤكد لك اننى لست فى تعاسة كما تحسبنى ، بل أنا أسعد انسان فى العالم !٠ صحيح أن جسمى يتألم ولكن عقلى وقلبى على ما يرام ! »

فقال له راءول : « هذا شىء يسرنى حقا ، لكنى أخشى ألا يدوم ! »

فقال دى جيش : « لا تخش شيئا !٠ انتهى الأمر ، وان ما نعمت به من السعادة ليكفينى حتى آخر أيام حياتى ! »

قال : « ليس عندى شك فى ذلك ، ولكنها ٠٠٠٠ »

فقطع دى جيش كلامه قائلا :« انى أحبها لأنهـا ٠٠٠ ولكنى أراك غير مصغ الى يا راءول ! »

قال : « معذرة !٠ لقد سارعت الى هنا قادما من لندن ، وقطعت الرحلة فى نصف الوقت الذى تقطعها فيه عادة عربات السفر !٠ كذلك لم تخبرنى بعد يا عزيزى بما دعاك الى استقدامى ! »

فقال : « لقد أردت أن تحضر ، وهذا كل ما هناك »

فارتسمت امارات الدهشة على وجه راءول من جديد وقال : « أمن المعقول أن تحطم كل آمالى بهذا العنف ، وأن تجعلنى أتعرض لغضب الملك بعودتى رغم أوامره ؟! »

فقال له دى جيش : « قد لا يكون الأمر مما يدعـو الى كل الاطمئنان ، ولكنى أرجو أن تفهمنى يا راءول ٠٠ انى لن أقول لك أى شىء آخر ! »

فنظر اليه راءول عاتبا وقال : « اذا كنت تعرف شيئا فلماذا تخفيه على؟٠ واذا لم تكن تعرف شيئا فلماذا كتبت الى محذرا ؟! »

فقال دى جيش : « ربما أكون قد أخطأت ، وانى اذن لآسف عـلى ما فعلت ٠ عـلى أنى حين كتبت اليك لم أكن أرى فى ذلك الا شيئا عاديا ٠٠ وليت شعرى أى غرابة فى أن يكتب المرء الى صديق له يستقدمه ؟٠ أما الغريب حقا فهو أن أرى هذا الصديق يرتعد فى قلق ، ويتوقع منى أن أقول له ما لا يجرؤ على قوله أحد ! »

فقال راءول : « ما هذا الذى لا تجرؤ على قوله يا عزيزى ؟٠٠ ان عندى من الشجاعة ما يسمح بأن تقول لى كل شىء ! »

فقال دى جيش : « انك ظالم يا راءول وتكاد تنسى أنك تخاطب صديقا جريحا !٠ ألا هدىء من روعك يا أخى ، فقد دعوتك الى المجىء ، وها أنت ذا قد جئت ، وأرجو ألا تسألنى عن شىء بعد ذلك ! »

قال : « كيف يصح هذا ؟٠٠ انك ولا شك قد دعوتنى الى المجىء لكى أرى بعينى ما هناك ! فلم ترددك الآن ؟٠ أتظن أنى لم أر بنفسى كل شىء٠٠ لقد رأيت (لويز) ثائرة الاعصاب ٠ و (مونتاليه) فى ارتباك٠ والملك٠٠٠ نعم ٠٠ الملك يا عزيزى ! مالك تفزع هكذا وتدير رأسك جانبا ؟٠ ان الخطر والشر لم يجيئا الا من هنا !٠٠ تكلم يا أخى وكن صريحا ٠٠ أليس هو ؟ »

فغمغم دى جيش يقول : « ليس عندى ما أقوله ! »

فصاح به راءول محتدا : « بل عنـدك ألف شىء مما يجب أن يقال !٠٠ أنسيت أنك صديقى الوحيد ؟٠ تكلم وقل لى كل شىء ٠ لقد سحق قلبى وطعن فى الصميم ، وها أنذا أكاد أموت من اليأس ! »

فقال له دى جيش : « اذا كان الأمر كذلك يا عزيزى ، فانى لا أستطيع أن أقول لك الا ما يبعث فى قلبك العزاء !٠ وبعبـارة أخرى سأخبرك بما يمكنك أن تعرفه من كل انسان تقابله ! »

فقال راءول متعجبا : « يعرفه كل انسان ؟!٠ أيتحدث الناس بهذا ؟ »

فقال دى جيش : « ان الناس كثيرا ما يتحدثون أكثر مما ينبغى لهم ، وعندى أن الأمر فى حقيقته قد لا يكون أكثر من رياضة عادية قامت بهـا فى صحبته !٠ وقد تريض الملك مرارا عديدة مع سـيدات كثيرات دون أن يكون فى ذلك أى شىء غير عادى »

ــ لكنك ما كنت لتكتب الى لو كانت تلك الرياضة عادية !

ــ الذى أعرفه أنه كان خيرا للملك أثناء العاصفة أن يأوى الى مكان ما ، بدلا من أن يبقى عارى الرأس أمام لافاليير !

ــ أوه يا دى جيش !٠ انك تقتلنى !

ــ اذن لا داعى لأن نتكلم فى هذا الشأن !

ــ كلا بل استمر ٠٠ هل تلك النزهة تبعتها نزهات ؟

ــ لم يكن هناك بعدها أكثر من مغامرة قيل أنها وقعت تحت شجـــرة السنديان !٠ ولكنى لا أعرف عنها شيئا !

وهنا نهض راءول ، وحاول دى جيش أن ينهض أيضا برغم ضعفه ، ثم قال له : « لن أقول كلمة أخرى سواء أكنت قد قلت أكثر مما ينبغى ، أم لم أقل الا النزر اليسير٠ وعلى كل حال كان واجبى يقضى بأن أحذرك ، وقد فعلت ٠ فراقب أمورك بنفسك الآن٠ وقد يستطيع غيرى أن يمدك بمعلومات أوفى »

ــ أتريد أن أسأل غيرك ؟٠٠ انك اذن لست صديقا مخلصا !٠ وما عسى أن يقول لى من أسأله فى هذا ؟٠٠ انه اما أن يكون سىء النية فيكذبنى القول

ليبعث فى نفسى ألما أشد مما أعانيه ٠ واما أن يكون أحمق فتكون النتيجة شرا من ذلك٠ وهكذا لن تمضى ساعتان حتى أكون قد سمعت عشر أكاذيب ، وأكون قد دعوت الى عشر مبارزات !٠ كلا يا صديقى العزيز !٠ خير لى أن أقف منك على الحقيقة المؤلمة كلها !

ــ قلت لك أنى لا أدرى شيئا ٠٠ لقد جرحت ثم أصابتنى حمى ٠ وكنت فاقد الوعى ٠ ولا أذكر الا القليل عن الأمر كله ٠ ولكن لا داعى لأن نبحث بعيدا على حين أن الرجل الذى تحتاج اليه جد قريب منا ٠ أليس دارتانيان صديقك ؟٠٠ اذن اذهب اليه، فقد يستطيع أن يلقى بعض الضوء على الأمر!»

وفى هذه اللحظة دخل خادم الغرفة وقال لدى جيش : «ان أحد الزائرين ينتظر فى غرفة الخزف »

فقال : «حسنا !» ٠ ثم التفت الى راءول وقال له : «أتأذن لى يا عزيزى؟٠ انى أشعر بالكبرياء اذا استعدت قدرتى على السير »

فقال راءول : « كان يسرنى أن أعرض عليك أن تستند الى ذراعى ، لولا أنى أعتقد أنك ذاهب لمقابلة سيدة ! »

فابتسم دى جيش وقال : « أحسب ذلك أنا أيضا ! » ٠ ثم غادر الغرفة وبقى راءول وحده فيها جالسا بلا حراك وقد استغرق فى همومه٠ ولم يلبث الا قليلا حتى سمع صوت (مونتاليه) فى الغرفة المجاورة ٠ فقال لنفسه : « هى ؟! حقا انه صوتها !٠ انها تقدر أن تذكر لى الحقيقة كلها !٠٠ ولكن هل أسألها هنا ؟٠ لا شك أنها قادمة من عندها ٠ واذن يحسن أن أزورها فى جناحها ٠ وسوف توضح لى سر انزعاجها وفرارها والطريقة العجيبـة التى أخرجت بها ٠ ستقول لى كل ذلك بعد أن أستمد من المسيو دارتانيان، الذى يعرف كل شىء ، جديدا من الشجاعة ومزيدا من القوة٠ حقا انها امرأة عاشقة لعوب ذات أهواء وتقلبات ، ولكنها أحيانا تبدو ذات عطف وشفقة٠ كما أنها تؤكد لدى جيش أنه أسعد الرجال ! »

وعلى أثر ذلك ، غادر مسكن الكونت دى جيش مسرعا ، وهو يؤنب نفسه لأنه لم يحدثه الا عن شئونه هو نفسه ٠ ولم يمض قليل حتى كان قد وصل الى منزل (دارتانيان)

حديث لا يبعث على الأمل

كان الكابتن دارتانيان جالسا على كرسيه الكبير ، ومهمازه على الأرض ، وسيفه بين قدميه ، وقد شغل بقراءة بعض الخطابات بينما هو فى الوقت نفسه يفتل شاربه · وما كاد يرى راءول حتى هتف به مرحبا فى فرح قائلا له :

ـ مرحبا بالصديق ابن الصديق ! · أى حظ سعيد جعل الملك يستقدمك من لندن ؟

وجلس راءول وهو يقول : « الحق انى لا أعرف أكثر من أنى عدت ! »

فهمهم دارتانيان وهو يطوى خطاباته ، ونظر الى الشاب نظرة عميقة ثم قال له :

ـ ماذا قلت يا بنى ؟ · ألم يستقدمك الملك ؟ · كيف عدت اذن ؟!

فأخذ راءول يدير قبعته فى يده دون أن يجيب بشىء ، ثم استطرد الكابتن صديق أبيه فسأله :

ـ ماذا بك ؟ وما الذى يسكتك ؟ · أتراك قد اكتسبت هذا الجمود من الاقامةبانجلترا ؟ · لكنى أنا أيضا أقمت بها حينا وقد رجعت ممتلئا حيوية! · أم ليس لديك ما تقوله ؟!

فغمغم راءول قائلا : « بل لدى الكثير مما يقال ! »

فقال دارتانيان : « ماذا ؟ · آه · كيف حال أبيك ؟ »

فأجاب راءول : « كنت أهم بأن أوجه اليك هذا السؤال ! »

فأمعن دارتانيان فيه النظر وقال : « لعلك فى كدر من شىء ما ؟ »

قال : «هذه هى الحقيقة ! · وأنت تعرف الأمر جيدا يا مسيو دارتانيان! · وأرجو ألا تتصنع الدهشة يا سيدى ، ولتعلم انى دونك فى كل ما يتعلق باللباقة أو يتصل بتجارب القوة والجلد ، وها أنت ذا ترانى أمامك لا عقل لى ولا ادراك ، وليس لى رأس أفكر به ولا ذراع أصد بها · وبالاجمال أنا أشقى انسان فى العالم ! »

فغمغم دارتانيان قائلا : « أهكذا ؟! · ولم هذا كله يا بنى ؟ »

فقال راءول : « لأن الآنسة دى لافاليير تخدعنى ! »

ـ تخدعك ؟ · هذه كلمة كبيرة ! · ولكن ما الذى يدعوك الى هذا الظن ؟ ·

لابد أن فى الأمر سرا · لأنه لا دخان بلا نار ! · ولكنك تعلم أنى لا أتدخل فى مسائل من هذا القبيل !

ـ حتى ولا من أجل صديق ابن صديق ؟

ـ حقا ·· انك صديق ابن صديق ، ولولا هذا ما كنت لأقول لك شيئا مطلقا · كيف حال عزيزنا بورتوس ؟

وهنا نهض راءول وأمسك يد دارتانيان ، ثم قال له : « انى أتوسل اليك باسم الصداقة قبل كل شىء ! »

فقال دارتانيان : «حقا انك مريض ! · مريض بداء الفضول على الأقل!»

فتنهد راءول وقال : « ليته كان داء الفضول يا سيدى ، لكنه أدهى وأمر ·· انى مريض بالحب ! »

ـ هذه كلمة كبيرة أخرى ! · ولكن لو أنك كنت مغرما حقا يا عزيزى راءول ، لكنت فى حالة أخرى غير حالتك الآن !

ـ ماذا تعنى بذلك ؟

ـ أعنى أنك لست عاشقا متيما ، ولكنك مثل أى شاب آخر · قد خيل اليك ذلك ، فهذا الذى تقوله عن حبك للويز لا يمكن أن يكون الا نتيجة للوهم والذهول · والواقع أن عقل الانسان قلما يجديه شيئا اذا هو أسلم نفسه الى مثل هذه الاوهام · وأنا نفسى أعترف لك بأنى فقدت حواسى على هذا النحو مائة مرة فى حياتى ! · إنك قد تصغى الى ولكنك لن تسمع ما أقول ، وقد تسمع ولكنك لن تفهم ، وقد تفهم ولكنك لن تطيعنى !

فقال راءول : « تكلم يا سيدى ، قل كل ما لديك · وثق بأنى سأسمع وأفهم وأطيع ! »

فنظر اليه دارتانيان مليا ، ثم هز رأسه أسفا وقال :

ـ أوه ! · انى أذهب بعيدا ! ·· ولو أننى كنت أعرف شيئا ، وكنت من الحماقة بحيث أطلعك عليه بوصفك صديقى وابن صديقى ، فلا شك فى أنه لن يؤدى آخر الأمر الا الى أن أخسرصداقتك ! لأنك فى هذه الحالة لا تغفر لى أبدا أنى بددت أوهامك فى مسائل الحب والغرام !

فزفر راءول زفرة حرى وقال :

ـ يا مسيو دارتانيان·· انك تعرف كل شىء ، ومع هذا تردنى الى الحيرة واليأس بل الى الموت ! · انى لا أشكو أبدا كما تعلم عنى · ولكن لما كان الله وأبى لن يغفرا لى قط اذا أطلقت الرصاص على رأسى ، فانى سأذهب وأرغم أول شخص أقابله على أن يفشى الى من الانباء ما تسره أنت وتخفيه على ، ثم أتهمه بالكذب والدس و ···

فقطع دارتانيان كلامه وقال متمما عبارته : « وتقتله ؟! ·· ان هذا يكون شيئا جميلا يا عزيزى ! ·· واذاكنت ترى فيه ما يبعث السرور فى نفسك، فهيا نفذه واقتل من تشاء ! »

فقال راءول مكتئبا : « كلا يا سيدى !٠٠ لن أقتل أى انسان ! »

فقال دارتانيان : « ولم لا تفعل ؟٠٠ وماذا جعلك تتخذ لهجة أخرى ؟٠٠ لعلك تؤثر على ذلك أن تسعى فى أن يقتلك أنت أى انسان ؟٠ وصـــدقنى يا عزيزى ان هذا لشىء جميل أيضا ! على أني سأحزن عليك حقا ! وسأظل طول يومى أقول : لقد كان شابا لطيفا لكنه كان كذلك غبيا أحمق !٠ ولقد قطعت السنين الطوال أعلمه كيف يستخدم سيفه لكنه مع هذا أسلم نفسه لمن يقتله كما تقتل قبرة ! اذهب اذن يا راءول وخل الناس يخلصوا منك٠٠ لست أدرى من الذى علمك هذا المنطق ، ولكن الحق أن أباك قد ضاعت عليه نفقات تعليمك ! »

فوضع راءول رأسه بين كفيه وقال : « ليس لى صديق فى العـالم ! انى لا ألقى الا عدم الاكتراث أو السخرية ! »

فقال دارتانيان : « هذه أوهام يا بنى !٠ انى لا أســخر منك مع أنى جاسكونى يحب السخرية ٠ ولو أننى كنت لا أعيرك اهتماما لصرفتك منذ ربع ساعة ، ولكان فى ذلك القضاء عليك لأنك لست فى وعيك ٠ والآن أيها الشاب : أتحب أن أغريك بالاشـمئزاز من فتاتك حتى لتمقت الجنس اللطيف كله الذى هو أصل الشرف والسعادة فى الحياة البشرية ؟ »

فقال راءول متلهفا : « بالله يا سيدى ٠ نبئنى بكل ما تعلم ، فأنت بذلك تسدى الى يدا لن أنساها ما حييت ! »

ـ كما تشاء !٠٠ ولكن لا تظن أنى قد حشــوت رأسى بكل ما قيل عن النجار والرسام ٠٠ الى آخر القصص التى من هذا القبيل ! »

فتساءل راءول متعجبا : « نجار ورسام ؟!٠ ماذا تعنى يا سيدى ؟ »

ـ الحق أنى لست أدرى !٠ وكل ما هناك أن أحد الناس أخبرنى أن نجارا فتح فوهة فى أرض احدى الغرف !

ـ أتعنى غرفة لافاليير ؟

ـ قلت لك لست أدرى !

ـ أتظن اذن أن هذه الغرفة فى جناح الملك ؟

ـ لو كان الأمر كذلك لأخبرتك به ، ولكنى كما ذكرت لك لا أعلم شيئا أكثر من هذا !

فسكت راءول قليلا ، ثم قال : « وما شأن الرسام اذن ؟٠ أهناك صورة مثلا كلف أن يرسمها ؟ »

فقال دارتانيان : « نعم ، لكنى لا أعلم أكثر من أن الملك أراد أن ترسم صورة لاحدى سيدات البلاط ! »

فصاح راءول : « صورة لافاليير طبعا ؟٠ أليس كذلك ؟ »

فقال دارتانيان ساخرا : « ألا تعرف غير هذا الاسم لتلوكه فى فمك ؟!٠ انى لم أشر من قريب ولا من بعيد الى اسم لافاليير ! »

ـ اذا لم تكن الصورة صورتها فما الذى جعلك تظن أن الأمر يعنينى ؟

ـ أنا لم أظن أن الأمر يعنيك ٠ ولكنى أجيب عما تسألنى عنه !

فضرب راءول جبينه بيده يأسا وقال : « يا لى من مسكين !٠ ان هـذا الأمر سيقتلنى ولا شك ! »

فقال له دارتانيان : « لم تأت بجديد يا بنى فقد ذكرت هـذا الأمر من قبل ! »

فغمغم قائلا : « صدقت يا سيدى ٠٠ صـدقت ! » ٠ ثم خطا خطوة أو خطوتين كمن يعتزم الانصراف ، فقال له دارتانيان : « الى أين ؟ »

فقال : « الى حيث أبحث عمن أعرف منه الحقيقة !٠٠ الى الآنسـة دى لافاليير نفسها ! »

فقال دارتانيان : « هذه فكرة عظيمة !٠ انك لفى حاجة شديدة الى من يبعث العزاء فى نفسك ، وستلقى عندها هذا العزاء ، ولا شك أنها بالطبع لن تذكر عن نفسها أى سوء ! »

فقال راءول : « كلا يا سيدى !٠ ان المرأة التى أقصدها ستذكر لى كل سوء تعرفه ! »

ـ اذن أنت تعنى (مونتاليه) صديقتها ؟٠ لكن هـذه ستبالغ فى كل حسـنة أو سيئة تذكرها لك !٠ وأنا لهذا أنصح لك بألا تتحـدث معها يا عزيزى فانه يكفى أن تكتب اليها !٠٠

وفيما كان راءول يتناول القلم من يد الكابتن ، فتح الباب فجأة ودخل أحد الفرسان وقال لدارتانيان :

ـ ان الآنسة مونتاليه هنا وتريد أن تقابلك يا كابتن !

فبدت الدهشة فى وجهه وقال : « أنا ؟!٠ دعها تدخل وسنرى ! »

ولم تكد الآنسة دى مونتاليه تدخل حتى صاحت : « آه يا سـيدى !٠ أرجو المعذرة يا مسيو دارتانيان »

فقال لها : « أنا أعلم يا آنسة أن من كان فى مثل سنى لا يطلبه الناس الا لحاجة من الحاجات ! »

فقالت مونتاليه : « لقد كنت أبحث عن المسيو دى براجلون »

فقال لها : « هذا من حسن الحظ ، لأنه هو أيضا يبحث عنك »

ثم التفت الى راءول وقال له : « اذاهب أنت مع الآنسة مونتاليه الآن؟»

ولما أومأ هذا موافقا ، دفعه دارتانيان برفق الى خارج الغرفة ، ثم أمسك بيد مونتاليه وقال لها بصوت خافت : «كونى رحيمة به ، وأبقى عليه وأبقى عليها أيضا بقدر استطاعتك ! »

فقالت له : « لكنى لست أنا التى سأتحدث معه !٠ ان المدام نفسها هى التى بعثتنى اليه ! »

فقال : « حسنا ! .. ما دام الأمر كذلك ، فلن تمضى ساعة حتى يشفى المسكين من حبه ! »

فقالت مونتاليه : « أو يكون فى عداد الأموات ! »

□

لم يكد راءول يخلو الى الآنسة مونتاليه حتى قبل يدها بشغف ، فقالت له بحزن :

ــ انك تبدد قبلاتك هباء ، وما أحسبها تعود عليك بأية فائدة !

فسألها : « وكيف ذلك ؟ ألا توضحين ؟ »

فقالت : « ان المدام (قرينة الشقيق الأصغر للملك) ستشرح لك كل شىء . وسآخذك الى جناحها ! »

فصاح متعجبا : « ماذا تقولين ؟ »

فوضعت الآنسة مونتاليه سبابتها على شفتيها محذرة اياه وقالت : « صه يا سيدى ، ودع عنك هذا المظهر الحزين . ان للنوافذ أعينا وللجدران آذانا . وأرجو ألا تحدثنى بصوت مرتفع أو ليكن الحديث عن المطر والجو وعن مفاتن انجلترا وما الى ذلك ! . ان المدام لها عينان وأذنان ترى بهما وتسمع كل شىء ! .. وأنا لا أحب أن أفصل من مركزى ، ولا أن يزج بى فى الباستيل ! »

فقبض راءول يديه محاولا أن يسترد شجاعته ، بينما تقدمته مونتاليه وهى تنظر حواليها حتى وصلت الى جناح المدام فسمح له بالدخول توا ، وكانت قد استلقت على مقعدها ومدت قدميها الدقيقتين على وسادة من المخمل ، وأخذت تداعب قطة ذات فروة حريرية طويلة الشعر . وبدا عليها التفكير العميق حتى أنها لم تنتبه الا على صوت راءول وهو يقول لها : «لقد بعثت سموك فى طلبى ؟! »

فهزت الاميرة هنريتا أو (المدام) رأسها كأنها تستيقظ من النوم وقالت له : « عم صباحا يا مسيو دى براجلون . أجل لقد بعثت فى طلبك . واذن فقد عدت من انجلترا ؟ »

ثم أومأت الى مونتاليه ، فسارعت هذه الى مغادرة الغرفة ، بينما قالت الأميرة لراءول :

ــ هل لديك بضع دقائق أستطيع أن أحدثك فيها ؟

فقال لها : « ان حياتى كلها رهن تصرف سموك الملكى ! »

ولم يفته أن يلاحظ مظهر الجد الذى ارتسم على محياها،وشعر بأن هناك تشابها بين شعورها وشعوره . والحق أن كل انسان قوى الملاحظة فى البلاط كان يعرف غرابة أهواء هنريتا واستبدادها . وقد أرضى غرورها

التفات الملك لها ، وتركت الناس يتحدثون بذلك ، وقد غرست فى قلب الملكة من أجل ذلك بذور الغيرة التى لا سعادة معها لأى امرأة

والحق أن الأميرة ــ أو (المدام) كما يسمونها فى البلاط ــ حاولت أن تداوى جروح كبريائها ، ولكنها وجدت أن قلبها لم يعد ملكا لها . وقد بذلت جهدها لاستدعاء راءول دى براجلون ، وكان لويس الرابع عشر أرسله الى انجلترا ليبعده من طريقه . ولم يعلم راءول شيئا عن الخطاب الذى أرسلته المدام الى أخيها تشارلس الثانى ملك الانجليز ، وان كان دارتانيان قد تصور ما يحتويه

وقالت الأميرة لراءول بعد تفكير : « يا مسيو دى براجلون .. هل رجعت مستريح البال ؟ »

فنظر هنيهة الى وجهها الشاحب ، ثم أجاب قائلا : « مستريح البال ؟ .. وماذا هناك مما أنعم به أو أشقى يا سيدتى ؟ »

فسألته : « ما هى الاشياء التى تجعل شابا فى مثل سنك ومظهرك ، سعيدا أو شقيا ؟ »

فقال راءول لنفسه مرتاعا : « ما أشد اشتياقها الى أن أخبرها بما هناك ! . ترى ما الذى ستنفثه فى قلبى؟ » . وأراد أن يرجىء الشر الذى ستنبئه به وأن يحيد بها عنه فقال لها :

ــ لقد تركت خلفى هنا صديقا فى تمام صحته ولما عدت وجدته مريضا !

فقالت متمالكة أعصابها : « أنت تقصد دى جيش ؟ لقد سمعت أنه صديق حميم لك ! »

فقال : « نعم ، انه حقا كذلك ! »

فاستطردت قائلة : « صحيح انه جرح ، ولكن حالته تحسنت الآن .. ان المسيو دى جيش ليس فى حاجة الى شفقة .. ولكن أيشكو شيئا ؟. أهناك ما يضايقه أو يحزنه دون أن نعلمه ؟ »

فقال راءول : « أنا أقصد جرحه يا سيدتى ! »

فقالت : « حسنا ! . ان دى جيش سعيد من كل وجه آخر .. انه دائما فى سرور ومرح ، وانى موقنة أنك أنت يا مسيو براجلون كنت تؤثر أن تكون مثله ، جريح الجسم فقط ! »

فاقترب منها راءول وقال لها : « انك يا صاحبة السمو الملكى تريدين أن تقولى لى شيئا ، ولكن رقتك وسماحتك تغريانك بأن تكونى على حذر فى قوله مراعاة لشعورى . ألا تدعين هذا الاعتبار الكريم جانبا ؟.. انى أقدر أن أتحمل أى شىء . وها أنذا أصغى الى سموك ! »

ــ انك على الاقل تعرف كل ما هو معروف فى البلاط . ألم يبلغك شىء عما حدث وقت العاصفة ، أو عن المناجاة فى الغابة،أو الرحلة الى شايو ؟ »

وكان راءول قد طأطأ رأسه كالزهرة التى قطعت ساقها ، فابتسم ابتسامة يأس وقال :

ــ أؤكد لسموك الملكى أنى أجهل كل شىء ، وأننى لست الا طريدا بائسا عاد هذه الساعة من انجلترا !٠ ولقد كانت ثمة أمواج صاخبة بينى وبين من خلفتهم هنا ، فلم تقدر أن تصل الى أية شائعة عن الظروف التى أشرت سموك اليها !

فتأثرت هنريتا بشحوبه ووداعته وشجاعته ٠ وقالت له :

ــ يا مسيو دى براجلون ٠٠ ان الذى أبى أصحابك أن يصارحوك به ، سأقوله لك ، أنت الذى أحبه وأقدره كثيرا ٠ وسأكون صديقتك فى هذه المسألة ٠ انك ترفع رأسك عاليا كما ينبغى للرجل الشريف ، وأنا يؤسفنى أن ترغم على حنى رأسك حيال سخرية الناس ، وربما حيال ازدرائهم بعد حين !

فتساءل راءول : « هل الأمر بالسوء الى هذا الحد ؟ »

فأجابت الأميرة : « اذا كنت لا تعلم فانى أراك مشغول البال ٠٠ لقد كنت خطيب الآنسة دى لافاليير على ما أعتقد ؟ وأنت اذن تستحق أن تحذر ما هناك ٠ انى سأضطر يوما من الايام الى أن أفصلها من خدمتى ! »

فصاح هالعا : « تفصلين الآنسة دى فاليير ؟ »

فقالت : « نعم ، أم تحسبنى سأخضع دائما لدموع الملك وتوسلاته ؟٠ كلا !٠ ان بيتى لا يصلح مكانا لمثل ذلك »

فبذل راءول قصارى جهده ليتغلب على ضعفه وأجاب قائلا : « يا صاحبة السمو٠٠لقد تفضلت سموك وقلت ان الملك كان يبكى ويتوسل اليك ؟ »

ــ أجل ، ولكن بلا جدوى !

وكان راءول يستمع الى كلامها خافض الرأس ، ثم قالت له : « ماذا ترى فى هذا كله ؟ »

فأجاب قائلا : « ان الملك يحبها ! »

فقالت : « ولكن يبدو أنك تحسبها لا تحبه ؟ »

قال : « وا أسفاه يا سيدتى !٠ انى أفكر فى الوقت الذى كانت تحبنى فيه ! »

فهزت كتفها وقالت : « يخيل الى انك لا تصدقنى ٠ لا ريب انك تحبها حبا عميقا ٠ وأنت تشك فى أنها تحب الملك ! »

فقال : « أجل !٠ حتى أرى برهانا على ذلك ٠ عفوا يا سيدتى !٠ لقد تعاهدت معها على الحب وأعطتنى كلمتها ٠ وان عقلها وقلبها لأزكى من أن تكذبنى القول ! »

فنهضت الأميرة وهى تقول له : « أنت تطلب برهانا ؟٠ فليكن ٠٠ تعال معى اذن ! »

فى مخبأ الغرام

مشت الاميرة هنريتا ــ أو (المدام) ــ أمام الفيكونت راءول دى براجلون خلال الردهة ، حتى بلغت الجناح الذى تسكنه الآنسة دى لافاليير ٠ وكانت الفرصة سانحة لتنفيذ خطة الاميرة ، لان القصر كان خاليا ، اذ ذهب الملك فى صباح اليوم نفسه الى سان جرمان ومعه رجال البلاط والوصيفات ، وبقيت هى فى القصر مدعية انها منحرفة الصحة ، ثم أرسلت فى طلب دى براجلون لعلها تفيد شيئا من مقابلته

وكانت على يقين من خلو غرفة لافاليير وجناح سان اينيان ، فأخرجت مفتاحا سريا من جيبها وفتحت باب غرفة وصيفتها ، ونظر دى براجلون الى داخل الغرفة التى يعرف كل شىء فيها ، ولم يفت الأميرة ادراك ما دار بخلده فى تلك اللحظة ، فقالت له : « انك طلبت الأدلة التى تقنعك ، وسأزودك بها ٠ على أنك ان لم تكن لديك الشجاعة الكافية لمواجهتها ، فأمامك فرصة للانسحاب ! »

فقال لها : « شكرا لك يا سيدتى ، أنا ما جئت الى هنا الا لكى أقف على الحقيقة كاملة ! »

فقالت الأميرة له : « اذن ٠٠ ادخل وأغلق الباب وراءك ! »

ولما فعل ، قالت له : « أحسبك تعرف أننا الآن فى غرفة الآنسة دى لافاليير »

ثم سارت بجانب السرير الموضوع هناك ، وانحنت على الارض حيث رفعت جانبا من البساط الذى يكسوها وقالت له : « انظر ٠٠ هنا باب سرى سترى الآن بنفسك الى أين يؤدى ! »

فقال متعجبا : « باب سرى ؟! »٠وعاد الى ذاكرته ما سمعه من دارتانيان ثم نظر حواليه باحثا عن حلقة أو نحوها يرفع بها ذلك الباب ولكنه لم يجد ، فقالت له الأميرة : « هنا يا فيكونت ٠٠ هل ترى هذه العقدة التى فى اللوح الخشبى الرابع ؟٠ انها هى المحرك السرى ، وما عليك الا أن تضغطها بنفسك فيفتح الباب ! »

وبدا وجهه شاحبا كوجوه الموتى ، وضغط بأصبعه العقدة التى أشارت اليها ، فابتدأ المحرك عمله فورا ، وسرعان ما ارتفع الباب الخفى من تلقاء نفسه ٠ فقالت الأميرة :

ـ انه اختراع يدل على براعة المهنـــدس الذى صنع الباب ، ولعله كان يعلم أن يدا دقيقة ستستخدم هـــذا المحرك وقد رأيت كيف انفتح الباب بسهولة !

وأخذ راءول ينظر متعجبا الى السلم الذى بدا أمامه ، والى الحاجز الدقيق الذى صنع له ليحول دون سقوط من يهبطه · بينما واصلت الأميرة كلامها فقالت « هيا يا فيكونت ·· سأهبط هذا السلم فاتبعنى »

فقال لها : « قبل أن أتبعك يا سيدتى ، أتسمحين لى أن أسأل : الى أين يؤدى هذا السلم ؟ »

فقالت : « لعلك تعلم ان المسيو (دى سان اينيان) كان يسكن الجنـاح الملاصق لجناح الملك ؟ »

فقال : « أجل · أو ـ على الأقل ـ كان هذا ما أعلمه قبل سفرى ، وكثيرا ما زرته فى جناحه »

فاستطردت قائلة : « لقد حصل من الملك على اذن فى أن يبدل بجناحه المريح الجميـل غرفتين يؤدى اليهما هذا السلم ، وهو يسكنهما الآن مع أنهما أضيق من جناحه السابق ، وأبعد من جناح الملك · والعجيب حقا أن هذا المسكن الجـديد يقع مباشرة تحت غرف وصـــيفاتى ، ولاسيما غرفة الآنسة لافاليير ! »

فسألها راءول : « لكن ما الغرض من انشاء الباب السرى والسلم ؟ »

فأجابت بقولها : « هذا ما لا أســـتطيع أن أخبرك به ، وعلى كل حال سنهبط الى الغرفتين الآن ولعلنا نجد هناك ما يلقى الضوء على هذا اللغز ! »

ثم هبطت السلم مشيرة اليه أن يتبعها ، فتبعها وهو يتنهد · وخيل اليه أثناء ذلك أنه يشم رائحة كرائحة عطر لافاليير ، ثم ما لبث قليلا حتى رأى بعض الازهار التى تحبها ، والكتب التى تؤثرها ، كما رأى ذوقهـا الذى يعرفه مجسما فى كل قطعة من الاثاث ، وفى لون الستائر ، فاشتد كربه وواصل المشى خلف مرشدته وكأنه مجرم يتبع سجانه الموكل بتنفيذ الحكم باعدامه ، على حين أخذت الأميرة تثير كامن لواعجه بما تروى له من تفصيل ما يراه · فبدا وقد تملكه اليأس والقنوط ، وتخيل أنه يرى (لويز) مع حبيبها ، وقد اشتبكت يداهما والتصق خداهما ، وراحا يتبادلان القبلات

ثم أزاحت الاميرة ستارة من الحرير ، فأبصر وراءها صورة زيتية كبيرة تمثل لافاليير فى جمالها وشبابها ، وسعادتها وحيويتها ، كأبدع ما تكون فتاة منعمة مثلها فى الثامنة عشرة من العمر · وصاح قائلا :

ـ لويز ؟! اذن فالأمر صحيح !··

ونظرت الأميرة اليه ، وهى تكاد تحسد لويز على تألمه هذا فى ســبيل حبها ، برغم أنها هى نفسها يحبها دى جيش مثل ذلك الحب أو أشد · ثم قال لها راءول :

ـ عفوا يا سـيدتى · انى أعلم أنه ينبغى لى أن أتمالك شـــعورى فى حضرتك ، وأن أكون أكثر صبرا وجلدا · ولكننى أسأل الله لك أن يجنبك الشقاء الذى يفتت قلبى الآن ·· أجل سامحينى يا سيدتى ·· اننى رجل لا مركز له ولا مقام ، أما أنت فأميرة لا تعرف لسعادتها حدا ، ولا لسلطانها نهاية !

فقالت له : « يا مسيو دى براجلون ·· ان قلبا مثل قلبك لجدير بكل تقدير يمكن أن تهبه ملكة ! · وانه ليسرنى حقا أن تعدنى صديقة لك ، وثق بأنى لن أترك حياتك تسممها خيـــانة أو سخرية !·· وهـــذا ما جعلنى أقدم على السعى فى سبيل عودتك من لندن ، اذ الواقع أنى أشجع من كل أصدقائك المزعومين ـ ما عدا دى جيش ـ ولهذا قدمت لك هذه البراهين المحزنة التى كان لابد منها لشفائك من غرامك ، هذا اذا كنت محبا شجاعا لا ضعيفا باكيا · على أنى لا أحب أن أسمع منك أى شكر على قيامى بهـذا الواجب »

فابتسم راءول فى مرارة وقال : « سمعا وطاعة يا سيدتى ·· »

فقالت الأميرة : « ولا تنس أن حريتك ، بل حياتك نفسها فى خطر ! »

فنظر اليها نظرة ثابتة عميقة دلتها على أن عبارتها الاخيـرة لم تكن ذات أثر فى نفسه ، وقالت له :

ـ على كل حال ، أرى أن تزن كل أعمالك بميزان العقل والحكمة ، وأن تلتزم جانب الحـذر ما استطعت ، فالملوك لا يستهان بغضبهم كما تعلم · وليس الخطر مقصورا عليك وحدك ، بل هناك أسرتك وأصدقاؤك أيضـا · وعلى هذا يجب أن تنحنى للعاصفة ، وان تلتمس شفاء نفسك قبل كل شىء!

فقال : « انى أقدر نصيحة سموك ، وسأحاول اتباعها · على أنى أرجو أن تتفضل سموك بأن تكشفى لى سر ذلك السلم والباب وكيف عرفتهما ؟!»

فقالت : « ان الأمر جد بسيط ، فقد أمرت ـ لكى أراقب وصيفاتى عن كثب ـ بعمل مفاتيح سرية لغرفهن أحتفظ بها عندى · وقد اسـتغربت انتقال المسيو سان اينيان من جناحه ، كما استغربت مجىء الملك كل يوم لزيارته فى مسكنه الجديد ، وهذا عدا ما لاحظته من أمور غريبة كثيرة خلال غيابك حتى لقد تغير الكثير من العادات المرعية فى البلاط · ثم أنا لا أحب أن يستهين بى الملك ولا أن يتخذ منى ستارا لغرامياته ، وأعتقد أنه شغف حبا بلافاليير ، وقد يمل حبها لأنها دائمة العبوس ، وتروقه ـ مثـلا ـ مونتاليه التى لا تبدو الا ضاحكة ، ثم تعجبه على هذا الأساس (توناى شارنت) التى لا تفتأ تغنى طول يومها !·· ولعلى جرحت شعورك ، ولهذا أكرر اعتذارى لك ، فقد كان واجبى يقضى بأن أحذرك قرب هبوب العاصفة لتعمل على أن تقى نفسك منها ! »

فقال دى براجلون فى حزم : « لن أقف ساكتا حيال هـذا العار الذى

ألصق بى والخيانة التى ارتكبت معى ! »

فقالت : « افعل ما تشاء يا مسيو راءول ، ولكن حـــذار أن تكشف عن المصدر الذى وقفت منه على الحقيقة • هذا كل ما أطلبه اليك جزاء الخـدمة التى أديتها لك ! »

فابتسم راءول بمرارة وقال : « لا تخشى شيئا يا سيدتى »

وعادت الأميرة تقول : « لقد رشـوت الحداد الذى وثق به العاشقان • ولعلك كنت فى موقفى تفعل ذلك »

فقال : « أجل يا سيدتى !• والآن هل لدى سموك الملكى أى نصح آخر أو تحذير ؟ »

فقالت : « لا •• ليس عندى غير ما قلته »

فقال : « اذن اسمحى لى يا صـاحبة السمو أن نبقى هنا قليلا ، ريثما أكتب خطابا الى أحد الناس ! »

فقالت : «تكتب خطابا ؟••أهذه نتيجة تحذيرى يا مسيو دى براجلون؟»

فقال : « لن يستطيع أحد أن يعلم أن سموك تفضلت بارشادى الى هذا المكان ، وسأوقع على الخطاب الذى أكتبه »

فقالت : « اذن افعل ما يحلو لك »

فأخرج راءول من حافظته قطعة ورق وكتب عليها الأسطر الآتية :

« سيدى الكونت •• لا يدهشنك أن تجد هنا هذه الورقة التى وقعت عليها ، ان صديقى الذى سأرسله قريبـا اليك سيوضح لك سبب زيارتى هذه لك ••

الفيكونت راءول دى براجلون »

وطوى الورقة ودسها فى قفل باب الغرفة المعدة لخلوة العاشقين ، وجعل الورقة ظاهرة بحيث لا يسع (سان اينيان) الا أن يراها عند دخوله • ثم لحق بالأميرة وكانت قد وصلت الى أعلى السلم • وبعدئذ افترقا ، بعـد أن شكر لها صنيعها مرة أخرى ، وبعد أن تظاهرت هى بالاشفاق عليه•وقالت لنفسها وهو يخرج شـاحب الوجه وقد احمرت عينـاه : « لو كنت أعلم ذلك لأخفيت عليه الحقيقة ! »

من يدفع ثمن الجريمة ؟

لم يكن الشرف الذى أغدقه الملك على بورتوس بدعوته الى مائدته ، ليغير شيئا من عاداته وأخلاقه ، على أنه بدا بعد ذلك أرفع رأسا ، كما بدا شىء من الوقار فى مظهره ، وبقى أياما لا يفتأ يستعيد فى ذهنـه منظر المائدة الملكية الفخمة وصفوف الخدم الواقفين حولها • وقد رأى بورتوس أن يمنح خادمه موستون مركزا ممتازا بين بقية خـدمه ، وأن يخلق فى بيته نظاما عسكريا ، كما كان الشأن فى بيوت رجالات ذلك العصر والعصر الذى قبله، أمثال (دى تريفيل) و (شومبرج) و (ريشـيليو) و (كونديه) •• وكل هـذا لأنه أصبح صديق الملك ، وصديق المسيو فوكيـه ، عدا أنه بارون ومهندس

وفيما هو يستعيد الى ذاكرته فخامة المأدبة الملكية ، بعد أن شرب بعض النبيذ الفاخر على الطعام وكاد يغلبه نعاس رقيق ، دخل عليه خادمه يقول : «ان المسيو دى براجلون جاء للزيارة » • فانتقل بورتوس الى غرفة مجاورة حيث لقى صديقه الشاب وصافحه مبديا دهشته من دلائل الجد فى ملامحه، ثم دعاه للجلوس ، فقال له راءول : «لقد جئت أطلب اليك خدمة تؤديها لى!»

فقال بورتوس : « هذا من دواعى سرورى • لقد تسلمت اليوم ثمانيـة آلاف (ليفر) من مزرعتى فى (بييرفون)•فاذا كنت فى حاجة الى مال ••• »

فقطع راءول كلامه قائلا : « ان الأمر لا يتعلق بالمال ! وأنا على يقين من أن لك من طيبة القلب مثـل ما لك من رجاحة العقل وسـلامة الحكم على الأمور ! »

فقال بورتوس : « انك تحسن الظن بى • وعـلى كل حال سـنتناول الغداء هنا ؟ »

فقال : « كلا !• ولك الشكر فلست جائعا »

فقال بورتوس متعجبا : « ألا تتناول طعام الغـداء ؟• ما أعجب بلاد الانجليز التى جعلتك تترك وجبـة الغداء !• لكنك لن ترفض أن نشرب شيئا • ان الانسان يشعر بالظمأ فى باريس ! »

وأمر باحضار زجاجة شمبانيا ، وملأ كأسا لراءول ، ثم كأسا لنفسـه تجرعها دفعة واحدة ، ثم قال :

ـ لقد كنت فى حاجة الى هذا لكى أصغى اليك بانتباه • والآن أنا فى

خدمتك ، ماذا تريد منى اذن يا راءول ؟

فقال : « أريد أن تدلى الى برأيك عن الخلافات عامة !٠٠ انك دائما فى مرح وسرور ، ولكن اذا حدث سوء تفاهم بين أحد أصدقائك وبين رجل غريب عنك ، فماذا يكون موقفك فى هذه الحالة ؟ »

فقال بورتوس : « اذا أصبح أحد أصدقائى طرفا فى خلاف ، فانى أعمل دائما وفق مبدأ واحد ، هو ان الوقت الذى يضيع لا يمكن تعويضه ، وأن الانسان لا يستطيع أن يسوى مسألة الا اذا بلغ النزاع أشده ، وعلى هذا فأنا — متى بدأ الخلاف — أجمع الطرفين معا ، وبهذه الطريقة يصبح من الممكن أن يسوى النزاع ! »

فقال راءول : « أحسب أن أى نزاع يعالج بهذه الوسيلة ينتهى بالعكس الى ٠٠٠ »

فقطع بورتوس كلامه قائلا : « كلا !٠٠ تصور أنى فى ماضى حياتى اشتركت فيما يقرب من مائتى مبارزة نظامية ، عدا المبارزات العاجلة والمشاجرات التى تأتى بها المصادفة ! »

فابتسم راءول على الرغم منه وقال : « هذا رقم محترم ! »

واستطرد بورتوس فقال : « انه ليس كثيرا ، لأنى وديع متسامح ٠ أما دارتانيان فان مبارزاته أكثر عددا ٠ والحقيقة انه حاد الطبع قليلا ٠ وقد صارحته بذلك ! »

فقال له راءول : «على ذلك أنت ترتب مسائل الشرف التى يعهد الاصدقاء فيها اليك ؟ »

فقال : « نعم ، وليست هناك مسألة واحدة من هذا القبيل لم أرتبها كما يجب ، وبالطريقة التى تتفق مع الشرف ! »

فسأله راءول : « هل لك فى أن توضح لى هذه الطريقة ؟ »

فأجاب بقوله : « أجل !٠ انى أذهب الى الخصم وأقول له : (لا يمكن يا سيدى أن تكون غافلا عن مدى الاهانة التى ألحقتها بصديقى) ٠٠٠ »

فعبس راءول حين سمع هذه العبارة٠ بينما واصل بورتوس كلامه قائلا :

— وقد يحدث أحيانا ألا يكون صديقى قد لحقته أية اهانة ، بل تكون الاهانة صادرة منه ، ومن هذا ترى أنى أحسن اختيار عباراتى !

ثم ضحك بورتوس ، فقال راءول محدثا نفسه : « انى سيء الحظ حقا ، ان دى جيش يعاملنى بغير اكتراث ، ودارتانيان يعاملنى بسخرية ، وهذا هو بورتوس الوديع يبدو غير مستطيع أن يسوى المسألة بالطريقة التى أريدها ! »

ثم قال له بورتوس : « انى بعبارة واحدة أدع الخصم بلا عذر يعتذر به !»

فقال راءول شارد الذهن : « هذا على حسب الاحوال ؟ »

فقال : « كلا ! بل هو أمر مؤكد ٠ انى لا أترك له عذرا ٠ وعندئذ أبدى جانب الادب لكى أصل الى النتيجة السعيدة لمسعاى ، وسرعان ما أتقدم اليه وأمسك يده وأقول له بلطف : (الآن وقد أيقنت أنك أهنت صديقى ، فنحن على ثقة من الترضية ٠ ولا مناص لكما فى المستقبل من أن تتبادلا مجاملات السلوك ، وبناء على ذلك فان مهمتى هى أن أطلعك على مدى طول سيف صديقى ! »

فقال راءول بدهشة : « ماذا تقول له ؟! »

فقال مستمرا : «أقول له : (ان سيف صديقى طوله كذا ،وجوادى ينتظر بالباب ليحملك الى البقعة التى ينتظرك فيها صديقى نافد الصبر ، ويمكننا أن نأخذ معنا من الطريق أى شاهد تختاره) ٠ وهكذا أسوى المسألة ! »

فتساءل راءول متعجبا : « أية تسوية تعنى ؟٠هل تصلح بين الاثنين ؟ »

فأجاب بقوله : « أصلح بينهما ؟!٠ لماذا ؟٠٠ انهما بعد ذلك سرعان ما يلتقيان ، وجها لوجه، ثم يقتل صديقى خصمه ، وهكذا تنتهى المسألة !»

فصاح راءول : « يقتله ؟! »

واستطرد بورتوس فقال جادا : « نعم يقتله ، أم تحسبنى أرضى بأن يقتل ذلك الخصم صديقى ؟!٠٠ان لى مائة وواحدا من الاصدقاء وفى طليعتهم أبوك ، وأراميس ، ودارتانيان ، وكلهم على قيد الحياة وفى صحة جيدة »

فنهض راءول وعانقه قائلا فى سرور : « آه يا عزيزى البارون ! »

وسأله بورتوس : « اذن ٠٠ أنت توافق على طريقتى ؟ »

فقال : « أجل !٠ كل الموافقة ٠٠ بل أنا سألجأ اليها اليوم ، وفى هذه الساعة فورا !٠٠ انك أنت الرجل الذى كنت أبحث عنه ! »

فقال بورتوس : « حسنا !٠ ها أنذا ٠ أظنك تريد أن تبارز أحدا ؟٠٠ هذا أمر طبيعى يا عزيزى ، فمن ذلك الذى تريد مبارزته ؟ »

فقال راءول : « هو المسيو دى سان اينيان ! »

فهز بورتوس رأسه وقال : « اننى أعرفه ٠ وهو رجل ظريف ٠ وقد كان جم اللطف معى فى ذلك اليوم الذى تشرفت فيه بتناول الطعام على مائدة الملك ٠ لابد أنه أساء اليك اساءة كبيرة ؟٠٠ يا للشيطان !٠٠ أين تحب أن تنتظره لتسوية هذه المسألة ؟ »

فقال راءول : « ان المسيو سان اينيان صديق حميم للملك كما تعلم ، فاذا أنا قتلته ٠٠٠ »

فقال بورتوس مقاطعا : « ستقتله بلا ريب ، لكن يجب أن تتخذ كل حيطة لتصل الى هذه النتيجة ٠ وعلى كل حال لن تجد صعوبة تعترض سبيلك على نحو ما كان يحدث فى أيام شبابنا ٠٠٠ »

فقال له راءول : « يا صديقى العزيز ٠٠ انك لم تفهم تماما ما أرمى اليه،

ما دام المسيو سان اينيان صديق الملك ، فان معالجة الأمر ستكون عسيرة ، لأن الملك سيعلم بالأمر سلفا ! »

فقال بورتوس : « كلا !· ان هذا غير محتمل ·· انك تعرف طريقتي·· سأذهب اليه وأقول له : (سيدى ·· لقد أسأت الى صديقي · وجـــوادى واقف بالباب · وسنأخذ شاهدك فى طريقنا الى حيث ينتظرك صـــديقى نافد الصبر !) ·· »

فتكلف راءول الابتسام وقال : « أتحسبه يترك نفسه يحمل هكذا ؟ »

فقال بورتوس جادا : « على أى حال يمكننى أن أحمله حمـلا اذا اقتضى الأمر ذلك ! »

وأراد أن يضرب لراءول مثلا عمليا على استطاعته ذلك،فحمله مع الكرسى الذى يجلس عليه ، وطاف بهما أرجاء الغرفة · فضحك راءول وقال :

ـ حسنا جدا !· ليس ينقصنا الآن الا أن نعين البقعة التى أبارز عليها المسيو سان اينيان !

فقال بورتوس : « أظن هذا قد تم !·· ولست أجهل أن العرف السائد فى هذا العصر يقتضى ابداء سبب للمبارزة ، وهـذا يسبب متاعب لم يكن لها وجود فى أيامنا الخالية اذ كنا نتبارز لغرض المبارزة وحده · ولكنك لن تعدم ذكر أى سبب للخلاف ! »

فتنهد راءول وقال : « انها قصة يطول شرحهـــا ، ولـكن ما دام الأمر يتطلب ابداء السبب ، فارجو أن تذهب للمسيو سان اينيان ، وتبلغه أنه أساء الى أولا بتغيير مسكنه ، ثم بعمل باب سرى لمسكنه الجديد ! »

فقال بورتوس : « فهمت ! باب سرى ؟· حقا ان هذا أمر خطير !· وفى الحق ماذا يقصد ذلك المخلوق بايجاد أبواب سرية دون أن يستشيرك أولا ؟ أبواب سرية ! يا للفظاعة ! أنا ليس عندى أى باب سرى الا فى الجب الذى فى بيتى بمزرعة براسيييه ! »

واستطرد راءول فقال : « ثم تضيف الى ذلك أن هناك أمرا آخر أساء به الى ، وهو تعليق الصورة التى يعرفها حق المعرفة ! »

فقال بورتوس : « أهناك صورة أيضا ؟!· حقا يا صديقى العزيز : ان سببا واحدا من هذه الاسباب الثلاثة يكفى لأن يتبارز جميع الســادة فى فرنسا وأسبانيا وأن يقطع كل منهم عنق الآخر ! »

فقال راءول : « اذن ·· لديك الآن كل المعلومات التى تحتاج اليها ؟ »

فأومأ برأسه موافقا وقال : « سآخذ معى جوادا ثانيـــا · اختر بقعة الارض التى تريدها ، وفى أثناء انتظارك هناك يمكنك أن تتدرب على أحسن الطعنات ، لكى تجعل أعضاءك مرنة الى أقصى حد ! »

فقال له راءول : «شكرا لك ! سأنتظرك فى غابة فنسين المجاورة لمينيم»

فقال : « حسنا !· وأين أجد هذا المسيو دى سان اينيان ؟ »

قال : « تجده فى القصر الملكى »

فدق بورتوس جرس يد كبير الحجم · ولما جاء الخادم قال له : « جهز لى بذلة البلاط ، وأعد جوادى وجوادا آخر »

ولما خرج الخادم التفت بورتوس الى راءول وقال له « أيعلم أبوك بذلك ؟»

فقال : « كلا ! وسأكتب اليه ! »

فسأله : « ودارتانيان ؟ » · فقال : « انه شديد الحذركما تعهده ولو علم بالأمر لأرجعنى عن عزمى ! »

وقد عجب بورتوس كيف يلجأ اليـــه راءول ما دام دارتانيان فى عالم الوجود ، وذلك لشدة ثقته به ، ولكن راءول قال له :

ـ أرجو ألا تسألنى بعد ذلك يا عزيزى بورتوس ! لقـــد قلت لك كل ما عندى · وأنتظر الآن عملا سريعا حازما تؤديه على طريقتك الخاصة !

فقال بورتوس : « اطمئن وسيرضيك ما أفعله ! »

ثم قال راءول : « لا تنس أيضا أنه ينبغى ألا يعلم أحد سوانا بسر هذه المبارزة »

فقال بورتوس : « ان الناس دائما يكشفون هـــذه الأمور حين يعثرون على جثة بالغابة · وعلى هذا أعدك يا صديقى بأى شىء عدا اخفاء الجثـــة ، لأنى لا أحب قط أن تدفن جثة مجرم أثيم ! »

فنهض راءول وصافح بورتوس قائلا : « اذن ·· الى العمل يا صديقى العزيز »

ثم خرج وهو يقول لنفسه : « أيها الملك الغادر ! انى لا أقدر أن أصـل اليك ، ولكن صديقك وشريكك فى الجرم ، ذلك الجبان الذى يمثلك ، سوف يدفع ثمن جريمتك · وسأقتله ، ثم نفكر بعد ذلك فى لويز !· »

دعوة إلى المبارزة

كان سرور بورتوس عظيما وقد شعر بأنه عاد الى شبابه منذ أخذ على عاتقه مهمة دعوة الكونت سان اينيان الى مبارزة راءول !

وبلغ من فرط عنايته بالأمر أنه اقتصد نصف ساعة من الوقت الذى يمضيه عادة فى ارتداء بذلة البلاط . ثم رأى أن يثبت علمه بالتقاليد المتبعة عند أرقى الطبقات فأرسل خادمه ليسأل : هل الكونت دى سان اينيان فى مسكنه ام لا ، وما كاد يتلقى الجواب بأن الكونت عاد الى مسكنه منذ هنيهة بعد أن تشرف مع بقية رجال البلاط بمرافقة الملك الى سان جرمان ، حتى سارع الى مقابلته فى مسكنه

وكانت نزهة الملك سارة فى ذلك اليوم ، وقد شمل بعطفه كل مرافقيه ، وبدا متلطفا معهم الى أقصى حد ، وحرص سان اينيان على أن يمضى فترة النزهة كلها يؤلف الأشعار والأغانى فى وصف الملك ، ثم فى وصف الآنسة لافاليير . وكان الملك أيضا رائق المزاج فياض الشعور لفرط ما يخالجه من السعادة والهيام ، فوضع بيتين من الشعر عبر بهما عن عواطفه .. اما لافاليير فألفت أغنيتين .. وهكذا قضى الجميع يوما اشبه بالأيام الخالدة فى تاريخ أبولو (اله الشعر) عند الاغريق . وعاد سان اينيان الى باريس ، موقنا بأن أشعاره ستنتشر فى دوائر البلاط ، ولهذا اخذ يسترجعها فى ذهنه ، ويراجعها معنى ومبنى بعناية أشد مما أبداه حين صاغها أثناء النزهة ، وما كاد يشرع فى خلع ثيابه وحذائه حتى جاءه الخادم معلنا قدوم البارون دى فالون قائلا :

ــ انه ذلك السيد الذى كان له شرف تناول الطعام مع فخامتك على مائدة صاحب الجلالة فى فونتينبلو !

فأذن له فى احضاره ، وما كاد يراه حتى تذكر انه السيد الريفى الذى استقبله الملك استقبالا طيبا فى فونتينبلو برغم الابتسامات الساخرة من بعض الحاضرين ، ومن ثم خف الى استقباله مرحبا مبديا دلائل التقدير ، وأمر خادمه بأن يقدم له كرسيا ، فجلس بورتوس متخذا سمت الجد وأخذ يسعل . وبعد تبادل عبارات المجاملة المعتادة قال له الكونت :

ــ هل لى يا سيدى البارون ان أسأل عن الظرف السعيد الذى منحنى جميل زيارتك ؟

فقال بورتوس : « هذا ما هممت بأن أنال شرف شرحه لك يا سيدى الكونت ... ولكن ... »

ولم يتم بورتوس عبارته ، لأن الكرسى الذى جلس عليه كان قد تحطم تحت ثقل جسمه الضخم ، فنهض معتذرا ، واخذ يبحث حوله حتى وجد مقعدا أمتن جلس عليه ، ثم استأنف كلامه فقال :

ــ أن قطع الأثاث الحديثة تصنع بطريقة فيها كثير من الاستخفاف . وفى أيام شبابى حين كنت اكثر نشاطا منى الآن ، لا أذكر أنى كسرت كرسيا قط ، الا فى الحانات بذراعى !

فابتسم سان اينيان ، بينما استطرد بورتوس يقول :

ــ على أن ذلك لا علاقة له مطلقا بزيارتى هذه يا سيدى ، فقد جئت لكى أقول لك : انك أهنت صديقا لى اهانة شديدة !

فتساءل سان اينيان متعجبا : « انا يا سيدى أهنت صديقا لك ؟ !.. أتسمح بذكر اسمه ؟ »

فقال : « اسمه المسيو راؤول دى براجلون »

فصاح سان اينيان : « اننى لا أعرفه الا معرفة سطحية ، بل الواقع أنى لا اعرفه مطلقا ، ثم هو يقيم بانجلترا منذ وقت طويل ، فمن المحال أن أكون قد أهنته ! »

فقال بورتوس فى هدوء : « ان المسيو دى براجلون فى باريس يا سيدى ، وانا أؤكد لك أنك أهنته ، ما دام هو نفسه قد أخبرنى بذلك . أجل يا سيدى لقد أهنته اهانة بالغة مميتة !. ولا يمكن أن تكون غير عالم بذلك ، لأن المسيو دى براجلون ذكر لى انه اخبرك به فى مذكرة تركها لك اليوم ! »

فقال سان اينيان : « اقسم لك بشرفى أنى لم أتسلم أية مذكرة منه . وسأقنعك الآن بصحة ما أقول ! »

ثم دق الجرس يدعو الخادم فلما جاء هذا سأله : « كم عدد الخطابات والمذكرات التى وصلت الى اليوم أثناء غيابى ؟ »

فقال الخادم : « عددها ثلاثة يا سيدى الكونت : مذكرة المسيو دى فيسك ، وأخرى من مدام لافيرتيه ، وخطاب من المسيو دى لاس فوينيتيس »

فأشار له سان اينيان الى بورتوس وقال له :

ــ أريد يا باسك أن تذكر الحقيقة كاملة أمام هذا السيد . ولن يلومك أحد قط !

فقال باسك : « كانت هناك أيضا مذكرة من ... من الآنسة دى لا فاليير ... »

فقاطعه بورتوس قائلا لسان اينيان : « هذا يكفى !.. انى أصدقك يا سيدى الكونت »

فصرف سان اينيان الخادم وتبعه الى الباب لكى يوصده خلفه . ولما فعل

ذلك نظر امامه عفوا فرأى فى قفل الجناح المجاور تلك الورقة التى دسها براجلون فقال : « ما هذا ؟ مذكرة فى ثقب المفتاح ؟ ! »

وكان بورتوس جالسا وظهره الى الغرفة ، فاستدار ليرى ما هناك ، ثم قال : « لعلها المذكرة التى حدثتك عنها يا سيدى الكونت ؟ »

فنظر سان اينيان الى الورقة وصاح قائلا : « مذكرة من المنيو دى براجلون ؟ !. هذا أمر شائن !. كيف استطاع المجيء الى هنا ؟ »

ثم عاد فدق الجرس ، ولما جاء الخادم سأله غاضبا : « من الذى جاء الى هنا أثناء غيابى ؟ »

فقال الخادم : « لا يمكن ان يكون أحد قد دخل هنا يا سيدى لأنى أحفظ المفاتيح فى جيبى »

فقال له : « لقد وجدت هذا الخطاب فى ثقب المفتاح ، ولا بد ان أحدا وضعه فيه لأن الخطاب لا يستطيع أن يأتى وحده ! »

فبسط باسك كفيه دلالة على جهله كل شيء عن هذا الموضوع . وقال بورتوس :

ــ ربما كان المسيو دى براجلون نفسه هو الذى وضعه هنا

فقال الخادم بعناد : « كلا يا سيدى !.. لأنه ليس فى استطاعة أحد أن يدخل الى هنا والمفتاح فى جيبى ؟ »

فضغط سان اينيان على الخطاب فى يده بعد ان قرأه وتمتم قائلا :

ــ ان فى هذه المسألة سرا خفيا !

وتركه بورتوس يفكر قليلا ثم عاد الى المهمة التى جاء من اجلها فقال له بعد أن خرج الخادم :

ــ الا نعود لمسألتنا الصغيرة يا سيدى ؟

فقال سان اينيان : « احسبنى أستطيع فهمها من هذه المذكرة التى وصلت الى هنا بطريقة خفية . لقد كتب فيها المسيو دى براجلون أن أحد اصدقائه سيزورنى لكى يطلبنى للمبارزة ، وهو يشكو من اننى أهنته ! »

فقال بورتوس : « اننى انا ذلك الصديق الذى أشار اليه ، وانا على يقين من انك أهنته ، واذا كان مسلكه خفيا كما تقول فان اللوم يقع عليك انت ! »

ثم نهض وانحنى أمام سان اينيان باحترام وقال :

ــ انك يا سيدى قد غيرت مسكنك ، وهذه أول اهانة منك للمسيو دى براجلون !

فقال سان اينيان : « كيف يكون فى تغيير مسكنى اساءة الى المسيو دى براجلون ؟. هل لك يا سيدى أن تتفضل بشرح ذلك لأنى لم أفهم منه شيئا ؟ »

فقال له بورتوس : « هذا هو السر الاول الذى يشكو منه المسيو دى

براجلون . وما كان ليشكو منه لولا شعوره بأن فيه اهانة له ! »

فضرب سان اينيان بقدمه الارض فى غيظ وقال : « يبدو أن هناك سوء تفاهم !. وعلى كل حال .. هل هناك شيء آخر يشكو منه المسيو دى براجلون ؟ »

فقال بورتوس : « يكفى يا سيدى انك لم تجد ما تبرر به الاهانة التى لحقت بالمسيو دى براجلون من جراء تغييرك مسكنك ! »

فصاح سان اينيان وقد نفد صبره : « اكان ينبغى لى أن أستشير المسيو دى براجلون قبل أن ابدل مسكنى ؟ !. لا يمكن ان تكون جادا فى هذا يا سيدى ! »

فقال بورتوس فى هدوء : « على أى حال ، انا موقن بأن صديقى دى براجلون قد اهين بذلك التصرف .. وهناك اهانة اخرى لم نتحدث عنها بعد ، وأعنى بها وجود الباب السرى ! »

وهنا شحب وجه سان اينيان ، ودفع كرسيه بغتة الى الوراء بحيث ادرك بورتوس ، على بساطته ، أن الرمية قد أصابت . ثم تمتم سان اينيان قائلا : « الباب السرى ؟ ! »

فقال بورتوس : « اجل يا سيدى !. فهل وضح الأمر الآن ؟ »

فطاطأ سان اينيان رأسه وتمتم قائلا : « لقد خاننى أحد . لقد عرف كل شيء ! »

فقال بورتوس دون أن يفقه شيئا :

ــ ان ضميرك مثقل بالذنوب يا سيدى ، وموقفك صعب. واذا علم الناس كل شيء عن الموضوع ...

وكان بورتوس يقول ذلك عفوا ولكن سان اينيان ارتاع وقال له :

ــ كلا يا سيدى !.. ان مثل هذا السر لا يصح أن يعرفه أحد ، حتى ولا القس الذى يتلقى الاعتراف !. وما دام المسيو دى براجلون قد وقف على السر ، فلا ريب انه يدرك الخطر الذى تعرض له هو وغيره !

فقال بورتوس : « ان المسيو دى براجلون ليس معرضا لأى خطر ، وهو لا يهاب شيئا كما سترى بنفسك قريبا ! »

فقال سان اينيان لنفسه : « ان هذا المخلوق مخبول العقل ولا شك فى ذلك »

ثم قال لبورتوس : « فلندفن هذا السر ! »

فقال بورتوس : « بقى أمر ثالث بعد تغيير المسكن والباب السرى ، وذلك هو امر الصورة المعلقة ... »

فحملق فيه سان اينيان فى دهشة وقال : « آه ؟ !.. صورة لافاليير . لقد تذكرت يا سيدى !.. ان المسيو دى براجلون كان قد خطبها أليس كذلك ؟ »

فاتخذ بورتوس هيئة الرزانة والوقار ، مع جهله بالموضوع كله ، وقال :

— لا يهمنى مطلقا ولا يهمك أنت أيضا ان كان قد خطبها أم لم يخطبها . بل أنا فى دهشة من اشارتك الى ذلك ، فقد يسىء هذا الى موقفك !

فقال سان اينيان : «سيدى ، لقد تجسم فيك الذكاء والرقة والاخلاص .. لقــد وضح الأمر لعينى الآن ، بعد أن بينتــه لى بطريقــة غاية فى الرقة والكياسة . فاقبل يا سيدى منى جزيل الشكر ! »

فسر بورتوس بهذا المديح الذى لا يستحقه ، بينما واصل سان اينيان كلامه فقال :

— والآن وقد وقفت على كل شيء ، اسمح لى أن أوضح ...

فهز بورتوس رأسه دلالة على انه لا يريد أن يسمع ، واستطرد سان اينيان قائلا :

— انى فى دهشة حقا من كل ما وقع . ولكن .. لو انك كنت فى مكانى ، ماذا كنت تفعل ؟. تعال .. خبرنى فيما بيننا !

فقال له بورتوس : « أيها الشاب ، لا مجال للسؤال عما كنت أفعله . انك الآن قد وقفت على الأسباب الثلاثة لشكاية صديقى منك »

فقال سان اينيان : « أما السبب الاول ، اعنى تغييــر مسكنى ، فليس يخفى على فطنتك اننى ما كنت أستطيع الا أن افعل ذلك تنفيذا لرغبة الشخصية العظيمة التى يجب أن تطاع »

وهم بورتوس بالرد ولكن سان اينيان لم يدعه يتكلم وقال :

— آه !. ان صراحتى قد اقنعتك .. انك تشعر بانى على صواب !

فلم يجب بورتوس واستمر سان اينيان فى كلامه فقال :

— انى امر من ذلك الباب السرى . ذلك الباب الذى هو أداة شقاء كثير ، والذى صنع لأجل ... انت تعرف طبعا ... افتحسب اذن انى انا من تلقاء نفسى أمرت باقامة ذلك الباب ؟ كلا !. انك لا تصدق ذلك .. وهنا ايضا لا بد لك ان تقدر تأثير ارادة تلك الشخصية العظيمة ، بل تستطيع أن تتصور الوله بل العاطفة العمياء التى حفزت الى ذلك . ولا شك أن من حسن حظى أنى أحدث رجلا مثلك أوتى عقلا راجحا وشعورا رقيقــا . ولولا ذلك لوقعت الفضيحة على تلك الفتاة البائسة وعلى تلك الشخصية العظيمة !

فشعر بورتوس بالحيرة والدهشة حيال هــذا البيان ، وحاول أن يصد تدفق الكلام من فم سان اينيان ، ولاسيما أنه لم يفهم كلمة منه ... ومكث منتصب القامة بلا حراك فى مقعده . ثم استطرد سان اينيان فقال بصوت متهدج من فرط التأثر :

— أما الصورة ، وأنا أعتقد أنهــا السبب الرئيسى للشــكوى ، فقل لى صراحة : هل انا الملوم ؟ أانا الذى أردت أن ترسم لها صورة ؟.. أم أنا الذى شغفت بها حبا ؟. أو سعيت فى سبيل كسب محبتها ؟. كلا يا سيدى !.. وقد يكون المسيو دى براجلون فى حالة يأس بسبب نكبته القاسية . ولكنى أنا ايضا أتألم !.. ومع هذا لا مجال للمقاومة . وافرض أننا قاومنا ، سنكون موضع السخرية. واذا أصر على مسلكه فانه ضالع لا محالة. والآن.. اتبين فى ملامحك الجادة أنك قد فهمتنى ، وانك قدرت الموقف الدقيق الذى نحن فيه . وعلى هذا أرجو أن تعود الى المسيو دى براجلون وتقدم له شكرى ، على أن اختار وسيطا له مثل كفايتك . وثق بأنى سأظل أذكر صنيع الرجل الذى عرف كيف يزيل بلباقته سوء التفاهم الذى قام بيننا . ولما كان سوء الطالع قد أبى الا أن يعرف السر أربعة أشخاص بدلا من ثلاثة ، فانه ليسرنى أن أشاركك فى هذا السر . ومنذ الآن أرجو أن تعدنى صديقــا لك ، وأن تضعنى فى خدمتك . وما عليك الا أن تتكلم لأؤدى لك أية خدمة تريدها !

فقال له بورتوس : « سيدى .. ان أمام الباب جوادا ينتظر ، وهو جواد أصيل تستطيع أن تركبه ... »

فقال سان اينيان : « أركبه ؟ ! ولماذا ؟ »

فقال : « لكى تصحبنى الى حيث ينتظرك المسيو دى براجلون ! »

فهز سان اينيان رأسه دلالة على أنه فهم وقال : « انه يريد أن يتحدث معى ليقف على التفاصيل ؟. لكن وا أسفاه يا سيدى !. انها مسألة دقيقة ، ولست أستطيع مغادرة القصر الآن لأن الملك ينتظرنى ! »

فقال بورتوس : « على الملك أن ينتظر اذن !. ان الأمر لن يســتغرق سوى ساعة واحدة ! »

فسأله سان اينيان : « أين ينتظرنى المسيو دى براجلون ؟ »

فقال بورتوس : « انه ينتظر فى غابة فنسين عند مينيم ! »

وسكت سان اينيان قليلا ثم قال : « أليست مينيم هى المكان الذى تقع فيه المبارزات ؟.. اذن .. ماذا نفعل هناك ؟ »

فاستل بورتوس سيفه وقال : « ان سيف صديقى طول هذا السيف ! »

فصاح سان اينيان قائلا : « ماذا تقول ؟.. لا شك أنك جننت ! »

فاحمر وجه بورتوس من الغضب وقال له : « لولا أنى فى بيتك ، ولولا أنى أمثل المسيو دى براجلون ، لقذفت بك من النافذة !.. والآن ماذا ترى : أتأتى معى الى مينيم طوعا .. أم تضطرنى الى أن أحملك حملا ؟ »

وهنا صاح سان اينيان يدعو (باسك) خادمه . ودخل هذا وقال له :

— سيدى .. ان الملك ينتظر فخامتك !

فنهض بورتوس وقال : « حسنا يا سيدى .. سأتركك الآن ريثما تفرغ من مقابلة الملك .. والى اللقاء مساء اليوم »

منافسة سياسية

عاد الملك لويس الرابع عشر من نزهته الشاعرية السعيدة الى القصر ، فعلم أن المسيو فوكيه ينتظر هناك ، كما أن المسيو كولبير ينتظر بالردهة

وكان كولبير من الساسة الذين لا يعجبون الا بالبراعة والدهاء ، ولا يرون فى الحياة غاية أحق بالعناية من الفوز بالمآرب . على أنه لم يكن رجلا حسودا حقودا فقط ، بل كان فى الواقع يهمه صالح الملك والدولة ، وكان على أقصى درجة من النزاهة فى كل ما يتعلق بالحسابات والأرقام ، وقد حدث نفسه بأنه انما يكره فوكيه ويسعى فى ابعاده تحقيقا لصالح الدولة ورعاية لكرامة التاج . ولم يفت فوكيه شىء مما يدور بخلد عدوه بل كان ينفذ بنظرة منه الى أعماق فؤاده ، ويتبين ما يكنه من الحقد له ومن الفرح بالظفر القريب ، لكنه جاهد لاخفاء عواطفه حتى لا يعرف خصمه ما فى قرارة نفسه ، وظل رابط الجأش ، لا تدل ملامحه على شىء ، بل يبتسم ابتسامته الرقيقة التى عرف بها

وكان كولبير جالسا فى حضرة الملك حين دخل عليه المسيو فوكيه ، فلم يكلف هـذا نفسه عناء النظر الى منافسه اللدود بل اتجه الى الملك بكل مشاعره فى اجلال ولباقة قائلا : « انى يسعدنى حقا أن أرى فى وجه مولاى صاحب الجلالة دلائل الرضا عن نزهة اليوم ! »

فقال الملك له : « حقا !. لقـد كانت نزهة طيبة يا جناب الوزير ، ولقد فاتك بتخلفك عنها خير كثير ! »

فقال فوكيه فى أسف واعتزاز : « كنت مشغولا بالعمل يا مولاى ! »

وواصل الملك كلامه فقال : « آه لو كنت معنا يا مسيو فوكيـه ! . ان جمال الريف لا يعدله اى جمال آخر . وددت لو أعيش دائما هناك حيث الهواء الطلق والأشجار الوارفة الظلال .. ان الجلوس على بساط العشب الأخضر الناعم لهو شىء مريح حقا ! »

فانتهز فوكيه هذه الفرصة وقال : « ان جلالتك اذ تقول ذلك انما تحقق أمنية هى أعز أمانى ، وقد جئت اليوم معتزما رفع أمرها الى مقام مولاى ! »

فسأله الملك : « أية أمنية تعنى ؟ » . فأجاب بقوله : « لقـد تفضلت جلالتك يوما فوعدتنى وعدا ... »

وأومأ الملك براسه دلالة على انه يذكر ذلك ، بينمـا تدخل كولبـير فى الحديث ليثبت وجوده ، وقال للملك :

ـ أظن يا مولاى أن ذلك الوعد كان فى شأن المهرجان التقليدى المشهور الذى يقام بمنطقة فو ؟

على أن فوكيه تجاهل عبارة كولبير ، بل تجاهل قائلها نفسه ومضى فى حديثه قائلا دون أن يعيره أى التفات :

ـ ان جلالة الملك يعلم انى اعددت مزرعتى فى (فو) كيما تليق لاقامة مهرجان فخم يشهده صاحب الجلالة ومن يختارهم من المقربين ، كما وعد جلالته بذلك

فابتسم لويس الرابع عشر وقال : «لقد وعدتك ، والملك لايخلف وعده ! »

فانحنى الوزير شاكرا وقال : « انى لعلى استعداد لتنفيذ كل التعليمات التى يتفضل بها صاحب الجلالة فى هذا الشأن »

فقال له الملك بعد ان وجه نظرة عجلى الى كولبير :

ـ هل يعدنا جناب الوزير بعجائب كثيرة فى المهرجان ؟

فبقى كولبير مطرقا ، وسارع فوكيه الى الاجابة عن السؤال الملكى فقال :

ـ ان مولاى يعلم انى لا أدعى الاتيان بالعجائب ، ولـكنى أبذل جهـد استطاعتى لأوفر لمولاى ما يدخل على قلبه السرور

فقال الملك مزهوا : « انك حقا جدير بأن تأتى بالعجائب . انك ساحر يا جناب الوزير ، ونحن جميعا نعرف مقدرتك ونعرف أنك تستطيع أن تجد الذهب حيث لا يلقى غيرك الا التراب . ألم تعلم بما يدور عن معجزاتك هذه على ألسنة الناس ؟ »

فشعر فوكيه بما وراء عبارة الملك من معان خفية ، وأيقن أن كولبير له نصيب كبير منها ، برغم استمراره فى التجاهل . ورأى أن يسـتمر هو أيضا فى تجاهل كولبير ، فابتسم وقال للملك :

ـ ان النـاس يعلمون تمام العلم من أى منجم احصـل على الذهب ، ومولاى يعلم ذلك قبلهم !. على انى مع هذا أؤكد لصاحب الجلالة أن الذهب لنفقات مهرجان (فو) لا يساوى الا قليلا من الجهود التى بذلت فى سبيل تدبيره !

فسكت الملك ، ولم يجد من اللائق به أن ينظر الى كولبير ليرى مدى تأثره برد فوكيه ، وهم كولبير بأن ينظر الى الملك ، ولكن فوكيه أسكته بنظرة كبرياء كنظرة النسر . ثم تمالك الملك أعصابه والتفت الى فوكيه قائلا :

ـ هل اعد نفسى الآن مدعوا الى المهرجان ؟.. فى أى يوم اعتزمت اقامته ؟

فقال فوكيه : « فى اى يوم تراه جلالتك مناسبا لذلك »

فقال له الملك : « انك تتكلم كساحر يستخدم الرقى ويجعل من اعجب التخيلات حقائق لا شك فيها ! »

فقال فوكيه : « ذلك بفضل رضا مولاى صاحب الجلالة ، وليس لخدم

جلالتكم الا ان يعملوا جاهدين لينالوا رضاكم الكريم ! »

وحاول كولبير ان ينظر الى فوكيه ، ولكن هذا لم يلتفت اليه ، وبقى ينظر الى الملك ، وقال هذا أخيرا :

ـ هل يمكن أن يقام المهرجان بعد اسبوع من اليوم ؟

فقال فوكيه : « أجل يا مولاى » . وعاد الملك يقول : « « نحن الآن فى يوم الثلاثاء ، وأمامك مهلة حتى يوم الأحد بعد القادم »

فبدا السرور واضحا على محيا فوكيه وقال : « ان المهلة التى تفضل بها صاحب الجلالة ستساعد كثيرا على انجاز الاعمال المختلفة التى يقوم بها المهندسون الآن »

فابتسم الملك بدوره وقال : « هل جناب الوزير كون فكرة عن المدعوين ؟ »

فقال فوكيه : « ان جلالة مولاى هو السيد الآمر فى كل مكان ، وانى لفى انتظار تفضل جلالته باصدار التعليمات لدعوة من شاء ، وسأكون فى خدمة جلالته وجميع مدعويه ! »

فتأثر الملك بلهجة النبل هذه وقال : « شكرا لك يا جناب الوزير »

ثم استأذن فوكيه فى الانصراف ، بعد أن استمع لبعض الارشادات الملكية فى شؤون عامة . وخيل اليه وهو ينصرف أن كولبير قد تنفس الصعداء ، ولا يلبث قليلا حتى يعود الى دسائسه ضده لدى الملك ، فرأى الا يمضى قبل أن يوجه اليه ضربة أخيرة قاسية ، والتفت الى الملك بعد أن بلغ الباب ، وقال له :

ـ عفوا يا صاحب الجلالة !.. لقد أتيت خطأ جسيما دون أن أنتبه اليه !

فقال الملك متعجبا : « اى خطأ ؟.. انك يا جناب الوزير لم تخطىء فى شىء ! »

فقال فوكيه : « كان على أن أخبر جلالتك بأمر قليل الأهمية خاص بى وقع أخيرا ... »

فارتعد كولبير ، اذ حسب أن فوكيه سيفضحه ويكشف للملك ما كان من مسلكه نحوه ، ثم اشتد روعه حين سمع فوكيه يقول للملك :

ـ اننى فى صباح هذا اليوم بعت أحد مناصبى الرسمية التى اشغلها !

فسأله الملك : « أى هذه المناصب تعنى ؟ »

فأجاب قائلا : « منصب النائب العام ! »

فبدت الدهشة على الملك ، والتفت على الرغم منه الى كولبير الذى كاد يغمى عليه . ثم قال لفوكيه : « لمن بعت هذا المنصب يا جناب الوزير ؟ »

فقال : « بعته الى مستشار بالبرلمان يدعى فانيل .. وهو صديق للمسيو كولبير ! »

وقد حرص فوكيه على أن ينطق بهذه العبارة الاخيرة وكأنه ينطق بها عفوا دون اهتمام . فزاد هذا فى قلق كولبير . وما كاد يطمئن قليلا بعد انصراف فوكيه حتى نظر الى الملك ، فسأله هذا :

ـ كيف يقع فوكيه فى مثل هذا الخطأ ؟

فلم يجب كولبير ، لكنه شعر بالارتياح لادراك الملك جسامة الخطأ الذى ارتكبه فوكيه ببيع ذلك المنصب ، وأيقن أن أول خطأ يرتكبه فوكيه سيعرضه للنكبة التى لا وقاء له منها

ودعا الملك كولبير الى مهرجان فو ، فانحنى شاكرا . وهم الملك بأن يكتب اسم الكونت دى سان اينيان فى قائمة المدعوين واذا بالحاجب قد جاء يعلن قدومه ، فاستأذن كولبير فى الانصراف ، وخرج قبل أن يدخل سان اينيان

لم يكن قد مضى أكثر من ساعتين على انصراف سان اينيان من حضرة الملك ، ولكنه كان يعلم أن الملك فى فورة حبه لافاليير ، يروقه أن يسمع منه أى حديث عنها ، ولا يكاد يستغنى عنه لهذا السبب

وقال له الملك حين رآه داخلا : « لقد جئت فى الوقت المناسب ، فانت ولا شك ستكون من المدعوين الى المهرجان ! »

فبدت الدهشة فى وجهه وقال : « أى مهرجان يا مولاى ؟ »

فقال الملك : « سنسافر جميعا الى (فو) .. حيث يقيم وزير المالية مهرجانا كبيرا يجمع فيه كل أسباب التسلية ! »

فقال سان اينيان : « هل وزير المالية يقيم هذا المهرجان تكريما لجلالتك فقط ؟ »

فقال الملك : « نعم ، ولكن الناس لا يكادون يعلمون بأن المسيو فوكيه سيستقبلنى هناك يوم الأحد القادم ، حتى يبذلوا قصارى جهدهم لكى يدعوا الى المهرجان !. اما انت فمدعو اليه طبعا منذ الآن ! »

فقال : « انى لأشكر مولاى كل الشكر على تكريمى بالدعوة الى هذه الرحلة السعيدة .. ولكنى أخشى الا أستطيع القيام بها ، لأن لدى رحلة أخرى قبل هذا الموعد ! »

فسأله الملك متعجبا : « وما هذه الرحلة الاخرى ؟ » . فأجاب : « رحلة أطول جدا ، لكنها أقل سرورا ، لأنها رحلة الى العالم الآخر ! »

فضحك لويس الرابع عشر ولكن سان اينيان استمر يقول :

ـ انى اتكلم بجد يا مولاى ، فقد دعيت الى رحلة من هذا القبيل . وقد تلقيت الدعوة بصورة لا أدرى معها ماذا أقول أو أفعل لكى ارفضها !

فقال الملك : « انى لا أفهمك ! . وأنا أعرف انك شاعر ، لكنى أرجو أن

تحاول ان تهبط قليلا من عالم الشعر الى عالم الحقيقة ! »

فقال : « اتعرف جلالتك البارون دى فالون ؟ »

قال : « أجل !. لقد كان من خدام أبى المخلصين ، وهو رفيق مسل على المائدة . ألست تقصد ذلك السيد الذى تناول الطعام معنا فى فونتينبلو ؟ »

فقال : « أجل يا مولاى !. ولكن جلالتك لم تذكر ضمن مزاياه انه قاتل من أحسن أنواع القتلة ! »

فسأله الملك : « ماذا تقول ؟. هل المسيو دى فالون يريد ان يقتلك ؟ »

فقال : « أو يريد أن يرانى مقتولا ، والنتيجة واحدة على كل حال ! »

فضحك الملك ، ثم اخذ سان اينيان يشرح له الامر ، فلما انتهى من ذلك قال له الملك :

— اطمئن ، فسأدافع عنك ، اذا كان هو المخطىء !

فقال : « ان جلالتك ستكون الحكم . والواقع أنى لم أفعل شيئا يغضبه ، ولكن يبدو ان أحد اصدقائه يحسبنى أسأت اليه !. وصديقه هـذا ابن واحد من الفرسان المشـهورين ، وهو يزعم أنى ساعدت غيره على أخذ حبيبته منه ! »

وهنا سأله الملك : « وهل هـذا الأمر صحيح ؟ » . فقـال : « نعم . أعترف بأنه صحيح ! »

فقال الملك : « فى هذه الحالة تكون أنت المخطىء ، واذا قتلك فانه يكون على حق ! »

فقال سان اينيان : « انها طريقة سريعة على أى حال ! »

فقال الملك : « ان العدالة الطيبة سريعة الأداء . هذا ما كان يقوله جدى هنرى الرابع ! »

فقال : « فى هذه الحالة أرجو من جلالتك أن توقع أمرا بالعفو عن خصمى لانه ينتظر الآن فى مينيم لانهاء شقائى ! »

قال : « اذكر اسمه ، وائتنى بورقة »

فقال : « يوجد ورق على مكتب جلالتك . أما اسمه يا مولاى ، فهـو الفيكونت دى براجلون »

فصاح الملك وقد تبدل سروره ذهولا : « الفيكونت دى براجلون الذى كان خطيب ... »

فقال سان اينيان : « اجل يا مولاى ! »

فقال : « ولكنه فى لندن ؟ » . قال : « أؤكد لك يا مولاى أنه لم يعد هناك الآن ! »

فسأله « هل هو فى باريس اذن ؟ »

— انه فى غابة مينيم يا مولاى ، فى انتظارى ، كما تشرفت باخبارك منذ لحظة

— ايعلم كل شىء ؟

— أجل ، وأشياء أخرى كثيرة ، فضلا عن ذلك . لعل جلالتك تحب أن تلقى نظرة على الخطاب الذى وصل الى منه

واخرج سان اينيان من جيبه خطاب راءول ثم قال :

— بعد أن تقرأ جلالتك هذا الخطاب سأخبرك كيف تسلمته

فقرأ الملك الخطاب وهو فى هياج ظاهر . ثم قال له سان اينيان :

— ان جلالتك تعرف قفلا معينا موضوعا فى باب معين من خشب الآبنوس يفصل بين جناح معين وبين محراب معين ذى لون أبيض وازرق

فسأله : « لعله مخدع لويز ؟ .. اليس كذلك ؟ »

فقال : « أجل يا مولاى . لقد وجدت هذا الخطاب فى ذلك القفـل .. ولست أدرى من وضعه هناك : أهو المسيو دى براجلون أو الشـيطان نفسه ؟. ولكن لما كان تفوح منه رائحة الكهرمان لا الـكبريت فالأرجح أن براجلون هو الذى وضعه ! »

فاطرق الملك ، واستغرق فى تفكير حزين . وربما شعر فى تلك اللحظة بشىء من وخز الضمير . ثم قال : « لقد كشف السر اذن ؟ ! »

فقال : « سأبذل قصارى جهدى لكى يدفن ذلك السر فى صدر الرجل الذى يعرفه ! »

وتظاهر بالشجاعة ، ومضى صوب الباب ، فقال له الملك : « الى اين ؟ » ..

فقال : « الى حيث ينتظرنى الفارس الصغير .. للمبارزة ! »

واومأ سان اينيان مؤكدا انه راغب فى المبارزة حريص عليها ، وبدا فى هذه اللحظة أشبه بطفل عنيد يصر على الانتحار أو يترك ليستمر فى اللعب بمدية فى يده . ولكن الملك استوقفه وسأله :

— من اين علمت بأن المسيو دى براجلون دخل تلك الغرفة ؟

فقال : « علمت ذلك من الخطاب الذى وجدته فى ثقب المفتاح !. صحيح ان أحدا لم يذكر لى أن دى براجلون هو الذى وضعه هناك بنفسه ، ولكن .. من ذا الذى يجرؤ على ذلك غيره ؟ ! »

فعاد الملك يسأله : « لكن كيف استطاع الدخول الى غرفك ؟ »

فقال سان اينيان : « هذا أمر خطير حقا يا مولاى !. ان جميع الأبواب كانت مغلقة ، والمفاتيح كانت فى جيب (باسك) خادمى »

فسأله : « أليس من الجائز أن يكون خادمك اخذ رشوة ؟ ! »

فأجاب قائلا : « هذا محال يا مولاى . لانه لو قبل الرشوة لحرص الذين

رشـوه على كتمان امره للانتفـاع به فى خدمات أخرى مماثلة بدل أن يكشفوه ! »

فأومأ الملك برأسه موافقا وقال : « اذن .. لم يبق الا أن يكون أحد قد تمكن من الدخول بوساطة السلم ؟ »

فقال سان اينيان : « هذا ما أرجحه يا مولاى ، وارى أن أحدا قد باع سر الباب الخفى أو تبرع بافشائه ، فهناك أشخاص معينون هم فوق ثمن الخيانة ، وهم لذلك يعطون ولا يبيعون ! »

فبدت الدهشة فى وجه الملك ، ثم اطرق هنيهة مفكرا ، وقال أخيرا :

ــ ان كنت تقصد المدام ، فانت على صـواب !. وأحسـبها قد ثارت شكوكها من تغيير مسكنك ؟

فقال سان اينيان : « ان لدى المدام مفاتيح لغرف وصيفاتها ، ولها من السلطان ما يمكنها من كشف أى سر تشاء »

وقال الملك : « اذن .. أنت تحسب أن زوجة أخى تحالفت مع براجلون وأخبرته بتفاصيل المسألة ؟ »

فقال : « نعم يا مولاى ، ولعلها زادت على ذلك فصحبته الى حيث أراد الوصول ، وقد تعلم جلالتك أن للمدام خبرة بالروائح العطرية ، ولاسيما عطر (اللويزا) الذى تؤثره على غيره »

فسكت الملك وأخذ يفكر ، ثم قال بعد هنيهة : « ولكن لماذا تنتصر المدام لبراجلون ضدى ؟ »

ونظر الى سان اينيان ليتبين اهو على علم بسر مغازلته لزوجة أخيه ؟. ولكن سان اينيان كان أحصف من أن يجـازف بكشف مثل ذلك السر ، فأجاب قائلا :

ــ ان جلالتـك تنسى على ما أظن أن دى جيش هو الصـديق الحميم للفيكونت دى براجلون !

فقال الملك : « لست أجهل هـذه العلاقة ، ولكن ما صلتها بمسألتنا هذه ؟ »

فقال سان اينيان : « عفوا يا مولاى !.. أليس الكونت دى جيش من أصدقاء المدام ؟ »

فقال الملك : « اذن .. جاءت الضربة من هذه الناحية ، ولا بد من أن نضرب من جانبنا ضربة قوية ، ولكن على ألا تكون من نوع الضربات التى تتبادل فى غابة فنسين ! »

فقال سان اينيان : « لكنك تعلم يا مولاى أنى طلبت للمبارزة ، وهناك من ينتظرنى فى مينيم منذ ساعة . وسأفقد شرفى اذا لم أذهب الى هناك ! »

فقال الملك : « انك لست المقصود بذلك التحدى ، وأول واجب عليك

ان تطيع مليكك قبل كل شيء . وها انذا آمرك بألا تذهب . كما انى اريد الوقوف على كل صغيرة وكبيرة فى هذه المسألة لأعرف من المسـئول عن الاستخفاف بى والتجسس على محراب عواطفى بمثل تلك الوقاحة .. ان الاعتداء وقع على شرفى يا مسيو سان اينيان ، وهذا ادعى الى أن تنزل بالمعتدين أقصى ما تستطيع من عقاب ! »

فقال سان اينيان : « انى أتوسل الى جلالتك الا تمعن فى غضبك على المسيو دى براجلون .. ان ولاءه لا تشوبه شائبـة برغم ما بدا من قلة تبصره ! »

فأشار اليه الملك أن يسكت قائلا له : « كفى !. سأعرف كيف أفرق بين العدل والظلم مهما يشتد بى الغضب . ولكن حذار أن تصل كلمة من كل ذلك الى المدام ! »

فقال سان اينيان : « ولكن ماذا أصنع ازاء المسيو دى براجلون ؟ انه سيبحث عنى فى كل مكان و ... »

فقطع الملك كلامه قائلا : « لن ينتهى هذا المساء حتى أكون قد كلمته أو بعثت اليه من يكلمه ! »

وحاول سان اينيان أن يعود الى استعطاف الملك ليكون رحيما بالمسيو دى براجلون ، ولكن الملك أسكته وقال وهو مقطب الجبين :

ــ لقد كنت رحيما أكثر مما ينبغى يا كونت . وقد حان الوقت لأن أبين لبعض الناس أنى سيد قصرى !

وهنا ظهر حاجب بالباب وقال للملك :

ــ مولاى .. ان الكونت دى لافير ينتظر الاذن له فى المثـول بين يدى جلالتك !

فتبادل الملك وسان اينيـان نظـرة تدل على القلق أكثر مما تدل على الدهشـة ، ثم قال له الملك بعد هنيهة :

ــ اذهب الآن الى لويز ، واخبرها بالدسيسة التى حيكت ضـدنا . وصارحها بأن المدام ستعود الى اضطهادها ، وبأنها بدأت تستخدم فى ذلك أناسا كان خيرا لهم لو بقوا على الحيـاد ! . ولا تنس أن تطمئنهـا قدر استطاعتك . وأن تؤكد لها أن حب الملك لها كفيل بأن يقيها كل سوء. واذا كانت كما أتوقع قد تعرضت لهجوم من اى أحد فلا تنس أن تؤكد لها اننى فى هذه الحالة لن اكتفى بأن أدافع عنها ، بل سأنتقم لها انتقاما رهيبا يردع كل انسان فى المستقبل عن أن يرفع بصره اليها !

فتناول سان اينيان يد الملك وقبلها ، ثم غادر الغرفة والدنيـا لا تكاد تسعه لفرط شعوره بالسعادة !

السيف المكسور

استعاد الملك رباطة جأشه بأسرع ما يستطيع ، حتى لا يبدو مضطربا أمام الكونت دى لافير . وقد أدرك أنه ليس من المصادفة أن يزوره الكونت فى ذلك الظرف ، بل لابد لهذه الزيارة من أسباب مهمة . ودخل الكونت بعد قليل مرتديا ثيابه الرسمية ، وعلى صــدره من الأوسمة مجموعة لم يتح مثلها لغيره من رجال البلاط . وكانت هيئته تنطق بما رجح ظن الملك، فخطا خطوة نحوه وهو يبتسم ، ومد اليه يده ليصافحه ، فانحنى الكونت فى اجلال عميق ، بينما قال الملك :

— أى حظ حسن جاء الينا اليوم بالكونت دى لافير ؟

فانحنى الكونت مرة أخرى وقال : « ان أكبر أمنيــــة لى أن أنعم دائما بالقرب من صاحب الجلالة ! »

وأدرك الملك ما يرمى اليه دى لافير فقال له متكلفا الابتسام : « يلوح لى أن لديك ما ترغب فى التحدث عنه،وانه ليسرنى حقا أن أحقق أية رغبةلك!»

ثم جلس ، وتطلع الى الكونت مرهفا سمعه لما سيقوله ، فقال هــذا فى تأثر ملحوظ : « انى لعلى يقين من أن صاحب الجلالة سيمنحنى شرف النظر بعين العدل والعطف فيما أعرضه على مسامعه . ولعل صاحب الجلالة يذكر ما أولانيه من العطف الكريم حين تشرفت بمقابلته بعد سفر دوق بكنجهام؟»

فأومأ الملك برأسه موافقا وقال : « نعم ، اننى أذكر تلك المقابلة ، غير أنى نسيت موضوع الحديث »

فقال الكونت : « كان الحديث عن التماسى من جلالتكم الموافقة على زواج المسيو دى براجلون بالآنسة دى لافاليير ! »

فقال الملك لنفسه : « ها هو ذا قد دخل فى الموضــــوع » . ثم قال للكونت :

— نعم ، لقد تذكرت ذلك الآن . كما تذكرت أنك صرحت لى بأنك قدمت ذلك الطلب على غير رغبة منك

فجاهد الكونت نفسه ليحتفظ بهدوئه وقال : « لقد وعت ذاكرتى كل كلمة سمعتها من صاحب الجلالة حينذاك ، وقد وضح لى مدى العناية الكبيرة التى يختص بها مولاى مسيو دى برآجلون ، من المبادرة برفض الموافقة على ذلك الزواج »

فقال الملك : « هذا صحيح »

واستطرد الكونت فقال : « وكانت حجة صاحب الجلالة أن تلك الآنسة ليس لها مركز فى المجتمع ، كما أنها ضئيلة الثروة ، وليست عالية المنبت، وهذا عدا ضآلة نصيبها من الجمال ! »

وأصاب هذا السهم الاخير قلب الملك واستقر فيه ، حتى صـــار كأنه مربوط بمقعده ولكنه تمالك نفسه وقال : « ان ذاكرتك قوية يا كونت . ولهذا أحسب أنك لم تنس ما عقبت به على اضطرارك الى تقديم ذلك الطلب، من أنك تشك فى أن الآنسة دى لافاليير تحب المسيو دى براجلون ! »

ولا شك فى أن الملك نجح فى تسديد هــذه الرمية ، ولكن الكونت لم يتراجع ومضى يقول : « أهم ما فى الأمر أن صاحب الجلالة أبدى رغبته فى ارجاء ذلك الزواج مراعاة لصالح المسيو دى براجلون ، ولكن هذا نفسه لا يطيق صبرا على تأجيل الزواج ، ولذلك يرجو أن يجد لدى جلالتكم حلا عاجلا لهذه المسألة ! »

فامتقع وجه الملك وقال فى تردد : « وأى حل يريده ؟ »

فقال الكونت وهو ينظر الى الملك فى هدوء : « يريد الموافقة على الزواج»

فظل الملك صامتا ، واستطرد آتوس فقال :

— ان العوائق التى حالت دون ذلك الزواج فى الماضى قد أزيلت الآن ، والآنسة دى لافاليير العــاطلة من الثروة والجمال والنسب هى برغم ذلك الزوجة المناسبة الوحيدة للمسيو دى براجلون ، لأنه يحبها !

وسكت الملك مترددا ، ثم قال بعد هنيهة : « انى أرفض الموافقة على هذا كل الرفض ! »

فقال الكونت فى هدوء : « لقد كان لى شرف الادلاء الى مولاى بأن المسيو دى براجلون قد وطد عزمه على الزواج بالآنسة دى لافاليير ، وعلى هذا لم تبق هناك أية عقبة »

فقال الملك مغضبا : « هناك ارادتى ألا يتم هذا الزواج ، أليست هــذه عقبة يا كونت ؟! »

فقال الكونت : « هذه أشد العقبات يا مولاى ، ولهذا أستميح العفو اذ أستوضح السبب الذى حدا بجلالتك الى هذا الرفض ؟ »

فصاح الملك حانقا : « السبب ؟!.. أتسألنى السبب يا كونت ؟!..انك تنسى كل التقاليد المرعية فى البلاط حيث لا يجرؤ أحد على سؤال الملك ! »

فاحتفظ الكونت بهدوئه وقال : «لكن مولاى يعلم ولا شك أن ثمة مسائل ان لم يتفضل جلالته بالقاء الضوء عليها ، فان هذا يكون مدعاة الى انتشار الأقاويل والاشاعات ، وفى ذلك ما يوهن من ثقة الرعية بالملك وولائها ! »

فاشــــتد الغضب بالملك رغم حرصه على تمالك أعصابه وقال : « انك

تنسى نفسك وتتعدى حدود الواجبات والتقاليد ! »

ثم نهض من مقعده ، وقال باللهجة نفسها : « والآن أيها الكونت ٠٠ لقد منحتك من وقتى أكثر مما كنت أريد ! »

وكان ذلك أمرا بالانصراف ، ولكن الكونت تجاهل وقال :

ـ عفوا يا مولاى ! ٠٠ انى لم أجد بعد الوقت الكافى لكى أدلى الى جلالتك بما جئت لأجله ٠ وقد عشت طول حياتى وأنا أعتقد أن الملوك فوق البشر ، لا بحكم مركزهم وسلطانهم فقط ، بل كذلك بحكم النبل المنبعث من قلوبهم والشرف الأصيل الكامن فى نفوسهم ٠ ومن هنا لا أستطيع أن أقنع نفسى بأن مليكى له قصد خفى من وراء رفض ذلك الزواج !

فسأله الملك : « ماذا تعنى ؟ ٠ وأى قصد خفى تشير اليه ؟ »

فقال الكونت فى برود : « سأوضح ما أعنيه ٠٠ آن النـاس يتحدثون فى كل مكان بأن صاحب الجلالة اذ يرفض زواج الآنسة دى لافاليير بالمسيو دى براجلون ، لا يرمى الى سعادة هذا ، بقدر ما يرمى الى ازاحته من طريق جلالته ، لأن جلالته يحب الآنسة دى لافاليير ٠٠! »

وهنا مزق الملك قفازه من الغيظ وصاح قائلا :

ـ الويل لمن يتدخل فى شئونى الخاصة !٠ لقد صممت على أن أتخـذ سبيلا معينا ، وسأحطم كل عائق فى سبيلى !٠٠ نعم أنا أحب الآنسة دى لافاليير !٠ وهى لا تحب المسيو دى براجلون ، وأنت نفسك أكدت هذا!!

فقال الكونت : « على كل حال يا مولاى ٠٠ لا شك فى أن موافقة جلالتك على زواجها بالمسيو دى براجلون تعد تضحية جديرة بملك عظيم مثلك من أجل رجل أدى لجلالتك أعظم الخدمات ٠ هذا الى ما فى هـذه التضحية من دليل على الكرم والعرفان بالجميل وحسن السياسة فى آن واحد ! »

فقال الملك بخشونة : « قلت لك : الآنسة دى لافاليير لا تحب المسيو دى براجلون ! »

فسكت الكونت قليلا ، ثم قال : « فى هـذه الحالة لا أفهم لماذا بعثت جلالتك بالمسيو دى براجلون الى لندن ؟ ٠٠ ان هذا النفى كان مثار الدهشة عند كل انسان يقدر شرف جلالتك باخلاص ! »

فصاح الملك قائلا : « من ذا الذى يجرؤ على التحدث عن شرفى يا مسيو دى لافير ؟ »

فقال : « ان شرف الملك يا مولاى من شرف نبلائه جميعا ٠ فاذا سلب الملك أحـدهم ذرة من شرفه ، فلا شك أن جلالته يسىء بذلك الى نفسه !٠ وهذا ما يدعونى الى الاصرار على البقاء فى حضرة مولاى حتى تسوى هـذه المسألة ، وليس يسع جلالتك الا الاستماع الى ٠ فأنا الآن شيخ لا يعنينى الا المحافظة على عظمة المملكة وقوتها ، ولقد طالما بذلت دمى فى سبيل أبيك وفى سبيلك دون انتظار أى جزاء ٠ وقد يزعج جلالتك أن أسألك حسابا



« وكسر الكونت سيفه على ركبته ، ثم ألقى بشطريه على الأرض ، وغادر الغرفة »

عما لحق بشرف ولدى وسبب شقاءه ، وقد تســـائل نفسك عن وســيلة تعاقبنى بها على صراحتى هذه ، ولكن هذا كله لن يغير من الحق شيئا ! »

وكان الملك يسمع ذلك وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وقد وضع يديه فى صدر سترته ، وانبعث من عينيه شرر الغضب • ثم وقف فجأة وقال :

ــ لو اننى عاملتك كما ينبغى لأنزلت بك أشــد العقاب ، ولكنى أوثر التسامح معك • وعليك أن تعلم أن الملك ليس الا انســانا له الحق فى أن يحب !

فقال الكونت : « لو أن جلالتك أردت أن تستمتع بهذا الحق كانســـان لا ملك ، لكنت صارحت المسيو دى براجلون بذلك بدلا من نفيه ! »

فقال الملك بكبرياء : « لقد تســـامحت كثيرا معك ، ولكنك تنسى أنك تخاطب ملكا !••وهذه جريمة لا يمكن أن أقرها ، ولهذا آمرك بمغادرة هذا المكان فورا •! »

فقال : « لا تنس يا مولاى أنك تحطم حياة رجلين بريئين !•• ولن أبرح مكانى هذا حتى أصارحك بأنك بهذا التصرف الغادر قد بدأت حكمك بداية سيئة ، وقد أصبحت وأسرتى بعد ذلك فى حل من كل محبة واحترام لك ، وليس لنا الآن من سيد غير الله ؟! »

فنظر اليه الملك فى كبرياء وقال : « أتهددنى ؟ »

فقال الكونت : « كلا !• ان نفسى تكره التفاخر بالشجاعة بقدر ما تكره الخوف • وقد علم الله أنى فى سبيل الدفاع عن تاجك وشرفه لا أتوانى عن بذل آخر نقطة من دمى ، بيد أنى قاتلت فى هذا السبيل عشرين سنة داخل البلاد وخارجها••فأنا لا أهددك بوصفك ملكا ولا بوصفك انسانا ، ولكنى أقول لك يا مولاى : انك تفقد خادمين مخلصين ، لأنك قد حطمت الايمان بك فى قلب الأب ، والحب لك فى قلب الابن ، فأحدهما لا يصـــدق بعد اليوم كلمة الملك ، والثانى لا يثق بعد اليوم باخلاص الرجـــل ولا بطهارة المرأة • أحدهما قد مات فى نفسه كل شعور بالاحترام ، والآخر قد قضى فى نفسه على كل طاعة ! »

ثم كسر سيفه على ركبته ، وألقى بشطريه بتؤدة عـلى الارض ، وغادر الغرفة !

وجلس الملك الى المنضدة مهموما مشتت الذهن ، ثم ما لبث قليلا حتى نهض ودق الجرس بعنف ، فلما جاء الحجاب مرتاعين قال لهم :

ــ نادوا المسيو دارتانيان !

بعد العاصفة

غادر بورتوس القصر الملكى مرتاحا الى تأدية مهمته كمنظم مبارزات ، وهناك فى (مينيم) لحق براءول وقص عليه تفصيل ما دار بينه وبين سان اينيان ، الى أن قال له :

ــ والآن •• لن تمضى ساعة أو ساعتان حتى يأتى الى هنا بعد انتهائه من مقابلة الملك !

فقال راءول : « انه وقد ذهب لمقابلة الملك ، لابد أن يروى له نبأ دعوته للمبارزة ، وسيمنعه الملك من قبول هذه الدعوة•وعلى ذلك لا أحسبه يأتى الينا ، وعليك أن تنتظره ساعة أخرى ، فاذا جاء ــ وهذا ما لا أرجحه ــ فأرسل فى طلبى حيث أكون فى مسكنى بعد أن أقابل أبى »

وكان الكونت آتوس ــ أبو راءول ــ قد جاء الى باريس منذ يومين ، اذ تلقى خطابا من دارتانيان أخبره فيه بما حدث • فلما دخل عليــه راءول استقبله فى عطف وحنان وأشار اليه لكى يجلس ، ثم قال له :

ــ انى أعرف يا فيكونت أنك أتيت الى كما يأتى الرجل الى صديق ليبثه آلامه ؟!

فانحنى راءول اجلالا ، وأخذ يقص على أبيه كل ما حدث ، وهو يجاهد حتى لا تخنقه عبراته • فلما انتهى من حديثه ، قال له أبوه :

ــ انى أعتقد يا راءول أنه لا صحة مطلقا لما نمى اليك من شــائعات ولا أنكر أنى سمعت ذلك من ثقات ، لكنى فى قرارة قلبى لا أحسب الملك يوجه مثل هذه الاساءة الى نبيل مخلص مثلك•وعلى كل حال سأجيئك بالبرهان القاطع عما قريب !

فانحنى راءول وقال لأبيه : « سأنتظر عودتك يا سيدى الكونت »

ثم جلس مخفيا وجهه فى راحتيه ، بينما ارتدى أبوه ثيــابه على عجل ، ثم خرج الى حيث قابل الملك فى قصره • وحين عاد بعد ذلك الى بيته وجد راءول فى انتظاره بادى اليأس كما تركه ، فأعطى قبعته ومعطفه للخادم ثم صرفه وجلس قريبا من ولده • فقال له هذا :

ــ والآن يا سيدى هل استوثقت من الأمر ؟

ــ أجــل يا راءول ، ان الملك مغرم بالآنسة دى لافاليير ! وقد اعترف بذلك ، وذكر أنها تحبه أيضا !

فقال راءول وعليه دلائل اليأس · « أرأيت يا سيدى ؟ »

قال : « لقد قلت للملك كل ما كنت تريد ، بل فوق ما كنت تريد !· وصرحت له بأن كل شيء قد انتهى بينه وبيننا ، وأنك لن تخدمه بعد اليوم، كما أنى سأعتزله أيضا !··ولم يبق الآن الا أن أستوثق مما اعتزمته أنت فى شأن حبك للآنسة دى لافاليير ، وفى شأن خطتك للانتقام !· هل طلبت مبارزة سان اينيان ؟ »

قال : « لقد بعثت اليه متحديا ، فاذا قبل التحدى فانى أبارزه »

فنظر اليه أبوه فى حزن واشفاق ، وهز رأسه أسفا دون أن يجد ما يقوله · وفيما هما مطرقان ساهمان دخل الخادم معلنا قدوم المسيو دارتانيان ، ثم دخل هذا عليهما الغرفة وعلى ثغره ابتسامة غامضة ، وبعد أن صافحهما أبقى يد راءول فى يده وقال لأبيه :

ـ ايه يا صديقى ؟! أما زلت تحاول أن تبعث العزاء فى قلب هذا الشاب المسكين ؟!

فقال له الكونت آتوس : « ها أنت ذا جئت فى الوقت المناسب لتعاوننى على أداء هذه المهمة »

وضغط دارتانيان يد راءول ، ثم قال وهو يفتل شاربه بيده الاخرى : « أجل لقد جئت أنا أيضا »

وقال راءول وهو يحاول أن يبتسم : « لقد وجدت العزاء فعلا ، وقد كان والدى منذ هنيهة يهم بأن يروى لى تفصيل الحديث الذى جرى بينه وبين الملك »

فقال دارتانيان متظاهرا بالدهشة : « حديث بينه وبين الملك ؟· متى كان هذا ؟! »

وابتسم الكونت آتوس ، بينما تنهد راءول وقال للمسيو دارتانيان : « اذن ·· لم تكن تعلم يا سيدى أن الكونت قابل الملك ؟· حمدا لله !·· ان لى أن أطمئن الآن ، فقد كان أشد ما أخشاه أن تكون صلتك الوثيقة بأبى قد دفعتك الى مصارحة الملك بألمى واستيائى ، وأن تكون زيارتك هذه ليست شخصية لكنها بوصفك قائد حرس الملك ! »

فضحك دارتانيان وقال له : « انك يا بنى العزيز لفى حاجة شديدة الى الراحة ، وأنا أنصح لك ، بعد أن قمت برحلتك الطويلة من انجلترا الى هنا ، وبعد أن زرت دى جيش والمدام وبورتوس ، وبعد ذهابك الى فنسين ··أنصح لك بأن تذهب الى مسكنك الآن لتنام اثنتى عشرة ساعة على الاقل»

ثم جذبه اليه وعانقه كما لو كان ولده · وكذلك عانقه أبوه ثم قال له :

ـ حسنا !· ما دمت ذاهبا الى مسكنك الآن فسنلقاك هناك !

وقال له دارتانيان وهو يدفعه الى الباب : « أجل يا بنى العزيز ، هناك شيء جديد سنعزيك به · فاطمئن وكن شجاعا كما عهدناك دائما ! »

زائرة غير منتظرة

ما كاد راءول يأخذ طريقه الى مسكنه حتى ألفى نفسه وحده وجها لوجه مع همومه وأحزانه ، ولما استرجع فى ذاكرته اقرار الملك بحبه الآنسة دى لافاليير وبمبادلتها اياه هذا الحب،شعر بأن قلبه قد تحطم وقال يحدث نفسه : « لقد انتهى كل شيء !·· ولم يبق فى العالم ما أرجوه !؟ حقا إن هذه الحياة ليست سوى أحلام وأوهام · فهذا هو المستقبل الذى قضيت عشر سنين فى تشييد صروحه قد انهار كله ، وذلك الرباط الذى حسبته يربط قلبى بقلبها لم يكن الا وهما من الاوهام ، ما كان أحمقنى اذ جعلت أصدقائى يحزنون لى وأعدائى يشمتون بى ! »

ولم يسعه خلال ثورته النفسية هذه الا أن يلفظ بعض كلمات الوعيد قائلا : « آه لو أن لى قوة دارتانيان !· اذن لضحكت ازاء غدر تلك الفتاة التى شرفتها بحبى لها ، ولسارعت الى اقتفاء أثر الاوغاد الذين يتزلفون الى الملك الآن بالسخرية منى ، لأسحق ثلاثة أو أربعة منهم تحت قدمى · أجل !· ان هذا هو المسلك الجدير بى،والكونت دى لافير نفسه لا يعارضه، فهو قد مر فى شبابه بمثل التجربة التى أمر بها الآن ، وقص على مرارا ، أنه لجأ الى الخمر والمتعة بالغيد بعد فشله فى الحب !· انه تألم فى شبابه كما أتألم الآن ، ولكن ··· ما هى آلام الناس جميعا بجانب ما أقاسيه الآن ؟· ومتى كان جرح القلب تخفف من ألمه جروح القلوب الاخرى ؟!·· كلا !· ان كل انسان يتحمل نصيبه من الألم والعذاب والحزن والدموع ، ولقد كانت حياتى حتى اليوم حياة قاحلة مجدبة ، قاتلت فيها فى سبيل الآخرين لا من أجل نفسى · أحيانا فى سبيل الملك ، وأحيانا من أجل امرأة · وها أنذا قد خاننى الملك ، وتخلت عنى المرأة التى أحببتها · وهذا هو أبى يؤكد لى أن الشرف هو احترام المرء نفسه أولا ثم احترام الآخرين· ولكن دى جيش ومانيكامب وسان اينيان لا يرون الشرف الا الاستسلام لنزعات الملك ومسراته لكى أبقى على مركزى فى البلاط ، ولأكون قائد فرقة ، وقد أكون بذلك دوقا أو أميرا !·· وهكذا أكون أعظم ألف مرة من الآنسة دى لافاليير خليلة الملك لانها ستبقى خليلة له ولن يتزوجها ، وكلما أعلن أنها خليلته زاد عارها واحتقار الناس لها ! »

ومضى راءول دى براجلون يحدث نفسه على هذا النحو حتى وصل الى باب مسكنه ، وقد قطع الطريق اليه دون أن يلحظ الشوارع التى مر بها ،

ودون أن يدرى كيف جاء • ثم دفع الباب وصعد السلالم المظلمة شأن معظم البيوت فى ذلك العصر ، وكان مسكنه بالطابق الاول فوقف ليدق الجرس، وظهر خادمه أوليفان فأخذ منه سيفه ورداءه ، ومر راءول بالردهة ومنها الى غرفة الجلوس الفاخرة الاثاث ، وقد وضع بها أوليفان كثيرا من الازهار التى يحبها سيده ، كما كانت هناك صـــورة معلقة للافاليير رسمتها لنفسها بنفسها ، وقد علقهـا راءول وسط اطار من حرير دمشق الداكن اللون • فاتجه الى هذه الصورة كعادته كلما دخل الغرفة وأخـــذ يمعن النظر اليها وارتسمت على شفتيه ابتسامة مرة • ثم تمتم قائلا : « آه ما أشقانى ! » وقد شبك ذراعيه فوق صـــدره ورفع رأسه واغرورقت عينـاه بالدموع

ولم يكد ينطق بهذه الكلمة حتى سمع خلفه صـوت تأوه خافت ، فلما التفت متعجبا رأى فى ركن الغرفة امرأة مقنعة كانت مختبئة وراء البـاب فلم يلحظها حين دخل•وسرعان ما أزاحت القناع عن وجهها فبانت ملامحها الحزينة على محيـــاها الشاحب • ولم يسع راءول الا أن تراجـع خطوة الى الوراء كأنما رأى شبحا أمامه ، ثم صاح قائلا : « لويز ؟! »

وكانت نبرات صوته تدل على الدهشة والحزن واليأس معا ، اذ لم يكن يتصور أن يجد نفسه هكذا وجها لوجه ، أمام الآنسة دى لافاليير !

وتقدمت هى بضع خطوات نحوه ثم قالت له : « أجل أنا لويز ! »

وكان هو قد استعاد رباطة جأشه فقال لها : « أنت يا آنســـة ؟• أنت هنا ؟ »

فقالت : « أجل يا راءول ، وقد طلبت الى أوليفان ألا يخبرك بقدومى ! »

وساد بينهما السكوت ، ثم عادت هى فقالت :

ـ كان لابد لى أن أراك وحدك • وقد أقدمت على هذه الخطوة التى يجب كتمان أمرها ، لانه لا أحد غيرك يا مسيو دى براجلون يقدر أن يفهم حافزى الى الحضور !

فتلعثم راءول وقال بصوت يبدو فيه أثر العاطفة :

ـ حقا يا آنسة••اننى فيما يتعلق بى وبرغم حسن ظنك بى ، أقر •••

فقطعت كلامه قائلة بصوتها الناعم : «ألا تجلس أولا وتستمع لما أقوله ؟»

فنظر راءول حوله ثم هز رأسه فى أسف وجلس على كرسى بينما نظرت هى أيضا حـولها وكأنها تخشى أن يعلم أحد بحضورها اليه ، فقام وفتح الباب وصاح بالخادم قائلا :

ـ يا أوليفان •• اذا سأل عنى أى انسان فلا تذكر له أنى هنا !

ثم التفت اليها وقال : « أليس هذا ما تريدين ؟ »

وقد أثرت فيها هـــذه الكلمات القليلة أيما تأثير ، عـــلى أنها سرعان ما استجمعت شجاعتها وقالت بعد أن كفكفت بمنديلها دمعة كادت تنحدر من عينيها :

ـ يا راءول •• لا تحول نظرتك الشفيقة عنى • انك لست أحد أولئك الرجال الذين يحتقرون امرأة لأنها منحت رجلا آخر قلبها ، وان جر ذلك عليه الشقاء أو جرح كبرياءه !

فلم يجب راءول واسترسلت هى قائلة :

ـ وا أسفاه. حقا ان قضيتى خاسرة ولست أدرى كيف أبتدىء.خير لى أن أقص عليك بالصراحـة كل ما حـــدث لى • ولما كنت لن أقول الا الحق الصراح ، فسأجد الطريق أمامي واضحا وسط الغموض والتردد والعوائق التى ينبغى لى أن أكافحها ، لأزيح حملا ثقيلا من فوق صدرى ، وأضعـه عند قدميك !

وظل راءول صامتا ، ونظرت اليه دى لافاليير نظرة كأنها تقول له بها : « شجعنى ولو بكلمة ! » • ولكنه بقى مطبقا شفتيه ، فاضطرت الى مواصلة كلامها قائلة :

ـ منذ برهة وجيزة جاءنى المسيو سان اينيان بتوجيه من الملك !

وأرخت عينيها وهى تقول ذلك ، فأدار راءول وجهه جانبـــا ، ثم عادت تقول : « قد أخبرنى المسيو سان اينيان بأنك تعلم كلَّ شيء ! »

وحاولت أن تنظر الى عينيه بعد أن أحدثت به هذا الجرح الجديد ، ولكنه لم يبادلها النظر ، فاستمرت فى حديثها وقالت :

ـ وقد أخبرنى انك حانق على ، وانى أقر أن الحق فى جانبك

ولم يزد على أن نظر اليها وهو يبتسم ابتسامة مملوءة بالاستياء فمضت تقول :

ـ آه !• أرجو ألا تذكر أنك تشعر نحوى بشعور غير الغضب وحده • انتظر يا راءول حتى أفرغ من قول كل ما جئت لأصارحك به !

فاستعان راءول بقوة ارادته حتى عاد اليه مظهر الهدوء وزالت ابتسامة الاستياء من ثغره بينما ركعت الآنسة دى لافاليير بين يديه وقالت له :

ـ هذه يداى ممدودتين توسلا اليك ، وهذا جبينى منكسا الى الارض•• على أننى أطمع أن تغفر لى فأنت أكرم الناس قلبا وأنبلهم نفسا • واذا كنت قد تركتك على جهل بما يختلج فى قلبى من عواطف فانى على الأقل لم أكن لأخدعك قط !• نعم اننى أتوسل اليك يا راءول وأنا راكعة على ركبتى ، راجية أن تجيبنى ولو بكلمة تسىء بها الى • انى أوثر كلمة أذى من شفتيك على سوء ظنك بى فى قرارة قلبك !

وهنا قال لها راءول وهو يجاهد ليبدو محتفظا بهدوئه :

ـ انى أقدر كياستك فى التعبير يا آنسة•وانه لاخلاص منك أن تخدعينى غير متعمدة هذا الخداع !

فقالت : « سيدى••لقد مكثت زمانا طويلا وأنا أحسب أنى أحبك أكثر

من أي شيء في العالم ٠ وطال بي هذا الاعتقاد حتى صارحتك بأني أحبك ، بل كنت لا أتردد لحظة في أن أقسم على ذلك ٠ ولكن جاء يوم انكشف عن عيني الغطاء ٠٠٠ »

وسكتت فقال راءول :« حسنا يا آنسة !٠ لكن أماكان ينبغي لك وأنت تعرفين أني ما زلت أحبك ، أن تصارحيني بأنك لم تعودي تحبينني ؟! »

فقالت له : « في ذلك اليوم الذي نظرت فيه الى قرارة قلبي وتبين لي أنك لم تعد تملأ فراغه ، وأن أمامي مستقبلا آخر غير أن أكون صديقتك ، في ذلك اليوم لم تكن الى جانبي لأصارحك بذلك ! »

فابتسم ساخرا وقال : « لكنك كنت تعرفين أين أنا ، وكان يمكنك أن تكتبي الي ! »

فقالت : « لم أجرؤ على ذلك يا راءول ٠ لقد كنت ضعيفة جبانة ٠ وكنت أعرفك حق المعرفة ، وأعلم أنك تحبني حبا صادقا حتى لقد ارتعدت من التفكير في الحزن الذي تسببه لك مصارحتي اياك بالحقيقة ٠ اني يا راءول حتى هذه اللحظة التي أكلمك فيها ، وأنا راكعة أمامك ، وقد سحق قلبي بين جنبي ، واختنق صوتي من الألم ، وامتلأت عيناي بالدموع ، في هذه اللحظة لا أجد لي ما أدافع به عن نفسي سوى صراحتي ، ولا ألقى حزنا أشد مما أتبينه في عينيك ! »

وحاول راءول أن يبتسم ، فقالت له : « كلا !٠ أرجو ألا تخفي الآن عواطفك عني ٠ لقد كنت تحبني وكنت واثقا من حبك لي ٠ انك لم يخدعك قلبك ولم يكذبك القول ٠ أما أنا ٠٠٠ »

وهنا شحب وجهها ووضعت يديها على رأسها بيأس ، فقال لها راءول :

ـ أما أنت فقد قلت لي انك تحبينني على حين أنك أحببت رجلا آخر !

فقالت : « أجل وا أسفاه !٠ اني أحب رجلا آخر ٠ بالله دعني أقل ذلك فانه هو عذري الوحيد ٠ اني أحب ذلك الآخر أكثر مما أحب حياتي !٠٠ اغفر لي هذا الذنب أو عاقبني على هذه الخيانة ٠٠ اني لم آت الى هنا لكي أدافع عن نفسي ، وانما جئت لكي أقول لك أنت الذي تعرف ما هو الحب : (لقد صرت متيمة بحب ذلك الآخر ، واني لن أتوانى عن منحه حياتي وروحي ٠ ولئن كف عن حبي فاني أموت حزنا وكمدا ، الا اذا أعانني الله على الصبر ٠ نعم يا راءول ٠٠ لقد جئت هنا لكي أخضع لمشيئتك ، فأموت اذا أردت لي الموت !٠٠ اقتلني اذن يا راءول اذا كنت تشعر في قلبك بأني أستحق أن أموت !) ٠ »

فقال : « حسنا يا آنسة !٠ لقد قلت لي في الواقع كل ما كان لديك ، وكل ما كنت أود أن أعرفه ٠ والآن أرى من واجبي أنا أن أطلب اليك الصفح ، لأنني أنا الذي كدت أكون عقبة في سبيل حياتك ٠ وأنا الذي أخطأت لأني اذ خدعت نفسي ساعدتك على أن تخدعي نفسك ! »

فقالت دي لافاليير : « كلا يا راءول ، اني لا أطلب اليك مثل هذا ! »

فقال : « انني أنا وحدي الملوم ، فقد كان جديرا بي أن التمس جوابا من قرارة قلبك ، لا أن أطلب جوابا من شفتيك ٠ ولهذا أرجو منك مرة أخرى أن تغفري لي ! »

فقالت له : « هذا محال !٠ انك تسخر مني يا راءول ! »

فسألها في هدوء : « وكيف يكون محالا ؟ »

فأجابت بقولها : « أجل !٠ من المحال أن يكون الانسان بهذا النبل وهذا الكمال ! »

فقال راءول وهو يبتسم بمرارة : « مرة أخرى ٠٠ حاذري يا آنسة »

فقالت : « انك تحبني كما يحب الأخ أخته ٠ فليبق ما بيننا هكذا يا راءول »

فقال لها متعجبا : « كما يحب الأخ أخته ؟!٠ كلا يا لويز !٠٠ لقد أحببتك حب العاشق ، حب الزوج ، أحببتك أصدق الحب وأعمقه !٠ نعم أحببتك حبا ملك على قلبي ووجداني حتى اني ما كنت لأتردد في سفك دمي لأجلك قطرة قطرة ، ولا في ترك جسمي يقطع اربا ٠ لقد أحببتك الى حد أني الآن أشعر أن قلبي قد سحق ومات بين جنبي ، حتى فقدت كل أمل في هذا العالم ، وفي العالم الذي يليه ! »

فهتفت به قائلة في توسل : « راءول ! أشفق علي !٠ لم أكن أعلم أنك تحبني الى هذا الحد ! »

فهز رأسه أسفا وقال : « لقد فات الوقت يا لويز !٠ انك تحبين غيري الآن ، وأنت سعيدة في حبك هذا ، نعم وأني لأرى سعادتك من خلال دموعك التي يغريها اخلاصك الطبيعي بأن تنهمل !٠ لقد جعلتني أشقى مخلوق في الوجود ، فاتركيني أتوسل اليك ٠ وداعا ٠ وداعا ! »

وأرادت أن تقول شيئا فوضع يده على ثغرها لكيلا تتكلم ، فأهوت بشفتيها على يده وقبلتها ، وفي اللحظة نفسها سقطت على الارض مغمى عليها ٠ فصاح راءول مناديا خادمه أوليفان ، فلما حضر قال له :

ـ خذ هذه السيدة واحملها الى العربة التي تنتظرها أمام الباب

ولما رفعها أوليفان من الارض تقدم راءول نحوها ، يود لو يقبلها لآخر مرة ، ولكنه وقف فجأة وقال لنفسه : «كلا انها ليست لي ! اني لست لصا مثل ملك فرنسا ! »

إلى الباستيل

لم يكد راءول ينصرف الى مسكنه تاركا أباه وصديقه دارتانيان وحدهما حتى استعاد الأول سمت الجد الذى بدا عليه عند قدوم صديقه ، وقال له : « والآن ماذا جئت لانبائى به أيها الصديق ؟• لعل الملك حانق ساخط ؟ »

فقال دارتانيان : « الحق أنه ليس مسرورا ، بل هو غاضب ناقم !• »

فقال الكونت آتوس : « اذن •• فقد جئت لكى تقبض على ؟• هذا ما كنت أنتظره • وأنا على استعداد تام للذهاب معك »

فقال دارتانيان : « لا داعى الى العجلة ، فان عندى فسحة من الوقت !• ألا تحب أن تسمع كيف جرت الأمور بين الملك وبينى ؟• لقد كان الحوار الذى جرى بيننا عجيبا حقا ، وما كدت ألبى دعوته عقب خروجك من لدنه مباشرة حتى راعنى منظر وجهه الذى بدا قرمزيا لفرط غضبه ، ولم يكن لى علم بما حدث ، لكنى وجدت على الارض سيفا مشطورا • وصاح بى الملك حين رآني : (يا كابتن دارتانيان •• لقد خرج الكونت آتوس دى لافير من عندى الآن ، انه رجل وقح !) • فقلت بدهشة : (رجل وقح ؟!) •فقال وهو يضغط أسنانه : (يا كابتن دارتانيان••استمع لما أقول !) • فقلت : (هذا واجبى يا مولاى)•فقال : (لقد أردت اكرام الكونت آتوس لما أحفظ له من ذكريات طيبة ، فلذلك لم آمر بالقبض عليه هنا فى القصر • فعليك أن تأخذ عربة كى تلحق به وتقبض عليه •• واذا كنت لا تستطيع القيام بهذه المهمة ، فابعث الى الآن بقائد الحرس) • فقلت له : (لا حاجة الى قائد الحرس يا مولاى ما دمت أنا فى الخدمة) • وهنا زايلته حدة غضبه وقال لى متلطفا : (انك أخلصت لى الخدمة دائما يا كابتن دارتانيان ، ولهذا لا أريد أن أزعجك بتكليفك القبض على الكونت وهو صديق لك) • فقلت له : (لو أنه كان أبى يا مولاى لقبضت عليه أداء لواجبى)•فنظر الى متعجبا متفرسا، واذ رأى أن وجهى لم يهتز به عصب ، مضى فقال : (حسنا••اذن ستقبض على الكونت آتوس دى لافير ؟) • فقلت له : (نعم يا مولاى اذا أعطيتنى أمرا بذلك) •• »

وهنا ارتسمت على شفتى الكونت ابتسامة خفيفة لم يخف معناها على صديقه القديم ، لكنه استمر فى سرد روايته قائلا فى هدوء :

ـ فلما سمع الملك منى ذلك قال لى : « حسنا •• انى آمرك بالقبض على الكونت » • فانحنيت وقلت : « أين هو الآن يا مولاى ؟ »•فقال : « ابحث

عنه » • فسألته : « أأقبض عليه حيث أجده ؟ » • فقال : « أجل •• ولكن اجتهد أن يكون ذلك فى بيته•واذا كان قد سافر الى مزرعته فغادر باريس توا واقبض عليه فى الطريق » • فانحنيت ، ولكنى بقيت واقفا لا أتحرك ولا أتهيأ للانصراف • وسرعان ما سألنى فى دهشة عما أنتظر فقلت له : « أنتظر أمرا بالقبض على الكونت موقعا عليه من مولاى ! »

ومرة أخرى ، عاد الكونت آتوس الى ابتسامته الهادئة الهازئة ، على حين مضى المسيو دارتانيان فى حديثه قائلا :

ـ ان الملك يا صديقى كان يباشر ضربا جديدا من ضروب سلطته•ولهذا بدا عليه الضيق ، لكنه حاول اخفاءه وتناول قلما كتب به على ورقة صغيرة: «أمر صادر الى الفارس دارتانيان بالقبض على الكونت دى لافير حيث يجده»• ثم التفت الى ووقع على الورقة بسرعة ثم مد بها يده الى قائلا : « اذهب الآن » • وها أنذا أيها الصديق قد أطعت الأمر !

وهنا نهض الكونت ومد يده فتناول بها يد صديقه وقال : « اذن••هيا بنا الآن ! » •

فقال له دارتانيان : « ولم العجلة يا صديقى ؟•• أليست لديك شئون تحب أن ترتبها قبل أن تغادر منزلك هكذا ؟! »

فابتسم الكونت وقال : «أية شئون يا صديقى ؟! انك لتعلم يا دارتانيان أنى لست سوى رحالة بسيط على هذه الارض ، ولقد كنت ولا أزال على استعداد لمغادرة الدنيا كلها ، اذا دعانى الله اليه ، وماذا عسى يحتاج اليه رجل مثلى دائم الأهبة هكذا ؟• انه لا يحتاج الى أكثر من معطف أو كفن • ولهذا تجدنى الآن مستعدا كماكنت دائما يا صديقى العزيز ، ويمكننى أن أصحبك فى الحال ! »

فنظر اليه دارتانيان مليا ، ثم قال له : « وبراجلون •• ألا تريد منه شيئا ؟ »

فقال : « لقد ربيته على المبادىء التى استرشدت بها فى حياتى •ولعلك لحظت انه لم يكد يراك حتى فطن الى الغرض من زيارتك • ولقد خدعناه لحظة ، ولكن لا تقلق فانى مستعد للنكبة التى تنزل بى ، وما أحسب أنها ستفاجئه أو تزعجه • هيا بنا يا صديقى • وأظننى فى غنى عن تسليمك سيفى لأنى كسرته على ركبتى أمام الملك ورميت شطريه عند قدميه ! »

فقال دارتانيان فى هدوء وهو يهم بالنهوض : « أنت على حق ، وماذا كنت أفعله بسيفك ؟ »

ولما تهيآ للانصراف سأله الكونت آتوس ضاحكا : « أأسير خلفك أم أمامك ؟ »

فتأبط ذراعه قائلا : « بل نسير هكذا وذراعك فى ذراعى ! »

ثم هبطا الدرج حتى وصلا الى الردهة • وهناك نظر « جريمو » اليهما

في شيء من القلق ، كأنما دلته خبرته بالأمور على أن هناك شيئا غيرمألوف، ولكن الكونت قال له في هدوء :

ـ أهذا أنت يا جريمو ؟.. اننا ذاهبان ...

وأكمل دارتانيان عبارة الكونت فقال : « ذاهبان للقيـــام بنزهة في عربتي ! »

فسكت جريمو وصحبهما الى الباب • ثم ركب الكونت العربة أولا وتبعه دارتانيان ، وانطلقت بهما العـربة في هدوء ، دون أن يلفت رحيلهما نظر أحد من الجيران

ولما وصلت العربة الى أرصفة الميناء قال الكونت آتوس : « انك ذاهب بى الى الباستيل كما أرى ؟ »

فقال دارتانيان : « أنا آخذك الى الباستيل ؟!.. أتحسبني جننت ؟! »

فدهش الكونت وسأله : « ماذا تعني ؟ »

فقال : « انني يا صـــديقي ما قبلت أداء هذه المهمة الا لكي انفذها على الوجه الذى تحبه • ولولا هذا لتركت قائد الحرس يتولى هـذه المهمة بدلا مني ! »

فقال الكونت : « اذن أين تذهب بى ؟ »

فرد عليه قائلا : « سنذهب الآن الى حيث تريد أنت ! »

فلم يتمالك الكونت عواطفه وقبله قائلا : « هيه يا صديقى العزيز .. ان هذه شيمتك دائما ! »

وقال دارتانيان : « ان الأمر جد بسيط !• سيأخذك الحوذى الى الحدود عند (كور ـ لا ـ رين) وهناك تجد جوادا أمرت باعداده لك • وبهـــذا الجواد تستطيع أن تقطع ثلاث مراحل بريد دون توقف • أما أنا فسأحرص على ألا أعود الى الملك لأخبره بذهابك ، الا بعـد أن أطمئن الى أن أحـــدا لا يستطيع ادراكك • وفى خلال ذلك تكون أنت قد وصلت الى (الهافر) فتعبر (المانش) منها الى انجلترا حيث تجد القصر البـــديع الذى أهداه الى المسيو مونك ، ولن يقصر الملك تشارلس فى اكرامك ! »

وسكت دارتانيان ونظر الى الكونت ليرى وقع هذا المشروع لديه ، وشد ما كانت دهشته اذ هز الكونت رأسه وابتسم قائلا له : «كلا يا صديقى.. بل خذنى الى الباستيل ! »

على أنه كان يعلم أن صديقه الكونت صعب المراس شديد العناد ، فلم يزد على أن قال له : « فلتفكر فى الأمر قليلا يا صديقى ، انك الآن لست شابا فى العشرين ، وانى أؤكد لك عن خبرة وتجربة ان الاقامة بالباستيل هى بمثابة الموت لمن كانوا فى مثل عمرنا • ولهذا لن أرضى قط بأن تختم حياتك بسرعة هكذا ، بل ان تفكيرى فى ذلك كفيل وحـــده بأن يصيبنى الدوار ! »

فقال الكونت دون أن يزايله شيء من هدوئه : « يا عزيزى دارتانيان.. ان الله قد أنعم على بجســـم يماثل عقلى فى قوة تحمله • ولك أن تطمئن الى أنى سأحتفظ بقوتى حتى آخر نسمة من حياتى ! »

فقال دارتانيان : «ليس الأمر أمر قوة جسمك ، ففكر فى العاقبة جيدا»

فقال له : « هذه نهاية التفكير السليم • ولن أرضى قط أن أبحث معك هذه الخطة • ولو كان الفرار يخطر ببالى لقبلت منك هذا العرض .. هل نسيت ما كلفك الملك أن تقوم به ؟ »

فقال دارتانيان :« هذا لا يهمنى قط ، وسأقول له ببساطة : (مولاى.. اسجن وانف واقتل كل انسان فى فرنسا وأوربا • ومرنى بأن أقبض على من تشاء وبأن أطعنه ، حتى ولو كان الأمير أخاك • ولكن لا تلمس شعرة من رأس أحد الفرسان الأربعة ، والا فالويل والثبور) .. »

فقال له الكونت آتوس فى هدوء : « يا صديقى العزيز .. انى أحب أن أقنعك بشيء واحد هو انى أريد أن يقبض على »

وهز دارتانيان كتفيه أسفا وحزنا ، بينما استطرد الكونت آتوس قائلا:

ـ أؤكد لك أنك لو مهدت لى سبيل الفرار ، فانى أعود من تلقاء نفسى الى السجن الذى أراده لى الملك !• انى أريد أن أبرهن لذلك الشـــاب الذى يبهره بريق السلطان والفخامة ، أنه يستطيع أن يعاقبنى وأن يسجننى وأن يعذبنى ، ولكنه يسيء التصرف فى الفرص التى أمامه ، وأنا أود لو يعرف تأنيب الضمير !

فقال دارتانيان : « حسنا • انى أعرف حق المعرفة أنك لا ترجع عن أمر اعتزمته ، فهل تريد الآن أن تذهب الى الباستيل ؟ »

فقال : « أجل يا صديقى ، هذا ما أريده حقا فهيا بنا الى الباستيل ! »

وهنا صاح دارتانيان بالحوذى قائلا : « الى الباستيل » • ثم ارتمى الى خلف العربة وأخذ يعض على طرفى شاربه بحنق ، وســـاد الصمت بينهما والعربة تسير بهما ، ثم تناول آتوس يده وقال له : « لعلك لست غاضبـــا على يا دارتانيان ؟ »

فقال : « ان ما تفعله أنت بحافز البطولة كنت أفعله أنا بدافع العناد ! »

فسكت قليلا ثم سأله : « ألا تعتقد ان الله سينتقم لى ؟ »

فقال دارتانيان : « وأعتقد أيضا أن بعض الناس سيمدون يد المساعدة فى هذا الانتقام ! »

وصلت العربة الى الباب الخارجى للباستيل ، ووقفها جندى كان فى دور الحراسة ولكن كلمة واحـــدة من دارتانيان كانت كافية لأن يدعها تمر ،

فمضت العربة دون عقبة أخرى • وبينما كانت تمر تحت الممر ذى السقف المؤدى الى فناء بيت محافظ السجن ، نظر دارتانيان بعينه التى تشبه عين النسر والتى يكاد يرى بها كل شىء حتى ما وراء الجدران ، ثم صاح بغتة :
« ما هذا الذى هناك فى الفناء ؟ »

فنظر آتوس الى الجهة التى أشار اليها صديقه ثم قال فى هدوء : « هناك عربة لعلها تحمل سجينا مثلى ! »

وفى تلك اللحظة وقف ديدبان آخر عربة دارتانيان ، وبينما كانت المراسم تؤدى ، رأى آتوس على بعد نحو مائة خطوة رجلا يهبط من العربة الاخرى أمام بيت محافظ السجن ، وسأله دارتانيان : « أرأيته ؟ » •فأجابه قائلا : « انه يرتدى بذلة رمادية اللون ، ولا أدرى من أمره أكثر من هذا ! »
فقال دارتانيان : « انه أراميس ولا شك ! »

فسأله آتوس فى هدوء : « أراميس مقبوضا عليه ؟ هذا مستحيل ! »

فقال : « لم أقل انه مقبوض عليه ، وما دمنا نراه وحده فى عربته فلعله جاء لزيارة محافظ السجن • وهكذا تكون قد وصلنا فى الوقت المناسب ! »

فقال آتوس : « انى آسف لهـذا اللقاء أسفا شـديدا ، لان أراميس سينزعج ولا شك ! »

فقال دارتانيان : « اذا شئت ألا ينزعج أراميس لرؤيتك فدعنى أنا أقص عليه الأمر على طريقتى • انى أعلم أنك لا تستطيع أن تكذب • ولكن هذا سهل على رجل جاسكونى مثلى ! »

فابتسم آتوس ، وكانت العربة قد وصلت الى حيث وقفت العربة الاخرى عند باب بيت المحافظ فوقفت هناك ، وقال دارتانيان لصـديقه بصوت خافت : « لقد اتفقنا اذن ؟ » •• فأومأ آتوس دليـلا على الموافقة ، وشرعا يصعدان الدرج • وبعد بضع دقائق كانا فى غرفة الطعام ببيت المحافظ ، وكان أول ما استرعى التفات دارتانيان أن رأى أراميس بجانب بيزمو ينتظر اعداد طعام شهى فاحت رائحته فى البيت كله ، فتظاهر دارتانيان بالدهشة للقائه • أما أراميس فكان عجبه شديدا حقا حين رأى صديقيه وكان تأثره ظاهرا • وأثنى عليه آتوس ودارتانيان كالمعتاد ، وأما بيزمو فقد بهت اذ رأى ضيوفه الثلاثة وأخذ يحييهم ويرحب بهم قائلا : «أى ظرف سعيد•••»
فقطع دارتانيان كلامه قائلا : « لقد كنا سنسألك ••• »

فقال أراميس ضاحكا : « أترانا سنسلم أنفسنا لك سجناء ؟ »

ورد دارتانيان قائلا : « صحيح ان الجدران تبدو كجدران سجن • انك تعلم يا مسيو بيزمو أنك دعوتنى الى تناول العشاء عندك حين قابلتنى منذ أيام ؟ »

فصاح بيزمو قائلا : « أنا ؟! »

فقال دارتانيان : « نعم أنت ، لقد دعوتنى وان كنت الآن تبـدو عليك الدهشة ، ألا تذكر ؟ »

فشحب وجه بيزمو ثم علته حمرة ، ونظر الى أراميس فنظر هذا اليه ، وأخيرا قال بتلعثم :

ـ حقا •• هذا يسرنى • ولكن أقسم بشرفى ليست عندى أية فكرة••• آه ان ذاكرتى ضعيفة جدا •!

فقال دارتانيان فى شىء من الغضب : « اذن •• أنا الذى أخطأت لأنى تذكرت دعوتك ؟ »

فسارع بيزمو اليه وقال له مسترضيا : « يا عزيزى الكابتن••دعك من الكلفة • ان ذاكرتى هى أضعف ذاكرة فى العالم ! »

فقال دارتانيان بجرأة : « على أى حال أنت تذكر الأمر الآن !• لقـد كان ذلك حين أتيت الى القصر لتراني،وقد قصصت على شيئا عن حساباتك مع المسيو دى لوفيير والمسيو ترمبلاى »

فأومأ بيزمو موافقا ، بينما واصل دارتانيان كلامه فقال : « كما حدثتنى عن عطف المسيو دربلاى عليك »

وهنا بدت الدهشة فى وجه أراميس ، ونظر الى المحافظ المسكين قائلا له : « ومع هذا كنت تقول منذ لحظة انك ضعيف الذاكرة ؟! »

فلم يجبه بيزمو ، بل ظل ناظرا الى دارتانيان وقال :

ـ أجل !• انك على حق يا كابتن ، ولست أدرى كيف نسيت ؟!• انى أذكر ذلك الآن ، وأطلب اليك الصفح • وثق يا عزيزى انك هنا فى بيتك سواء أدعيت أم لم تدع ، أنت والمسيو دربلاى صـديقك • (وهنا التفت الى أراميس) • وهذا السيد كذلك (وانحنى لآتوس)

فقال دارتانيان : « لقد كنت واثقا من ذلك ، ولهـذا لما وجدت نفسى الليلة بلا عمل فى القصر الملكى رأيت أن أزورك هنـا لأرى بنفسى كيف تعيش • وفى الطريق قابلت الكونت دى لافير عند خروجه منحضرة الملك، فسلمنى أمرا يتطلب التنفيذ العاجل ، ولما كنا على مقربة من هنا فقد رأيت أن أزورك•ولو لم يكن لى غرض سوى أن أصافحك وأن أقدم اليك الكونت الذى أثنيت أنت عليه ثناء كبيرا فى القصر حين ••• »

وهنا أومأ بيزمو موافقا ، وانحنى للكونت دى لافير ، بينما اسـتطرد دارتانيان فقال : « انى لعلى يقين من أن الكونت سيلقى منك كل ترحيب• وسيتناول العشاء معكما الآن ، أما أنا فان سوء حظى يضطرنى الى الذهاب لأداء بعض واجبات العمل ! »

وهنا سأله أراميس وبيزمو معا : « أذاهب أنت ؟ »

فقال : « نعم ، وسأترك لكما بدلا منى ضيفا نبيلا ممتازا ! »

ثم ربت بيده كتف آتوس متلطفا ، ولم يسع هذا الا أن يبدى شيئا من دهشته ، ولكن لم يلحظ ذلك سوى أراميس ، أما المسيو بيزمو فانه لم يكن ندا للأصدقاء الثلاثة فى ذكائهم . ومن هنا عاد يسأل دارتانيان : « أتتركنا حقا ؟ »

فأجابه هـذا بقوله : « لن أغيب سوى ساعة أو ساعة ونصف ساعة ، وسأعود فى الوقت الذى تتناولون فيه الحلوى ! »

فقال بيزمو : « اذن ننتظرك » . فقال دارتانيـان : « كلا . كلا ! » .

وسأله آتوس : « أواثق أنت من أنك ستعود ؟ » . فقال له : « نعم .. بلا شك ! » . ثم نهض وضغط يد صديقه وهمس اليه قائلا : « انتظرنى وكن بادى السرور قدر امكانك ، وفوق كل شىء لا تشر أية اشـارة الى شئون السياسة »

وقاد بيزمو دارتانيان حتى الباب الخارجى ، على حين جلس أراميس مع آتوس بادى السرور يحاول أن يغريه بقول الحقيقة ، ولكن آتوس لم ينبس ببنت شفة

وبعد عشر دقائق من ذهاب دارتانيان ، جلس السادة الثلاثة الى المائدة وكان عليها من ألوان الطعام ما يرضى كل نهم ، وكانت تقدم لونا بعد آخر، وكلها على نفقة الملك ، ولعل المسيو كولبير كان يوفر ثلثيها على الأقل دون أن يضار بذلك أحد من نزلاء السجن .. وكان بيزمو هو الوحيد بين الثلاثة الذى أقبل على الطعام والشراب . أما أراميس فكان يتذوق من كل ما يقدم له . وأما آتوس فانه بعد الحساء والمشهيات لم يأكل شيئا مطلقا . وبقى أراميس طول الوقت يسائل نفسه عن المصادفة العجيبة التى جعلت آتوس يبقى مع بيزمو بينما انصرف دارتانيان ، أما آتوس فكان يخبر غور أفكار أراميس الذى عاش وسط الحيل والدسائس والمراوغات ، وكان يدرسـه عن كثب حتى أيقن انه بسبيل أمر هام . ثم بدأ يفكر فى أمر نفسـه ، ويتساءل لماذا تركه دارتانيان فجأة هكذا فى الباستيل !

أدى المسيو سان اينيان المهمة التى كلفه بها الملك فيما يتعلق بلافاليير ، على أنه لم يستطع أن يقنع الفتاة بأن الملك كفيل بحمايتها فى جميع الظروف والاحوال ، وبأنها ليست بحاجة الى أحد فى العالم ما دام الملك الى جانبها . والواقع ان رجل البلاط لم يكد يذكر لها ان السر الرهيب بات معروفا حتى انهمل الدمع من عينيها مدرارا وغلبها يأس شـديد ما كان يسر الملك لو شهد دلائله . وقد شعر سان اينيان ، وهو السفير فى هذه المهمة ، بالاستياء الشديد ، وعاد الى الملك ينبئه بما رأى وما سمع . فقال له الملك : « ولكن ألا أراها على الأقل قبل العشاء ؟ . وهل تأتى الى أم أضطر أنا الى الذهاب الى غرفتها ؟ »

فقال سان اينيان : « أعتقد يا مولاى انك اذا شئت رؤيتها فلن يكون عليك أن تخطو الخطوة الاولى فحسب بل ان تقطع الطريق كله ! »

فقال الملك : « لا أبالى ذلك . أتحسبها لا تزال متعلقة ببراجلون ؟ »

فقال : « لا يا مولاى . ان هذا مستحيل ، لأنى موقن أنها لا تحب سواك ، وانها تحبك من كل قلبها . ولكنك تعلم ان دى براجلون من قوم ذوى كبرياء يحبون أن يمثلوا دور الأبطال الرومانيين ! »

فابتسم الملك ابتسامة خفيفة ، اذ كان يعرف مدى صدق هذه العبارة .. ثم قال سان اينيان : « أما الآنسـة دى لافاليير فقد ربيت فى كنف الملكة الوالدة أى وسط الجد والوقار ورعاية المراسم . وقد تبادلت مع ذلك الشاب أيمانهما الصغيرة تحت ضوء القمر والنجوم ، والآن يشعران بأسى شديد لاضطرارهما الى الحنث بتلك الايمان ! »

وحسب سان اينيان انه بذلك يضحك الملك ، ولكن الملك عـلى العكس ترك الابتسام وبانت عليه هيئة الجد . لقد بدأ يشعر بوخز الضـمير الذى تنبأ آتوس لدارتانيان بأنه لابد ملاحقه . وفكر فى أن لافاليير وبراجلون كانا متحابين وأقسم كل منهما لصاحبه يمين الاخلاص ، وقد وفى براجلون بعهده أما هى فان ضميرها يعذبها لحنثها بذلك القسم . وقد صحب تأنيب الضمير عند الملك شعور بالغيرة القاسية . ولم يلفظ بكلمة ولكنه بدل أن يذهب الى أمه أو الى الملكة أو الى المدام (زوجة أخيه) لكى يتسـلى قليلا ، ارتمى فى الكرسى الكبير الذى كان والده العظيم لويس الثالث عشر يجلس عليه . ورأى سان اينيان أنه ليس مستعدا للتسلية فى تلك اللحظة، فعمد الى آخر وسيلة عنده وقال للملك : « ماذا تعتزم أن تفعله الليلة يا صاحب الجلالة ؟ . أتأمر باخبار الآنسة دى لافاليير بعزمك على رؤيتها ؟ »

فقال الملك : « يبدو أنها تعلم ذلك ، ولـكن ... أرى أن ننتظر قليـلا فلعلها تتنازل فتبعث الينا ببعض أخبارها ! »

فقال سان اينيان : « آه يا مولاى ! أيمكن أن تسىء فهم قلبها المفعم بالحب والاخلاص لك ؟ »

ثم نهض الملك وقد احمر وجهه من الغيظ والكدر ، اذ صار فريسـة للغيرة ولتأنيب الضمير معا . وفيما سان اينيان يشعر بصعوبة موقفه ، اذا بالستار الذى على الباب يزاح ، فاسـتدار الملك وحسب أول وهلة ان رسولا قد جاء من قبل لويز بخطاب له ، ولكنه بدل أن يلقى خطاب غرام رأى أمامه قائدالفرسان واقفا بالباب معتدل القامة صامتا بادى الجد فصاح به قائلا : « المسيو دارتانيان ؟ .. حسنا ! . ما وراءك ؟ »

فنظر دارتانيان الى سان اينيان ، وأدرك هذا معنى هذه النظرة فانحنى للملك وخرج ، وهنا قال الملك لدارتانيان : « هل نفذ الأمر ؟ »

فقال دارتانيان : « نعم يا مولاى ! »

ولم يستطع الملك أن يقول كلمة أخرى ، غير أنه رأى أن عليه أن يبرهن على صواب الاجراء الذى اتخذه ، فسأل دارتانيان بعد قليل : « ماذا قال الكونت ؟ »

فقال دارتانيان : « لم يقل شيئا مطلقا يا مولاى ! »

ـ لا شك انه لم يدع نفسه يقبض عليه دون أن يقول شيئا ؟

ـ لقد قال انه كان ينتظر القبض عليه يا مولاى !

فرفع الملك رأسه بكبرياء وقال : « لعل الكونت دى لافير لم يواصل تمثيل دور الثائر العنيد ؟ »

وهنا قال دارتانيان « ماذا يعنى مولاى ؟٠ان ذلك الثائر فى نظر جلالتك هو الرجل الذى لم يكتف بأن يدع نفسه يزج فى السجن ، بل عارض كذلك كل محاولة فى سبيل ألا يدخله ! »

فصاح به الملك : « ماذا تعنى ؟ ٠٠ من الذى حاول ألا يدخله السجن ؟٠ هل جننت يا كابتن ؟ »

فقال دارتانيان هادئا : « لا أحسب ذلك يا مولاى ! »

وعاد الملك يقول له : «انك أشرت الى محاولة لعدم ادخال الكونت آتوس السجن ، فمن ذا الذى حاول ذلك ؟ »

فقال : « هو الذى عهدت اليه جلالتك فى القبض عليه ! »

فبدا العجب والغضب فى وجه الملك وقال له : « أنت يا كابتن ؟!٠٠ أنت الذى حاولت مخالفة أوامرى فيما يختص بالرجل الذى أهانني ؟! »

فقال : « أجل يا مولاى ٠ كانت تلك نيتى ٠ بل لقد عرضت على الكونت أن يركب جوادا أعددته له عند حدود (لاكونفرانس) لكى يركبه الى الهافر ومن ثم يفر الى انجلترا ٠ لكنه رفض ! »

فصاح به الملك : « لقد خنتنى اذن ؟ »

وقال دارتانيان فى هدوء : « هذا صحيح يا مولاى ! »

فلم يجد الملك ما يقوله ازاء هذا الاعتراف الصريح ، وقد تولته الدهشة من عناد دارتانيان وخروجه الصريح على طاعته ٠ ثم قال بعد لحظة بكبرياء : « على الأقل كان هناك سبب لمسلكك هذا ؟ »

فقال دارتانيان : « ان عندى سببا لكل شيء يا مولاى ! »

فقال الملك : « ان السبب لا يمكن أن يكون صداقتك للكونت ، وهو السبب الوحيد الذى ربما اتخذ ذريعة لمسلكك ، لأنى كنت قد عرضت عليك اعفاءك من هذه المهمة ! »

فقال دارتانيان : « نعم يا مولاى ، ولكنك صرحت لى بأنى اذا لم أقبض عليه فسيقبض عليه قائد الحرس ! »

فسكت الملك هنيهة ثم سأله : « ألم أراع عواطفك فلم أرغمك على أداء هذه المهمة ؟ »

فأجاب بقوله : « أجل يا مولاى ، لقد كنت شفيقا بى ولكنك لم تكن شفيقا على صديقى ، لأنه كان سيقبض عليه على أى حال ، اما بيدى واما بيد قائد الحرس ! »

فقال الملك : «أهذا مدى اخلاصك لى ؟! انك لست جنديا !٠ وماذا جئت لتقوله لى اذن ؟ »

فقال : « جئت لأقول لجلالتك : ان الكونت آتوس دى لافير هو الآن فى سجن الباستيل ! فما دام قد أصبح هناك فمن واجبى أن أخبر جلالتك بذلك ! »

فقال الملك غاضبا : « يا مسيو دارتانيان : انك تتحدى ملكك !٠ وانى أنذرك بأنك تستنفد صبرى ! »

فقال دارتانيان : « لقد جئت لكى تأمر بالقبض على أيضا يا مولاى ٠ فلا شك فى أن صديقى ستضجره الاقامة وحده بالباستيل ، ولذا جئت أعرض على جلالتك أن تسمح لى بمؤانسته٠واذا شئت جلالتك فانى أقبض على نفسى ، ولن أحتاج الى قائد الحرس لهذا الغرض ! »

وهنا تقدم الملك صوب المنضدة وأمسك بقلم ليكتب أمرا بسجن دارتانيان ، فقال هذا بلهجة وعيد : «راع يا مولاى أن يكون سجنى مؤبدا٠ لأنك متى أمرت بذلك فلن تقدر أن تنظر الى وجهى مرة أخرى ! »

فرمى الملك القلم بعنف وصاح به قائلا : « اخرج من هنا ! »

فقال : «لقد جئت لأكلم جلالتك برفق واعتدال ، ولكنك تملكك الغضب، وهذا من سوء حظى »

فصاح به الملك : « قدم استقالتك ! »

فقال : « أنت تعلم يا مولاى أنى قدمت استقالتى يوم رفضت اعطاء الملك تشارلس المليون الذى أعطاه اياه الكونت دى لافير ٠ أما الآن فلا محل لاستقالتى ، وقد أمسكت جلالتك القلم منذ هنيهة لتكتب أمر ادخالى الباستيل فلماذا غيرت رأيك ؟ »

فقال الملك : « اعلم يا دارتانيان أنك مهما تكن جاسكونيا عنيدا ، فانى أنا الملك لا أنت ! »

فقال دارتانيان : « نعم يا مولاى ، من سوء الحظ أنك أنت الملك لا أنا والا لكنت أقول لقائد الفرسان ، وأنا أنظر اليه فى هدوء : (لقد نسيت ياكابتن انى الملك ، لأنى هبطت من عرشى لأهين سيدا !) ٠٠ »

فقال له الملك : « أتظن أنك تلتمس عذرا لصديقك بالتفوق عليه فى الوقاحة ؟ »

فقال دارتانيان : « مولاى ٠٠ انى قد أذهب الى أبعد مما ذهب اليه

بمراحل ، وسيكون ذلك خطأك أنت . وكنت أقول لك ما لم يقله لك هو لرقته ووداعته • انك ضحيت ابنه ، فلما دافع عنه ضحيته كذلك • لقد خاطبك باسم الشرف والدين والفضيلة ، فثرت وطردته وسجنته • ولهذا صار عليك أن تختار : أتريد أصدقاء أم خدما ؟• جنودا أم عبيدا ؟• رجالا عظماء يخدمونك أم أناسا ينحنون ويركعون لك ؟!• واذا كنت تؤثر الضعة والدسيسة والجبن ، فقل ذلك توا يا مولاى فنتركك نحن البقية الباقية من رجال الايام الخالية ، نحن الذين أدينا واجبنا ، وربما فقنا بشجاعتنا وكفايتنا العظماء الذين خلدت عظمتهم على مدى القرون • اختر يا مولاى ، ولا تبطىء فى الاختيار • ان من بقوا لديك من النبلاء والعظماء يجب أن تعض عليهم بالنواجذ ، ولن يعوزك العدد الذى تريده من رجال البلاط••
هيا يا مولاى مر بارسالى الى الباستيل مع صديقى ، لأنك لم تعرف كيف تصغى الى الكونت دى لافير وهو يتحدث عن الشرف ، ولا تعرف كيف تستمع الى دارتانيان وهو يتحدث عن الاخلاص ، واذن •• فلست الا ملكا رديئا ، وغدا ستكون ملكا طريدا بائسا ! »

فارتمى الملك فى مقعده بارد الجسم بلا حس ولا حراك وكأنه جثمان ميت !• ان صوت دارتانيان نفذ الى قلبه كحد السيف•ولقد قال دارتانيان كل ما عنده ، ولما أدرك غضب الملك اقترب منه باحترام ووضع سيفه على المنضدة أمامه • ولكن الملك أزاح السيف جانبا بحنق فوقع على الارض وانحدر تحت قدمى دارتانيان • ورغم رباطة جأش دارتانيان وتمالكه أعصابه ، شحب وجهه هو أيضا وارتعش من الغضب وقال :

ـ ان الملك قد ينكب جنديا ، وقد ينفيه من بلاده ، بل قد يحكم عليه بالموت ، ولكن اذا كان ملكا مائة مرة فليس له أن يهينه باهانة سيفه ! مولاى : ان ملك فرنسا لم يزح قط بازدراء سيفاكسيفى !• أما وقدأصبح هذا السيف مكللا بالعار فانه لن يكون له غمد بعد الآن سوى قلبك أو قلبى ، وأنا أختار قلبى يا مولاى ، ولك أن تحمد الله وتحمد حلمى اذ أختار قلبى دون قلبك ! »

ثم اختطف سيفه قائلا : « ليكن دمى على يديك » • وبحركة سريعةوضع مقبض السيف على الارض ووجه طرفه نحو صدره ، غير أن الملك بحركة أسرع من حركة دارتانيان ، أحاط عنق الفارس بذراعه اليمنى ، وأمسك بيده اليسرى بالسيف من وسطه ، وأعاده فى صمت الى غمده

وبقى دارتانيان واقفا يرتعش • وتغلبت على لويس عواطفه الرقيقة ، فعاد الى المنضدة ، وتناول قلما ، وكتب بضعة أسطر وقع عليها ثم أعطاها الى دارتانيان وقال له : « هذا أمر الى المسيو دارتانيان بالافراج عن الكونت دى لافير فورا ! »

فتناول دارتانيان يد الملك وطبع قبلة عليها • ثم طوى الورقة ووضعها فى حزامه وغادر الغرفة • ولم ينطق الملك ولا الكابتن ببنت شفة !

الافراج عن سجين

بر دارتانيان بما وعد به المسيو بيزمو ، فعاد اليه وقت تناول الحلوى . وكان آتوس وأراميس قد تكلما كثيرا عن الباستيل ، وعن الرحلة الاخيرة الى فونتينبلو ، وعن المهرجان الذى اعتزم المسيو فوكيه أن يقيمه فى (فو) . وتكلما فى موضوعات كثيرة أخرى ، ولكن دون أن يشير أحدهما الى مسألة شخصية . ووصل دارتانيان وهما وسط الحديث ، وكان لا يزال شاحب الوجه كثير الاضطراب لتأثره بما دار بينه وبين الملك ، فأسرع بيزمو وقدم له كرسيا ، وطلب دارتانيان كأسا من النبيذ فشربه حتى الثمالة ، ولحظ آتوس وأراميس اضطرابه ، أما بيزمو فلم يلحظ شيئا ومضى فى الترحيب بقائد الفرسان ، على أن آتوس أدرك أن عودة دارتانيان والاضطراب البادى عليه ، وهو الهادىء الأعصاب دائما ، انما يعنيان شيئا واحدا هو أنه طلب الى الملك شيئا فرفض طلبه . وعلى هذا ابتسم آتوس وقام من مكانه مشيرا الى دارتانيان ، ففهم هذا مراده توا ، وأجابه باشارة أخرى ، بينما راقب أراميس وبيزمو هذا الحوار الصامت ، ونظر كل منهما الى الآخر نظرة تساؤل . ثم قال آتوس :

ـ الحقيقة أيها الأصدقاء أن المسيو أراميس قد تناول العشاء مع سجين دولة ، وأن المسيو دى بيزمو قد آكل سجينه !

فصاح بيزمو صيحة دهشة تكاد تنم عن سروره بزيادة عدد سجنائه ، وبان الاهتمام على أراميس وقال : « اذن سامحنى يا عزيزى آتوس ، ولكنى أحسب الأمر متعلقا براءول ولافالير ؟ »

فقال بيزمو : « وا أسفاه ! » . ثم استطرد أراميس قائلا : « انت النبيل الرفيع القوى قد نسيت ولا ريب أن هناك رجال بلاط الآن ، فذهبت على ما أعتقد الى الملك وصارحته برأيك فى مسلكه ؟ »

فقال آتوس : « لقد أصبت التقدير »

وقال بيزمو وهو يرتعش من فكرة مجاملة رجل كسب غضب الملك : « وعلى ذلك فان جناب الكونت . . . »

فقال له آتوس مقاطعا : « أجل يا عزيزى المحافظ ، ان صديقى دارتانيان سيخبرك بمضمون الورقة التى أراها تطل من حزامه ، وهى على ما أعتقد ليست سوى الأمر باعتقالى »

فمد بيزمو يده فى لهفة لتسلم الورقة ، بينما جذب دارتانيان من حزامه

ورقتين سلم احداهما الى المحافظ ، ففضها وأخذ يقرؤها بصوت خافت وهو ينظر الى آتوس من فوقها : « أمر باعتقال جناب الكونت دى لافالير فى قلعة الباستيل » . ثم قال : « حقا يا سيدى ان هذه لحظة محزنة ! »

فقال آتوس بصوته الهادىء الرقيق : « ستجد منى يا سيدى سجينا صبورا »

وقال أراميس : « وهو أيضا سجين لن يتم الشهر فى سجنه يا محافظى العزيز ! »

وكان بيزمو لا يزال ممسكا بالأمر فى يده ، فدونه فى سجل السجن . وهنا قال دارتانيان :

ـ بل لن يمكث يوما واحدا ولا ليلة واحدة !

ثم أبرز الأمر الآخر الصادر من الملك وقال للمســيو بيزمو : « والآن يا عزيزى المسيو بيزمو ، ستدون فى سجل السجن هذا الأمر الثانى الذى يقضى بالافراج فورا عن الكونت ! »

فقال أراميس : « آه ، لقد حرمتنى أداء هذه المهمة يا دارتانيان ! »

ثم مد يده فضغط بها يدى دارتانيان وآتوس فى وقت واحد . بينما قال الأخير متعجبا : « ماذا تقول ؟ الملك أمر بالافراج عنى ؟ ! »

فناوله دارتانيان الورقة الاخرى وهو يقول له : « اقرأ يا صديقى العزيز »

فتناول آتوس الورقة وقرأها ثم قال : « هذا صحيح »

فسأله دارتانيان : « أيحزنك هذا ؟ » فقال : « كلا !. بل أنا على العكس ارجو أن يعدل الملك عن ظلم أى انسان ، فالظلم مرتعه وخيم . ولكن لاريب أن مهمتك كانت شاقة . أليس كذلك ؟ »

فضحك دارتانيان وقال : كلا !. ان الملك لا يحجم عن تحقيق أية رغبة لى ! »

فنظر أراميس الى دارتانيان نظرة فاحصة ، وأدرك أنه لا يقول الحق . ولكن بيزمو كان ينظر الى دارتانيان نظرة اعجاب بحظوته عند الملك ثم قال أراميس : « هل الملك سينفى آتوس ؟ » . فأجاب دارتانيان قائلا : « كلا !. ان الملك لم يوضح ما يعتزمه ، ولكنى أحسب أن خير ما يفعله الكونت أن يقدم شكره للملك »

فقال آتوس وهو يبتسم : « ليس هذا وقته يا صديقى »

فاستطرد دارتانيان قائلا : « اذن يا عزيزى تعود الى قصرك الآن ، الا اذا كنت تؤثر مكانا آخر »

فقال آتوس : « لا شىء أحب الى يا صديقى من أن أعود الى عزلتى تحت شجرى الأصيل على شاطىء اللوار »

ثم التفت الى بيزمو وقال : « والآن يا سيدى أحسبنى طليقا ؟ »

فقال محافظ السجن وهو يقلب الورقتين فى يده : « أحسب ذلك يا سيدى الكونت . على الأقل آمل ذلك . الا اذا كان لدى المسيو دارتانيان أمر ثالث سيبرزه ! »

ثم التفت الكونت الى دارتانيان وقال له : « هيا بنا نذهب يا صديقى بصحبتك وهى أكبر مسرة لى فى الحياة ! »

فقال له دارتانيان : « سأصحبك الى باب المدينة فقط ، وبعد ذلك أخبرك بما قلته للملك . أما الآن فانى فى الخدمة رسميا »

ثم قال آتوس لأراميس : « ألا تصحبنا ؟ ان مزرعة لافير فى طريق مدينة فان »

فقال أراميس : « شكرا لك يا صديقى العزيز ، ان عندى الليلة موعدا فى باريس لانجاز بعض المصالح ذات الأهمية »

فقال آتوس : « فى هذه الحالة ارانى مضطرا لأن أودعك الآن »

ثم التفت الى بيزمو وقال له : « انى مدين لك بالشكر الجزيل على لطفك معى ، وعلى نموذج الطعام المعتاد فى الباستيل ! »

ثم قبل أراميس وصافح بيزمو وتلقى منهمـا أحسن أمانيهمـا لرحلة سعيدة ، وخرج مع دارتانيان

كان جريمو قد أدرك حين شهد سيده يركب العربة مع دارتانيان أن وراء مظهرهما الهادىء شيئا خطيرا . فلما انطلقت بهما العربة وسمع سيده يقول له : « وداعا » ، عاد الى ذاكرته ما مر من الظروف والملابسات ، واشتد به الحزن والقلق . وسرعان ما انتقل ذهنه الى التفكير فيما لحظه من الاهتمام الذى بدا فى وجه سيده وهو يقرأ خطاب دارتانيان اليه ، ثم فكر أيضا فيما تلا ذلك من زيارة راءول لأبيه ، وكيف دعاه هذا على أثرها وأمره أن يعد لأجله بذلة التشريفة وأوسمته كلها ، ثم كيف عاد من مقابلته للملك مهموما ، وبعد أن تحدث مع راءول خرج هذا من عنده بادى الأسف ، وأخيرا وصل دارتانيان وهو يعض على طرف شاربه كعـادته كلمـا غضب ، ثم صحب سيده فى عربته

ونهض جريمو بعد ذلك فبحث فى جيوب سيده عن خطاب دارتانيان ، فوجده وقرأ فيه ما يلى :

« صديقى العزيز .. لقد زارنى راءول وسألنى تفصيل بعض الأمور الخاصة بمسلك الآنسة دى لافاليير أثناء اقامته بلندن . وأنا لست الا قائدا للفرسان ، وقد كدت أموت اشمئزازا من سماع الكلام عن الفضائح كل يوم فى الثكنات ، ولو أننى أخبرت راءول بكل ما أحسبنى أعرفه فان المسكين

كان يموت كمدا . ولكنى فى خدمة الملك ولا أستطيع أن أحكى كل ما أسمعه عن شؤون الملك . فاذا حدثك قلبك بالمجىء فافعل دون ابطاء ، فان الأمر يتعلق بك أكثر منى ، ويهمك بقدر ما يهم راءول »

وشد جريمو شعر رأسه من الغيظ ، ثم قال يحدث نفسه : « أجل هذا مفتاح اللغز . ان الفتاة كانت تلعب الاعيبهـا . ولا شك الآن فى صحة ما يقوله الناس عنها وعن الملك ، ثم لا شك أيضا فى أن الكونت قد ذهب الى الملك وابدى له جانبا من رايه . وعلى هذا أرسل الملك المسيو دارتانيان الى سيدى الكونت . وقد تذكرت الآن فقط أنه عاد من عنـد الملك وسيفه ليس معه ! »

وتصبب العرق البارد من وجهه ، ولم يشأ ان يضيع دقيقة واحـدة فوضع قبعته على رأسه وانطلق يعدو الى مسكنه ببيت راءول . وكان هذا بعد أن تركته لويز قد تغلب على حزنه وان لم يتغلب على حبه . ونظر الى الطريق الخطر الذى يدفعه اليه التهور والتمرد ، كما أدرك أن والده معرض لغضب الملك ، ثم تذكر زيارة دارتانيان لأبيه . وأدرك أنهـا لا بد زيارة رسمية موعز بها من الملك ، وشعر بمرارة النـدم على أنه فى غمرة ثورته الغرامية نسى أباه فى وقت ينبغى له فيه أن يدفع عنه الخطر الداهم . ولم يلبث حتى شد سيفه الى نطاقه وجرى قاصدا الى بيت أبيه . وفيما هو فى الطريق قابل جريمو قادما من الجهة الاخرى للطريق فقال له :

ـ جريمو .. هل الكونت بخير ؟ أين هو الآن ؟

فقال جريمو : « لقد خرج مع المسيو دارتانيان فى عربته بعد عشر دقائق من خروجك ، ولا أدرى أين ذهبا ؟ »

فسأله : « هل أخذ أبى نقودا معه ؟ وهل كان معه سيفه ؟ »

فلما أجاب جريمو بالنفى ، عض راءول على شفتيه وقال : « اذن لقـد جاء دارتانيان لكى يقبض على الكونت ، وأظن أن العربة ذهبت بهما الى الباستيل !. هيا يا جريمو ، يجب الا نضيع لحظة واحدة ، ولكن الى أين نذهب ؟. ان المسيو دارتانيان لن يخبرنا بشىء ، ولكن المسيو دى فالون لا يزال ينتظرنى فى مينيم بغابة فنسين ! »

فقال جريمو : « اذن .. فالطـريق واحـد الى الباستيل والغـابة ، وسأمضى الآن لأعد جوادين ونذهب توا »

□

كان بورتوس المخلص الأمين على قواعد الفروسية القديمة ، قد اعتزم البقاء حتى الغروب انتظارا للمسيو سان اينيان . فلما لم يأت هذا ، ولم يتصل به راءول مل الانتظار ، وطلب طعاما ونبيذا ليتسلى بهما . وما كاد ينتهى من تناول طعامه وشرابه حتى وصل راءول وجريمو على جواديهما ،

فحسب لأول وهلة أنهما سان اينيان وظهيره ، وقام من مجلسه فوق العشب واخذ يحرك ساقيه وذراعيه ويقول لنفسه : « حسنـا فعلت اذ بقيت هنا ولم أذهب ! »

غير أنه فوجىء بأن راءول هو القادم لا سان اينيان ، وكانت دهشـته اشد حين قال له راءول : « سامحنى أيها الصديق العزيز . وأرجو الا تبقى غاضبـا على ، فما انسانى موعدك الا أننى فى أتعس حال !. آه لو علمت يا صديقى .. انى أؤكد لك أنى أشعر الآن بأن رأسى ليس فى جسمى ! »

فهتف بورتوس سائلا : « أنك قتلتـه اذن ؟.. قتلت سان اينيان !. أليس كذلك ؟ »

فقال له راءول بعد أن تنهد : « كلا يا صديقى !. المسألة ان الكونت دى لافير قبض عليه الآن ! »

فصاح بورتوس فى دهشـة : « قبض على الكونت ؟. ومن الذى قبض عليه ؟ ! »

فغمغم راءول قائلا : « دارتانيان » . وهنا اشتد ذهول بورتوس ، وأخذ يدير عينيه فى راءول وجريمو مرددا قوله : « كلا !. هذا محال ! »

وقال راءول : « هذه هى الحقيقة ! » . وأومأ جريمو برأسه موافقا فى حزن ملحوظ ، ثم عاد بورتوس يسأل متعجبا : « الى أين آخذه ؟ »

فقال راءول : « الى الباستيل على الأرجح ، وقد سألنا فى طريقنا بعض الناس فعلمنا منهم ان العربة التى تقلهما دخلت الباستيل »

فتمتم بورتوس قائلا : « هذا خطير .. اننى لن أدع الكونت يبقى ليلة واحدة فى الباستيل ! »

وهنا اقترب منه راءول وقال هامسا : « انك لم تعلم بعد أن القبض عليه كان بأمر الملك ! »

فنظر اليه بورتوس معاتبا كأنه يقول له : « وماذا يعنينى من ذلك ؟ ! » وأدرك راءول معنى نظرته فلم يسأله سؤالا آخر بل سارع الى امتطـاء جواده ، فركب بورتوس جواده كذلك بمساعدة جريمو . ومضى الثلاثة حتى جاوزوا الغابة صامتين . ثم تنهد راءول من أعماق صدره وقال :

ـ ان موقفنا يدعو الى اليأس ، وليس فى استطاعتنا وحدنا أن نقتحم الباستيل !

فقال بورتوس : « كان الموقف يتغير لو ان دارتانيان معنا ! »

فنظر اليه راءول معجبا بهذه الثقة التامة التى تمثل البطولة فى بساطتها ، ثم قال بورتوس : « لقد نبهتنى الى فكرة .. يجب حقـا أن نرى المسيو دارتانيان ! »

فأومأ موافقا وقال : « لا بد انه عاد الى بيته بعـد أن صحب أبى الى الباستيل . هيا بنا نذهب الى بيته »

وتكلم جريمو لأول مرة فقال : « تسأل أولا فى الباستيل » . فوافقا على اقتراحه فورا ، وحثوا جيادهم قاصدين الى الباستيل ، فلما اقتربوا منه لمح جريمو عربة دارتانيان داخلة الى السجن بعد عودته من مقابلة الملك . وعبثا حاول الثلاثة أن يلحقوا بها ليروا من فيها ، اذ وصلت الجياد الى الجانب الآخر من الباب الكبير بعد أن أغلق من جديد ، وتصدى أحد الديدبانات لجواد راءول وضربه بمؤخرة بندقيته ليحول دون تقدمه ، ففهم راءول من هذا أن العربة لا بد تقل صيدا سمينا ، وكذلك فهم جريمو فلم يسعه الا أن هتف قائلا : « انه هو .. ثم التفت راءول الى بورتوس وقال له :

ـ الا ننتظر قليلا ؟.. الا ترى انه سيخرج ثانية ؟

فقال بورتوس : « الا اذا أصبح دارتانيان أيضا سجينا ، وفى هذه الحالة نفقد كل شىء ! »

فلم يجب راءول لأن كل فرض كان ممكنا ، وأمر جريمو بأن يقود الجياد الثلاثة الى شارع جان بوزير الصغير حتى لا تثير الشبهات ، ووقف هو يرقب خروج دارتانيان أو العربة . ولم تمض عشرون دقيقة حتى فتح الباب من جديد وظهرت العربة ثانية غير أنه لم يستطع معرفة الاشخاص الذين بها

وقال جريمو : « ان العربة بها شخصان أحدهما سيدى الكونت »

وظل بورتوس يردد بصره بين راءول وجريمو لعله يعرف ما يعتزمان . ثم قال جريمو : « ما دام الكونت فى العربة فاما أن يكون قد أطلق سراحه ، واما انهم يأخذونه الى سجن آخر » . فقال بورتوس : « سنرى أى طريق تسلكه العربة »

فقال جريمو : « اذا كان مطلق السراح فستذهب به العربة الى منزله »

وأومأ بورتوس موافقا ، بينما صاح راءول قائلا : « ان العربة لا تسير فى طريق المنزل »

والواقع أن العربة كانت قد بدأت تختفى فى ضاحية (سان أنتوان) . ولم تمض ثلاث دقائق حتى أدرك الفرسان الثلاثة العربة وتبعوها عن قرب حتى صارت أنفاس جيادهم تبلل مؤخرتها . وسمع دارتانيان وقع حوافر الجياد المطاردة للعربة ، وكان راءول قد طلب الى بورتوس أن يسبق العربة ليرى من فى داخلها وهو يمر عليها ، ولكن ستائر العربة كانت تغطى نافذتيها فلم ير بورتوس أحدا ممن فيها ، فاشتد غضب راءول اذ لحظ ذلك ، وهمز جواده حتى سار فى محاذاة العربة وقد اعتزم معرفة من فيها بأى ثمن . وفى هذه اللحظة كان دارتانيان قد لمح بورتوس وراءول من خلال ستائر النافذة وأخبر الكونت بأمرهما . ثم اتفق كلاهما على أن ينتظرا ليريا ما يكون ، وسرعان ما شهر راءول مسدسه فى وجه الحوذى آمرا اياه بالوقوف ، ثم

أمسكه بورتوس وانتزعه من مقعده ، بينما وضع جريمو يده على مقبض باب العربة وأداره بعنف ففتح الباب وظهر الكونت ودارتانيان

وهتف الكونت بابنه قائلا : « أهذا أنت يا راءول ؟ » . وكان دارتانيان يضحك ملء شدقيه ، ثم عانقه كلاهما وقبلاه ، وصاح الكونت مناديا بورتوس قائلا :

ـ بورتوس الشجاع ! أحسن الأصدقاء ! انك لا تتغير أبدا !

وقال دارتانيان : « انه لا يزال فى العشرين من عمره ... بورتوس الجسور ! »

فبان ارتباك الخجل على بورتوس من هذا المديح وقال : « لقد حسبناك مقبوضا عليك »

وأضاف آتوس قائلا : « بينما الأمر لا يعدو القيام بنزهة فى عربة المسيو دارتانيان »

فقال راءول بلهجة الشك : « ولكنا تبعناك من الباستيل الى هنا »

فقال الكونت : « كنا نتناول العشاء مع صديقنا الطيب المسيو بيزمو . الا تذكر بيزمو يا بورتوس ؟ »

فقال بورتوس : « أذكره جيدا ! » . وواصل الكونت كلامه فقال : « وهناك وجدنا أراميس أيضا ! » . ثم نظر الى جريمو وكافأه على همته واخلاصه بابتسامة عذبة سأله هذا على أثرها : « الى أين يذهب سيدى الكونت ؟ »

فقال : « كنا ذاهبين الى (بلوا) . على أن أكتب من هناك الى راءول ليبعث الى بمتاعى أو يجيئنى به عند عودتى اليها ! »

وهنا قال دارتانيان للكونت : « اذا لم يكن لديه عمل يشغله فى باريس ، فانه يحسن صنعا اذا اتبعك يا آتوس »

ونظر الى راءول نظرة نافذة كالصلب ، مؤلمة كحد السيف (لأنها فتحت جراح الشاب المسكين)

فقال راءول : « لم يبق شىء يربطنى بباريس ! »

وهنا قال أبوه : « اذن نذهب معا »

وقال المسيو دارتانيان : « سنصحبكما انا وبورتوس حتى الحدود ، أما عزيزنا جريمو فيعود الى باريس فى هدوء »

فقال راءول لأبيه محاولا أن يغريه بالكلام : « متى تعود الى باريس ؟ »

فقال له أبوه : « أظن أنه سيمضى وقت طويل قبل أن نعود الى باريس . ان اقامتنا الأخيرة بها لا تشجعنا على العودة اليها ! »

فأطرق راءول وسكت . ثم هبط آتوس من العربة وركب الجواد الذى كان بورتوس يركبه ، وقد بدا على الجواد أنه سر لتغيير حمله ... ثم

تعانقوا وتصافحوا وتعاهدوا على المودة الى الأبد . ووعد بورتوس بأن يمضي شهرا مع آتوس فى أول فرصة تسنح . وتعهد دارتانيان بأن يسافر اليه فى أول اجازة يحصـــل عليها ، ثم قبل راءول قائلا له : « وسأكتب اليك يا بنى » . ولما كان دارتانيان قليل الكتابة فان هذا الوعد أثر فى نفس راءول حتى اغرورقت عيناه بالدموع

وبعد أن ذهب آتوس وراءول ، لحق دارتانيان ببورتوس فى العربة وقال له : « لا شك أنك متعب »

فقال بورتوس : « الى حد ما . وسآوى الليلة الى فراشى مبكرا لكى أكون مستعدا غدا »

فسأله متعجبا : « لأى شيء تستعد ؟ »

فقال : « أستعد لكى أتم ما بدأته ! »

فنظر اليه دارتانيان مليا وقال له : « انك تجعلنى أرتعد ، اذ تبدو غاضبا هكذا !.. ترى ماذا بدأته يا صديقى ولم ينته بعد ؟ »

فقال بورتوس : « ان راءول لم يقاتل ، ولكنى أنا لا بد أن أقاتل ! »

فسأله دارتانيان : « تقاتل من يا صديقى ؟.. تقاتل الملك ؟ ! »

فدهش بورتوس وقال : « الملك ؟ ! » . فقال دارتانيان : « أجل الملك ! أرأيت أيها الطفل الكبير ؟ ! »

فقال بورتوس : « لكنى انما أعنى المسيو سان اينيان ؟ »

فقال : « نعم ، ولكنك اذا جردت سيفك لتبارز هذا الرجل فانما تقاتل الملك »

فبـدت الدهشة فى وجه بورتوس ونظر الى المسيو دارتانيـان قائلا : « أواثق أنت من ذلك ؟. وماذا نفعل اذن ؟ »

فقال دارتانيان : « خير ما نفعل أن نتناول عشاء جيدا . ان مائدة قائد الفرسان لا بأس بها . وهناك ستجد سان اينيان الوسيم وتشرب نخبه ! »

ثم ابتسم حين اشتدت دهشة بورتوس ، وهتف به قائلا : « ماذا ؟.. أترفض أن تشرب نخب الملك ؟ »

فقال بورتوس : « انى لا أتكلم عن الملك مطلقا ! »

فقال دارتانيان : « أكرر لك القول بأن الأمر سواء ! »

ولما رآه يومىء برأسه موافقا قال له : « حسنا !..ها أنت ذا قد فهمت »

فغمغم بورتوس قائلا : « لم أفهم شيئا .. الا أن الأمر سواء كما تقول ! »

□

بقى بيزمو بعد انصراف دارتانيان والكونت دى لافير من الباستيل ، يتحدث الى أراميس ، وقد أطلق لسانه ما شرب من الخمر بعد العشاء .

ولم يفطن الى أن جليسه الأسقف لا يزهد شيئا زهده للكلام بعد تناول الحلوى... وهكذا استمر الحديث بينهما من طرف واحد هو المسيو بيزمو.. وكان محور حديثه ذلك الحادث الفريد الذى وقع منذ برهة ، وهو اعتقال آتوس والافراج عنه فورا ، ولم يفته أن الأمرين المتناقضين المتتاليين كانا بتوقيع الملك نفسه . غير أنه رأى أن الملك ما كان ليكتب مثل هذين الأمرين الا تحت ضغط ظروف خاصة

وكان هذا كله شائقا ومحيرا للمسيو بيزمو ، لكنه كان عكس ذلك واضحا كل الوضوح لأراميس ، فانه لم يعط لهذا الحادث كل الأهمية التى أضفاها عليه محافظ السجن الهمام !. ومن هنا لم يلبث قليلا حتى قطع كلامه قائلا :

ـ خبرنى يا عزيزى المسيو بيزمو .. ألم يقع لك من ضروب التسلية فى الباستيل غير ما شهدته فى المرتين أو المرات الثلاث التى زرتك فيها ؟

فقال بيزمو : « ان لدى أنواعا كثيرة حاضرة من التسليـة ، يا صاحب الفخامة »

فسأله أراميس : « عن الزيارات التى تتم هنا طبعا ؟ »

فقال : « لا .. ليست عن زيارات .. ان الزيارات ليست كثيرة هنا ! »

فقال له : « وهل الزيارات نادرة هنا حتى من جانب مجتمعك ؟ »

فبدت الدهشة فى وجه محافظ السجن وسأله : « ماذا تعنى ؟. أتقصد السجناء ؟ »

فقال : « كلا ! . انى أعرف حق المعرفة أنك أنت الذى تزور السجناء وليسوا هم الذين يزورونك . ولكنى أعنى بمجتمعك ، المجتمع الذى أنت عضو فيه ! »

فنظر بيزمو الى أراميس نظرة فاحصة ، ودارت بخلده فكرة ولـكنه وجدها مستحيلة فقال :

ـ أوه ، لا أرى الا قليلا من المجتمع فى الوقت الحاضر . والواقع يا عزيزى دربلاى ان الاقامة بالباستيل تبعث الملل والكرب فى نفس الشخص الميال الى المرح . ثم أن السيدات لا يصلن الى هنا الا فى خوف وفزع وهـذا يسبب لى متاعب جمة ، وفى الحق كيف لا يرتعدن فرقا حين يرين هـذه الجدران الكئيبة ويذكرن أن فى داخلها رجالا ...

وسكت اذ تلعثم لسانه تأثرا بنظرة أراميس الفاحصة فلم يتم جملته . ثم قال له أراميس :

ـ يا عزيزى بيزمو . انك لم تفهم ما أقصده . انى لم أرد أن أتحدث عن المجتمع بوجه عام ، بل أردت أن أتكلم عن مجتمع معين ، عن الجمعية التى أنت عضو فيها !

فكادت الكأس تسقط من يد بيزمو حين سمع هذه الكلمة الاخيرة وصاح قائلا : « جمعية ؟ عضو ؟ ! »

فقال أراميس هادئا : « أجل . ألست عضوا فى جمعية سرية يا عزيزى بيزمو ؟. ان هذه هى الحقيقة التىأعرفها كما أعرفك .. ولا داعى لأن تنكر. ولعلك تحسن اذ تتجرع كأسك أولا لأنك — الى حد ما — تبدو خائفا .. اشرب كأسك يا عزيزى لكى نتفاهم ! »

وتجرع بيزمو كأسه ، بينما قال أراميس : « ليس يعنينى قط أن تكون أو لا تكون عضوا فى جمعية سرية أو خفيـة ، ولكنك ان لم تكن عضوا فى جمعية أعنيها بالذات فانك لن تفهم شيئا مما سأقوله . هـذا كل ما فى الأمر ! »

فقال بيزمو : « صدقنى .. أنا لم أفهم شيئا مما تعنيه ، وما أحسب أنى سأفهم ! »

فقال أراميس : « لا داعى لليأس !. ألست تعلم مثلا أن الانسان لا يمكنه أن يكون عضوا فى جمعية ويستمتع بمزايا عضويتها الا اذا ارتبط ببعض خدمات صغيرة يؤديها لها ؟ »

فقال بيزمو متلعثما : « هذا واضح ! »

فقال أراميس : « حسنا !. هناك فى الجمعية التى أعنيها ، تعهد يرتبط به جميع المنضمين اليها من محافظى السجون ورؤساء حراسها »

وهنا امتقع وجه بيزمو ، بينما واصل أراميس كلامه فقال :

— ان ذلك التعهد يقضى على محافظ السجن أو رئيس حراسه بأن يسمح لأى قسيس تابع للجمعية بزيارة أى سجين ليتلقى اعترافه عند الحاجة سواء أطلب السجين هذا أم لم يطلبه

وسكت أراميس هنيهة متفرسا فى وجه بيزمو الذى كان يرتعد فرقا . ثم عاد يسأله : « أليس هذا هو نص التعهد ؟ »

فغمغم بيزمو قائلا : « يا صاحب الفخامة ؟ ! » . وابتسم أراميس قائلا له : « حسنا . لقد بدأت تفهم على ما أظن ! »

ثم استجمع بيزمو شتات ذهنه وقال : « يا صاحب الفخامة ، لا تلعب بعقلى المسكين . انى أجد نفسى لا شىء فى يدك ، فلا تحاول أن تستل منى الأسرار الصغيرة لادارة السجن ! »

فقال له : « لاتخدع نفسك يا مسيو بيزمو ، اننى لا أعنى الأسرار الصغيرة لادارة السجن ، ولكنى أعنى أسرار ضميرك ! »

فقال بيزمو : « أرجو الا تكون قد نسيت أن المركز الذى أنا فيـه ليس مركزا عاديا ؟ »

فابتسم أراميس وقال : « يا عزيزى .. انه حقا لا يكون مركزا عاديا اذا كنت عضوا فى تلك الجمعية ، أما اذا لم تكن عضوا فيها فان مركزك يكون طبيعيا ، اذ تكون حرا غير مقيـد بتعهـد ، ولست مسئولا الا أمام الملك وحده ! »

فتنهد مسيو بيزمو وقال : « حسنا يا سيدى !. انى أطيع الملك ، والا فمن غيره يدين له نبيل فرنسى بالطاعة ؟ »

فلم يتراجع أراميس قيد أنملة ولكنه قال بصوته الفضى الهادىء : « انه لشىء سار أن يسمع نبيل أو أسقف مثلى رجلا فى مركزك يعبر عن ولائه هـذا التعبـير يا عزيزى المسيو دى بيزمو ، ويسرنى الا أعتقد أكثر مما تعتقده ! »

فسأله بيزمو : « أأنت فى شك من صدق كلامى يا سيدى ؟ »

فأجاب قائلا : « أنا لا أشك فى أن رجلا مثلك لا يخلص الخدمة للسادة الذين اختارهم لنفسه ! »

فصاح بيزمو قائلا : « سادة ؟ !.. لا شك أنك لا تزال تمزح . أليس كذلك ؟ »

فقال أراميس جادا : « من الصعب أن يكون للانسان سادة عديدون لا سيد واحد . غير أن هذه الحيرة ناشئة منك يا عزيزى بيزمو ولست أنا السبب فيها ! وعلى كل حال أظن أنه يستحسن أن أذهب الآن ؟ »

فقال المحافظ وقد زاد ارتباكه : « أتغادر المائدة ؟. لماذا بالله ؟.. ان مسلـكك معى عجيب يا صاحب الفخـامة .. هل آليت على نفسك أن تعذبنى ؟ »

فقال أراميس وهو يتهيأ للنهوض : « لم يبق لى ما أفعله هنا ، وعنـدى واجبات عاجلة فى جهات أخرى ! »

فتساءل بيزمو فى دهشة : « واجبات فى مثل هذه الساعة ؟ »

فقال أراميس : « أجل يا عزيزى بيزمو .. ولقد قالوا لى فى المكانالذى جئت اليك منه : ان محافظ السجن سيسمح بدخول قسيس من أتبـاع الجمعية ليتلقى اعتراف السجين بناء على طلبه . وعلى ذلك جئت . ولكنك لا تدرى ما أعنيه ولذا سأعود اليهم لأصـارحهم بأنهم على خطأ ويجب أن يبعثوا بى الى مكان آخر ! »

فنظر بيزمو الى اراميس نظرة خـوف وقال له : « انك يا صـاحب السيادة ... »

فقطع أراميس كلامه قائلا : « أنا قسيس تابع للجمعيـة التى حدثتك عنها . ولكن لا فائدة من الكلام فى هذا . لأنك طبعا غير مقيد باجابة طلب الجمعية ما دمت غير عضو فيها كما فهمت الآن ! »

فقال له بيزمو : « يا صاحب السيادة .. أرجو أن تصغى الى .. انى لم أقل بألا صلة لى بالجمعية ، ولم أقل : انى أرفض أن ألبى طلبها !. وكل ما هناك أنى أردت أن أستوثق . وأنا فى جميع الظروف والأحوال تحت أمر سادتى »

فقال أراميس : « حسنا !· انى أفضل أن تكون هكذا يا سيدى ، فما الذى تريد أن تستوثق منه ؟ »

فقال متلعثما : «لا شيء ! أعنى أننى لم أتلق أى نبأ ، ولم أتوقع قط···»

فقطع كلامه قائلا : « أليس شعار الجماعة : (كل ما أريده ستريده أنت كذلك) ··؟ »

فقال بيزمو : « لكن يا صاحب السيادة ليس فى الباستيل الآن أى سجين مريض حتى يطلب الاعتراف ! »

فهز أراميس كتفيه ثم استدار فى مقعده وأشار الى الباب قائلا : « يا مسيو بيزمو ، ان خادمك يريد أن يكلمك ! »

فقال الخادم : « سيدى ·· انهم أحضروا تقرير الطبيب ! »

فنظر أراميس الى بيزمو مبتسما ، وقال هذا للخادم : « دع الرسول يدخل »

ودخل الرسول فحيى وقدم تقريرا لبيزمو فقرأه هذا وقال : « ان السجين بالغرفة ١٢ مريض ! »

فنظر اليه أراميس وقال : « أرأيت اذن أنه ليس كل من فى السجن فى صحة جيدة ؟! »

فأشار المحافظ الى الرسول لكى يخرج ، فلما خرج قال لأراميس وهو يرتعش : « ان نظام الجماعة يشترط أن يطلب السجين قسيسا يتلقى منه الاعتراف »

فأومأ أراميس موافقا ، ثم أشار مرة أخرى الى الباب قائلا : « هذا جاويش بالباب · ترى ماذا يريد هو الآخر ؟ »

والتفت بيزمو ، فلما رأى الجاويش بالباب صاح به قائلا : «ماذا تريد؟· ألا يمكن أن تتركونى فى هدوء عشر دقائق ؟! »

فقال الجاويش : « ان السجين الذى بالغرفة رقم ١٢ قد طلب الى أحد السجانين أن يرجو منك ارسال قسيس اليه ليعترف له ! »

فكاد بيزمو يسقط على الارض ، ولكن أراميس لم يرد أن يطمئنه كما لم يرد من قبل أن يزعجه فالتزم الصمت الى أن سأله بيزمو : « بماذا أجيب ؟ » · فقال له : « اننى لست محافظ السجن ! »

فتنهد بيزمو وقال للجاويش : « أبلغ السجين أن طلبه أجيب ! »

ولما ذهب الجاويش قال بيزمو لأراميس : « آه يا صاحب السيادة !·· أكان باستطاعتى أن أتوقع ذلك ؟ »

فأجابه أراميس فى ازدراء : « من الذى طلب اليك أن تتوقع أو تتنبأ ؟· ان الجماعة هى التى تتوقع وتتنبأ · ألا يكفى هذا ؟ »

فسأله بيزمو : « بماذا تأمر ؟ »·فأجاب قائلا : « أنا ؟· لا شيء مطلقا !· أننى لست الا قسيسا مسكينا يتلقى الاعترافات · أتأمرنى بأن أذهب الى المريض ؟ »

فقال له : « اوه يا صاحب السيادة ·· انى لا آمرك بل أرجو منك أن تذهب إليه ! »

فنهض أراميس وهو يقول : « حسنا !· هيا اذن قدنى اليه ! »

تغيرت معاملة بيزمو لأراميس منذ علم بأنه قسيس للجماعة يتلقى الاعترافات من السجناء ، وبعد أن كان ينظر اليه على أنه قسيس صديق حميم ، بدأ يشعر بضعفه حياله،وبأنه أحد السادة الذين عليه أن يطيعهم · وعلى هذا أشعل بنفسه مصباحا ثم نادى حارسا والتفت الى أراميس قائلا : « انى رهن أمرك يا مولاى » · فلم يزد أراميس على أن أومأ برأسه وأشار اليه بيده ليريه الطريق ، فسار بيزمو أمامه ومن ورائهما الحارس حتى دخلوا السجن وقد اختلط وقع أقدامهم فيه بصليل مفاتيح الحراس المعلقة بأحزمتهم · وكان السجان الذى وراءهما هو نفسه الذى استقبل أراميس حين جاء ، بالسؤال والفضول ، أما الآن فقد مشى مطأطىء الرأس جامد الملامح · ولما وصلوا الى غرفة السجين المريض بدا من بيزمو أنه راغب فى الدخول ، ولكن أراميس وقفه عند الباب قائلا : « ان القواعد لا تسمح لمحافظ السجن أن يستمع لاعترافات السجين ! »

فانحنى بيزمو وأفسح الطريق لأراميس ، فأخذ هذا المصباح ودخل ، ثم أشار الى المحافظ والسجان لكى يذهبا ، ووقف لحظة ليستوثق من ذهابهما ، حتى اذا اطمأن الى ذلك من وقع أقدامهما ، وضع المصباح على منضدة بغرفة السجين ، وأخذ يجيل بصره فى أرجاء الغرفة فى هدوء · وكان بالغرفة شاب راقد على سرير مغطى بصوف خشن أخضر ، لا يمتاز عن السرر الاخرى بشيء سوى أنه حديث،وطبقا لأنظمة السجن كانت المصابيح التى بغرف السجناء تطفأ كلها حينما يأتى المساء ، ولكن مصباح غرفة هذا السجين كان باقيا مضيئا الى تلك الساعة مما يدل على امتيازه · وكانت تعلو السرير ستائر نصف مفتوحة ، وعلى مقربة منه كرسى كبير مغطى بالجلد ، ومنضدة ليس عليها كتب ولا أقلام حبر ، ولكن عليها عدة أطباق مملوءة بالطعام مما يدل على أن السجين لم يتذوق شيئا من عشائه · ورأى أراميس ذلك الشاب ممددا على سريره وقد غطى نصف وجهه بذراعيه ، ولم يتحرك عند دخوله · فاقترب منه فى شيء من الفضول والاحترام ، وعندئذ رفع الشاب رأسه وقال له : « ماذا تريد ؟ »

فابتسم أراميس وقال : « لقد طلبت قسيسا تعترف له ، هل أنت مريض جدا ؟ »

فصعد الشاب بصره فى أراميس وقال له : « شكرا لك ! »

وبعد أن سكت لحظة قال له : « لقد رأيتك من قبل .. »

فأومأ أراميس برأسه موافقا ، وبدا على السجين أنه لم يطمئن كثيرا الى ما يبدو على أسقف « فان » من صرامة وجمود ، فقال : « ان صحتي قد تحسنت ! » • فسأله أراميس : « وإذن ؟ »

فأجاب الشاب قائلا : « ما دامت صحتي قد تحسنت فأحسبني لست الآن في حاجة الى قسيس أعترف له ! »

فقال له أراميس بتؤدة : « حتى على الرغم من رقعة الورق التي دست في خبزك وفيها أن أحد رجال الكنيسة سيفضي إليك بحديث ذى شأن ؟ »

فبدا الشاب يجاهد كي يحافظ على هدوئه ، ثم قال : « اذا كان الأمر كذلك فاني مصغ اليك »

وعاد فوضع رأسه على الوسادة ، وأمعن أراميس فيه النظر فراعه جلال البساطة في ملامحه وهو شيء لا يكتسب ولكن يودعه الله في قلب من يشاء أو يمزجه بدمه • ثم قال له السجين : « إجلس ! »

فانحنى أراميس وأطاعه ثم سأله : « أأنت مرتاح هنا في الباستيل ؟• أعني : ألا تتألم لشيء أو تأسف على شيء كحريتك مثلا ؟ »

فقال الشاب : « كلا !• لست أشعر بألم أو أسف ، ولكن ماذا تقصد بالحرية يا سيدي ؟ »

فقال : «أعني الهواء والضوء والازهار والنجوم ومسرة الذهاب الى حيث توجهك أعضاء سن العشرين ! »

فابتسم الشاب وقال : « انظر •• ان عندى في هذه الزهرية اليابانية وردتين قطفتا مساء أمس من حديقة المحافظ • واليوم صباحا تفتحت أكمامهما وأنا أرقبهما بعيني • وها هى ذى الغرفة مفعمة بأريجهما العطر ، انظر اليهما • انهما تعدان جميلتين بين الورد ، وهو نفسه أجمل الازهار • فلماذا اذن تريدني على أن أطلب أزهارا أخرى مع أن عندى أجمل الازهار طرا ؟! »

فنظر أراميس اليه مندهشا ، بينما استطرد الشاب قائلا : « اذا كانت الازهار عنصرا من عناصر الحرية فأنا اذن حر ! »

فقال أراميس : « والهواء ؟•• أليس ضروريا للحياة ؟! »

فقال : « نعم يا سيدى •• وفي استطاعتك من النافذة المفتوحة هنا أن ترى الهواء يتخلل الفضاء بين السماء والارض ، وها أنذا أشعر بنسماته فوق خدى • وأحيانا أقف على هذا الكرسي فأمسك بقضبان النافذة بيدى وأتخيل أني أسبح في الفضاء الفسيح الذى أمامي ! »

فقطب أراميس جبينه واستمر الشاب يقول : « أما الضوء فعندى ما هو خير منه ، أعني الشمس التي تزورني كل يوم دون اذن من المحافظ أو السجان • انها تأتي الى عند النافذة وتعكس صورتها على هيئة مربع ذى

قضبان ، باعثة أشعتها على أغطية سريرى حتى الارض ، ثم يزيد حجم هذا المربع المضيء بين الساعة العاشرة والظهر وبعدئذ يتلاشى في بطء من الساعة الاولى حتى الثالثة ، وأكون قد استمتعت بالشمس أربع ساعات • ألا يكفيني هذا ؟• ان هناك مخلوقات شقية تحفر في المحاجر ، وأخرى تشتغل في المناجم ولا ترى الشمس مطلقا ! »

فأطرق أراميس وقد شعر بقوة فلسفة الشاب الحزينة ، ثم قال هذا : « هذا عن الازهار والهواء والضوء والنجوم •• ولم يبق الا تحريك أعضائي •• وأنا أسير طول النهار في حديقة المحافظ اذا كان الجو صحوا ، أو أمشي في غرفتي اذا كان الجو ممطرا • ألا ترى اذن ياسيدى انى أنعم هنا بكل ما يتمناه الانسان أو يحبه ؟ »

فقال له أراميس : « هذا من فضل الله يا سيدى ، ولكن لنعد الى النقطة التي بدأنا منها • انني القسيس الذى طلبت أن تعترف له !• فماذا لديك من حقائق تخبرني بها بحسبانك نادما تائبا ؟ »

فقال السجين : « ان ضميرى لا يتهمني باقتراف أية جريمة ! »

فقال أراميس : « حسنا !• لكننا كثيرا ما نكون مجرمين في نظر العظماء لا لأننا ارتكبنا جرائم بل لأننا نعلم أن جرائم قد ارتكبت ! »

فأبدى السجين اهتماما بالغا وقال : « أجل انى أفهم ذلك ، وانك لعلى صواب يا سيدى ، فمن المحتمل أن أكون مجرما بهذا المعنى »

فقال أراميس في هدوء : « ألا يذكر سيدى أنه رأى منذ خمس عشرة أو ثماني عشرة سنة في قرية (نوازى ـ له ـ سيك) فارسا كانت معه سيدة مرتدية ثيابا حريرية سوداء وبشعرها أشرطة حمراء ؟ »

فقال : « أجل !• وقد أدهشني يومئذ أن الفارس قسيس يدعى الأب دربلاى ، ثم زالت دهشتي اذ علمت أنه كان من فرسان لويس الثالث عشر»

فقال أراميس : « حسنا !• ان ذلك الفارس القس صار بعد ذلك أسقف فان ، وهو نفس القس الماثل بين يديك الآن ليتلقى اعترافك ! »

فهز الشاب رأسه دلالة على أنه تذكر ذلك ، بينما واصل أراميس كلامه فقال : « أما وقد علمت ذلك يا صاحب الفخامة ، فاعلم أيضا أنه لو علم الملك بأن هذا القس جاء اليك الليلة مجازفا بكل شيء ، فانه لن يحجم عن الأمر باعدامه بعد أن يزج في غرفة من السجن أظلم من غرفتك هذه ! »

وهنا استوى الشاب جالسا في سريره ، وأخذ ينظر اليه باهتمام ، وكأنما أحس الثقة به !

فقال أراميس : « سأقول لك في ايجاز ما حدث في فرنسا خلال السنين الثلاث والعشرين أو الأربع والعشرين الاخيرة التي انقضت منذ ميلادك »• ثم أخذ يسرد على مسمعه أسماء ملوك فرنسا الاخيرين فألفاه يعرف أكثرها من العملة ، ثم حدثه عن لويس الثالث عشر فقال : « انه كان يتوق لأن



« وأخذ السجين يتأمل وجهه فى المرآة ، ثم قال : أنتشابه إلى هذا الحد ؟! »

يكون له ولد يرث العرش من بعده . وقد مكث سنوات طويلة يائسا . ثم اذا بالملكة آن النمسوية تضع وريثا للعرش فى يوم ٥ سبتمبر سنة١٦٣٨»

ومرة أخرى لحظ أراميس ارتعاش الشـــاب ، وخيل اليه أن وجهه قد امتقع ، فقال له : « ستتسمع الآن شيئا لا يعلمه الا قليـــلون ، لانه سر يحسبونه قد قبر مع الذين كانوا يعرفونه . على أنى فى الواقع لستأدرى ما الفائدة من ذلك ما دمت غير راغب فى مغادرة الباستيل ؟ »

ولم يزد الشاب على أن كرر قوله : « استمر .. انى مصغ اليك »

فقال أراميس : « وفيماكان البلاط يعلن ابتهاجه بذلك الحادث السعيد، والملك يرى الأمير الوليد للنبلاء والشعب ، ثم يجلس الى المائدة ليحتفل بذلك ، وضعت الملكة وليدا ذكرا آخر !. وأبلغ النبأ الى الملك وهو جالس فى المأدبة ، لكنه فى هـــذه المرة لم ترتسم على ملامحه دلائل السرور ، بل بدا أقرب الى القلق والجزع . ولا عجب فنظام الملك يقضى بأن يرث العرش أكبر أبناء الملك كما تعلم ، والأطبـــاء ورجال القانون لا يقطعون برأى فى تحديد أى التوأمين أكبر ! »

وهنا ازداد امتقاع وجه السجين حتى صار أشد بياضا من غطاء سريره، ثم قال أراميس : « والآن تدرك كيف أن الملك تولاه اليأس والحزن لخوفه من أن يتنازع ولداه التوأمان عـلى العرش ، وقد تشب من أجل ذلك نار حرب داخلية تقضى على الأسرة المالكة كلها ! »

فتمتم الشاب قائلا : « استمر .. استمر انى أفهم ما تقول »

ثم قال أراميس : « وحدث بعد ذلك أن حكم على أحدالتوأمين بأن يختفى فى الظلمات ، وهكذا اختفى الوليد الثاني،دون أن يعلم أحد أين هو ما عدا والدته ! والسيدة التى كانت مرتدية ثيابا سوداء ... »

فسارع الشاب الى اتمام عبارته قائلا : « وما عداك أيضا.أليس كذلك؟. لقد أتيت الآن لتقص على كل هذا ، ولتثير فى نفسى الفضول والبغضـــاء والطموح ، وربما أيضا الرغبة فى الانتقام !. واذا كنت أنت الرجل الذى أرتقبه والذى تنطبق عليـــه المذكرة التى تلقيتها ، فيجب أن تكون معك الآن صورة الملك لويس الرابع عشر الذىيجلس الآن على عرش فرنسا ؟»

وهنا مد أراميس يده الى جيبه وأخرج صورة تمثل لويس الرابع عشر بوجهه الوسيم وملامحه النبيلة ، فنظر اليها السـجين وهو يكاد يلتهمها بعينيه . ثم قال له أراميس : « والآن يا صاحب الفخامة .. اليك مرآة أيضا » . ثم ناوله مرآة صغيرة أحضرها معه ، فأخذ السجين يتأمل وجهه فيها ، ويقارن بينه وبين وجه الملك لويس الرابع عشر فى الصـــورة وهو يتمتم قائلا : « أنتشابه الى هذا الحد ؟! »

فابتسم أراميس وقال : « والآن ما رأيك يا صاحب السمو الملكى ؟ »

فحدجه الشاب بنظرة قاسية قائلا : « لا تخاطبنى هكذا يا ســـيدى ،

لا تدعنى أفكر فى شىء عدا جدران السجن هذه التى تضمنى بينها ، دعنى أعد الى حب الأسر والظلمة أو الى الاستسلام لهما على الأقل ! »

فقال أراميس : « يا صاحب السمو .. انك اذ تلفظ كلمات اليأس هذه بعد أن أطلعتك على برهان ميلادك الرفيع ، واذ تريد أن تبقى خامل الجسم والروح ، فاننى لا يسعنى الا أن أتخلى كارها عما جئت لعرضه طائعا من المعاونة والتضحية ! »

فقال الشاب : « يجدر بك أن تفكر فى أن ما أخبرتنى به قد حطم قلبى الى الأبد !. لقد حدثتنى عن السلطة والعظمة بل الملك . أفيصلح السجن مكانا لذلك ؟. انك تريدنى على أن أفكر فى العظمة على حين نجلس هنا مختبئين فى الظلام . انك تلوح لى بالمجد بينما نحن نهمس بحديثنا وراء الستائر المسدلة فوق هذا السرير الحقير ، وتلمح لى بالسلطان المطلق بينما نحن نرتعد لسماع وقع خطى السجان فى ممر السجن !. كلا يا سيدى !. اذا أردت أن أصدق ما تقول فدعنى أولا أخرج من الباستيل »

فانحنى أراميس مرة أخرى وقال : « يا صاحب السمو .. اصبر حتى ترى النتيجة وعندئذ تحكم لى أو على ! »

واستطرد الأمير فقال : « حسنا يا سيدى !. واذا كنت بفضلك سأحيا فى التاريخ ، وسأخلد لسلالتى الفخر بأعمال البسالة وبنفع الشعب ، واذا كنت سأرتفع بيدك الكريمة من أعماق السجن والحزن الى قمة الشرف والمجد ، فانى لن أحجم عن منحك شطرا من سلطانى ومجدى ، ولن أوفيك مع ذلك حقك ، لأنى لن أستطيع أن أقاسمك السعادة التى أكون قد تلقيتها من يديك ! »

فقال أراميس وقد تأثر من حماسة الأمير : « يا صاحب السمو .. ان نبل شعورك يملأ قلبى فرحا واعجابا . لن تكون أنت المدين لى بالشكر ولكن الأمة التى ستكفل لها السعادة »

فمد الأمير يده الى أراميس ، وسارع هذا الى تقبيلها راكعا وقال : «هذه أول ظاهرة ولاء لملكنا المقبل .. وحين أراك فى المرة القادمة سأحييك كما ينبغى أن يحيى جلالة الملك العظيم ! »

ثم قرع باب الغرفة فجاء السجان مع بيزمو ، وكان الأخير قد بدأ يقلق ويخاف ، فأخذ يتسمع عند الباب لكنه لم يسمع شيئا لحسن الحظ

ولما وصل أراميس الى الجناح الذى يسكنه المحافظ قال له : « اليك الآن هذا الايصال الخاص بمبلغ المائة وخمسين ألف ليفر ، لقد كلفتنى الجمعية أن أرده اليك »

الافراج عن السجين

كان جان برسرآن خياط الملك، يشغل بيتا كبيرا فى شارع سان أونوريه، وكان رجلا ذا ذوق رفيع ، قد ورث خياطة الثياب للملك أبا عن جد ، منذ عهد شارل التاسع . ومع أن برسران الجد فى ذلك العهد كان بروتستانتى المذهب ، فان ملكة نافار ، أو مارجوت الحسناء كما كانوا يسمونها ، بسطت عليه حمايتها لانه وحده الخياط الذى أعجبت باتقانه حياكة ملابس الركوب الخاصة بها بحيث تخفى عيوب جسمها !. وكان برسران بعيد النظر فلم يلبث قليلا حتى غير مذهبه ، وعاد هو وأسرته الى الكاثوليكية ، فلم يبق ثمة حائل دون أن يصبح حائك الملك، وتوارث ابنه وأحفاده هذا المركز بعده

والى محل هذا الحائك العظيم ذهب دارتانيان بصديقه بورتوس ، وقال الاخير فى الطريق لصاحبه : « حذار أن يسىء هذا الحائك بوقاحته الى، والا فانى سأعاقبه أشد العقاب اذا لم ألق منه الاحترام الواجب ! »

ولما وقفت بهما العربة عند باب البيت عجب بورتوس من كثرة العملاء المنتظرين هناك ، وكانوا جميعا من الطبقة الرفيعة ، وقد جلسوا فى صمت ووقور . وبعد قليل جاء خادم يعتذر لهم جميعا بأن المسيو برسران مشغول ولا يستطيع استقبال أحد . وأسر الى بعضهم بأن سيده يعد خمس بذلات للملك ، وانه مستغرق فى التفكير لاختيار ألوانها ، وأشكالها والزينة التى يضعها عليها . فاقتنع بذلك أكثر الحاضرين وانصرفوا صامتين ، بينما أصر بعضهم على الانتظار لصلتهم الوثيقة بالمسيو برسران

وكان خدم الدار قد هموا بأن يحولوا دون دخول دارتانيان وبورتوس، ولكن الاول صاح بهم قائلا : « بأمر الملك » . فكانت هذه الكلمة كافية للسماح له وصاحبه بالدخول حيث جلسا يرقبان مساعدى الحائك العظيم وقد انهمكوا فى أعمالهم محاولين جهدهم أن يرضوا العملاء فى غيابه . وما لبث دارتانيان قليلا حتى نظر فى دهشة الى رجل فى نحو الاربعين من عمره كان جالسا على كرسى أمام حاجز يكاد يخفى وجهه ، وقد أسند ذقنه الى يده ، وراح يتأمل الحاضرين . ثم هتف دارتانيان بذلك الرجل قائلا : « هل أصبحت مساعد حائك يا مسيو موليير ؟ » (*)

فأجابه هذا قائلا : « صه !.. لا تدع الناس يعرفوننى !. فالحقيقة أنى مشغول بمراقبة الناس ومعرفة بعض النماذج منهم ! »

(*) موليير الشاعر الفرنسى المشهور

فأومأ دارتانيان موافقا وقال : « حسنا يا موليير ٠ على شرط أن تقول لى أين المسيو برسران ! »

فقال موليير : « انه فى غرفته الخاصة ، ولكنه لا يمكن أن يقابل أحدا »

فقال له : «حسنا يا عزيزى المسيو موليير ، لكنى أرجو أن تذهب وتخبره بأنى هنا ٠ والا فانى لن أطلعك على نموذج يستحق الدراسة »

ونظر موليير الى بورتوس كأنه يسأل دارتانيان : « أهـذا هو النموذج الذى تعنيه ؟ »

وأومأ دارتانيان موافقا وهو يبتسم ٠ فأخـذ موليير ينظر الى بورتوس متفحصا وما لبث حتى آمن بأنه جدير بالدراسة ، فنهض لتوه ومضى الى غرفة برسران دون أن ينبس ببنت شفة

وبعد عشر دقائق ظهر موليير مطلا من وراء الستارة المسدلة على باب غرفة برسران وأشار بيده داعيا دارتانيان وبورتوس فنهضا مسرعين ، ولم تمض دقيقة حتى كانا أمام الحائك العجوز فى غرفته ، حيث جلس ممسكا بقطعة قماش من الحرير موشاة بالذهب ، ثم نحاها جانبا ونهض محييا دارتانيان قائلا : « لا شك أن قائد الفرسان يعذرنى لأنى مشغول »

فقال دارتانيان : « أجل يا عـزيزى ، فأنا أعلم أنك تخيط ثلاث بذلات لصاحب الجلالة »

فقال برسران مصححا : « بل خمس بذلات يا سيدى ! »

وابتسم دارتانيان وقال : « ثلاث أو خمس أو أكثر ٠٠ على كل حال أنا واثق بأنها ستكون آية من آيات الابداع ! »

فتنهد برسران وقال : « أجل انها متى انتهت خياطتها ستكون أجمل بذلات فى العالم ، ولـكن لابد أن يتم صنعها أولا ، برغم أن الوقت ضيق جدا لا يتسع لذلك ! »

فقال له دارتانيان : « لقد بقى يومان ، وهما أكثر من الوقت المطلوب »

فنظر الحائك اليه نظرة تساؤل اذ لم يكن قد اعتاد أن يعارضه أحد ٠ ثم قال دارتانيان : « لقد جئتك بعميل عظيم ٠ وها أنذا أقدم لك صـديقى الكبير جناب البارون دى فالون دى براسييه دى بييرفون ! »

فانحنى برسران انحنـاءة خفيفة لم يرتح لها بورتوس الذى كان ينظر اليه منذ البداية نظرة تساؤل ٠ ثم قال دارتانيان : « انه صـديق قديم حميم ، ولهذا أرجو أن ٠٠٠ »

فقال برسران مقاطعا : « مرحبا بالسـيد العظيم ، انه ليسرنى حقا أن أكون فى خدمته متى سمح الوقت بذلك ! »

وهنا ظهر أراميس فجأة بالباب وقال لبرسران : « لا شك فى أن الوقت يسمح اذا زكيت لك هذا الطلب ! »

فصاح الثلاثة معا مندهشين ، بينما واصل أراميس كلامه قائلا :

– يجب أن تخيط للبارون بذلته لأن ذلك يرضى أيضا المسيو فوكيه !

ولما كان لاراميس على برسران نفوذ أقوى من نفوذ دارتانيان فانه سرعان ما انحنى موافقا ، والتفت الى بورتوس وقال له بجفاء : « اذهب لأخذ مقاسك فى الجانب الآخر من البيت ! »

فاحمر وجه بورتوس من الغضب ، ولحظ دارتانيان أن العاصفة توشك أن تهب ٠٠٠ فقال لموليير بصوت خافت : « انك ترى أمامك رجلا يحسب أنه يهان اذا قيس لحمه وعظمه كما خلقهما الله٠فادرس هذه الشخصية أيها الشاعر واستفد من دراستك ! »

ولم يكن موليير بحاجة الى هذا الاغراء ، فقد استقر بصره على البارون بورتوس ثم قال له : « سيدى ٠٠ اذا أتيت معى فانى سأجعل المساعد يأخذ مقاسك دون أن يلمسك ! »

وكان أراميس يرقب هذا المنظر ، ويود لو يذهب دارتانيان مع بورتوس وموليير ، ولكنه لحظ أن دارتانيان بقى فى الغرفة ، وما لبث هذا أن التفت اليه وسأله : « أتحتاج أنت أيضا الى بذلة لك ؟ »

فابتسم أراميس وقال : « لا ! » ٠ ولكن دارتانيان عاد يسأله : « ولم لا ؟٠٠ ألست ذاهبا الى فو أيضا ؟ »

فقال فى هدوء : « سأذهب بلا حاجة الى ثوب جـديد ٠٠ انك تنسى يا دارتانيان أن أسقف فان الفقير ليس عنده من الثروة ما يجعله يعد ثوبا جديدا لكل مهرجان ! »

ولم يتحرك برسران من مكانه ، وظل مشغولا بقطعة القماش التى بيديه فاختطفها منه أراميس قائلا :

– يا عزيزى برسران ٠٠ على مقربة من هنا المسيو لبرون أحـد رسامى المسيو فوكيه !

فسأله الحائك : « أتريد أن أخيط له أيضا بذلة كبذلات الابيقوريين ؟ »

فقال أراميس : « ان لبرون لا علاقة له بذلك ولكن المسيو لبرون سيرسم صورة للملك فى احدى بذلاته الجديدة هذه ولذا يجب أن يراها ويدرسها »

فبانت الدهشة على برسران وقال : « أتعنى أن الملك حين يصل الى فو ، سيرى صورة له مرتديا بذلة من بذلاته الجديدة ؟ »

فأومأ أراميس برأسه موافقا ، وقال دارتانيان : « هـذه فكرة بديعة ولا شك ! »

وسارع برسران فقدم كرسيا للرسـام ، ثم ذهب فأحضر أربع بذلات فاخـرة للملك تم صنعها ، أما البذلة الخامسـة فكانت لا تزال فى أيدى الصناع ٠ وبادر لبرون فشرع يرسم تلك البذلات ٠ ولكن أراميس لم يلبث أن قال له : « لا فائدة من الرسم هنا فان الضوء غير مناسب ، ولا يمكنك

أن تقلد ألوان البـذلات على اللوحة تماما . ولهذا يحسن أن تأخذ نموذجا لكل بذلة ثم ترسم على مهل فى ضوء مناسب »

فقال الرسام : « أجل هذا أفضل كثيرا ، وانى فى هـذه الحالة أضمن النتيجة ! »

* * *

عاد أراميس الى ســان مانديه وقد ضايقه أن لقى دارتانيان فى محل برسران ، أما موليير الذى صحبه الى هناك فكان مسرورا لعثوره على شخصية مثل شخصية بورتوس . وكان هناك أيضا الشعراء : لافونتين ، وبليسون ، ولوريه وقد أخذوا يعدون القصـائد لمهرجان فو . وبين حين وآخر كان أحـدهم يسأل الآخر عن كلمة مناسبة للقافية ... وكأنهم فى ضحكهم ومرحهم ونقاشهم خلية نحل !

وانهم لكذلك ، اذا بالمسيو فوكيه يدخـل عليهم ثم يقول لأراميس متحسرا دون أن يسمع همسة أحد الشعراء الحاضرين : « انهم يضحكون ! حقا ما أسعدهم ! »

فسأله أراميس : « وأنت ألا تضحك يا صاحب الفخامة ؟ »

فأجابه قائلا : « ليس عندى ما يبعثنى على الضحك يا مسيو دربلاى . ان المهرجان يقترب موعده ، والمال ينزلق كالزئبق . ولا علم لى بشىء بعد عن الملايين التى وعدتنى بها ! »

فقال أراميس : « ستكون فى يدك غداة مجىء الملك الى فو »

فنظر اليه فوكيه نظرة فاحصـة ثم سكت وهو يمسح جبينه بيـده ، فسأله أراميس : « أمرتاب أنت فى هذا ؟ »

فقال له فى لهجة أشد حزنا : « يا عزيزى دربلاى .. اننى اذا سقطت فسأسقط من شاهق ، وبذلك أتحطم تماما ! »

وسكت هنيهة ، بينما الشعراء ماضون فى ضجيجهم ، ثم سأله فوكيه : « من أين أتيت يا صديقى ؟ »

فقال : « من باريس . من عند برسران »

فسأله الوزير : « ماذا كنت تفعل هناك ؟ . انى أراك كثير الاهتمام باعداد ملابس أصدقائنا الشعراء ! »

فقال له : « لقد ذهبت لكى أعد مفاجأة أخرى لتقدمها للملك ! »

فسأله فوكيه : « أتتكلف كثيرا هذه المفاجأة ؟ » . فأجاب قائلا : « ليس أكثر من مائة بستول تعطيها الى لبرون »

فهز فوكيه رأسه وقال : « انها صورة اذن ؟ . حسنا . ماذا تمثل هـذه الصورة ؟ »

فقال أراميس : « سأشرح لك كل شىء . وقد ذهبت فى الوقت نفسه لأطمئن على ملابس الشعراء . والواقع أنها فخمة الى حد أن قليلا من الكبراء سيمكنهم ارتداء مثلها ! »

فقال فوكيه : « حقا .. انك لكريم يا قسنا العـزيز ! . والى أين أنت ذاهب الآن ؟ »

فقال أراميس : « انما أقتدى بك يا سيدى الوزير ، وسأذهب الى باريس اذا أعطيتنى خطابا الى المسيو ليون وزير الداخلية ، لأنى أريد منه أن يوقع على أمر كتابى بسيط ! »

فسأله الوزير مبتسما : « لعلك تريد أن تزج أحدا فى السجن ؟ »

فقال أراميس : « بل أريد الافراج عن شاب بائس لبث فى السجن عشر سنين ، لا لذنب سوى أنه كتب بيتين من الشعر باللغة الاتينية ! »

فسأله : « ما اسم هذا المسكين ؟ ولماذا لم تخبرنى بأمره من قبل ؟ »

فقال : « اسمه سلدون ، ولم أعلم بأمره الا أمس اذ جاءتنى أمه باكيـة تتوسل ، وهى سيدة فقيرة بائسة ! »

فهز الوزير رأسه أسفا ، ثم كتب الخطاب المطلوب الى المسيو ليون وزير الداخلية وأعطاه الى أراميس ، ثم أخرج من جيبه عشر ورقات نقد حكومية من فئة ألف فرنك وقال له :

ـ خذ هذا الخطاب الى المسيو دى ليون ، وهذه عشرة آلاف فرنك الى أم الشاب . انها ستصبح أغنى منى بمقدار هذا المبلغ !

فتناول أراميس الخطاب والمال ، ثم قبل يد الوزير شاكرا وخرج

* * *

دقت الساعة الكبيرة التى تعلو برج الباستيل سبع دقات ايذانا بالساعة السابعة مساء ، وهى الموعد الذى حدده المسيو بيزمو مدير السجن لتناول العشاء ، وقد حرص على مضاعفة أطايب الطعام والشراب على مائدته فى تلك الليلة اكراما لضيفه المسيو أراميس أسقف فان ، الذى جاءه فى زى أقرب الى زى الفرسان وسيفه معلق بجانبه

وصرف بيزمو خادمه فرنسوا ثم قال لأراميس : « أتدرى أنك فى هذه الليلة تذكرنى باثنين أحـدهما الكاردينال العظيم دى ريشيليو ، والآخر فارس قديم وسيم الوجه صار قسيسا ثم أسقفا ثم ... »

فقاطعه أراميس قائلا : « أرجو أن تقف عند هذا الحد يا عزيزى بيزمو ! . كل ما فى الأمر أنى لا أريد الليلة أن أشغل نفسى بشئون الكنيسة »

فقال بيزمو : « اذن أنت يا صاحب الفخامة تضمر نوايا لا تعد صالحة من وجهة نظر الدين ؟ »

فقال أراميس : « أجل ان لى الليلة نوايا دنيوية لا يُرضى الدين عنها »

فنظر اليه بيزمو متأملا زيه الجديد وقال : « هل عبرت طرقات المدينة متنكرا هكذا ؟. وهل ما زلت تستعمل سيفك ؟ »

فأومأ أراميس موافقا وقال : « على أنى لا أستعمل سيفى الا مضطرا ! »

فقال بيزمو : « لعلك تشعر الآن بالملل بعد أن عاد المسيو دى لافير الى مزرعته فى بلوا ؟ انه صديق قديم لك ، أليس كذلك ؟ »

فقال له أراميس : « انك تعرف ذلك كما أعرفه لأنك كنت فارسا معنا ! »

وهنا ابتسم بيزمو قائلا : « الواقع أننى لا أحسب عدد السنين التى تمر ، كما أننى لا أعد زجاجات النبيذ ! »

فهز أراميس رأسه موافقا وقال : « أنت على حق . غير أنى لا أحب المسيو دى لافير فقط بل أجله أيضا ! »

فقال بيزمو : « أما أنا فان المسيو دارتانيان أحب الى ! »

وهنا قال أراميس فجأة : « يا عزيزى بيزمو .. انى الليلة أشعر بهم يكمن فى أعماق نفسى ، ولهذا أريد أن نشرب كثيرا كما كنا نصنع فى الايام الخالية ! »

فبدا البشر فى وجه بيزمو وصاح قائلا : « مرحى مرحى ! » . ثم صب لنفسه خمرا فى كأس كبيرة وتجرعها مرة واحدة ، ثم ملأها مرة أخرى وملأ كأس أراميس !

وما وافت الساعة الثامنة حتى جاء الخادم فرانسوا بزجاجة النبيذ الخامسة ، وفى الوقت نفسه جاء ساع يحمل رسالة ، وأحدث ضجة فى فناء السجن ، ولكن بيزمو لم يسمع شيئا حتى صاح أراميس قائلا : « ليذهب الى الجحيم ! » . فسأله : « من تعنى يا صاحب الفخامة ؟ » . فقال : « انه ساع جاء راكبا جوادا .. ألا تسمع ما أحدث من ضجة تكفى لازعاج مدينة كاملة ؟! »

ورفع بيزمو كأسه قائلا : «اذن ليذهب الى الجحيم مسرعا حتى لا يزعجنا!»

وابتسم أراميس وقال : « انك تنسانى يا بيزمو . ان كأسى خالية ؟! »

فبدا السرور فى وجه بيزمو وقال له : « أقسم بشرفى انى مسرور منك الليلة ! » . ثم نادى فرانسوا خادمه وأمره باحضار زجاجة أخرى ، وما لبث هذا قليلا حتى جاء بها وقال لسيده : « بالباب رسول يستأذن فى الدخول ؟ »

فقال له بيزمو : « ليترك الرسالة التى جاء بها فى المكتب وليذهب الى الشيطان . وغدا بالنهار أرى ما فى تلك الرسالة »

ثم التفت الى أراميس وقال : « ان ذلك شيء مزعج حقا ، لكنهم لا يعلمون طبعا أنى الآن أتسامر مع صديق لا يلبث قليلا حتى يصير كاردينالا ! »

فقال له أراميس : « يجب أن ترى ما جاء به هذا الرسول ، فلعله يحمل أمرا عاجلا ! »

فقال : « نعم ، أنت على حق ! . ان أوامر الملك مقدسة ولا شك ، لكنها حين تأتى أثناء تناول العشاء فان الرسول الذى يأتى بها يجب أن يذهب الى الشيطان ، وحسبى عذرا أنى لم أرد أن أزعج أسقفا عظيما سيصير كردينالا عما قريب »

وهنا قال له أراميس جادا : « لا تنس يا بيزمو أنى الآن فى ثوب الجندية ، وأنى تعودت الطاعة فى كل مكان . ولهذا أريد أن تؤدى واجبك كاملا يا صديقى ، وبلا أى ابطاء ! »

فتنهد بيزمو وقال : « حسنا ! . فليأتونى اذن بذلك الأمر الملكى ... أتدرى ماذا أتوقع أن يكون فى هذا الأمر ؟.. أكبر الظن أنى سأقرأ فيه : (احذر وضع النار قرب مخزن البارود) . أو : (راقب السجين ... عن كثب لأنه بارع فى الفرار) .. آه لو علمت يا سيدى كم مرة أيقظونى من أعمق النوم وأحلى الأحلام لان جيادا تعدو برسل تحمل أمثال هذه الاوامر ، بل كثيرا ما يكون الأمر ليس أكثر من سؤال عن الحال !.. لا ريب أن الذين يضيعون وقتهم فى كتابة أمثال هذه الأوامر لم يناموا قط فى الباستيل !»

وعاد فرانسوا فسلم بيزمو أمرا وزاريا ، وفتحه هذا ببطء وقرأه . وتظاهر أراميس بأنه يحتسى كأسه لكى يراقب بيزمو من خلال زجاجها . فلما انتهى هذا من قراءة الأمر قال : « ألم أقل لك ؟. انه أمر بالافراج عن سجين فى الساعة الثامنة مساء !.. أرأيت الأوامر التى يزعجوننا بها ؟! »

فقال له أراميس : « هذا عمل خيرى يا عزيزى بيزمو »

فرد قائلا : « نعم ، هو عمل خيرى بالنسبة للسجين ولكن ليس لى أنا أثناء الترفيه عن نفسى ! »

فسأله أراميس : « هل تخسر كثيرا بالافراج عنه ؟ . أعنى هل هو من السجناء الذين يدفعون فئة غالية ؟ »

فأجاب قائلا : «كلا !.. انه ليس الا شخصا بائسا لا يدفع سوى خمسة فرنكات فى اليوم ! »

فقال أراميس : « دعنى أر الأمر . انه ليس سرا طبعا ؟! »

فناوله الأمر قائلا : « كلا ! . لكنه عاجل كما ترى مكتوبا فى أعلى الورقة !. تصور يا سيدى . سجين يمكث فى السجن عشر سنوات ثم يأتى أمر بالافراج عنه فورا هكذا ! »

فقال له أراميس معزيا : « انهم هم الذين يكتبون الأوامر ، وما عليك الا التنفيذ ! »

فتساءل بيزمو مغضبا : « التنفيذ ؟! . أتحسبنى عبدا رقيقا ؟ »

وسارع أراميس الى استرضائه قائلا : « من قال ذلك يا عزيزى بيزمو؟.

انك معروف بحرية الرأى !٠ ولكنك معروف أيضاً بطاعتك لرؤسائك ٠ ان الذى كان جنديا فترة من حياته يبقى جنديا حتى آخر العمر ! »

فهز رأسه موافقا وقال : « على كل حال سأطيع هذا الأمر وأطلق سراح السجين غدا عند الفجر ! »

فقال له أراميس : « ولماذا لا تطلق سراحه هذا المساء ما دام الخطاب المختوم يحوى كلمة (عاجل) ٠٠؟ »

فنظر اليه بيزمو قائلا : « أأنت تريد ذلك أيضا ؟٠ وفى الوقت الذى نتناول عشاءنا فيه ؟ »

فقال له : « بل أنا أرجو منك أن تسارع الى اطلاق سراح ذلك المسكين، ان هذا يضمن لك الجنة ولا شك ! »

فدق بيزمو الجرس لفرانسوا ثم استدار نحو الباب ٠ وكانت الورقة التى بها أمر الافراج ما زالت فوق المائدة فانتهز أراميس هذه الفرصة وأبدل بها ورقة أخرى تشبهها أخرجها من جيبه ٠ ثم جاء فرانسوا فقال له بيزمو : « قل لرئيس السجانين يجىء الى حالا » ٠ فانحنى فرانسوا وخرج ٠ وعلى أثر ذلك ساد الصمت هنيهة لم يحول أراميس نظره خلالها عن بيزمو ، وكان هذا يبحث عن ذريعة يرجىء بها تنفيذ الأمر الى ما بعد تناول الحلوى ، ثم ما لبث أن قال : « من المحال أن نفرج عن سجين فى مثل هذه الساعة !٠أين يذهب وهو لا يعرف باريس ؟٠ان مثله اذا أطلق سراحه ليلا لن يكون الا كمثل الأعمى ! »

فقال أراميس : «ان عربتى بالانتظار ويمكن الذهاب به الى حيث يشاء !»

فقال له بيزمو : « ان لديك جوابا حاضرا عن كل سؤال ! » ٠ ثم التفت الى فرانسوا قائلا : « اذهب الى رئيس الحراس وأبلغه أن المسيو سلدون السجين بالغرفة رقم ٣ يجب أن يطلق سراحه الآن »

فصاح أراميس بلهجة طبيعية : « سلدون ؟ هل قلت سلدون يا عزيزى بيزمو ؟٠٠ أظن أن الاسم المكتوب فى الأمر هو (مارشيالى) ٠٠ وليس (سلدون) ٠٠ ؟ »

فقال بيزمو فى حزم : « كلا بل اسمه سلدون٠وقد قرأته٠قبل أن تقرأه أنت ، وهو مكتوب بحروف كبيرة »

فقال أراميس : « وأنا قرأت اسم مارشيالى بحروف كبيرة أيضا ! »

فقال بيزمو واثقا من نفسه : « ها هى ذى الورقة ، ما عليك الا أن تعيد النظر فيها لتعلم أينا أقوى ذاكرة »

فأمسك أراميس الورقة وبسطها قائلا : « ها أنذا أقرأ فيها اسم مارشيالى ٠٠ انظر يا عزيزى بيزمو »

فنظر بيزمو فى الورقة ثم أدلى ذراعيه الى جنبيه٠وقال مغلوبا على أمره : « أجل مارشيالى ٠٠ ان هذا هو الاسم المكتوب فعلا٠مارشيالى ؟مارشيالى؟٠

كيف ذلك ؟ انه الرجل الذى تكلمنا عنه كثيرا !٠ الرجل الذى يطلبون الى كل يوم أن أعنى به ! »

فقال أراميس بعناد : « أجل٠ان الاسم المكتوب فى الأمر هو مارشيالى، ألا تصدق عينيك ؟! »

فقال : « حقا ٠٠ ان عينى تقولان ان المكتوب هو مارشيالى ٠ ولكنهما قالتا لى منذ هنيهة ان الاسم المكتوب هو اسم سلدون الايرلندى ٠ وكانت تحته نقطة حبر أيضا ! »

فتأمل أراميس الاسم المكتوب فى الورقة وقال : « كلا !٠ لا توجد نقطة حبر يا عزيزى بيزمو !٠ وعلى كل حال ها أنت ذا ترى أن الأمر خاص بالافراج عن مارشيالى سواء كانت به نقطة حبر أم لم تكن ! »

فقال بيزمو بطريقة آلية : « ان الأمر خاص بالافراج عن مارشيالى »

ثم قال أراميس ضاحكا : « واذا كان قلبك يحدثك بالافراج عن سلدون أيضا فانى أصارحك بأنى لا أعارض فى ذلك مطلقا ! »

وبعد نصف ساعة سمع صوت باب زنزانة يفتح فأطفأ أراميس كل الشموع التى بالغرفة ما عدا شمعة واحدة تركها تضىء خلف الباب ٠ ثم سمع وقع خطى تقترب فقال لبيزمو : « هيا قابل رجالك »

فأطاع المحافظ ثم عاد بعد قليل يتبعه سجين ٠ وكان أراميس قد جلس فى ركن غير مضىء ، فرأى السجين دون أن يراه هذا ، ولحظ حيرته وارتباكه حين أبلغه محافظ السجن أمر الافراج عنه ، كما لحظ ارتعاش صوته وهو يقسم هامسا ـ طبقا لما تتطلبه اللوائح ـ ألا يفشى أى سر وقف عليه خلال وجوده فى الباستيل ٠ وأخيرا قال بيزمو للسجين :

ـ أنت منذ الآن مطلق السراح يا سيدى ، فأين تريد الذهاب ؟

فتلفت السجين حواليه كمن يبحث عن أحد يعتمد عليه ، وعندئذ خرج أراميس من ركنه المعتم وقال : « ها أنذا هنا لأؤدى لهذا السيد أية خدمة يريدها ! » ٠ ثم تأبط ذراعه وخرجا

قال أراميس للأمير فيليب : « يا سمو الأمير .. انك تعرف تاريخ الحكومة القائمة الآن فى فرنسا . ان الملك كان فى طفولته مغمورا كما كنت أنت مغمورا ، ولكنه بدل أن تنتهى به طفولته الى السجن مثلك ، انتهت به الى العرش وتبعاته . والذى يجلس على العرش يسلط عليه ضوء يفضح أقل شائبة فيه . ان الملك قد قاسى الألم وأثر ذلك فى نفسه ، وهو الآن يريد الانتقام ، ولا أقول انه سيسفك الدماء مثل لويس الحادى عشر أو شارل الحادى عشر ، ولكنه سيستهلك موارد شعبه . وأنا أريح ضميرى

اذ أزن مزاياه وسيئاته ، فاذا حكمت عليه لا له كان ضميرى مستريحا ! »

وتوقف أراميس عن الكلام لكى يجمع شتات افكاره ، ولكى يترك لما قاله وقتا يستقر فيه بذهن الأمير ، ثم عاد يقول : « ان كل ما عند الله خير . وقد أرادت العناية الالاهية أن أكون بين القليلين الذين وقفوا على سر مولد الملك ومولدك ، فلا شك أن تلك العناية قد اختارتنى أداة لتنفيذ ارادتها ، فقد وهبت الايمان والعزيمة والجرأة ، وأنا زعيم جماعة دينية سرية لا تخالف لى أمرا ! »

وهنا تحرك الامير فى مقعده فقال له الأسقف : « انى أفهم لماذا رفعت رأسك ، انك تعجب اذ تسمع أنى على رأس قوم أقودهم ، ولكنك لا تعلم أن هؤلاء القوم يبذرون البذور ولا يبالون أن يجنوا الثمار ، لأنهم انما يعملون فى سبيل مثل أعلى يضحون من أجله كل شيء ، وهم متحدون متساندون حتى لكأنهم رجل واحد ، هذا شأن الرجل الذى يحدثك يا صاحب السمو ولقد أخرجك من الهاوية لغاية عظيمة ! »

وهنا لمس الامير ذراع محدثه وقال له : « انك تحدثنى عن جماعة دينية أنت زعيمها . وأنا أدرك من كلامك أنك اذا شئت أسقطت الرجل الذى تكون قد رفعته ، وانه انما يكون أداة فى يدك »

فأجاب أراميس قائلا : « ان المكان الذى ترتفع اليه سيكون لك الى النهاية !. وستزيح الكرسى الذى صعدت عليه ليتدحرج بعيدا عنك فلا تراه مرة أخرى ، بل لن تذكر أنه يستحق منك عرفان الجميل ! »

فغمغم الامير الشاب : « ماذا يا سيدى ؟ ! » . وواصل أراميس كلامه فقال :

ــ الواقع أنى أطمح الى ما هو أكثر من عرفان الجميل . وانى موقن أنك حين تبلغ الذروة ستراني أجدر منى اليوم بأن أكون صديقك ، وعندئذ يا صاحب السمو سننجز من جلائل الاعمال ما سوف تتحدث عنه الأجيال المتعاقبة !

وهنا سأله الامير : « خبرنى فى صراحة . ماذا أنا اليوم ؟ . وماذا تريد أن تجعل منى غدا ؟ »

فقال أراميس : « انك ابن الملك لويس الثالث عشر وأخو لويس الرابع عشر ، فأنت الوارث الطبيعى الشرعى لعرش فرنسا. ان الأطباء هم وحدهم الذين يستطيعون أن ينازعوا أخاك التوأم حقه فى العرش ، ولكن الأطباء بالطبع يؤثرون الملك الجالس فوق العرش على الامير البعيد عن العرش وان كان أحق به !.. وقد شاء الله أن يكون اضطهادهم لك بحيث يثبت حقك فى العرش . لقد كان لك هذا الحق بقدر ما لأخيك ، ففى عروقك ما فى عروقه من الدم الملكى . ولهذا لم يجرؤ أحد على أن يسفك دمك كما سفكوا دم مربيك ومربيتك . فالآن يا صاحب السمو .. أنظر ماذا وهبتك العناية الالاهية التى بدت كأنها ظالمة لك . لقد وهبتك مثل ملامح أخيك ومثل

قوامه ومثل صوته ، حتى ان سبب اضطهادك لا يلبث حتى يصبح سبب رفعك الى العرش . فغدا أو بعد غد ستجلس على عرش لويس الرابع عشر بعد أن يغادره مغتصبه منك الى غير رجعة ! »

فقال الأمير : « انى أفهم أن أخى لن يسفك دمه . أليس كذلك ؟ »

فقال أراميس : « انك وحدك ستكون القاضى الذى يقرر مصيره ! »

فسأله الأمير : « والسر الذى اتخذوه سببا للاساءة الى ؟ »

فأجاب قائلا : « ستتخذه سلاحا ضده !. لقد أخفوك عن العالم بالمؤامرة التى دبرها مازارين مع الملكة النمسوية . وأنت اذ تحبط هذه المؤامرة يا صاحب السمو ستجد صالحك فى اخفائه عن العالم ايضا ، فيصبح سجينا مثلما كنت ، على حين تصبح أنت ملكا مثلما كان ! »

فقال الأمير : « ومن الذى سيتولى حراسته ؟ »

فقال أراميس : « يتولاها من تولى حراستك أنت من قبل !. ولن تستطيع الملكة الوالدة ولا مدام دى شيفريز أن تعرفا حقيقة شخصيتك اذا تصرفت سموك على النحو المطلوب ! »

فقال الأمير : « هذا صحيح . ولكن هناك صعابا شديدة ما أظنها تخفى عليك .. ان أخى متزوج . ولا أستطيع ان أتخذ لنفسى زوجة أخى ! »

فقال أراميس : « سأجعل ملك أسبانيا يوافق على طلاقها لصالح سياستك الجديدة !.. والآن ما رأيك يا صاحب السمو ؟ »

فقال الامير : « قبل أن أتخذ قرارا دعنى أولا أهبط من هذه العربة وأسير فوق الارض وأستشير نفسى . انى لا أطلب سوى عشر دقائق وبعدها أدلى اليك بالجواب ! »

فانحنى أراميس أمامه قائلا : « كما تشاء يا صاحب السمو ! »

وهبط أراميس من العربة ، وأمسك بابها مفتوحا حتى هبط الامير ، ثم أخذ هذا يدور حول العربة فى خطى متعثرة لأنه لم يعتد السير منذ سنين . وكان ذلك فى منتصف شهر أغسطس ، وقد أوشك الليل أن ينتصف ، وتكاثفت السحب منذرة بقرب عاصفة ، فأخذ الامير يستنشق الهواء المعطر برائحة الأعشاب والأشجار ، وينظر الى السماء وكأنه لا يصدق أنه صار حرا طليقا . واستغرق فى تفكير عميق وهو يمشى الهوينى على مقربة من العربة ، ثم عاد أخيرا الى أراميس وعليه سمت الجد والعزيمة وقال له : « هيا بنا نذهب الى حيث يوجد تاج فرنسا »

فقال له أراميس : « أهذا ما عولت عليه يا صاحب السمو ؟ » . فقال فى حزم : « أجل ! »

وقال أراميس : « ان نظرتك يا مولاى تدل على خلق وعزيمة . انك ستكون ملكا عظيما وانى لمؤمن بذلك ! »

فقال الامير : « لنعد الى ما كنا نتكلم فيه . لقد أردت أن أباحثك فى شأن

الأخطار أو العقبات التى تواجهها وقد انتهينا من هذا ، ولم يبق الا الشروط التى تفرضها على . انه دورك فى الكلام يا مسيو دربلاى !. أم أنت تحسبنى من السذاجة بحيث اعتقد أن ليس لك صالح فى هذا الأمر ؟ ! »

فقال أراميس : « سأقول لك يا سيدى كل ما اريده متى صرت ملكا »

فسأله : « ومتى يكون ذلك ؟ » . فأجاب قائلا : « مساء غد ، أعنى خلال الليل !. هل قرأت سموك المذكرات التى أرسلتها الليلة لتعرف الأشخاص الذين سيكونون فى معيتك ؟ »

فقال الامير : « نعم قرأت كل تلك المذكرات وحفظتها عن ظهر قلب ويمكنك أن تسألنى فيما جاء فيها عن كل شخص ، بل أنا أعرف الآن كل هؤلاء الأشخاص من صورهم التى ارفقت بالمذكرات »

وسكت الامير قليلا ثم سأل أراميس : « ماذا تريد منى أن أصنع بالمسيو فوكيه ؟ »

فقال : « أريد أن تبقيه وزيرا للمالية كما هو الآن ! »

فقال الامير : « لكنه رئيس الوزراء فى الوقت الحاضر ، أليس كذلك ؟ »

فقال أراميس : « ليس كذلك تماما يا صاحب السمو ، وعلى كل حال أرى انك لن تحتاج الى رئيس للوزراء قدر حاجتك الى صديق ! »

فنظر اليه الامير وقال : « ليس لى سوى صديق واحد هو أنت يا مسيو دربلاى .! واذن يجب ان تكون أنت رئيس وزرائى »

فقال : « ليكن ذلك فيما بعد اذا شئت ، أما الآن فانه قد يثير الدهشة والريبة ! »

فقال الامير : « ان المسيو دى ريشيليو الوزير الاول لجدتى دى مديتشى كان أسقفا بسيطا لمدينة لوسون ، كما أنك الآن أسقف فان »

فابتسم أراميس وقال : « أرى انك يا صاحب السمو قد درست مذكراتى ووعيتها بصورة تدعو الى الاعجاب ! »

فقال الامير : « وأنا أعلم أن ريشيليو لم يلبث أن أصبح كاردينالا بفضل حماية الملكة له »

فانحنى أراميس وقال : « انى أوثر الا أعين وزيرا أول الا بعد أن تحصل لى سموك على لقب كاردينال ! »

فقال له : « ستعين كاردينالا قبل أن ينقضى شهران يا مسيو دربلاى ! »

وسكت الأمير قليلا ثم قال : « انك أكثر من عظيم وأكثر من بارع وأكثر من عبقرى . لتكن لى أبا يا مسيو دربلاى ! »

▭

يقع قصر فوكيه على بعد نحو فرسخ من بلدة ميلون ، وكان فوكيه قد شيده سنة ١٦٥٥ فى وقت كانت تجتاح فرنسا فيه ضائقة مالية ، فقد أخذ

مازارين كل ما كان هناك من مال ، وأنفق فوكيه البقية الباقية . ولكن لما كان لبعض الناس أخطاء مثمرة ومساوىء نافعة ، فان فوكيه اذ بدد ملايين الفرنكات على انشاء هذا القصر قد جمع معا ثلاثة من العظماء هم : ليفان المهندس المعمارى ، ولينورت مصمم الحدائق ، ولبرون الرسام الذى زين جدران الغرف والسقوف . وهكذا جاء ذلك القصر آية فذة فى فخامته

وقد أعد فوكيه هذا القصر أيما اعداد لاستقبال الملك الذى كان يعد أعظم ملوك ذلك العصر ، وقبل ذلك وصل الى هنالك أصدقاء فوكيه وبينهم كثيرون من الممثلين والرسامين والمثالين والشعراء وغيرهم من الفنانين

وفى اليوم الخامس عشر من أغسطس ، كانت الشمس قد أطلقت أشعتها على التماثيل البرونزية والرخامية البديعة فى حدائق القصر ، ورفعت حرارة الماء فى النوافير والجداول ، وانضجت على الشجر ثمار الخوخ الشهى . وقد عنى أراميس بتوزيع الضيوف الكثيرين على غرف القصر ، ولم يفته شىء من دقائق النظام ، على حين عنى فوكيه ببرنامج المهرجان فى جملته ، فأطلعه جورفيل على معدات الألعاب النارية ، وقاده موليير الى المسرح الذى رتبه ، وأخيرا بعد أن زار الكنيسة و (الصالونات) والأروقة ، هم بالنزول الى الطابق الأسفل وهو منهك القوى ، فرأى أراميس هناك على الدرج ووقف معه يتأملان صورة كبيرة أوشك لبرون أن يتمها ، وقد وقف بجانبها منهمكا فى ذلك والعرق يتصبب من جبينه ، وعليه آثار الجهد ، وكانت الصورة تمثل الملك مرتديا بذلة التشريفة التى تفضل برسران باطلاع أسقف فان عليها سلفا

ووقف فوكيه أمام هذه الصوره ى تكاد تنطق بالحياة فنظر اليها مليا ، ثم لم يجد ما يجزى به الفنان القدير غير أن يقبله ، وكانت لحظة سعيدة للبرون ، ولكنها لم تكن كذلك للمسيو برسران الذى كان يسير خلف فوكيه وقد أعجب بالصورة ، وعلى الأخص بالبذلة التى هى من صنعه وتصميمه ، وبدأ يحتج بالقول والاشارة ، ولكن سمعت فى تلك اللحظة اشارة من الحراس الرقباء الذين بأعلى القصر فقد لاح لهم فى السهل الفسيح الممتد الى بلدة ميلون موكب الملك والملكات قادما فى الطريق ، وكان صاحب الجلالة وقتئذ يدخل تلك البلدة مع صف طويل من العربات والفرسان !

وبقى فوكيه ينتظر عند الباب نصف ساعة حتى وصل الملك فسارع الى امساك ركابه ، ومد الملك يده ليصافحه فقبلها رغم المقاومة الخفيفة التى أبداها الملك . واستقبلت مدام فوكيه الملكتين والأميرات والوصيفات ، بينما كان الضوء ينبعث كضوء النهار من خلال الشجر والزهريات والتماثيل الرخامية ، واستمر ذلك حتى أوين الى داخل القصر . والواقع أن فوكيه كان قد أعد للمليكه من روائع المناظر ما يشبه السحر

ولسنا هنا بصدد وصف المائدة الفاخرة التى زودت بكل ما هو شهى لذيذ طريف ، على أن الملك بعد أن سر لتلك المناظر ما لبث أن تولاه وجوم

فقد رأى أن قصوره الملكية لا تدانى هذا القصر الذى هو لأحد رعاياه ، ولا تشمل من دلائل الترف والنعيم بعض ما يحتويه

وبلغ من تأثر الملك ان اغرورقت عيناه بالدمع فلم يستطع أن ينظر الى الملكة الشابة الرقيقة القلب وهى تأكل بشهية وتمتدح فوكيه ، أما الملكة الوالدة المتكبرة فغمرت فوكيه بالازدراء . وكان الملك قد أبدى رغبته فى ان يتناول الطعام مع بقية المدعوين ولكن فوكيه أعد المائدة بحيث يكاد الملك يتناول الطعام وحده مع الملكتين والأمراء اذ جعل لهم قسما منعزلا وسط المائدة العامة . وكان فوكيه يخدم الملك بنفسه أثناء العشاء . ووقفت مدام فوكيه خلف كرسى الملكة الوالدة . وكان الملك يتذوق كل شيء ويقول لفوكيه :

ــ محال أن يجد الانسان الوانا من الطعام خيرا مما فى هذا المكان !

وعلى ذلك انقض أفراد البلاط على الوان الطعام الموضوعة أمامهم كما ينقض الجراد على النبات فلا يبقى ولا يذر !

غير أن الملك لم يكد يشبع حتى عاد الى عبوسه ، وقد زاد فى كدره ما لحظه من إحترام رجال البلاط للمسيو فوكيه . وكان دارتانيان لا يأكل ولا يشرب الا قليلا ، وقد جلس يراقب الجميع من كثب

ولما انتهى العشاء أبدى الملك رغبته فى التريض ، وكانت الحديقة مضاءة بأضواء صناعية وكأنما أراد القمر أن يكون أيضا فى خدمة الملك فأرسل شعاعه على الأشجار والبحيرات ليزيد فى جمال المهرجان . وقد نجح المهرجان من كل وجه ، ولاسيما أن الملك ما لبث قليلا حتى صادف الآنسة دى لافاليير فى أحد دروب الحديقة

ومضت ليلة السحر هذه فى طريقها قدما . حتى اذا رغب الملك فى أن يأوى الى غرفته سرت الحركة فى كل مكان . وذهبت الملكتان الى جناحيهما تصحبهما الموسيقى . وألفى الملك فرسانه واقفين على درج السلم اذ كان المسيو فوكيه قد استقدمهم من ميلون ، وأعد لهم مائدة عشاء . وعندئذ تبددت شكوك دارتانيان ، وأراد ان يستمتع ولو مرة فى حياته بحفلة فاخرة كهذا المهرجان

وأرشد الملك وسط حفاوة بالغة الى غرفته ، وكانت أجمل غرف القصر، وكان لبرون قد رسم صور احلام جميلة على سقفها المصنوع على هيئة قبة. وقد زودت الغرفة بكل ما يكفل الراحة التامة والأحلام السعيدة . ولم يكد الملك يدخل الغرفة حتى بعث فى طلب المسيو كولبير

خيانة عظمى !

أقام المسيو فوكيه فى اليوم التالي حفلات شائقة عدة للمليكه . فكانت هناك نزهة ومأدبة ومسرحية جدية ، وأخرى فكاهية من تأليف موليير ، وقد عجب بورتوس كثيرا حين شاهد موليير يمثل فيها ، لأنه كان يحسبه مستخدما بمحل برسران !

على أن الملك كان مشغول الفكر بما أسره اليه كولبير بالأمس عن خيانة المسيو فوكيه المالية القديمة ، وعن محاولته التودد الى الآنسة لافاليير ، وعلى هذا لم يستمتع بكل هذه الروائع التى تشبه ما فى الف ليلة وليلة

وفى المساء كان كولبير ينتظر الملك فى أحد دروب الحديقة ، ولعل الملك كان قد اتفق معه على اللقاء هناك ، وسرعان ما أوغلا معا فى الحديقة

اما دى لافاليير فكانت قد لحظت عبوس الملك وأدركت أن هذا نذير بغضبه على انسان ما ، فقررت أن تتدخل لتخفف من نقمة الملك ، وكانت قد تملكها الحزن لانفصالها عنه طول تلك المدة ، وما لبثت أن ظهرت أمامه ، وعندئذ تراجع كولبير خطوات الى الوراء ، فقال لها الملك وقد لمح ما ارتسم على وجهها من حزن : « هل لى أن أسألك عما بك ؟.. انك تتنفسين وكأن على صدرك حملا ثقيلا ، ثم ان عينيك أيضا مغرورقتان بالدموع ؟ ! »

فقالت له : « اذا كان الأمر كذلك حقا يا مولاى ، فان حزنى كله ليس الا مشتقا من الكآبة المرتسمة على وجه جلالتك ! »

فقال لها : « كآبة ؟ !.. أنت واهمة يا عزيزتي !.. انها ليست كآبة ، ولكنها مهانة أشعر بها ! »

فقالت : « معاذ الله يا مولاى .. ان المهانة لا تجرؤ على التطلع الى جلالتك ! »

فعض على شفتيه وقال : « أى مهانة أشد قحة من هذه التى تحيط بى ؟.. أنا الملك هنا ، أم ذلك الذى استطاع أن يعد هذا المهرجان ؟. ان المهرجان الذى أقمته فى فونتينبلو لم يكلف عشر ما أنفق هنا بغير حساب !.. ومن عجب أن كل هذا البذخ ، بل الاسراف الجنونى ، لم يكن الا باسمى ، ومن مالي الخاص ، دون أن أدرى !.. أهناك ما هو أشد مهانة من هذا يا آنسة ؟ »

فقالت مشفقة : « يا صاحب الجلالة !.. ان هذا المهرجان ما أقيم الا ابتغاء مرضاتك ومسرتك . وكلنا هنا رهن خدمتك وتسليتك و ... »

فقال الملك بغيظ : « ماذا يا آنسة ؟. أتريدين أن تدافعي عن المسيو فوكيه ؟ . . عن اللص الوقح الذي يستعلي على بما سلب من مالي الخاص؟ . . . كلا !. لن أكون ملك فرنسا ان لم أبدل مهرجانه هذا مأتما له وسبة في جبينه الى الأبد ! »

وكان ضوء المشاعل القادمة قد اقترب من الحديقة ، فقالت دي لافاليير للملك : « ان موكب المشاعل أوشك أن يصل ! »

وبقي الملك متواريا بين الأشجار بينما وقفت دي لافاليير في مكانها فقال لها كولبير على مسمع من الملك : « يا آنسة لقد سقط منك شيء ! » . فسأله الملك : « ما هو ؟ » . فقال كولبير : « ورقة .. أحسبها خطابا . أنظر يا مولاي ! »

فانحنى الملك والتقط الخطاب ، وفي اللحظة نفسها جاء حملة المشاعل فغمروا المكان بضوء كضوء النهار !

وأخذ الملك يقرأ الورقة على الضوء الساطع ، متوقعا أن تكون خطابا أعدته دي لافاليير لترسله اليه ، ولكنه ما لبث قليلا حتى علت وجهه صفرة كصفرة الموت ، وارتسم على ملامحه غضب لم يعهد مثله عليه من قبل ، وبدا كأنما ذهب من قلبه كل أثر لعاطفة نبيلة !

لقد كان الخطاب مرسلا الى دي لافاليير حين كانت في فونتينبلو ، من فوكيه نفسه ، وفيه يحاول اجتذاب قلبها اليه . وقد ضاع هذا الخطاب قبل أن يصل اليها ، وما زال يتنقل من يد الى يد حتى وصل الى كولبير فاحتفظ به ليكون سلاحا في يده !

ورأى فوكيه ذلك الغضب الذي غشى الملك فجأة ، لكنه لم يدر سببه ، أما كولبير ففرح لاقتراب العاصفة ثم انتبه الملك من تفكيره على صوت فوكيه يسأله في رفق : « ماذا جرى يا مولاي ؟ »

فبذل الملك جهدا عنيفا حتى استطاع أن يرد قائلا : « لا شيء ! »

فقال فوكيه : « أخشى أن تكون جلالتك متألما من شيء »

فقال بجفاء : « انني أشعر بألم ، وقد قلت لك ذلك قبلا ، وهذا كل شيء !! »

ولم يصبر الملك حتى ينتهي عرض الألعاب النارية ، بل مضى مسرعا الى داخل القصر ، وصحبه فوكيه وأفراد البلاط جميعا تاركين رؤية الألعاب النارية

وحاول فوكيه مرة أخرى أن يسأل الملك عما به ، ولكنه لم يتلق منه جوابا ، فافترض أن غضبه لسوء تفاهم قام بينه وبين دي لافاليير ، ووجد في هذا الفرض عزاء له ، فابتسم للملك ابتسامة ودية حين صرفه هذا قائلا له : « عم مساء »

وكان الرحيل مقررا في الغد ، وعليه لذلك أن يقول كلمة يطري بها

كرمه وحسن ضيافته ، ولكنه اكتفى بأن قال لفوكيه :

ــ ستسمع مني غدا . أرجو أن تبعث الى المسيو دارتانيان !

وكان الدم يغلي في عروق الملك ويوده لو يدق عنق فوكيه في تلك اللحظة ، لكنه أخفى القرار الذي اتخذه نحوه وراء ابتسامة ، وترك له يده ليطبع قبلة عليها ، وان أحس رجفة تسري في جسمه حين لمست يده شفتا الوزير !

ولم تمض خمس دقائق حتى جاء دارتانيان بعد أن تلقى أمر الملك بالحضور

وكان أراميس وفيليب في مكانهما يرصدان ما يحدث في غرفة الملك ويستمعان لكل ما يقال . ولم يترك الملك لقائد فرسانه وقتا للاقتراب من كرسيه بل مشى نحوه وقال له : « احرص على الا يدخل أحد هنا ! »

فعاد دارتانيان الى الباب حيث أصدر التعليمات لتنفيذ هذا الأمر ، ثم أقبل على الملك قائلا : « هل حدث شيء يا صاحب الجلالة ؟ »

فلم يجب الملك عن هذا السؤال ، وانما قال له : « كم رجلا تحتاج اليهم للقبض على المسيو فوكيه ؟ »

فتراجع دارتانيان خطوة الى الوراء من الدهشة ، ومشى خطوات الى الباب ، لكنه التفت بغتة وقال للملك :

ــ معذرة يا مولاي . اني أحتاج الى أمر مكتوب !

فسأله الملك في غضب : « متى كانت كلمة الملك غير كافية ؟ ! »

ولكن قائد الفرسان أجاب في هدوء : « لأن كلمة الملك اذا كانت منبعثة عن غضب ، فليس بمستبعد أن تتغير اذا ذهب عنه الغضب ! »

فقال الملك : « انما انت تطلب مهلة لكي تنشيء كلاما . هل لديك فكرة أخرى ؟ ! »

فقال دارتانيان : « أحسب يا مولاي أن عندي بعض أفكار وآراء »

فتردد الملك وسط سورة غضبه ، وتراجع أمام شجاعة دارتانيان كما يتراجع الجواد أمام راكب جسور مدرب . ثم سأله : « وما هي فكرتك ؟ »

فقال : « انك يا مولاي اذ تأمر بالقبض على رجل لا تزال تحت سقف بيته ، فلا شك أن الغضب وحده هو الدافع الى ذلك . ومتى ولى عنك الغضب فستندم على ما فعلت ، ولذا أحب أن أكون في موقف يمكنني من أن أريك توقيعك . واذا لم يفد ذلك في اصلاح الخطأ فانه سيدلنا على الأقل على أن الملك يخطىء اذ يغضب ! »

فنظر اليه الملك شزرا وقال : « ألم يغضب أبي وجدي أيضا ؟ »

فقال دارتانيان : « ان جلالة والدك وجلالة جدك لم يغضبا قط الا حين كانا في قصرهما ! »

فقال الملك : « ان الملك هو السيد حيث يوجد ! »

فابتسم دارتانيان وقال : « هذه عبارة مديح مغرية لا يمكن أن تنبعث الا من رجل كالمسيو كولبير ولكن هل هى تمثل الحقيقة ؟. وهل يكون الملك سيدا فى بيت أى انسان اذا هو طرد صاحب البيت منه ؟ ! »

فعض الملك على شفتيه ولم يقل شيئا . ثم قال دارتانيان : « أهـذا ممكن يا مولاى ؟. ها هنا رجل يحكم على نفسه بالخراب لكى يسرك ، وأنت تريد القبض عليه !. حقا .. لو أننى كنت فى مكان فوكيه ، لابتلعت فى جرعة واحدة كل الألعاب النارية وكل معدات المهرجان الأخرى ، وأشعلت فيهـا النار ، لأنفجر وينفجر كل ما فى هذا المكان . ولكن على أى حال ما دامت تلك رغبة جلالتك فانها ستنفذ ! »

فقال الملك بعد هنيهة : « اذن راقبه حتى أكون قد صممت على رأى الى صباح غد ! »

فقال : « سأفعل ذلك يا مولاى »

□

هدأت تدريجا سورة الغضب الجامحة التى سيطرت على الملك حين قرأ خطاب فوكيه الى دى لافالير ، ثم انقلب غضبه شعورا بالألم والتعب ، ولم تمض دقائق معدودات بعد أن أوى الى فراشه حتى استرخت عضلاته وخمدت أعصابه !

وخيل اليه فى بداية نومه أن الاله (مورفيوس) المرسوم على السقف ينظر اليه نظرات تشبه نظرات البشر ، وأن شيئا ما أضاء فى القبة التى تعلو غرفته وأخذ يروح ويجيء فى جوانبها ، وما لبث هذا الشيء أن تكشف عن وجه آدمى ويد على فم هذا الوجه ، وملامح تدل على تفكير عميق !

أى حلم غريب هذا الحلم الذى يراه ؟ !.. انه لا شك من أثر الجهد العنيف الذى عصر أعصابه عصرا فى المساء : ولكن ما بال هذا الوجه الذى تراءى له يبدو كأنه وجهه ؟

ثم خيل اليه أن القبة تختفى تدريجا عن مدى نظره وان الرسوم والأشكال التى رسمها لبرون صارت أدكن من قبل . وأحس أن السرير يواصل الهبوط به فى حركة رقيقة متئدة كحركة السفينة حين تنساب على صفحـة الماء الهادىء ، فقال لنفسه : « يا له من حلم ! » . ثم تراءى له أن التاج الذهبى الذى عقدت به الستائر ، يبعد عن بصره كما بعدت القبة التى علق بها ، وكما بعد الملاك ذو الجناحين الذى يحمل ذلك التاج !

وضاق ذرعا باستمرار السرير فى الهبوط ، ففتح عينيه ليطرد من رأسه ذلك الحلم الغريب . ولكنه لم يستطع أن يرى شيئا . فقد حلت الظلمـة محل الضوء فى الغرفة ، واحس فى الهواء برودة عجيبة ، ولم يعد يرى رسوما ولا صورا ولا ذهبا ولا ستائر من المخمل ، ولكنه رأى جدرانا داكنة

اللون تزيد فى حلكة الظلام الذى غمره . ومع هذا استمر السرير يهبط ، وبعد دقيقة بدت كأنها دهر استقر فى مكانه !

ولم يعد الملك يرى ضوءا فى الغرفة الا كما يرى الانسان الضوء من قاع بئر . فقال يحدث نفسه :

ـ لا ريب أنى تحت تأثير حلم مخيف . لقد حان الوقت لأن أستيقظ منه . هيا . يجب أن أصحو !

وما لبث الملك أن تحقق أنه ليس نائما ، فها هو ذا فجأة قد رأى عن يمينه ويساره رجلين مدججين بالسلاح وقد التف كل منهما بعباءة تغطى جسمه وارتدى قناعا على وجهه . وفى يد أحدهما مصباح !

وحدث نفسه بأن الرؤيا مستمرة ، وأنه لكى يصحو منها ، ينبغى له أن يحرك ذراعيه ، وأن يقول شيئا بصوت مرتفع . ثم قفز فجأة من سريره فاذا به يجد نفسه واقفا على أرض رطبة رخوة . فسرت الرعدة فى جسمه والتفت الى الرجل الذى فى يده المصباح قائلا : « ما هذا ؟ ما معنى هـذا المزاح الثقيل ؟ »

واشتد ارتجافه حين أجابه الرجل فى صوت عميق : « انه ليس مزاحا ! »
ثم سألهما الملك معا : « أانتما من رجال المسيو فوكيه ؟ »

فقال له الأول : « لا يهم من نكون .. اننا السادة الآن وهذا يكفى ! »

وكان الملك أقرب الى نفاد الصبر منه الى الخوف ، فالتفت الى الشخص المقنع الآخر وقال له : « اذا كانت هنا مهزلة فقل للمسيو فوكيه انها غير لائقة وانى أريد أن تنتهى توا ! »

وكان هذا الشخص المقنع الثانى رجلا ضخما طويل القامة عريض الجسم كأنه مارد ، فوقف معتدلا بلا حراك ، فضرب الملك الارض بقدمه وقال له : « الا تجيب ؟ ! »

وهنا نطق المارد فقال : « كلا ! »

وهنـا صاح بهمـا الملك قائلا : « الا يمكنكما على الأقل أن تقولا ماذا تريدان ؟ »

فأجابه حامل المصباح قائلا : « ستعلم ذلك تدريجا ! »

فسأله : « اذن خبرنى أين أنا ؟ » . فاكتفى الرجل بأن رفع المصـباح الذى فى يده وهو يقول : « هل ترى الآن ؟ ! »

ونظر لويس حوله على ضوء المصباح ، ولكنه لم ير غير جدران رطبـة فقال : « أنحن فى جب ؟ »

فقال الرجل : « كلا !. بل نحن فى ممر تحت الارض ! »

فسأله الملك : « الى اين ينتهى هذا الممر ؟ »

فأجاب بقوله : « ما عليك الا أن تتبعنا ! »

فصاح الملك غاضبا : « لن أخطو خطوة واحدة ! »

وهنا قال له الرجل الضخم : « اذا أبديت العناد يا صديقى العزيز ، فانى سأحملك بين ذراعى والفك فى عباءة ، فاذا أنت اختنقت فلن الوم نفسى ! » . ثم شمر عن ذراعه الضخمة استعدادا لاستعمال العنف ، فلم يسع الملك الا الاذعان والاستسلام قائلا :

ــ يلوح لى أنى وقعت فى أيدى اثنين من القتلة !.. هيا تحركا !

فلم يجب أحد من الرجلين ، وانما تقدم الرجل الذى يحمل المصباح وتبعه الملك وخلفه الرجل الضخم ، وقطعوا مسافة تتخللها درجات ملتوية ، وكان الملك يسمع فى طريقه صوت ماء فى أعلى ، حتى وصلوا أخيرا الى ردهة طويلة فى نهايتها باب حديدى ، ففتح الرجل الذى يحمل المصباح هذا الباب بمفتاح معلق فى حزامه بين مفاتيح أخرى ، ولما انفتح الباب دخل منه هواء يحمل رائحة الأشجار التى تفوح فى يوم صيف حار فوقف الملك لحظة مترددا ، ولكن الرجل الضخم الذى وراءه دفعه الى الأمام فالتفت اليه الملك بحنق وقال له : « حذار ! ماذا تعتزمان أن تفعلاه بملك فرنسا ؟ »

فأجابه الرجل الذى يحمل المصباح : « حاول أن تنسى هذه الكلمة ! »

وقال له الرجل الضخم : « أنت تستحق أن تكسر أضلاعك على عجلة التعذيب لهذه الكلمة التى قلتها ، ولكن الملك ذو قلب رحيم ! »

وهنا بدرت من الملك حركة سريعة كأنه يهم بالفرار ، ولكن يد المارد سرعان ما أمسكته من كتفه ووقفته حيث كان . ثم قال له الرجل الاول وقد أطفأ مصباحه : « تعال » . فتبعه دون أية كلمة . وكانت هناك عربة مختفية وراء الأشجار الكثيفة ، وقد علق بها جوادان ، ففتح الرجل باب العربة وقال للملك : « ادخل ! » . فأطاعه الملك وجلس فى العربة ، وسرعان ما أوصد بابها ، بينما جلس الرجل الضخم فى مكان الحوذى بعد أن فك قيود الجوادين ، ومضى بالعربة مسرعة حتى دخلت الطريق المؤدى الى باريس . وهناك فى غابة سينار أبدل بالجوادين المجهدين جوادان آخران ، ثم سارت العربة بالسرعة نفسها حتى وصلت الى باريس فى الساعة الثالثة صباحا ، فمضت فى ضاحية (سان أنطوان) حتى وصلت الى الباستيل ، وقيل للديدبان : « بأمر الملك » فترك العربة تدخل الى فناء السجن

وهناك وقفت عن المسير والجوادان يتصببان عرقا ، وصاح الرجل الضخم بالجاويش الذى أقبل نحوهم : « اذهب وأيقظ المحافظ ! » . وكان صوته الذى يشبه الرعد كافيا لأن يمضى الجاويش مسرعا لتنفيذ الأمر !

وبعد عشر دقائق ظهر بالباب المسيو بيزمو لابسا ثياب النوم وهو يصيح قائلا :

ــ ماذا حدث من جديد ؟ ومن الذى أحضرتموه معكم ؟

ففتح الرجل الذى كان يحمل المصباح باب العربة ، وقال كلمتين أو ثلاثا

للجالس فى مكان الحوذى ، فنزل هذا توا من مقعده وأمسك بندقيته الصغيرة ووضع فوهتها على صدر السجين ، فقال له الرجل الآخر :

ــ أطلق النار دون تردد اذا نطق بكلمة !

ثم تقدم الرجل نحو المسيو بيزمو فلما رآه هذا صاح قائلا : « المسيو دربلاى ! »

فقال له أراميس : « صه ! هيا بنا ندخل غرفتك ! »

فسأله : « ترى ما الذى جاء بك فى مثل هذه الساعة ؟ »

فأجاب أراميس فى هدوء : « غلطة يا عزيزى المسيو بيزمو . يظهر أنك كنت على صواب ! »

فسأله بيزمو : « فى أى شأن ؟ »

فقال : « فى شأن أمر الافراج يا صديقى العزيز ! »

فقال بيزمو مشفقا : « ماذا تعنى يا صاحب الفخامة ؟ »

فقال له : « الأمر بسيط جدا .. ألا تذكر يا عزيزى ذلك الأمر الذى أرسل اليك وأنا عندك فى شأن الافراج عن سجين ؟ »

فقال : « أجل .. السجين مارشيالى ؟ »

فقال أراميس : « هذا ما حسبناه مع الأسف »

فقال بيزمو : « ما حسبناه ؟ !.. انك تذكر يا صاحب الفخامة أنى لم أرد أن أصدق ذلك وأنك أرغمتنى على ... »

فقطع أراميس كلامه قائلا : « يا عزيزى بيزمو !. ان كل ما فى الأمر أنى نصحت لك »

فقال بيزمو متنصلا : « أجل !.. نصحت لى بقوة أن أسلمه اليك ، وقد أركبته معك عربتك واخذته معك ! »

فقال أراميس : « حسنا يا عزيزى !. لقد كانت غلطة اكتشفتها الوزارة فيما بعد . ولهذا جئتك الآن بأمر خاص بالافراج عن سلدون الايرلندى البائس . أتذكره ؟ »

فقال : « سلدون ؟ !. أواثق انت هذه المرة يا سيدى ؟ »

فأعطاه الأمر قائلا : « اقرأه بنفسك »

فلما قرأه بيزمو قال : « ان هـذا الأمر هو نفسه الذى مر بيدى من قبل !. الأمر الذى اكدت لك فى ذلك المساء أنى رأيته !. انى اعرفه بنقطة الحبر التى عليه ! »

فهز أراميس كتفيه قائلا : « لا أدرى أهو ذلك الأمر القديم أم غيره . ولكنى أعرف أنى أحضرته اليك الآن ! »

فسأله بيزمو : « ولكن ماذا أصنع فى شأن مارشيالى الذى أفرجنا عنه ؟ »

فقال أراميس فى هدوء : « لقد جئت به معى لأعيده اليك ! »

فبغت بيزمو ثم قال بعد هنيهة : « لا بد من أمر جديد لكى أقبله فى السجن بعد الافراج عنه ! »

فقال له أراميس : « لاتقل هذا الهراء يا عزيزى ، انه أشبه بكلام الأطفال. أين الأمر الذى تسلمته منى فى شأن مارشيالى ؟ »

فجرى بيزمو الى خزانته الحديدية وأخرج منها ذلك الأمر ، فتناوله أراميس وقطعه اربا ثم حرقه بنار المصباح فصاح به بيزمو : « رباه ماذا فعلت يا سيدى ؟ ! »

فقال له أراميس فى هدوء : « فكر فى مركزك جيدا يا عزيزى المحافظ ، ان الأمر أبسط مما تظن . انك لم يعد لديك أمر بالافراج عن مارشيالى ! وما عليك الا أن تعيد السجين الى زنزانته وتوصد بابها عليه !

ففكر بيزمو قليلا ثم بدا أنه اقتنع مكرها ، فقال له أراميس :

ــ وستسلمنى سلدون بمقتضى هذا الأمر بالافراج عنه . أفاهم أنت ؟ »

فقال متلعثما : « أنا ؟ أنا ؟ » . وواصل أراميس كلامه فقال : « انك فاهم كما أرى . حسنا ! »

فضرب بيزمو كفا بكف وقال : « ولكن لماذا تعيد الى مارشيالى بعد أن أخذته ؟ »

فقال له : « لست أكتم سرا عن صديق مثلك ، عن خادم مخلص أمين ! »

ثم همس فى أذنه قائلا : « ألم تلحظ الشبه العجيب بين هذا البائس وبين ... »

فأتم بيزمو عبارته قائلا : « وبين الملك .. أجل لحظت ذلك »

فقال له : « حسنا !.. ان مارشيالى لم يكد يطلق سراحه حتى بدأ يقول ... أتدرى ماذا يقول ؟ »

فقلب بيزمو يديه قائلا : « أنى لى أن أدرى ذلك يا سيدى ؟ »

فقال أراميس : « لقد أخذ يدعى أنه الملك نفسه !. وصار يقلد الملك فى زيه وملابسه !. وهذا هو السبب الذى جعلنى أعيده اليك يا صديقى العزيز . انه مسلوب العقل وقد لحظ ذلك كل انسان سمعه ! »

فقال بيزمو وهو يرتجف : « رباه !.. ما العمل ؟ »

وعاد أراميس فربت كتفه مطمئنا وقال : « الأمر بسيط جدا !.. لاتدع أحدا يتصل به مطلقا . ان الملك حين نمى اليه جنون هذا الشخص وعلم أنه قابل الافراج عنه بهذا الادعاء ، تولاه غضب شديد ، وقد أمر باعدام كل من يسمح لهذا البائس بالاتصال بأى أحد سواى . أفاهم أنت يا مسيو بيزمو ؟.. والآن هيا بنا نذهب لنعيد ذلك الشقى الى زنزانته ! »

(بقية الرواية فى العدد القادم)

اسكندر دوماس الكبير

ذو القناع الحديدي

(الجزء الثاني)



روايات الهلال

روائع القصص العالمي

كلمة التحرير

هذا هو الجزء الثـــانى من رواية « ذو القناع الحديدى » للروائى الأشهر اسكندر دوماس الكبير • وقد وضعنا فى مقدمة هذا الجزء خلاصة وافية للجزء الاول الذى صدر فى شهر مارس الماضى ، حتى لا تنقطع سلسلة الحوادث التي احتوتها هـذه الرواية الشـــائقة ، وليستطيع القراء – في يسر – متابعة فصولها وما قام به أبطالها من أعمال ووقائع

وهذه الرواية في جزءيها تصور عصر لويس الرابع عشر بما فيه من أحـــداث عجيبة ، وشجاعة نادرة ، ومكايد ودسائس ، وطموح ومغامرات • ولو أنها سميت باسمه ، لما كان في ذلك تجـــاوز ولا مغالاة ، لأنها تصور حياته وطبيعته وأخلاقه وبخاصة في هذا الجزء الثاني • فان القارىء سيرى فيه شخصية لويس الرابع عشر في قوته وعظمته وسلطانه • وكيف تغلب على أخيـه التوأم فيليب الذى حل محله ليلة واحـــدة على سرير الملك ، وكيف قضى على خصومه ووحد السلطة في يده

وعلى الرغم من أن هذه الرواية تصور حياة ملك عظيم ، فان المؤلف استطاع بفنه الرائع أن يضمنها غراما قويا عنيفا لا يقل عنفا وتضحية عن غرام قيس وليلى ، أو روميو وجوليت •• بل لعله أكثر روعة ، وأشـــد عنفا وأسى ، فان غرام الشاب الفارس راءول (الفيكونت دى براجلون) بالفتـــاة لويز دى لافاليـــير ، قد بلغ الذروة في اللوعة والتضحية والحرمان ، وقد كان غراما يائسا دفع راءول المسكين الى أن يلتمس الموت فى الحرب فرارا من بلائه وعذابه

أما الرواية التالية فهى « ابنة البخيل » للروائى العـــالمي الكبير أونوريه دى بلزاك ، تصـــدر في ١٥ مايو القادم • وهي تصـــور في أروع صورة جناية البخل على الانســـان وعلى ذريته من بعده ، كما تصور « البخل » في أعنف مظاهره ، وأبشع أحواله • ثم هي ترينا كيف تنشأ ابنة البخيل موضـــع ملاحقة ماكرة من المعجبين بمالها ، لا بجمالها • وهي بالاجمال رواية انســـانية تحارب قوى الشر في نفوس الاشرار

شخصيات الرواية

لويس الرابع عشر : ملك فرنسا الشاب ، ملك طموح يريد أن يوطد سلطته ، متقلب العواطف ، ولكنه يستمع إلى صوت الحق أحيانا

الامير فيليب : أخوه التوأم ، شاب عاقل رصين ، قضى طفولته مجهولا من الناس ، ثم سجن سنوات ، وكان لا يعرف نفسه ولا منبته الرفيع

الملكة آن النمسوية : والدة لويس وأخيه فيليب ، وأرملة لويس الثالث عشر .. ملكة متكبرة ، تعانى مرضاً جسمانياً وألماً نفسانياً وتحتفظ بسر مولد فيليب

الدوقة مدام دى شيفريز : كانت صديقة للملكة آن ثم أخنى عليها الدهر ، واطلعت على سر لفوكيه فباعته لكولبير

فوكيه : وزير مالية فرنسا ، رجل وجيه متعال ، يقرب الشعراء والفنانين

كولبير : وكيل المالية ، رجل قدير ماكر ، يطمح إلى منصب وزير المالية

أراميس (الكونت دربلاى) : كان أحد الفرسان الأربعة الأبطال فى عهد لويس الثالث عشر ، ثم صار أسقفا وعمل لاسقاط الملك واجلاس أخيه التوأم مكانه

بورتوس (دى ڤالون) : أحد الفرسان الأربعة ، ومن أغنى نبلاء فرنسا ، ضخم الجسم كأنه مارد ، شجاع ، طيب القلب

آتوس (دى لافير) : كبير الفرسان الأربعة ، ومن أكبر نبلاء فرنسا

راءول (دى براجلون) : نجل آتوس ، شاب شجاع مقدام ، أحب الآنسة لويز دى لاڤاليير احدى وصيفات الأميرة هنريتا ، وتعاهدا على الزواج

دارتانيان : أحد الفرسان الأربعة ، وهو يشغل منصب قائد الفرسان

لويز دى لاڤاليير : احدى وصيفات الأميرة هنريتا ، أحبها راءول ، وعاهدها على الزواج ولكنها وقعت فى غرام الملك لويس الرابع عشر

بيزمو : محافظ سجن الباستيل ، يحب أطايب الطعام والشراب ، واقع تحت تأثير أراميس الذي أقرضه أموالا ثم تركها له ، وهو عضو فى جماعة الجزويت

ملخص الجزء الاول

كان الضابط الشاب « راءول » أو « الفيكونت دى براجلون » قد تبادل الحب والتعاهد على الزواج مع الفتاة « لويز » أو « الآنسة دى لافاليير » كما كانت تعرف فى بلاط « لويس الرابع عشر » ملك فرنسا حيث تعمل وصيفة للأميرة « هنريتا » قرينة شقيقه الأصغر ، وخليلة « الفيكونت دى جيش » زميل راءول وصديقه الحميم !

وكان الملك قد شرع فى مغازلة الأميرة واجتذاب قلبها ، لكنه ما لبث قليلا حتى كف عن ذلك اذ جن غراما بوصيفتها دى لافاليير ، وبادلته هذه غرامه وكثر تلاقيهما بعد أن أبعد الملك خطيبها فى مهمة أرسله فيها الى انجلترا ، فأثار ذلك حنق الأميرة المهجورة ودفعتها الغيرة الى الانتقام لنفسها ، فسعت حتى رجع خطيب الوصيفة فجأة الى باريس ، وكشفت له خيانة خطيبته ، ثم انتهزت فرصة خروج الملك والحاشية فى نزهة قصيرة ، وأطلعت الفتى على آثار تلك الخيانة بالغرفة السرية التى تجتمع فيها مع الملك فى المسكن المخصص بالقصر الملكى للنبيل الشاعر « سان اينيان »

وسارع الشاب ــ بعد أن تحقق خيانة خطيبته ــ الى مقابلة المسيو « دارتانيان » قائد فرسان الملك ليشاوره فى الأمر بوصفه أحد الفرسان الاربعة المشهورين منذ عهد « لويس الثالث عشر » والذين يعد أبوه وهو « آتوس » أو « الكونت دى لافير » أكبرهم سنا ومقاما وثروة . فلما نصح له « دارتانيان » بالتريث ، لجأ الى المسيو « بورتوس » أو « الكونت دى فالون » أقوى أولئك الفرسان الاربعة جسما وأبسطهم عقلا ، واستطاع أن يقنعه بأن يكون رسوله الى « سان اينيان » لكى يدعوه الى مبارزته . وكادت هذه المبارزة أن تتم لولا أن علم بها الملك فى آخر لحظة فحال دون وقوعها

وما كاد الكونت دى لافير يعلم بالأمر من صديقه القديم « دارتانيان » حتى اشتد به الغضب من سوء تصرف الملك واعتدائه على كرامة ابنه ، وسرعان ما توجه الى القصر الملكى حيث جابه الملك بسخطه واستنكاره تصرفه ، ثم لم يسعه حين لج الملك فى كبريائه وعناده وأخذته العزة بالاثم الا أن جرد سيفه التاريخى المقدس وحطمه أمامه ثم ألقى به بين يديه وانصرف لا يلوى على شىء !

ولم يشأ لويس الرابع عشر أن يسكت على هذه الاهانة ، فأمر قائد فرسانه بأن يلحق بالكونت دى لافير ليقبض عليه ويزج به فى سجن

الباستيل ، وفشلت محاولات دارتانيان لاقناع الملك بالعدول عن هـذا الأمر ، كما فشلت محاولاته لحمل الكونت على الفرار الى خارج الحدود. فلم يسعه الا أن نفذ الأمر ، ثم رجع الى الملك وطالبه ملحا بأن يأمر باعتقاله أيضا ، كي يلحق بزميله المجاهد الوطنى الكبير ويشاركه مصيره الأليم . وازاء هذا لم يسع الملك الا أن يأمر بالافراج عن الكونت المعتقل فى اليوم نفسه !

وفيما كانت هذه الأحداث تجرى داخل القصر وخارجه ، كانت هناك مؤامرتان خطيرتان تدبران فى الخفاء : احداهما لاسقاط المسيو فوكيه وزير المالية ، والاخرى لاسقاط الملك نفسه

وقد تزعم المؤامرة الاولى المسـيو « كولبير » وكيـل وزارة المالية ، واستطاع أن يحصل على مستندات خطيرة تثبت خيـانة الوزير للدولة والملك ، ومن بينها خطاب بخط « مازارين » ـ رئيس الوزارة الراحـل يثبت أن فوكيه استحل لنفسه جانبا كبيرا من مال الدولة ، وخطـاب آخر بخطر فوكيـه نفسه يثبت محاولتـه غزو قلب الآنسـة « دى لافالير » خليلة الملك !. وعرف كولبير كيف يهيىء الفرصة المناسبة لتنفيذ هـذه المؤامرة ، فحصل على المستند الرسمى الذى كان الوزير يحتفظ به دليلا على أنه سدد كل المال الذى أشـار اليه مازارين فى ذلك الخطاب ، وأعان المسيو « فانيل » زوج خليلته على شراء منصب النائب العام للبرلمان من فوكيه لكى يرفع عنه الحصانة البرلمانية . ثم سعى لدى الملك حتى أعرب للوزير عن رغبته فى أن يزوره وحاشـيته فى قصره الريفى تحقيقا لوعد قديم كان قد وعده اياه . وبذلك يضطر الوزير الى تبديد جانب آخر من مال الدولة فى اقامة المهرجان اللائق بنزول الملك وحاشيته ضيوفا عليه ، لأن ثروته الخاصة كانت قد نفدت وتراكمت عليـه الديون الى حد جعل خليلته الحسناء النبيلة « دى بلير » ترهن جواهرها لتقرضه بعض المال ، وجعل خاصته من الشعراء والفنانين وغيرهم يكتتبون له بمبلغ آخر من المال ليحولوا دون بيعه منصب النائب العام ، لكنه كان قد باع المنصب واسترد بثمنه جواهر خليلته وحليها وأهداها اليها من جديد !

وأخيرا ، ضرب كولبير ضربته القاضية ، حينما لمح على وجه الملك آثار الغيرة من فخامة قصر الوزير وفداحة ما أنفقه فى تنسيق المهرجان ، فأطلعه على الخطابين السالفى الذكر. وسرعان ما اشتد الغضب بالملك ، فلم يستطع الاستمرار فى مشـاهدة بقية برنامج المهرجان ، ثم أوى الى الغرفة التى خصصت لمبيته فى قصر الوزير قبل الموعد المحدد لذلك ، بينما عهـد الى دارتانيان قائد فرسانه فى ملازمة الوزير المغضوب عليـه حتى الصباح تمهيدا لاعتقاله ومحاكمته على التهم المنسوبة اليه !

وفيما كان دارتانيان مرابطا لذلك الغرض فى غرفة نوم الوزير ، كانت المؤامرة الأخرى قد أوشكت أن تتم فصولها من حيث لا يشعران . وقد

تولى أمرها الاسقف « دربلاى » الذى هو رابع الفرسان الاربعة وكان يعرف باسم أراميس . وتفصيل ذلك أن هذا الاسقف الفارس القديم كان رئيسا لجماعة « الجزويت » السرية ، التى ينتمى اليها كثيرون من كبـار الموظفين وأعداء الملك فى الداخل والخارج ، وكان يطمع فى منصب « البابا » ورياسة الوزارة فى الوقت نفسـه . وكان يعلم أن الملكة الوالدة « آن » قد أنجبت مع ابنها « لويس الرابع عشر » توأما سمى بفيليب ، ثم اتفق معها زوجهـا « لويس الثالث عشر » على اخفاء أمر هذا التوأم تفاديا لما قد يقوم من نزاع على العرش بين التـوأمين . وهكذا شب منفيا فى جهة نائية لا يعرف غير مربيته ومعلمه ، ولايدرى شيئا من أمر نسبه. وكانت أمه تزوره متنكرة أحيانا دون أن يعرف شخصها . وبقى الأمر كذلك حتى تولى العرش لويس الرابع عشر ، فزج بالأمير المسكين فى سجن الباستيل باسم «مارشيالى» ، بعد أن اغتال أستاذه ومربيته ليدفن سره معهما الى الأبد. وعلى هذا سعى «أراميس» حتى زار الأمير فى سجنه ، وكشف له حقيقة أمره ، ثم احتـال حتى أخرجه من السجن حيث ألبسه ملابس كملابس الملك، ودربه على القيام بدور الملك مستغلا ما بينهما من تشابه تام. واذ كان هو الذى تولى الاشراف على اعداد مهرجان الزيارة الملكية فى قصر صديقه فوكيه فقد استطاع بسهولة أن يمضى فى تنفيـذ مؤامرته الخطيرة ، فاختطف الملك من سريره فى غرفة نومه بقصر فوكيه وقاده بمعونة صديقه « بورتوس » الى سجن الباسـتيل حيث حل محل السجين «مارشيالى» أو أخيه فيليب، بينما حل هذا محله فى السرير !

ولم يستطع المسيو بيزمو محافظ الباستيل أن يعارض الاسقف الداهية فى شىء ، لانه كان عضوا فى جماعة الجزويت التى يرأسها الاسقف ، ولان هذا كان يدينه بدين كبير متعذر الأداء !

ليلة فى الباستيل

ما كاد الملك لويس الرابع عشر يجد نفسه وحده فى الزنزانة التى اغلقت عليه فى سجن الباستيل حتى تضعضعت حواسه وتملكه اليأس والقنوط ، ثم خيل اليه أنه انما انتقل الى عالم الأموات ، وأن السرير الذى هبط به فى غرفة نومه بقصر المسيو فوكيه وزير المالية لم يكن الا وسيلة ذلك الانتقال !

وكأنما استراح الملك الى ذلك الخيال ، اذ وجد الموت أكرم له وأهون عليه من أن يكون حيا فقد عرشه وسلطانه الذى لا يحد ، وزج به فى سجن حقيقى يلقى فيه ما لا عهد له به من المذلة والهوان

وبقى هنيهة معلقا بين الوهم والحقيقة ، ثم اخذ يحدث نفسه قائلا : « أهذا ما يسمونه بالعالم الآخر ؟ أهذه جهنم ؟ ! » . ثم أسند ظهره الى الحائط واغمض عينيه ليوهم نفسه انه مات حقا ، لكنه ما لبث قليلا حتى تساءل فى فزع : « لو أننى مت بسقوط أرض الغرفة بى لكنت الآن أشعر برضوض مؤلمة على الأقل . واذن لعل الخونة المجرمين قد دسوا لى السم فى بعض ألوان الطعام او مزجوه بالشمع لأستنشقه ! »

ثم اعترته رجفة من برودة الجو فى الزنزانة ، فقال لنفسه : « لقد رأيت أبى مسجى الجسم على فراش الموت مرتديا ثيابه الملكية ، وكان وجهه الشاحب ينم عن هدوء وسكينة ، كما كانت يداه ممدودتين الى جنبيه بلا حس ولا حركة ، وقد جمدت اعضاؤه جمود الموت . ومع هذا كان يبدو كأنما أكسبه جلال الموت مزيدا من جلال الملك ، وكان يخيل الى انه لا يزال على عرشه ، ولم يفقد مثقال ذرة من مكانته !.. »

وفى هذه اللحظة شعر الملك السجين بحركة غريبة بالقرب منه ، ففتح عينيه واخذ يتطلع حوله مرتاعا . فاذا به يرى فى أحد أركان الحجرة فأرا كبيرالحجم وقف يقضم قطعة خبز مقدد ، ويبادله نظرات الدهشة والارتياع !

ولم يسعه الا ان يتراجع نحو الباب وهو يصرخ على غير وعى منه ، وكأنما كان يحتاج الى هذه الصيحة ليستوثق من انه لا يزال على قيد الحياة وانه سجين حقا ، فعاد يصيح قائلا : « أنا سجين ؟ !.. أجل انا سجين ! »

ثم نظر حوله باحثا عن جرس يدقه ليدعو أحدا اليه ، وما لبث ان قال : « كلا لاتوجد أجراس فى الباستيل !. ولكن كيف سجنت ؟ لا شك ان ذلك نتيجة مؤامرة من المسيو فوكيه . لقد استدرجنى الى قصره فى (فو) لهذا الغرض . ولكن لا يمكن ان يكون قد فعل ذلك وحده . وانى لأذكر الآن

صوت ذلك الرجل المتنكر الذى جاء بى الى هنا .. انه صوت المسيو دربلاى !. واذن كان كولبير على صواب . لكن ما هو غرض المسيو فوكيه ؟ أيريد أن يجلس على العرش ؟. كلا !. هذا محال !. ومع ذلك من يدرى ؟ »

وسكت هنيهة مفكرا فى الأمر ثم قال لنفسه : « ربما قام أخى دوق اورليان بالدور الذى حاول عمى أن يقوم به فى حياة أبى . ولكن هل أمى أيضا تآمرت ضدى ؟. وما هو موقف دى لافاليير الآن . لا شك أن هنريتا انتقمت منها شرانتقام . يا لتلك الفتاة المسكينة !. أجل لا شك انهم سجنوها كما سجنونى ، وهكذا افترقنا الى الأبد ! »

واخذ يبكى منتحبا بصوت مرتفع ، ولكنه ما لبث قليلا حتى كفكف دمعه وقال منفعلا : « ان لهذا السجن محافظا ، فلماذا لا أدعوه الى وأخاطبه فى الأمر ؟ »

وسرعان ما أخذ يصفق رافعا صوته بالنداء ، فلما لم يجبه أحد تملكه الغيظ وأخذ يدق باب الزنزانة بيديه ثم بالكرسى الذى كان يجلس عليه . وكان الصدى يردد الضجة الشديدة التى أحدثها ، دون أن يجيبه أحد أيضا ، فاستدل بذلك على قلة المكانة التى له فى الباستيل . ولما خفت سورة غضبه التفت الى النافذة ذات القضبان المتشابكة وقد اخذ ضوء الفجر يتسلل منها الى الزنزانة ، فعاوده الأمل فى اجابة ندائه ومضى يصيح بكل قوته ولكن بلا جدوى ، فغلا الدم فى عروقه وصار يرتجف من فرط الغيظ والغضب لاهماله الى هذا الحد الشنيع ، وهو الذى تعود أن يأمر فيطاع !. واخيرا عاد الى الباب السميك المغلق يضربه بالمقعد الثقيل فى عنف ودون هوادة ، الى أن تصبب العرق من جبينه وتحطم المقعد . وهنا سمع أصواتا شتى فجعل ينصت اليها ، لكنها كانت أصوات السجناء الذين كانوا من قبل ضحاياه ، فأصبحوا الآن رفاقه فى السجن ، وكانت تلك الأصوات ترتفع اليه من خلال السقف والجدران السميكة ، وكلها اعتراض على ما أحدث من الضجة . فاستأنف ضرب الباب بقطع الكرسى المحطم ، ولم يكف عن ذلك برغم تعبه الشديد . وبعد حوالى ساعة سمع وقع أقدام فى الردهة ، ثم صوتا وحشيا يصيح به من خلف الباب قائلا :

— هل جننت ؟. ماذا دهاك لتصيح هذا الصياح ؟

فصاح الملك من داخل الزنزانة سائلا : « أأنت المحافظ ؟ »

ورد عليه صاحب الصوت قائلا : « لا شك أنك فقدت عقلك ، ولكن هذا لا يدعو الى كل هذهالضجة ! »

فكرر الملك سؤاله : « أأنت المحافظ ؟ ». ولكنه لم يسمع جوابا ، وما لبث هنيهة حتى سمع باب الردهة يغلق ، فأدرك أن السجان عاد من حيث أتى من دون أن يعبأ بالرد عليه !

وهنا بلغ غضب الملك اشده ، فاخذ يقفز كالنمر من المنضدة الى النافذة، ويضرب القضبان الحديدية بأقصى قوته ، وكسر لوح زجاج فسقطت شظاياه

فى فناء السجن ، ثم جعل يصيح بأعلى صوته قائلا : « المحافظ ! المحافظ ! »
وظل على هذه الحال زهاء ساعة حتى نال منه الجهد والغيظ والحنق ، وتدلى شعره فوق جبهته وتمزقت ثيابه ، وخارت قواه ، وعندئذ فقط أدرك مدى سمك جدران السجن وأبوابه ، وأيقن الا مندوحة عن الاستسلام . فأسند جبينه الى الباب وترك أعصابه تهدأ تدريجا وخفقان قلبه يخف رويدا . ثم قال يحدث نفسه : « عما قريب يأتون الى بالطعام كأى سجين ، وعندئذ سأرى انسانا ما وأحدثه »

وجعل يسائل نفسه عن الموعد الذى يقدم فيه الطعام الى السجناء ولكنه كان يجهل ذلك ، فشعر بتأنيب الضمير اذ مضى فى الملك خمسا وعشرين سنة من دون أن يفكر لحظة فى شقاء أولئك الذين خسروا حريتهم ظلما وعدوانا ، وأحس وجهه يحمر من الخجل ، وأدرك ان الله انما كتب عليه السجن ليذوق عذابه الذى فرضه على الكثيرين . وغمره شعور دينى لكنه لم يجسر على الركوع والصلاة وحدث نفسه قائلا : « ان الله عادل حكيم ، ومن النذالة ان أسأله لنفسى ما أبيت على كثيرين من عباده ! »

وفيما هو فى هذا التفكير سمع صوتا يقترب من الباب ثم صرير مفتاح يوضع فى قفله ، فمال الى الامام ليرى الشخص القادم ، ولكنه عاد فرأى ذلك غير جدير بمقام الملك فوقف مكانه فى كبرياء وسكون ، وتطلع الى النافذة لكى يخفى أثر انفعاله على القادم . ولم يكن هذا سوى سجان جاء بسلة بها مؤونة ، فنظر اليه الملك بقلق وانتظر حتى بدأ السجان الكلام قائلا : « ما هذا ؟ . لقد حطمت كرسيك ! لا بد انك قد اصابك دخل فى عقلك ! »

فقال له الملك : « كن على حذر فيما تقوله فقد تكون عواقبه وخيمة عليك ! »

فوضع السجان السلة على المنضدة ونظر الى السجين مليا ، ثم قال : « ماذا تقول ؟ »

فقال له الملك بلهجة الأمر : « قل للمحافظ أن يأتى الى فورا ! »

فنظر اليه السجان مشفقا وقال : « مسكين أنت يا ولدى . لقد كنت دائما هادئا عاقلا ، ولكن يبدو انك بدات تعمد الى الشر ، ولهذا احذرك عسى أن ينفع الحذر . لقد حطمت كرسيك واحدثت شغبا شديدا ، وهذه جريمة يعاقب عليها بالسجن فى زنزانة بالطابق الأرضى . فعدنى الا تعود الى مثل ذلك ولك على الا أبلغ المحافظ شيئا من هذا الذى فعلت ! »

فقال الملك وهو لا يزال متمالكا أعصابه : « أريد أن ارى المحافظ ! »

فقال السجان : « ان المحافظ سيأمر بنقلك الى الطابق الأسفل ! »

فحدجه الملك بنظرة قاسية وقال : « انى أصر على رؤية المحافظ ، أسامع أنت ؟ »

فهز الرجل رأسه أسفا وقال : « نعم سمعت ، وها أنذا أرى بريق الهياج فى عينيك مرة أخرى ، ولهذا سأبعد عنك السكين ! »

ثم أخذ السجان السكين وترك الغرفة وأغلق الباب خلفه وأوصده بالمفتاح ، وخلف الملك وقد زادت دهشته وتعاسته ، ورأى أن من العبث أن يحدث ضجة من جديد ، فاكتفى بأن قذف بآنية الطعام من النافذة !

وبعد ساعتين كان من الصعب على أى انسان يراه أن يحسبه ملكا أو سيدا مهذبا أو أى آدمى ، فقد أخذ فى فورة غضبه يحاول أن يمزق الباب بأظافره وأن يحفر أرض زنزانته ، وارتفع صوته فى صيحات أقرب الى أصوات الوحوش منها الى أصوات الآدميين !

ولم يجد السجان داعيا الى ازعاج المحافظ بابلاغه أمر هياج السجين ، ولكن الأمر بلغ اليه من آخرين ، على أنه لم يعره كبير اهتمام ، لأن جنون أحد السجناء كان امرا مألوفا فى السجن ، ولأن جدران السجن وأبوابه ونوافذه أقوى وأمنع من أن يؤثر فيها أى هياج . هذا الى أن المحافظ لم ينس كلمة قالها له أراميس بشأن هذا السجين المجنون ، فبقى فى جناحه يواصل الراحة من الافراط فى الطعام والشراب ، وكل ما يتمناه أن ينتهى أمر (مرشيالى) أوالسجين المجنون ، بأن يقتل نفسه بقوائم سريره أو بأحد قضبان النافذة ، وبذلك يريح ويستريح ، ولاسيما أنه لم يكن مصدر دخل له ، وكان وجوده يضايقه من جميع الوجوه منذ وقوع ذلك الخلط فى أمر الافراج عنه باسم سلدون ثم أعادته الى السجن واطلاق سراح الأخير . وهذا عدا أن الشبه الشديد بين مارشيالى هذا وبين الملك كان وحده يدعو المسيو بيزمو محافظ السجن الى أن يتمنى له الموت !

زيارة غير منتظرة

كان دارتانيان لا يزال مضطرب الفكر على أثر حديثه مع الملك ، حتى لقد جعل يسائل نفسه : « أفى حلم أنا أم فى يقظة ؟٠ وهل صحيح انى فى قصر (فو) ٠ وأن المسيو فوكيه هو صاحب هذا القصر ؟! »

غير أن قائد الفرسان الجاسكونى كان كالعهـد به رابط الجأش ، يؤمن بأن سيفه كفيل بابلاغه ما يشاء ، وعلى هذا راح يحدث نفسه وهو يغادر الجناح الملكى فى طريقه الى غرفة المسيو فوكيه قائلا لنفسه: «يبدو أنى سأغدو ذا شأن كبير فى المستقبل ٠ وسيذكر التاريخ أنى قبضت على المسيو نيكولا فوكيه وزير مالية فرنسا فى قصره والملك ينزل فيه ضيفا مع كل حاشيته٠ ولسوف يفخر أحفادى بذلك ٠٠ لكن : كيف أستطيع تنفيذ هـذا الأمر العجيب ؟٠٠ان من السهل أن أذهب الى المسيو فوكيه وأقول له : (سلمنى سيفك يا سيدى !) ٠ ولكن كيف يستطيع انسان أن يضع المسيو فوكيه تحت الحراسة دون أن يدع أحدا يلحظ ذلك ؟ هذه هى المشكلة »

وزاد فى حيرة قائد الفرسان أن ضميره بقى غير مستريح الى قيامه بتنفيذ ذلك الأمر ، فالقبض على المسيو فوكيه انما يعنى هلاكه ، فى حين أنه كان حتى هذه الساعة مضيفا كريما !٠ ولاح له أن يصارح المسيو فوكيه بما يضمره له الملك ، لكنه عدل عن ذلك لأنه لا يتفق وواجبه العسكرى

وكان القصر فى تلك الساعة قد هجع كل من فيه ، وأخذ المسيو فوكيه فى خلع ملابسه الخارجية بمساعدة خادمه استعدادا للنوم ، وشد ما كانت دهشته حين فوجىء بظهور المسيو دارتانيان بباب الغرفة فى تلك الساعة المتأخرة ، فهتف به قائلا :

ــ ماذا ؟ المسيو دارتانيان هنا ؟٠ لعلك جئت لكى تنتقد المهرجان ؟ انى أعرف أنك بارع فى النقد !

فدخل المسيو دارتانيان بعد أن انحنى شـــاكرا وقال : « ليس لى أى ملاحظة على المهرجان ! »

فقال له الوزير : « هل وجد رجالك العناية الكافية ؟ »

فانحنى مرة أخرى وقال : «لقد كانت العناية بهم تامة من جميع الوجوه»

فابتسم الوزير وسأله متلطفا : «لعلك غير مرتاح الى الغرفة المعدة لك ؟»

فأجاب بقوله : « بل هى غرفة جد مريحة ! »

وهنا ازدادت دهشة الوزير ، لكنه تمالك نفسه وقال : « شـــكرا لك يا عزيزى على حسن ميولك وجميل عطفك ! »

ولم يخف على دارتانيان ما وراء عبارة الوزير من دهشة لزيارته له فى هذا الوقت لغير سبب ظاهر ، فى حين أنه فى أشد الحاجة الى الراحة ٠ لكنه تجاهل وقال للوزير : « أتريد أن تنام الآن ؟٠ حسنا يا سيدى !٠٠ انك ولا شك قد أقمت للملك مهرجانا رائعا »

فقال له : « يسرنى أن أسمع هـــذه الشهادة منك يا عزيزى المســيو دارتانيان ٠ هل عهد الملك اليك فى أن تقول لى ذلك ؟ »

فقال دارتانيان فى تواضع : « انه ما كان يختار رســولا قليل المقدرة مثلى ، يا صاحب الفخامة ! »

فرد عليه الوزير قائلا : « انك لا تقدر نفسك التقدير الذى تســتحقه يا مسيو دارتانيان » ٠ وبدا عليه القلق والتبرم باستمرار الحديث فى غير طائل ، وهنا سأله قائد الفرسان وهو يشير الى السرير الذى بالغـرفة : « أهذا سريرك الذى تنام فيه ٠٠ يبدو أنه مريح ! »

فقال : « أجـــل يا عزيزى انه مريح ، وأكبر ظنى أنك غير راض عن سريرك ؟ ولهذا يسرنى أن تأخذ غرفتى هذه »

فقال دارتانيان : « أنا آخذ غرفتك ؟٠ هذا محال يا صاحب الفخامة ! »

وهنا وقف الوزير يتأمل قائد الفرسان بنظراته الفاحصة ثم قال له : « ماذا أستطيع اذن أن أصنعه لأجل راحتك ؟ »

فتردد قليلا ثم قال : « هل لى أن أطمع فى أن تسمح لى بمشاركتك هذه الغرفة ؟ »

فبدا الانزعاج فى وجه الوزير وقال : « انك قادم من عند الملك ٠ أليس كذلك ؟ »

فقال : « أجل يا صاحب الفخامة »

فسأله : « وهل كلفك الملك أن تقضى الليلة معى فى غرفتى ؟٠ حسنا يا مسيو دارتانيان ٠ اننى رهن اشارتك ! »

ثم التفت الى خادمه وأمره بالخروج من الغرفة، فلما خرج قال لدارتانيان : « هل لديك شىء تقوله لى ؟٠ ان هذا واضح يا عزيزى ٠٠ أليس كذلك ؟٠ ها أنذا كلى آذان لسماع ما تقول ! »

فقال دارتانيان : « ليس عندى ما أقوله لك يا صـــاحب الفخامة ، وكل ما هناك أنى أريد التمتع برفقتك ! »

ففكر الوزير هنيهة ثم قال : « اذن هيا بنا الى الحديقة يا عزيزى ، فالجو هناك أصلح للسهر والسمر ! »

فقال قائد الفرسان : « ان الهواء هنا على ما يرام ! »

فقال المسيو فوكيه : « اذن ٠٠ لقد جئت لتقبض على ؟! »

فغمغم دارتانيان قائلا : « ماذا ؟٠٠ هـذا محال يا صاحب الفخامة !٠ وأقسم بشرفى ما جئت الا لكى أعنى بأمرك ! »

فقال : « تقسم بشرفك ؟! هذا شيء آخر ٠ اذن سيقبض على تحت سقف بيتى ! »

وهنا اقترب منه دارتانيان وهمس اليه قائلا : « أرجـو ألا تقول شيئا من هذا »

فقال الوزير محتدا : « بل سأقوله بأعلى صوتى ! »

فقال دارتانيان فى هدوء : « اذن أضطر فى هذه الحالة الى أن أرجو منك السكوت ! »

فابتسم فوكيه ساخرا وقال : « حسنا !٠ أتعنى أنه سيستخدم العنف معى هنا فى بيتى ؟! »

فقال دارتانيان : « يبدو أننا لم يفهم أحدنا الآخر تمام الفهم٠انى أرى هناك لوحة شطرنج فهيا بنا نلعب الشطرنج اذا لم يكن لك غرض آخر ! »

فنظر اليه الوزير معاتبا وقال : « لا تحاول أن تقنعنى بغير الحقيـقة يا مسيو دارتانيان ، ان مسلكك يكاد يسبب لى الجنون ، لقد كدت أقع من شدة حاجتى الى النوم ، ولكنك أطرت النوم من عينى ! »

فقال دارتانيان : « اذن ٠٠ لن أغفر لنفسى ذلك ٠ واذا أردت الراحة لك ولى فهيا اذهب الى سريرك »

فسأله : « أنت تعنى طبعا انى تحت الحراسة ؟ »

وتظاهر دارتانيان بأنه يهم بالخروج وقال : « طابت ليلتك يا صـاحب الفخامة ٠ ها أنذا أغادر غرفتك ما دمت لا تريد أن تصدقنى ! »

وسارع فوكيه الى اللحاق به ثم امسـكه قائلا : « ما دمت تأبى الا أن تعاملنى كما يعامل الصياد فريسته فانى سأضعك فى مأزق ! »

فابتسم دارتانيان وقال : « ماذا تريد أن تصنع يا صاحب الفخامة ؟ »

فقال : « سآمر باعداد جيادى ، لأعود الآن الى بلريس ! »

وقد أراد فوكيه بذلك أن يسبر غور دارتانيان،فلما قال له هذا : « اذن أذهب معك » ٠ رد عليه قائلا : « فى هذا الكفاية !٠ انك قد استأهلت عن جدارة ما اشتهرت به من الحذق والذكاء ، ولكن لا حاجة لك باستخدامهما معى ، ولنتكلم فى الموضوع : لماذا تقبض على ؟! »

فقال دارتانيان : « انى لا أفهم شيئا مما تقول يا صـاحب الفخامة ، ولكنى أعود فأؤكد انى لن أقبض عليك ، ليس فى هذه الليلة على الأقل !»

فامتقع وجه فوكيه وقال : « ليس فى هذه الليلة ؟٠ اذن ستقبض على غدا ؟! »

فقال : « ان الغد لم يأت بعد يا صـاحب الفخامة ٠ ومن الذى يدرى ما يأتى به الغد ؟ »

فسأله : « ألا أستطيع أن أتحدث مع المسيو دربلاى الآن ؟ »

فأجاب بقوله : « واأسفاه يا صاحب الفخامة ٠ ان هذا محال ٠ ان لدى أوامر مشددة بألا أدعك تتصل بأحد »

فسأله مستنكرا : « حتى ولا بالمسيو دربلاى ، صديقك ؟ »

فأجاب : « ليس المسيو دربلاى وحده هو الذى تمنع من الاتصال به ! »

فاحمر وجه فوكيه من الغيظ وقال : « انك على صواب يا سيدى ٠ لقد لقنتنى درسا كان ينبغى لى ألا أنساه ٠٠ ان الرجل اذا سقط لم يبـق له حق حتى عند من كان سبب سعادتهم ، فما بالك بمن ليس له أى فضـل عليهم ! وأيا ما كان الأمر فأنا أعترف بأن مسـلكك كان دائما جـديرا بالاعجاب،وهو المسلك الذى يليق برجل قدر له أن يقبض على ٠ انك أنت على الأقل لم تطلب الى أى يد أسديها اليك ! »

فتأثر دارتانيان بهـذه العبارة التى تنم عن الحزن والنبل وقال له : « يا صاحب الفخامة : انى أطلب اليك جميلا تسديه الى وهو أن تعدنى وعد رجل شريف بألا تغادر هذه الغرفة ! »

فهز الوزير كتفيه وقال : « وما فائدة ذلك يا عزيزى المسيو دارتانيان؟ أتحسبنى سأقاوم أبرع سيف فى المملكة ؟ »

فقال : « انى لا أقصد ذلك يا سيدى ، ولكنى أريد أن أذهب الى المسيو دربلاى ، وأن أتركك وحدك ٠ أين هى غرفته ؟ أليست هى الغرفة الزرقاء؟ أحسب أن الذهاب اليها والعودة منها لن يستغرقا أكثر من عشر دقائق ؟٠ تضاف اليها خمس دقائق لايقاظ المسيو دربلاى من نومه العميق عادة ٠ وعلى هذا لن أغيب عنك سـوى خمس عشرة دقيقة ٠ والآن عدنى وعدا شريفا بأنى سأجدك هنا حين أعود اليك »

وهنا تنهد الوزير ثم قال : « أعدك بذلك يا سيدى ! » ٠ ثم لبث واقفا ينظر الى قائد الفرسان حتى غادر الغرفة وأغلق بابهـا وراءه ، ثم سرعان ما أخرج من جيبه بضعة مفاتيح وفتح بها خزائن صغيرة سرية فى بعض قطع الأثاث ، وأخذ يبحث عن أوراق معينة وما لبث قليـلا حتى قال لنفسه : « لعلى تركتها فى (سان ــ مانديه) ، وهـذا من سوء الحظ » ٠ ثم أخرج بضعة خطابات وعقود كانت فى احدى تلك الخزائن ٠ وقذف بها كلها فى النار المشعلة بالمدفأة ٠ وبقى ينظر اليها حتى اطمأن الى احتراقها تماما ثم ارتمى على احدى الارائك بالغرفة وراح يفكر الى أن عاد اليـه دارتانيان فالتفت اليه وسأله : « هل قابلت المسيو دربلاى ؟ »

فقـال وهو ينظر الى المدفأة ويستنشق رائحة الورق المحترق : « حقا يا صاحب الفخامة ، لابد أن يكون المسيو دربلاى شغوفا بالرياضة ليلا ،

فأنا لم أجده فى غرفته • ولعله ينظم الأشعار الآن فى ضوء القمر بالحديقة مع بعض شعرائك الأعزاء ! »

فصاح فوكيه مندهشا : « ماذا تقول ؟ أليس أراميس فى غرفته ؟ »

فقال دارتانيان : « اذا كان فيها فلا شك أن عنده من الاسباب ما جعله لا يجيب ندائى ! »

فقال له الوزير : « لعلك لم تناده بصوت مرتفع »

فابتسم وقال : « أكنت تتوقع يا صاحب الفخامة أنى سأناديه بصوت يوقظ جميع من فى القصر ، فأعطى بذلك فرصة للمسيو كولبير لكى يقول انى تركت لك وقتا تحرق فيه أوراقك ؟! »

وغمغم فوكيه وهو يحملق فيه بدهشة : « ماذا ؟•• أية أوراق تعنى يا سيدى ؟ »

فقال دارتانيان هادئا : « هذا على الأقل ما كنت أفعله لو أننى كنت فى مكانك ! »

فأيقن الوزير أن قائد الفرسان تركه عامدا ليتيح له تلك الفرصة ، ونظر اليه شاكرا وقال : « حسنا يا مسيو دارتانيان • أتظن أن أراميس لم يسمع نداءك ؟ »

فقال : « الواقع أن أراميس اما أن يكون قد غادر غرفته ، واما أنه تعمد ألا يجيب ندائى لسبب أجهله ، ولعلك تجهله أنت أيضا برغم كون أسقف فان من أتباعك ! »

فتنهد فوكيه وقام من مقعده ومشى بالغرفة بضع خطوات، ثم عاد فجلس مكتئبا ، وهنا قال له دارتانيان وهو يرقبه فى أسف وعطف : « لقد رأيت فى حياتى كثيرين يقبض عليهم ، ورأى ألا تكتئب هكذا• تصور أن أصدقاءك يرونك على هذه الحال فماذا يقولون ؟ »

فأجاب فوكيه وهو يبتسم ابتسامة حزينة : « يا مسيو دارتانيان •• انك لا تفهمنى • انى أبدو حزينا لان أصدقائى لا يروننى• اننى لا أستطيع أن أعيش بمنأى عن أصدقائى ، وقد مضيت حياتى فى اصطناع الاصدقاء ومساعدتهم ورفعهم • وفى وقت الرخاء كانت أصواتهم بمثابة موسيقى تمتدحنى أنغامها • وكلما مسنى ضر كانت تلك الاصوات تنسجم مع خفقات قلبى ، بل طالما سخروا من شبح الفقر الذى يتهددنى وداعبوه فى أشعارهم • وهذا ما جذبنى اليهم• انى أرضى الفقر وأقبله لأنه غير العزلة وغير النفى أو السجن • وهل ترانى أعد فقيرا ولى من الاصدقاء أمثال الشعراء : بليسون ، ولافونتين ، وموليير ؟• ولى صديقة وفية مثل ••• آه لو علمت ما أشعر به من الوحدة والعزلة فى هذه الساعة ! »

فتأثر دارتانيان وقال له : « لقد قلت لك من قبل : انك تغالى فى تقدير

الأمر ، وصدقنى أن الملك لا يزال يحبك ، برغم أن المسيو كولبير يبغضك ويتمنى لك الخراب ! »

فابتسم فوكيه ساخرا وقال : « الخراب ؟• لقد أصابنى الخراب قبل أن يأتينى به يا سيدى ! »

وبدت الدهشة فى وجه دارتانيان ، وأخذيتأمل فيما حواليه فى الغرفة، فأدرك فوكيه ما يدور بخاطره وقال له : « لعلك تقول فى نفسك : « ان قصر (فو) هذا يساوى وحده ثروة كبيرة » • والواقع أنه كذلك ، ولكنى لن أستطيع بيعه يا عزيزى ، لأنه لا يوجد فى فرنسا من يشتريه حتى بعشر ما كلفنى تشييده وتأثيثه • كما أننى لا يمكن أن أبيعه ، ولكنى أهبك اياه اذا شئت ! »

فقال دارتانيان : «تهبه لى أنا ؟••بل قدمه هدية للملك ، فذلك خيرلك»

فابتسم الوزير وقال : « ان الملك لن يحتاج الى أن أهديه اليه ، لأنه يستطيع أن يستولى عليه متى راقه ذلك ، ولهذا أوثر أن أرى القصر يتهدم• أتدرى يا مسيو دارتانيان انه لو لم يكن الملك فى بيتى الآن لكنت آخذ هذا الشمعدان وأشعل به صندوقين مملوءين بالألعاب النارية محفوظين بالمخزن هناك لكى أحيل هذا القصر الى رماد ؟! »

فقال دارتانيان فى هدوء : « على أى حال ، ما كنت تستطيع أن تحرق الحدائق وهى أجمل ما فى القصر ! »

ثم عاد فوكيه يقول : « ومع هذا ما أظن أنى كنت أستطيع حرق قصر فو هذا أو تدميره !•انه ليس ملكا لى الا من حيث الاستمتاع به لقاء ما أنفقت فى تشييده • أما من حيث الخلود فهو ملك لمن صنعته أيديهم من كبار المهندسين والفنانين أمثال : لبرون ولنوتر وبليسون وليفان ولافونتين وموليير • ان فو ملك للاجيال القادمة يا مسيو دارتانيان وليس ملكا لى ! »

فقال له دارتانيان : « هذه فكرة جميلة جديرة بالمسيو فوكيه ، ولا شك أنك أنت أيضا ملك للأجيال القادمة ، وعلى هذا لا حق لك فى أن تقلل من قيمتك ، وعليك أن تتلقى كل ما تجىء به الظروف بما هو جدير بك ، هناك مثل لاتينى يقول : (ان الخاتمة تتوج العمل) • وأنا كجندى يسرنى أن أعمل بهذا المثل ، وأن أحرص حين أسقط على أن أسقط واقفا ! »

وهنا قام فوكيه من مقعده وعانق دارتانيان باحدى ذراعيه وضغط يده باليد الاخرى ثم قال له : « هذه موعظة حسنة يا مسيو دارتانيان ، ولابد أن لى مكانة عندك »

فقال دارتانيان : « انها موعظة جندى ، أما مكانتك عندى فهى فوق كل ما تظن ! »

ففكر فوكيه هنيهة ثم قال له : « أين يمكن أن يوجد المسيو دربلاى ؟• هل لى أن أرجو منك أن تبعث فى طلبه ؟ »

فقال : « انك لن ترجو منى ذلك لأنى لن أفعله حتى لا يعلم به أحد ،

وقد يكون في ذلك احـــراج لأراميس ، ان لم يدخله في نكبتك مع أنه لا شأن له بها ! »

فقال فوكيه : « اذن أنتظر حتى يطلع النهار ؟ »

فأومأ موافقا وقال : « هذا هو الأفضل ، واني على استعداد لتنفيذ كل ما تأمر به »

فقال الوزير : « شكرا لك يامسيو دارتانيان ، انني لا أريد الا أن تكون صريحا معي ، فتخبرني بما أمر به الملك في شأني »

فتردد قائد الفرسان قليلا ثم قال : « ان موقفك صعب يا سيدى ، من حيث انك تحت سقف بيتك . وثق على كل حال بأني لا أكن لك الا كل الاحترام والتقدير . ولولا هذا ما كان أسهل علي من أن آتي الى غرفتك هذه بعد انصراف أصدقائك ، أو بعد القبض عليهم حين يخرجون واحـــدا اثر واحـــد ، ثم أفاجئك وأضع يدي عليك وأحجزك حتى يتناول الملك طعام فطوره في الصباح. وفي هذه الحالة أكون أيضا قد تفاديت كل ضجة ممكنة . ولكن في هذه الحالة لا يكون هناك تحذير للمسيو فوكيه ولا مراعاة لشعوره . وما أحسب أنك ترضى عن مثل هذه الخطة »

فقال له الوزير : « حقا .. انها تجعلني أرتجف !. ولو أن ذلك حدث لكان فيه الموت المحقق لي تأثرا بالخزي والعار ، ولهذا أكرر لك شكري »

فقال دارتانيان : « انك نبيل حتى في عرفانك بالجميـــل ، على أني في الواقع لم أفعل ما يستحق ... »

فقطع كلامه قائلا : « بل الشكر كله لا يفي بحقك يا مسيو دارتانيان ! »

فقال : « حسنا يا صاحب الفخامة .. وما دمت راضيا عن موقفي ، وقد استعدت رباطة جأشك بعد الصدمة التي هيأتك لها قدر امكاني ، فلنمض الساعات القليلة الباقية في هدوء . انك متعب وتحتاج الى ترتيب أفكارك ، ولهذا أرجو منك أن تأوي الى سريرك لكي تنام أو تتظاهر بالنوم . أما أنا فسأنام على هـــذا الكرسي ذي الذراعين ، ومتى نمت فلن يوقظني قصف المدافع ! »

فابتسم فوكيه ، بينما استطرد دارتانيان قائلا : « عـلى أنني يوقظني مثلا فتح باب سرى ، أو خروج أحد من الغرفة أو دخول أحد فيها .. واذن تستطيع يا سيدى أن تتحرك في الغرفة كما تشـــاء ، وأن تكتب أو تمحو ما هو مكتوب »

فقال الوزير : « انك ولا ريب أكثر الناس ذكاء ومجاملة . ولست آسفا على شيء الا على أني لم أعرفك على حقيقتك الا بعد فوات الوقت ! »

فتنهد دارتانيان أسفا ثم جلس على كرسيه بينما تمدد فوكيه على سريره وأخذ يفكر في حالته . وبقيا هكذا حتى طلع الفجر . ولم يكن هنـــاك أي صوت يعكر سكون القصر، أما في خارجه فكان حراس الشرف والديدبانات يؤدون واجبهم رائحين غادين !

وفاء وزير

بينما كان الملك لويس الرابع عشر يحاول أن يحطم قضبان النـافذة في زنزانته في سجن الباستيل ، كان فيليب شقيقه التوأم الذي غادر هـذه الزنزانة نفسها منذ أيام قد استقر على السرير الوثير الذي أعد لنوم الملك في قصر المسيو فوكيه ، وما لبث قليلا حتى هبط منه ووقف بجانبه يتأمل في غبطة ما يحيط به من مظاهر البذخ والترف ، وأخذ يفكر في الدور الذي عليه أن يمثله

وامتقع وجهه حين وقعت عينه فوق السرير على منديل كان أخوه الملك السجين قد تركه فوقه حين هبط به الى القبـو ، وقال فيليب يحـدث نفسه : « انني الآن أواجه المستقبل المقدر لي . وشدما أخشى أن يكون شرا من الأسر الذي كنت فيه ، لأن هذه السلطة التي اغتصبتها بدأت تزعج ضميري »

وتردد حينا في أن يعود الى السرير ، أو يمسك بالمنديل الذي عليه شعار أخيه ، لكنه ما لبث أن قال لنفسه : « لماذا لا أقتدي بالمسيو دربلاي الذي لا يفكر الا في نفسه ولنفسه ويحسب نفسه رجلا شريفا ما دام لا يضر غير أعدائه وحدهم ؟. ان هذه السلطة التي آلت الي كان ينبغي أن تكون لي منذ سنين لولا أن وقف أخي في طريقي وساعدته أمي بلا شفقة ولا رحمة ، وهذا المنديل الموشى بشعار فرنسا ما كان لويس يستأثر به لو أنني تركت بالمهد ولم أذهب ضحية تلك المؤامرة الدنيئة ! »

وهكذا عاد فيليب الى السرير فتمدد فيه ، متأملا في اعجاب تاج فرنسا المعلق فوقه تحمله ملائكة بأجنحة من ذهب. على أن الانسان الذي يتوق الى أن ينام في عرين الأسد ، لا يكون في مقدوره غالبا أن ينام فيه نوما هادئا .. وهكذا بقي فيليب يقظان يصغي الى كل صوت ، وقلبه يخفق من توقع اى خطر . غير أنه كان واثقا من قوة ارادته التي تؤيدها عزيمة أقوى ، ولما اقترب الصبح ، لم يدهشه ان ظهر أراميس فجأة أمامه في الغرفة فقـد كان يرتقب حضوره ، وسرعان ما هتف قائلا : « عم صـباحا يا مسيو دربلاي »

فقال أراميس : « عم صباحا يا مولاي ، لقد تم كل شيء كما نريد ! »

فسأله : « الم يبد أية مقاومة ؟ » . فأجاب بقوله : « لم يقاوم الا بالدموع والتوسلات ثم استسلم في ذهول ! »

فقال الأمير : « ومحافظ الباستيل ؟.. الم يبد أى ارتياب ؟ » . فقال اراميس : « كلا ! وقد اتخذت الأهبة لكل أمر . وبعد بضعة أيام ، أو ربما اقرب من ذلك ، سنخرج السجين من سجنه ونرسله الى مكان منعزل فى الريف ، لن يعود منه مدى الحياة ! »

وعندئذ نظر كل منهما الى الآخر نظرات ذات معنى ، ثم اراد فيليب ان يغير موضوع الحديث فقال : « والمسيو دى فالون ؟ »

فقال اراميس : « سيتشرف اليوم بمقابلة جلالتك ليهنئك على نجاتك من الخطر الذى واجهك به ذلك المتآمر !.. وحينئذ تمنحه جلالتك الدوقية التى يحلم بها ، وبذلك لا يلبث قليلا حتى يقتله فرط الفرح ، فافقد بذلك زميلا قديما وصديقا حميما ، وفى الوقت نفسه يدفن معـه السر الذى وقف عليه ! »

وكان الفجر قد انبثق فقال أراميس : « ان جلالتك قبل ان تأوى الى فراشك قررت أن تفعل شيئا عند طلوع الفجر »

فقال فيليب : « نعم يا عزيزى ، لقد أمرت قائد الفرسان أن يوافينى عند طلوع الفجر . وها أنذا أسمع وقع خطاه فى الردهة . انه محافظ على المواعيد حقا ، وسنبدأ العمل الآن »

فقال له أراميس : « ان دارتانيان لا يعرف شيئا ولم ير شيئا ، ولذلك لا يداخله اى ارتياب فيما حدث . ولكنه اذا كان أول انسان يدخل هـذه الغرفة فى هذا الصباح فانه لا بد سيشتبه فى شىء ما فيشغل نفسه به . وقبل ان نسمح لدارتانيان بدخول هذه الغرفة يجب أن نجدد هواءها تماما أو نسمح بدخول عدة أشخاص فيها حتى تختلط الرائحة على أدق أنف فى الملكة ! »

فسأله فيليب : « لكن كيف ابعده مع أنى أمرته بالمجىء عند الفجر ؟ »

فقال أراميس : « سأتولى هذا الأمر وسأبدأ بضربة تذهله ! »

وكان دارتانيان قد وصل الى الباب ونقر عليه معلنا قدومه ، بعد أن ترك المسيو فوكيه فى غرفته ينتظر عودته اليه بما يأمر الملك فى شأنه ، كما ينتظر أن يبعث اليه بأراميس اذا وجده فى طريقه الى جناح الملك ، بعد أن تعهد الوزير بالا يحاول الفرار

ولم يدهش دارتانيان حين فتح باب غرفة الملك عقب نقراته الخفيفة ، فقد كان على يقين من أن الملك لن يستطيع النوم نظرا الى حالة الهياج التى تركه فيها أمس . ولكنه ما كاد يهم بالتحية العسكرية للملك عقب فتح الباب ، حتى فوجىء بأن الذى فتحه ليس هو الملك ، ولكنه أراميس بقامته المديدة وملامحه الهادئة . فصاح قائلا : « أراميس ؟!.. اكنت هنا اذن ؟ »

فرد عليه الأسقف قائلا فى برود : « عم صباحا يا عزيزى دارتانيان . ان

صاحب الجلالة يرغب اليك ان تعلن انه لا يزال نائما بعـد ان تعب الليلة الماضية »

ولم يستطع قائد الفرسان أن يفهم سر وجود أراميس فى غرفة الملك ، ولاسيما انه لم يكن من المقربين اليه

واستطرد أراميس فقال : « أرجو يا كابتن الا تدع أحدا يدخل عنـد الملك فى هذا اليوم ، الا من حدد له موعد للمقابلة »

فقال دارتانيان : « يا سيدى الأسقف ، ان جلالة الملك حدد لى موعدا هذا الصباح »

وفى هذه اللحظة نفسها سمع دارتانيان صوتا ينبعث من داخل الغرفة قائلا : « فيما بعد يا مسيو دارتانيان ! » . فلم يشك فى أنه صوت الملك لشدة التشابه بين صوت الملك وصوت شقيقه التوام . وهكذا لم يسع دارتانيان الا أن انحنى وهم بالانصراف وهو ما زال فى دهشة . ثم قال له أراميس وهو يبتسم : « أما جواب ما جئت تسأل الملك عنه فاليك يا عزيزى دارتانيان أمرا من صاحب الجلالة ارجو العناية بتنفيذه لانه يتعلق بالمسيو فوكيه ! »

فتناول دارتانيان الأمر وقراه وما لبث أن تمتم قائلا : « يفرج عنه ؟ ! »

وحدث دارتانيان نفسه قائلا : « هذا هو سبب وجود أراميس عنـد الملك ، ترى كيف اكتسب هذه الحظوة الكبيرة عنده ، حتى أغراه بالافراج عن المسيو فوكيه ، بل حتى صار واسطة لابلاغ أوامر الملك ؟ »

وانحنى دارتانيان تحية لأراميس ، ثم هم بالانصراف ولـكن اراميس قال له :

ـ انتظر يا عزيزى ، سآتى معك الى المسيو فوكيه ، فانى أريد أن أكون شاهدا على سروره !

وهنا قال له دارتانيان : « آه يا أراميس ! شدما حيرتنى ! »

فابتسم هذا وقال له : « والآن أحسبك تفهمنى ؟.. »

فقال : « بالطبع افهمك كل الفهم ! » . ثم قال لنفسه : « كلا ! لم افهم شيئا بعد ، ولكن على اى حال ها هو ذا أمر الافراج عن المسيو فوكيه » . ثم سار مع أراميس الى الغرفة التى حجز بها الوزير . وكان هذا ينتظر فى قلق ، وقد تخلص من خدمه وأصدقائه الذين كانوا يعرفون سـاعة الاستقبال عنده فجاءوا لتحيته والاطمئنان على صحته . وقد كتم عنهم المركز الذى هو فيه والخطر الذى يهدده ، وانما صار يسأل كل واحد منهم من خلف الباب : « أين أراميس ؟ » . ولما رأى دارتانيان يعود اليه ، ومن ورائه أراميس ، لم يستطع أن يخفى سروره برؤية صديقـه الأسقف ، وكأنما وجد فيها عوضا عما قاساه منذ الليلة الماضية . وكان أراميس ساكتا

جاد الهيئة فقال فوكيه لدارتانيان : « ها قد أحضرت معك المسيو دربلاى ؟ ! »

فقال دارتانيان : « أحضرت معى شيئا ادعى الى السرور يا صاحب الفخامة ! »

فسأله فى لهفة : « ماذا أحضرت ؟ » . فأجاب : « الحرية ، وبأمر من الملك ! »

فاستعاد فوكيه سمت الرزانة ، ونظر الى اراميس نظرة تساؤل فقال له دارتانيان : « أجل يا صاحب الفخامة ، ان الفضل فى ذلك لأسقف فان ، فهو الذى استطاع أن يغير رأى الملك ! »

فشعر فوكيه بالمهانة لهذا الفضل أكثر من شعوره بعرفان الجميل ، ولم يقل شيئا

ثم قال دارتانيان لاراميس : « ألا تؤدى لى خدمة يا صديقى القديم ؟ »

فقال أراميس : « أى شىء تريده يا صديقى ؟ »

قال : « أريد شيئا واحدا فقط ، هو أن تخبرنى كيف استطعت أن تكسب الحظوة عند الملك ، انت الذى لم تحدثه طول حياتك سوى مرتين ؟ »

فابتسم اراميس وقال : « لست أستطيع ان أخفى شيئا على صديق مثلك . انك تظن أنى لم أقابل الملك الا مرتين ، ولكن الحقيقة اننى قابلته أكثر من مائة مرة غير أننا كتمنا نبأ هذه المقابلات عن الجميع ، وهذا كل ما فى الأمر ! »

ثم التفت اراميس الي فوكيه ، وكان لا يقل دهشة عن دارتانيان ، وقال له : « يا صاحب الفخامة .. ان الملك طلب الى أن أخبرك أن مودته لك أشد منها فى أى وقت مضى ، وان المهرجان الجميل الذى أعددته له بهذا السخاء قد اثر فى نفسه تأثيرا عميقا »

وشعر دارتانيان بأن الوزير والأسقف يريدان أن يتحدثا على انفراد ، فهم بالانصراف غير أن فضوله تغلب على أدبه ولطفه فظل فى مكانه ، وعندئذ التفت اليه أراميس وقال له بصوت هادىء : « أرجو يا صديقى الا تنسى أمر الملك بشأن من يريد استقبالهم صباح اليوم حين يصحو من نومه »

وكانت هذه الكلمات واضحة المعنى فانحنى دارتانيان محييا المسيو فوكيه ثم أراميس وخرج من الغرفة وحينئذ أسرع فوكيه فأوصد الباب ، ثم عاد الى الأسقف وقال له : « يا عزيزى دربلاى ، أحسب انه قد حان الوقت لكى تشرح لى ما حدث ، لأنى فى الحق لم أفهم شيئا »

فجلس أراميس وقال له : « سأوضح لك كل شىء . لكن الا تخبرنى اولا : لماذا أمر الملك بالقبض عليك ؟ »

فقال الوزير : « اعتقد أن الغيرة هى السبب ، فان نجاح المهرجان أفقد

كولبير عقله فيما يظهر ، فأمعن فى الدس والوشاية ، ولعله استغل (بيل ـ ايل) ليغضب على الملك »

فابتسم أراميس وقال : « ان (بيل ـ ايل) لا شأن لها بهذا الموضوع ، هل تذكر الأوراق التى فقدتها وكانت خاصة بالملايين الثلاثة عشر التى سددتها لرئيس الوزراء الراحل مازارين ؟. ان كولبير اتهمك باختلاس هذه الملايين من أموال الدولة ! »

فتمتم الوزير قائلا : « رباه ! » . بينما واصل اراميس كلامه قائلا : « ليس هذا كل ما فى الأمر !. هل تذكر أيضا الخطاب الذى كتبته الى الآنسة دى لافاليير ؟ »

فقال الوزير منزعجا : « ماذا ؟. هل وقع هذا الخطاب فى يد كولبير ؟ »

فقال أراميس : « وأعطاه للملك أمس ليثبت له انك خنته هو نفسه بمحاولة اغواء خليلته ! »

فعض فوكيه على شفتيه من الغيظ وقال : « اذن كيف عفا الملك عنى بعد هذا كله ؟ ! »

قال : « لم نصل بعد الى هذه النقطة .. ان الملك قد علم أنك اختلست أموالا عامة . ولم ير المستندات التى تنفى وقوع هذا الاختلاس . كما أنه قرأ الخطاب الذى كتبته الى دى لافاليير فلم يبق له شك فى صحة كل ما بلغه عنك ، وهكذا ترى الى أى حد بلغ غضبه عليك ! »

فقال فوكيه : « هذا مفهوم ، ولكن ما الذى جعل الملك يحجم عن البطش بى برغم ذلك كله ؟ »

فقال اراميس فى هدوء : « ان الملك لم يحجم عن البطش بك ! »

فسأله متعجبا : « كيف ؟.. أليس قد صفح عنى ؟ وهو الذى كلفك ان تقول لى ما قلته ؟ »

فسكت أراميس قليلا ثم قال : « الواقع يا عزيزى ان الملك لم يكلفنى أن اقول لك أى شىء ! »

فبدا الانزعاج فى وجه الوزير وقال له : « انك تقتلنى بهذه الألغاز يا دربلاى .. وانى أستحلفك بصداقتنا وبالحلف الذى بيننا ، وبكل ما هو عزيز عليك فى العالم ، أن تخبرنى فى صراحة كيف استطعت أن تجعل لويس الرابع عشر يصفح عنى ؟. انى أعرف أن الملك لم يكن يميل اليك ، وصحيح انك رجل ذو ذكاء خارق ، ولكن هناك سرا ولا شك فى هذه المسألة ، فهل لك أن توضح لى هذا السر ؟ »

فسكت أراميس لحظة ليجمع شتات فكره ثم قال : « أتذكر ميلاد لويس الرابع عشر ؟ أعنى ألم تسمع بشىء معين عن ميلاده ؟ »

فقال فوكيه : « أتقصد انه لم يكن حقا ابن لويس الثالث عشر ؟ »

فقال اراميس : « هذا لا يهمنا ولا يهم المملكة . انه ابن أبيه كما يقول

القانون الفرنسى ، ولكنى اقصد هل سمعت شيئا غريبا بشأن ميلاده ؟ »

فسكت الوزير وبقى ينظر حائرا الى اراميس ، وواصل هذا كلامه فقال :
فقال :

— من هنا يبدأ السر الذى أكتمه . ان الملكة لم تلد طفلا واحدا بل وضعت توامين !

فقال فوكيه : « أعرف هذا ، وقد مات التوأم الثانى »

فقال اراميس : « كلا !. كل ما هناك ان لويس الثالث عشر خشى لضعفه وتعلقه بالخرافات ان يقوم نزاع بين الأخوين التوامين لتساوى حقهمـا فى وراثة العرش ، ولذا أزاح احد التوأمين من الطريق والغى وجوده ، فجلس أخوه على العرش وحده وكنت أنت وزيره بينما بقى الآخر — وهو صديقى — مغمورا فى عزلة عن العالم ، اذ نشأ فى الريف ثم زج به فى قلعة الباستيل ! »

فصاح الوزير قائلا : « أهذا ممكن ؟ » . ومضى أراميس فى كلامه قائلا :
« نعم يا عزيزى فوكيه . . ان احد التوأمين كان أسعد الناس ، وكان الآخر أشقاهم وأتعسهم ، ولكن العناية الالاهية تداركته اخيرا ! »

فاشتد اهتمام فوكيه وسأله : « كيف كان ذلك ؟. ان هذا لأمر عجيب حقا أيها العزيز ! »

فقال أراميس : « أنت توافقنى طبعا على أن وراثة العرش كانت حقا ثابتا للتوامين معا لأنهما بمثابة شخص واحد فى جسدين ، وقد حرم أحدهما من حقه هذا ظلما وعدوانا ، ثم شاء الله فبعث لهذا المظلوم نصيرا يرد اليه حقه المغتصب . وأحسبك تقرنى على أن من الاغتصاب أن يستحوذ انسان على حق كامل فى الميراث مع أن له نصف هذا الحق فقط ؟ »

فقال فوكيه : « أجل انه اغتصاب لا شك فيه ، فامض فى حديثك »

فقال اراميس : « فى هذه الحالة أستمر فى كلامى . لقد شاءت ارادة الله ان يكون لذلك الغاصب وزير أول ذو كفاية عالية وطبيعة سمحة »

فقال فوكيه : « حسنا !. . لقد اعتمدت على اذن لكى أصلح الظلم الذى وقع على ذلك الأمير البائس الشقيق التوام للملك لويس الرابع عشر ؟ »

فقال له أراميس : « كلا . ليس الأمر كمـا تظن . ان الملك الغاصب غضب على وزيره الاول فجأة فصار هذا مهددا بالخراب ويفقد حريته وربما يفقد حياته نفسها ، كل ذلك من جراء دسائس ووشايات استمع لهـا الملك . ولكن شاء الله أن يكون للمسيو فوكيه صديق مطلع على ذلك السر الخطير ، وأن يكون لذلك الصديق من القوة والشجاعة ما جعله يبوح بذلك السر بعد أن كتمه فى مكنون صدره عشرين عاما ! »

فقال فوكيه : « اننى افهمك الآن . لقد ذهبت الى المليك حين علمت بنبأ القبض على ، فلما رفض الافراج عنى هددته بذلك السر وانذرته بأن تفشيه، وبذلك قبل تحت تأثير الخوف ما أباه بدافع المروءة . أليس الامر كذلك ؟ ! »

فقال اراميس : « انك لم تفهم شيئا بعد ، لأنك تغفل أهم نقطة ارتكزت عليها فى بدء حديثى !. . ولو أنك كنت منطقيا فى تفكيرك الآن لأدركت أن افشاء هذا السر للملك لا يمكن ان تكون نتيجته أقل من قتـل مفشيـه أو الزج به فى السجن الى الأبد ! »

وكان الأسقف يتكلم بمثل الحماسة التى كانت له حين كان أحد الفرسان الأربعة المشهورين ، فأحس فوكيه رعدة بالرغم منه . ثم استطرد أراميس فقال : « ما كان لى أن أعرض نفسى لهذه النتيجة ، وهل تظن أن الملك الذى ابغضك وقرر الانتقام منك لأنك فيما يعتقد اختلست أمواله أو كتبت الى المرأة التى يحبها ، لن يكون أقل غضبا وانتقاما ممن يهدد تاجه وشرفه ! »

فقال له فوكيـه : « اذن انت لم تكشف للملك عن ذلك السر ؟. . ماذا فعلت اذن ؟ »

فقال أراميس : « حسنا !. . لقد وصلنا الى بيت القصيد يا صاحب الفخامة » . ثم ادار عينيه فى الغرفة ليستوثق من انه وحده مع الوزير فلما اطمأن الى ذلك جلس بجانبه واستأنف كلامه قائلا :

— نسيت أن أخبرك بشىء عجيب عن لويس الرابع عشر واخيه التوام . . ان الخالق جعلهما متشابهين الى حد يعجز معه اى انسان عن تمييز أحدهما من الآخر . ولعل أمهما نفسها لا تستطيع ذلك ! أجل يا عزيزى فوكيه . ان لكل منهما مثل ملامح وجه الآخر وقامته وصوته !

فتمتم فوكيه قائلا : « ولـكن افكارهما وحظ كل منهما من الذكاء ؟ ومعرفتهما بالحياة البشرية ؟ »

فقال اراميس : « اعتقد يا صاحب الفخامة أن سجين الباستيل البائس المظلوم يكون أنبل واذكى من تولوا ملك فرنسا منذ بدء تاريخها ! »

فأخفى فوكيه وجهه براحتيه ، بينما اقترب منـه أراميس وقال له : « هناك شىء آخر لم يتشابها فيه . شىء يخصك انت يا عزيزى فوكيه !. . ان ذلك الآخر السجين لا يعرف المسيو كولبير ! »

فرفع فوكيه راسه بغتة وقال له : « انى أفهم ما ترمى اليه . انك تعرض احدى تلك المحاولات التى قد تغير مصائر الممالك ؟ ! »

فأومأ أراميس موافقا وقال : « ومصير وزير الماليـة كذلك يا صاحب الفخامة ! »

فقال فوكيه : « فلنختصر يا أراميس . . انك تعرض على الموافقة على استبدال ابن لويس الثالث عشر الذى هو الآن سجين الباستيل بابنه الآخر الذى ينام الآن فى غرفة مورفيوس اله النوم والأحلام . فهل فكرت فى اننا للوصول الى هذه الغاية ينبغى لنا ان نجمع النبلاء والقساوسة وممثلى الشعب ، وفى اننا اذ نخلع الملك الحاكم نثير فضيحة تزعج الملك الراقد فى

قبره ونضحي حياة الملكة آن وشرفها ، وحياة امرأة أخرى هي ماريا تيريزا ؟ »

فقال أراميس بتؤدة : « لست أجد في كل ما قلته كلمة واحدة ذات فائدة »

فدهش الوزير وقال : « ماذا تقول ؟ . أرجل مثلك يأبى أن يرى النواحي العملية في هذا الأمر الجلل ؟. اينحصر تفكيرك في سرور كسرور الاطفال يبعثه في نفسك وهم سياسي ، وتغفل عن التفكير في امكان تنفيذه أو استحالته ؟. اتغفل عن الحقيقة والواقع ؟ »

فقال له أراميس : « يا صديقي العزيز .. ماذا تفعل العناية الالهية لابدال ملك بآخر ؟ »

قال : « انها تبعث اداتها لقبض روح فريستها ثم تجلس الملك الآخر على العرش الذي خلا من صاحبه . أليس الأمر كذلك ؟ »

فابتسم أراميس وقال : « لا مجال لذلك يا صاحب الفخامة . انك تخرج عن الموضوع . من ذا الذي ذكر موت لويس الرابع عشر ؟ أو تحدث عن الاقتداء بالعناية الالهية في تنفيذ أوامرها ؟. كلا !. اني أريد منك ان تفهم أن الله يحقق مشيئته دون خلل أو اضطراب ، ودون اثارة أي تعليق أو أية ملاحظة ودون مشقة أو اجهاد ، وأن تدرك أيضا أن الناس الذين أوتوا الهاما ربانيا ينجحون كما تنجح العناية الالهية في كل ما يحاولونه وما يباشرونه ! »

فسأله فوكيه : « ماذا تعني بذلك ؟ » . فأجاب قائلا : « أعني يا صديقي أنه اذا كان هناك أي خلل أو اضطراب أو فضيحة بل أي مجهود في استبدال السجين بالملك فإني أتحداك أن تبرهن عليه ! »

فشحب وجه فوكيه حتى صار كوجوه الأموات وصاح في دهشة : « ماذا تقول ؟ ! »

فقال له أراميس في هدوء : « اذهب الى جناح الملك ـ انت الذي تعرف السر الآن ـ وأتحداك أن تلحظ أن سجين الباستيل هو النائم الآن في سرير أخيه ! »

فتمتم فوكيه وقد تولاه الفزع الأكبر : « ماذا ؟. وأين الملك ؟ ! »

فأجاب أراميس بأرق لهجة : « أي ملك ؟. الملك الذي يبغضك أم الملك الذي يحبك ؟. ان ملك الأمس قد ذهب ليحتل مكان أخيه بالباستيل ! »

فصاح فوكيه في جزع : « رباه !. ومن الذي أخذه الى هناك ؟ »

فقال أراميس هادئا : « أنا الذي توليت هذه المهمة ، وقد نقلته بأبسط طريقة الى الباستيل ليلة امس ، وبينما كان يهبط الى الظلام كان الآخر يرتفع الى النور . وما أحسب أنه حدث أي اضطراب من جراء هذه الطريقة . ان وميض البرق الذي لا يصحبه رعد لا يوقظ أحدا ! »

فصاح فوكيه كأنما تلقى ضربة قاتلة وقال : « انت فعلت هذا ؟ ! »

ـ أجل وببراعة تامة . ما رأيك في ذلك ؟

ـ أأنت أنزلت الملك عن عرشه ؟ وسجنته أيضا ؟!

ـ أجل لقد تم ذلك !

ـ ومثل هذا العمل قد ارتكب هنا في فو ؟.. في بيتي ؟!

ـ أجل هنا في فو .. في غرفة مورفيوس اله النوم ، لكأنما شيدت خصيصا توقعا لهذا العمل !

ـ ومتى حدث ذلك ؟

ـ بين الساعة الثانية عشرة والساعة الاولى صباحا !

فأتى فوكيه بحركة كأنه يريد أن ينقض على أراميس ولكنه تمالك نفسه وقال بصوت مخنوق : « هنا في فو ؟! وتحت سقف بيتي ؟! »

ـ أعتقد ذلك ، لأنه لا يزال بيتك وأحسبه سيظل بيتك أيضا .. لان المسيو كولبير لن يستطيع أن يسلبك اياه الآن !

فصاح فوكيه : « أتحت سقف بيتي ارتكبت هذه الجريمة ؟ »

فقال أراميس بذهول : « الجريمة ؟!.. أتسمي ذلك جريمة ؟ »

فاستمر الوزير في كلامه قائلا : « أجل هذه الجريمة الشنعاء !. هذه الجريمة الممقوتة التي تجاوز الاغتيال في بشاعتها . هذه الجريمة التي تصم اسمي بالعار الى الأبد وتجر على لعنة الاجيال القادمة ! »

فقال له أراميس مترددا : « انك لست في وعيك يا سيدي . انك تتكلم بصوت مرتفع . احذر ! »

فقال فوكيه : « بل سأصيح بأعلى صوتي حتى يسمعني العالم كله !. لقد لوثت شرفي اذ ارتكبت هذه الخيانة الدنيئة ، وأتيت هذا الجرم الشائن، نحو ضيف كان ينام هادئا مطمئنا في بيتي . آه . الويل لي ! »

ـ بل الويل للرجل الذي أراد لك الخراب وربما الموت نفسه وهو تحت سقف بيتك . هل نسيت ذلك ؟

ـ لقد كان ضيفي . وكان مليكي !

فقام أراميس وقد احمرت عيناه وارتعشت شفتاه وقال له : « هل أنا أحدث رجلا مالكا قواه العقلية ؟ »

فقال له فوكيه : « انك تحدث رجلا شريفا . رجلا لا يمكن الا أن يحول بينك وبين الاستمرار في هذه الجريمة ! »

وحاول أراميس أن يسكته قائلا : « انك مجنون اذ ترفع صوتك هكذا !. » . ولكن الوزير استمر قائلا وقد اشتدت حدته : « نعم انك تحدث رجلا يؤثر أن يموت أو يقتلك على أن يدعك تكمل هذا العار الذي جلبته عليه ! »

واستل فوكيه سيفه الذى كان دارثانيان قد وضعه عند رأس سريره وأمسكه بيده فى حزم . فقطب أراميس ومد يده الى صدره كأنما يبحث عن سلاح . ولم تفت فوكيه هذه الحركة وهو الذى يفيض نبلا وكبرياء فقذف بسيفه بعيدا واقترب من أراميس حتى لمس كتفه وقال له : « يا سيدى .. انى أفضل الموت على الحياة بعد هذا العار ، واذا كانت لديك بقية من الشفقة على فأرجو أن تنهى حياتى ! »

وبقى أراميس ساكتا بلا حراك ، فعاد فوكيه يقول : « مالك لا تجيب؟. تكلم يا سيدى .. تكلم يا دربلاى »

فرفع أراميس رأسه برفق وبدا فى عينيه شعاع من الأمل وقال : « فكر يا صاحب الفخامة فى كل ما ينتظرنا .. ان الملك لا يزال حيا وزجه فى السجن قد أنقذ حياتك ! »

فقال فوكيه : « أجل .. أنا أعلم أنك فعلت ذلك من أجلى ، ولكنى لا أقبل خدماتك هذه !. على أنى قبل كل شىء لا أريد التلف والدمار لك .فلتغادر هذه الدار الآن ! »

فاختنقت صيحة دهشة فى حنجرة أراميس ، بينما استطرد فوكيه قائلا: « اننى مضياف لكل من يكون تحت سقف بيتى . ولن تكون أضيع ممن جئته بالخراب ! »

فقال له أراميس فى صوت حزين : « سيكون هذا مآلك وصدقنى يا فوكيه ! »

فقال : « فليكن !.. انى أقبل هذا النذير يا دربلاى ، ولكن لا شىء يمنعنى أو يقف فى طريقى . والآن .. عليك أن تغادر (فو) بل تغادر فرنسا كلها فورا !.. انى أترك لك أربع ساعات لتكون بعيدا عن قبضة الملك ! »

فقال أراميس بازدراء غير مصدق ما يسمع : « أربع ساعات ؟! »

ولكن فوكيه واصل كلامه جادا فقال : « خذها كلمة من فوكيه .. لن يتبعك أحد قبل انتهاء تلك المهلة .وبذا تسبق بأربع ساعات أى أحد يسيره الملك فى أثرك للقبض عليك . ان أربع ساعات أكثر من الوقت اللازم لكى تركب سفينة تفر عليها الى (بل ــ أيل) التى أهبك اياها لتكون مرفأ أمان لك !.. ان (بل ــ أيل) التى أملكها هى بالنسبة لك مثل (فو) بالنسبة للملك .اذهب اذن يا دربلاى .. اذهب !.. ما دمت حيا فلن يمس أحد شعرة من رأسك ! »

فقال له أراميس فى لهجة ساخرة حزينة : « شكرا لك ! » . بينما واصل الوزير كلامه فقال :

ــ اذهب فورا وامدد الى يدك قبل أن يذهب كلانا بعيدا ، أنت لانقاذ حياتك وأنا لانقاذ شرفى !

فأخرج أراميس يده التى كان قد أخفاها ، فاذا هى ملوثة بالدم إذ كان قد غرس أظافرها فى لحمه كأنما يعاقب نفسه على أن فكر فى مشروع لا يقل عبثا وزوالا عن حياة الانسان نفسه ، ففزع فوكيه حين رأى تلك اليد وامتلأ قلبه شفقة وفتح ذراعيه يريد أن يعانقه ، وعندئذ تمتم أراميس قائلا : «ليس معى سلاح» . ولم يلمس يد فوكيه وانما أدار رأسه وتراجع خطوة أو خطوتين وكانت أخرى كلماته لعنة وجهها الى فوكيه . وسرعان ما صب على وجهه بضع نقط من الدم الذى يسيل من صدره . ثم خرج كلاهما من الغرفة من طريق السلم الخفى الذى يقود الى فناء الدار . وأمر فوكيه باعداد أحسن جياده بينما وقف أراميس عند أسفل السلم المؤدى الى غرفة بورتوس . وجعل يفكر تفكيرا عميقا على حين كانت عربة فوكيه تخرج من الدار بأقصى سرعتها !

وقال أراميس يحدث نفسه : « أأذهب وحدى ؟. أم أحذر الأمير ؟ يا للجنون ! .. أحذر الأمير ثم ماذا ؟ آخذه معى ؟ أأصحب معى هذا الشاهد على فى كل مكان ؟ ان الحرب لابد أن تتبع ذلك ، الحرب الداخلية التى لا يخمد لها أوار ؟ ودون أى مورد أنقذ به نفسى ؟ . ان هذا محال ! وماذا يستطيع أن يفعل هو ؟. انه سيهلك ولا ريب . ومع هذا من يدرى؟ ليجر القدر مجراه . لقد حكم عليه بالسجن فليبق كذلك . أيها الروح الطيب أو السىء ، أيتها القوة القاتمة المزدراة التى يسمونها العبقرية : انك قوة أكثر قلقا وأقل ثباتا وأعطل نفعا من الريح السائبة فى الجبال ! انك تلهبين كل شىء بأنفاسك ، وتسحقين الجبال بقربك ، ولكنك لا تلبثين قليلا حتى تقضى على نفسك أمام صليب من الخشب الميت ، تقف وراءه قوة غير مرئية مثلك ، وربما تنكرينها ولكن يدها الناقمة مبسوطة فوقك،تطوح بك فى الرغام موصومة بالعار والشنار !.لقد ضعت !..نعم لقد ضعت!.. ما الذى يمكن عمله ؟ أأفر الى (بل ــ أيل) وأترك بورتوس خلفى يتحدث عن المغامرة مع كل انسان ؟!. ان بورتوس أيضا سيقاسى من جراء ما عمله ولن أدع بورتوس المسكين يتألم ، انه يبدو كعضو من أعضاء جسمى . ان بورتوس سيذهب معى الى حيث نتبع ما قدر لنا . يجب أن يكون الأمر كذلك ! »

وخاف أراميس أن يصادف أحدا فيرتاب فى سرعة حركاته ، وصعد الدرج دون أن يراه أحد . وكان بورتوس فى سبات عميق وقد نسى جسمه الضخم تعبه كما نسى ذهنه أفكاره

ودخل أراميس غرفته خفيف الخطى كالظل ووضع يدا مرتعشة على كتفه وأخذ يوقظه ، ففتح المارد عينيه وقام من سريره تلبية لطلب صاحبه دون أن يفقه شيئا . وقال له أراميس : « قم اننا ذاهبان من هنا !. سنركب جوادين بسرعة لم نركب بها قبلا فى حياتنا !.فهيا ارتد ثيابك يا صديقى!»

ثم ساعده فى ارتداء ملابسه ، ووضع ذهبه وجواهره فى جيبه . وفيما

كان مشغولا بذلك استرعى التفاته صوت فنظر واذا بدارتانيان يرقبه من خلال الباب نصف المفتوح فانزعج أراميس . وقال له قائد الفرســان :
« بالله ما معنى هذا الاضطراب ؟ »

فصـاح به بورتوس قائلا : « صه يا دارتانيــان ! » . بينما قال له أراميس : « اننا ذاهبان فى مهمة خطيرة »

فغمغم دارتانيان قائلا : « ما أسعدك ! »

وقال بورتوس : « انى لا أزال متعبا ، وكنت أوثر أن أظـل فى نومى ولكن خدمة الملك ... »

وقطع أراميس كلامه سائلا دارتانيان : « هل رأيت المسيو فوكيه ؟ »

فأجاب دارتانيان : « أجل !. رأيته منذ لحظة وكان راكبا عربته ! »

فسأله : « ماذا قال لك ؟.. ألم يقل لك شيئا ؟ »

فقال دارتانيان : « قال لى : (وداعا) ، ولم يزد على ذلك.وماذاكان يمكنه أن يقول لى ؟ هل أنا الآن شيء يذكر بعد أن صرتم جميعا ذوى حظوة ؟! »

فقال له أراميس وهو يعانقه : « استمع الى .. ان أيامك الجميلة الماضية قد بدأت تعود . ولن تجد سببا للغيرة من أحد ! »

فغمغم قائلا : « هذا لا يهمنى ! »

فقال له أراميس : « انى أتنبأ بأن شيئا ما سيقع لك اليوم فيزيد كثيرا فى أهميتك .. انك تعرف صدق أنبـــائى ! » . ثم التفت الى بورتوس وقال له :

— تعال يا بورتوس . هل أنت مستعد الآن للذهاب ؟.. اذن فلنعانق دارتانيان أولا

وقال لهما دارتانيان وهما يعانقانه : « ولكن الجياد ؟. أين هى ؟.. هل تأخذ جوادى يا أراميس ؟ »

فقال له هذا : « لدينا جوادان .. فوداعا ! وداعا يا دارتانيان ! »

وركب الهاربان جواديهما تحت بصر قائد الفرسان الذىأمسك الركاب لبورتوس ثم نظر وراءهما حتى غابا عن بصره ، وقال دارتانيان يحـــدث نفسه : « فى أى ظرف آخر كنت أظن أن هذين الرجلين يفران !. أما فى هذه الايام التى تغيرت السياسة فيها ، فان مثل هذا الرحيل يسمى ذهابا فى مهمة خطيرة ! » . ثم دخل غرفته مطمئنا الى هذه الفلسفة !

ارادة القدر

مضت العربة بفوكيه بأسرع ما استطاعت الجياد ، وكان طول الطريق يرتجف فرقا من التفكير فيما حدث ويسائل نفســه : « كيف كان هؤلاء الفرسان فى شبابهم اذا كانت هذه جرأتهم وقد هرموا وشاخوا ..؟! » . وكان أحيانا يخيل اليه أن ما قصه عليهأراميس لم يكن الا حلما من الاحلام، أو لعله شراك نصب له حتى اذا وصل الى الباستيل ألفى أمرا بالقبض عليه ليشارك الملك المخلوع فى سجنه . وقد مال الى تصديق هذه الفكرة حتى انه فى أثناء الطريق أصدر أوامر مختومة معينة بينما كانت جياد العربة تستبدل . وكانت تلك الأوامر موجهة الى المســيو دارتانيان ولآخرين يعتقد أن اخلاصهم للملك فوق كل شك . وقال يحدث نفسه : « بهـــذه الطريقة سواء أكنت سجينا أم لا ، أكون قد أديت واجبى نحو الشرف . ان هذه الأوامر لن تصل اليهم الا بعـد عودتى ، اذا عدت طليق السراح ، وعندئذ أستردها . أما اذا لم أعد فان ذلك يكون لسـوء وقع بى وحينئذ سأتلقى المعاونة كما يتلقاها الملك ! »

ووصل الوزير الى الباستيل بعد أن اتخذ تلك الأهبة ، وقد ســـافر بسرعة خمسة فراسخ فى الساعة . وهناك فى الباستيل صـــادفته كل الصعاب التى ذللت أمام أراميس حين زار السجن من قبل . ولم يجـــده شيئا ذكر اسمه ولا معرفة الحراس لشخصه،فلم يسمح له بالدخول فورا. وبعد الحاح فى الرجاء قبل أحد الحراس أن ينبىء بمجيئه أحد رؤســائه ، وهذا ذهب بدوره الى ضابط فأخبره . أما المحافظ فان أحدا لم يجرؤ أن يزعجه .. وهكذا جلس فوكيه فى عربته عند الباب الخارجى للقلعة ، وهو يتميز من الغيظ منتظرا عودة الضابط ، حتى اذا رآه قادما سأله بلهفة : « ماذا وراءك ؟ »

فقال الضابط : « ان رئيس الحراس سخر منى وقال لى : (ان المسـيو فوكيه فى فو ولو أنه كان فى باريس ما كان ليستيقظ من نومه فى مثـل هذه الساعة المبكرة !) . واذن لا فائدة يا سيدى من الحاحك فى ... »

فصاح فوكيه مقاطعا : « انكم جماعة من الحمقى ! » . ثم نزل من عربته، وقفز الى داخل البوابة قبل أن يتاح للضابط منعه ، فأخذ يصيح طالبـــا النجدة ، ولكن فوكيه كان قد دخل فأدركه الجنـــدى وجعل يصيح منبها الديدبان الآخر الذى عند الباب الثانى ، فشهر الديدبان رمحه فى وجه

الوزير ، ولكن هـــذا كان قد كسب من الغضب قوة فنزع الرمـــح من يد الجندى وضربه به ضربة قوية على كتفه ، ثم ثنى بضربة مثلها على الضابط الذى كان قد لحق به ، فأخذ الاثنان يصيحان صـــيحات مزعجة ، وسرعان ما خفت إليهما قوة الحراس كلها ، واتفق أن كان بين رجالها ضابط عرف الوزير حين رآه فصاح برجالها قائلا : « قفوا أيها الرفاق ! » • وحال دون انتقامهم من الوزير • على أنه اعتذر من عدم استطاعته فتح الباب له الا اذا كان معه أمر مكتوب ! • فطلب أن ينبأ المحافظ بحضوره ، وكان هـــذا قد سمع الضجة التى عند الباب فجاء مهرولا يتبعه وكيله وحوالى عشرين رجلا فقد ظن أن هناك هجوما على الباستيل • فلما رأى المسيو فوكيه عرفه من أول نظرة فأرخى ســـيفه الذى كان قد جرده وأمسك به ، ثم تمتم قائلا : « صاحب الفخامة ؟• كيف أعتذر ؟ ! »

فقال له المسيو فوكيه وهو فى شدة الغضب : « يا سيدى • انى أهنئك على همة حراسك هؤلاء ! »

فشحب وجه المسيو بيزمو اذ ظن أن الوزير يسخر منه • ولكن فوكيه كان قد استعاد هدوءه فأشار الى الديدبان والملازم ، وقال لهما : «ستصرف عشرون بستولا للديدبان وخمسون للضابط • أهنئكما • ولن يفوتنى أن أحدث صاحب الجلالة عنكما • والآن يا مسيو بيزمو : لى كلمة معك ! »

وتبع المحافظ الى مسكنه الرسمى مصحوبا بهمهمة الرضا من الجميع • وكان بيزمو يرتعد خجلا وخوفا•فانه منذ زيارة أراميس الاولى صار يخشى سوء العاقبة • وما لبث المسيو فوكيه أن قال له بحدة : « هل زارك المسيو دربلاى صباح اليوم ؟ »

فقال بيزمو : « أجل يا صاحب الفخامة »

وواصل الوزير كلامه قائلا : «ألم تروعك الجريمة التى اشتركت فيها ؟»

وتساءل المحافظ : «أية جريمة يا صاحب الفخامة ؟»•بينما قال فوكيه : « الجريمة التى تستحق من أجلها أن يمثل بك ! • ولكن الوقت لا يتسع للغضب • قدنى فورا الى السجين »

فقال بيزمو وهو يرتجف : « أى سجين يا صاحب الفخامة ؟ »

فصرخ فيه فى حدة قائلا : « أتتجاهل ؟! •• حسنا ! • قد يكون هـــذا خير ما تفعل ! • »

وعاد بيزمو يقول : « أتوسل اليك يا صاحب الفخامة أن ••• » • فقطع الوزير كلامه قائلا : « كفى ! •• قدنى الى السجين ! »

وتساءل بيزمو فى استكانة : « الى مارشيالى يا صاحب الفخامة ؟ »

فنظر اليه متفحصا وسأله : « من هو مارشيالى ؟ »

فقال المحافظ : « السجين الذى أعاده المسيو دربلاى للسجن صـــباح اليوم »



« ونزل فوكيه من عربته وقفز الى داخل البوابة »

فبدأ يقينه يتزعزع قليلا حيال هدوء بيزمو وقال : « أيسمى مارشيالى اذن ؟ »

فقال بيزمو : « أجل يا صاحب الفخامة . انه الاسم المثبت فى سجل السجن »

فنظر فوكيه الى بيزمو نظرة يريد بها أن يسبر غوره . على أنه لما رأى ملامح وجهه أدرك أن أراميس ما كان ليختار مثل هذا الرجل شريكا له فى المؤامرة . وعندئذ قال له : « أليس هو السجين الذى أخذه المسيو دربلاى من هنا أول من أمس ثم أعاده الى السجن صباح اليوم ؟ »

وكان قد أدرك الخطة التى اتبعها أراميس . فأجاب المحافظ : « أجل يا صاحب الفخامة . واذا كنت قد جئت لأخذه فان هذا يسرنى لأنى كنت سأكتب تقريرا فى شأنه ! »

فسأله الوزير : « ماذا فعل اذن ؟ »

فأجاب بقوله : « انه منذ عاد للسجن صباح اليوم قد أزعجنى أيما ازعاج وقد اعترته نوبات من الهياج جعلتنى أحسبه سيدمر الباستيل ! »

فقال فوكيه : « سأريحك توا من وجوده هنا . هيا قدنى الى غرفته »

فتردد بيزمو وسأل متلجلجا : « هل يتفضل صاحب الفخامة باعطائى الأمر الخاص بذلك ؟ »

فسأله : « أى أمر ؟ » . فأجاب : « أمر من الملك ! »

فقال المسيو فوكيه : « حسنا ! . انتظر حتى أكتب لك أمرا » . ولكن المحافظ أردف يقول : « ان هذا لا يكفى يا صاحب الفخامة . بل يجب أن أتلقى أمرا من الملك ! »

فاغتاظ فوكيه وقال له : « هل كنت تتبع مثل هذه الدقة حين سمحت للسجين بالخروج ؟ . أرنى الأمر الذى أفرج به عن هذا السجين من قبل »

وأطلعه بيزمو على الأمر الخاص بالافراج عن السجين سلدون . فقرأه فوكيه وقال له : « هذا أمر بالافراج عن سجين آخر اسمه سلدون »

فقال : « نعم يا صاحب الفخامة ، ولكن مارشيالى ليس طليقا ياسيدى . بل هو هنا ! »

فقال له الوزير : « انك ذكرت الآن أن المسيو دربلاى أخذه معه ثم أعاده ! »

فوجم بيزمو قليلا ثم قال : «أحسب انى لم أقل ذلك يا صاحب الفخامة!»

فقال له محتدا : « بل قلته بالتأكيد حتى لكأنى أسمعه الآن ! »

فقال المحافظ : « هى اذن فلتة من لسانى يا صاحب الفخامة ! »

فنظر اليه المسيو فوكيه شزرا وقال له : «كن على حذر يا مسيو بيزمو!»

فقال هذا : « ليس هناك ما أخشاه يا صاحب الفخامة . انى أعمل طبقا

لأدق الانظمة . وقد أحضر لى المسيو دربلاى أمرا باطلاق سراح سلدون ، وسلدون طليق الآن ! »

فقال له الوزير : « ان مارشيالى قد غادر الباستيل . هذا ما لا شك فيه ! »

فقال : « عليك أن تبرهن على ذلك يا صاحب الفخامة ! »

فقال له : « اذن دعنى أقابله قبل كل شىء » . ثم أشار اليه أن يتقدمه الى غرفة السجين ولكن بيزمو بقى واقفا وقال له : « ان صاحب الفخامة يعلم تمام العلم أنه لا يجوز لأحد أن يرى أى سجين هنا الا بأمر صريح من الملك نفسه ! »

فبدا الغيظ واضحا فى وجه الوزير وقال له : « ولكن دربلاى قد دخل برغم ذلك ! »

فقال بيزمو : « هذا ايضاح يحتاج الى دليل يا صاحب الفخامة ! »

فصاح به الوزير محتدا : « يا مسيو دى بيزمو .. انى أحذرك مرة أخرى .. ان المسيو دربلاى قد ضاع ! »

فبدا الفزع فى وجه بيزمو وقال : «ضاع ؟..هذا مستحيل يا سيدى!» . بينما واصل الوزير كلامه فقال : « أرى أنك كنت واقعا تحت نفوذه ؟ »

فقال بيزمو : « يا صاحب الفخامة .. انى هنا لأنفذ أوامر الملك، وأنا أؤدى واجبى حق أدائه . فأعطنى أمرا من الملك أدخلك عند السجين ! »

فقطب فوكيه متأففا ثم قال : « حسنا ! . اتركنى أدخل عند السجين ، وسأعطيك فورا أمرا من الملك »

فقال بيزمو : « بل أعطنى الأمر الملكى قبل ذلك يا صاحب الفخامة ! »

وهنا اشتد غضب الوزير وقال له : « انى أنذرك يا مسيو بيزمو .. اذا أبيت على ذلك فسيقبض عليك وعلى جميع ضباطك فورا ! »

فقال بيزمو : « قبل أن تأتى عملا من أعمال العنف مثل هذا يا صاحب الفخامة ، تذكر أننا هنا لا نطيع الا أوامر الملك ، وانه يسهل عليك أن تحصل على أمر من الملك بزيارة مارشيالى بقدر ما يسهل عليك أن تحصل على أمر بالاضرار بى برغم براءتى ! »

فقال فوكيه بغيظ : « صدقت يا مسيو دى بيزمو . صدقت ! »

ثم جذبه اليه وقال له بصوت منخفض : « أتدرى لماذا أحرص على التحدث الى السجين ؟ »

فأجاب بيزمو : « لست أدرى ! . على أنك تخيفنى حتى لقد سرت فى جسمى رعدة وكأنى مهدد بالاغماء ! »

فقال له الوزير : « ستجد فرصة للاغماء بعد عشر دقائق حين أعود الى هنا على رأس عشرة آلاف جندى مزودين بثلاثين مدفعا ! »

فصاح المحافظ فى فزع : « رباه . انك لست فى وعيك يا صاحب الفخامة ! »

وعاد الوزير يقول فى صرامة : « انى أمهلك عشر دقائق تحزم فيها أمرك ، وسأجلس هنا على هذا الكرسى حتى اذا انتهت الدقائق العشر وكنت لا تزال على عنادك فسأغادر هذا المكان وستحسبنى مخبولا كما تشاء ولكنك سترى العاقبة ! »

فضرب بيزمو الارض بقدمه ولكنه لم ينطق ببنت شفة ، وعندئذ أمسك فوكيه بقلم ورقعة ورق وكتب ما يأتى : « أمر الى رئيس البلدية بحشد الحراس ومهاجمة الباستيل » . و « أمر الى قائد الحرس السويسرى والى قائد حرس الملك باقتحام الباستيل خدمة للملك »

وكان بيزمو يقرأ ما يكتبه الوزير دون أن ينبس ببنت شفة ، فلما وجده مستمرا فى الكتابة وقرأ أمره الجديد وفيه (الى كل جندى وكل مواطن وكل سيد ، بالقبض على المسيو دربلاى أسقف فان حيثما يجده ، وكذلك على كل شركائه وفى مقدمتهم المسيو دى بيزمو محافظ الباستيل المتهم بالخيانة العظمى والتمرد) .. لم يتمالك نفسه وصاح قائلا : « كفى يا صاحب الفخامة !. انى لا أفهم شيئا من الموضوع كله ، ولكنى أخشى أن تقع فى ساعتين اثنتين فواجع مروعة وكان مبعثها الجنون . ولا ريب أن الملك حين يحاكمنى سيرى عذرى اذ أخالف النظم . تعال معى يا صاحب الفخامة الى زنزانة مارشيالى ! »

فنهض فوكيه واندفع خارجا من الغرفة يتبعه بيزمو وهو يمسح العرق الذى يتصبب من جبينه ويقول : « ما أفظعه صباحا ! يا للعار ! » . بينما فوكيه يستعجله وقد لحظ أنه ما زال خائفا منه فقال له : « دع عنك لعب الاطفال هذا وخذ المفاتيح من السجان فانه لا يجوز لأى انسان أن يرى أو يسمع ما سيحدث ! »

ولما وجده مترددا فى تنفيذ ذلك ، هدده قائلا : « حذار يا مسيو دى بيزمو ، والا غادرت الباستيل توا لكى أنفذ أوامرى بنفسى »

فأطرق بيزمو ، ثم تناول المفاتيح من يد السجان وصرفه ، ومضى يصعد الدرج فى صحبة الوزير وحده ، وسمع هذا ضجة فى أعلى السلم يتخللها السخط والسباب فسأل المحافظ : «ما هذا ؟ » . فأجابه وهو يغمز بعينيه: « هذا صاحبك مارشيالى . وهكذا يصيح السجناء المجانين ! »

فارتجف الوزير فرقا اذ تبين صوت الملك ووقف لحظة على الدرج ، ثم أخذ المفاتيح من بيزمو اذ كان هذا يخشى أن ينقض عليهما السجين المخبول . وصاح به : « أى مفتاح هو الخاص بهذا الباب ؟ » . وفيما هو يريه المفتاح سمعت صيحة رهيبة يصحبها ضرب شديد على الباب فتردد لهما صدى ملأ السلم . فقال فوكيه لبيزمو بصوت قاصف : « اذهب من هنا ! »

فتمتم بيزمو قائلا : « هذا يسرنى . سيتقابل الآن اثنان من المجانين وانى موقن أن أحدهما سيقتل الآخر ! »

فصاح به الوزير فى حدة قائلا : « اذا وضعت قدمك على هذا السلم قبل أن أناديك فستحتل مكان أحقر سجين فى هذا السجن ! »

فتمتم بيزمو وهو ينسحب بخطى متثاقلة : « ان هذه الوظيفة ستقضى على ! »

وكانت صيحات السجين تزداد شدة ، بينما انتظر فوكيه حتى استوثق من أن بيزمو وصل الى أسفل الدرج ثم وضع المفتاح فى قفل الباب وأداره، وعندئذ سمع صوت الملك الأجش وهو يصيح قائلا : «النجدة ، النجدة!.. أنا الملك ! » . وكان مفتاح الباب الثانى غير مفتاح الباب الاول فاضطر فوكيه أن يبحث عنه فى حزمة المفاتيح ، على حين كان الملك يصيح فى شدة غضبه قائلا : « لقد زج بى فوكيه فى السجن !. النجدة ضد فوكيه ! أنا الملك . ساعدوا الملك على فوكيه ! »

فمزقت هذه الصيحات قلب الوزير ، وتلتها ضربات شديدات على الباب بجزء من الكرسى الذى تسلح به الملك . وأخيرا وجد فوكيه المفتاح ففتحه فى الوقت الذى خارت فيه قوى الملك فكانت كلماته غير واضحة وهو يقول: « الموت لفوكيه !. الموت للخائن فوكيه ! »

□

كاد فوكيه يرتطم بالملك الذى كان واقفا وراء باب الزنزانة ، ومضت لحظة رهيبة صمت فيها كل منهما وقد عرف صاحبه ، ثم صاح الملك صيحة فزع قائلا : « فوكيه .. هل جئت لكى تقتلنى ؟ ! »

فتمتم فوكيه قائلا : « رباه !.. الملك على هذه الهيئة ؟! »

والواقع أن منظر الملك كان يبعث الفزع ، فقد كانت ثيابه ممزقة ، وكان قميصه ملوثا بالتراب والعرق ، والدم يسيل من صدره وذراعيه ، وكان شاحب الوجه أشعث الشعر أغبر السحنة ، يبدو عليه اليأس والجوع والخوف معا . وتأثر فوكيه بمرآه وقال له بصوت مختنق : « مولاى .. ألا تعرف أخلص أصدقائك ؟ »

فنظر اليه الملك شزرا وقال : « أنت ؟!.. أنت صديق لى ؟! » فركع الوزير بين يدى الملك وقال له فى هدوء حزين : « بل أكثر خدامك اجلالا لك ! » . ثم أعقب ذلك بأن نهض واقترب منه ثم احتضنه فى عطف وحنان قائلا له والدمع ينهمل من عينيه : « يا مليكى .. ! يا ولدى .. ! ما أشد ما قاسيته ! »

وكان لويس قد استعاد سكينته فشعر بالخجل من مظهره ومن مسلكه

ومن الشفقة التى أبداها وزيره نحوه ، وتراجع الى الوراء ، فلم يفهم فوكيه كنه هذه الحركة ، ولم يدر أن الملك فى كبريائه لن يغفر له رؤيته اياه فى تلك الحالة المزرية . ثم قال له فى خشـوع : « تعال يا مولاى .. انك حر طليق ! »

فقال الملك متعجبا : « طليق ؟!.. أأنت تطلق سراحى بعد أن تجرأت على رفع يدك ضدى ؟! »

فقال فوكيه فى استياء : « لا تصدق يا مولاى انى يمكن أن أرتكب مثل هذا الوزر ! »

ثم أخذ يقص على الملك تفصيل ما حدث ، وكان لويس الرابع عشر يستمع له وهو يشعر بألم نفسانى شديد ، حتى اذا انتهى فوكيه من كلامه، تغلب عظم الخطر الذى استهدف له الملك على هول السر الذى وقف عليه بشأن وجود أخ توأم له ، ثم قال لفوكيه بغتة : « ان مسألة التوأم هذه أكذوبة.. انها أمر مستحيل . لا يمكن أن تكون قد خدعت بها !. أجل انه لمستحيل أن ترتاب فى شرف أمى وفضيلتها . ووزيرى الاول لم ينتقم لى بعد من الجناة ! »

فأجاب فوكيه : « فكر يا مولاى قبل أن يدفعك الغضب . ان ميـلاد أخيك ... »

فقطع الملك كلامه قائلا : « ليس لى سـوى أخ واحد ، وأنت تعرف ذلك كما أعرفه !.. هناك مؤامرة تبدأ من محافظ الباستيل ! »

فقال له فوكيه : « كن حذرا يا مولاى .. ان ذلك الرجل قد خدع مثل غيره بالتشابه الشديد الذى بينك وبين ذلك السجين .. ولا شك فى أن الذين أعدوا كل شىء ليخدعوا الملكة الوالدة وأعضاء الأسرة المالكة ووزراءك وضباطك ، قد اطمأنوا كل الاطمئنان الى تمام التشابه بين جلالتك وبينه !»

فتمتم الملك قائلا : « ولكن .. ان كـل هؤلاء الآن فى (فو) . فكيف تركتهم هناك ؟ »

فقال فوكيه : « كان واجبى العاجل هو اطلاق سراح جـلالتك ، وقد أديت هذا الواجب . والآن سأنفذ كل ما تأمر به . وأنا فى انتظـار أمر جلالتك ! »

ففكر لويس هنيهة ثم قال : « اجمع كل الجيوش التى فى باريس »

فقال الوزير : « لقد صدرت الأوامر الخاصة بذلك يا مولاى »

فصاح الملك : « أنت أصدرت هذه الأوامر ؟ »

فقال : « أجل يا مولاى .. أصدرتها لهذا الغرض ، وبعد أقل من ساعة تكون جلالتك على رأس عشرة آلاف جندى ! »

فكان جواب الملك أن تناول يد فوكيه وضغطها بما يدل على أنه قد تبدد من ذهنه أخيرا كل سوء ظن بوزيره . ثم قال له : « سـنذهب توا الى فو

بهذا الجيش لنحاصر أولئك الثوار الذين أحسبهم قد تحصنوا الآن »

فقال فوكيه : « لو أن هذا حـدث لدهشت له ، لأن زعيمهم الذى هو روح تلك المؤامرة قد كشفته فسقط المشروع كله ! »

فقال الملك : « وهل كشفت ذلك الامير الزائف ؟ »

فقال : « انى لم أره بعد يا مولاى ! »

فسأله متعجبا : « من الذى رأيته اذن ؟ »

فأجاب قائلا : « زعيم تلك المغامرة ، وهو غير ذلك الشاب البائس الذى لم يكن الا أداة فى يده ، وقد حكم عليه بالشقاء طول حياته كما يبدو . أما زعيم المؤامرة ومنفذها فهو المسيو دربلاى أسقف فان ! »

فغمغم الملك قائلا : « صديقك ؟ » . فنظر الوزير الى الملك فى نبـل واخلاص ظاهرين وأجاب : « لقد كان صديقى يا مولاى ! »

فقال الملك بلهجة أقل ودا من قبل : « هذا ظرف سىء بالنسبة لك ! »

فقال فوكيه : « ان الصداقة التى من هذا القبيل يا مولاى لا شىء فيهـا يؤاخذ عليه ما دمت جاهلا بالجريمة ! »

فقال الملك : « كان ينبغى لك أن تتوقعها ! »

فأطرق الوزير وقال : « انى على كل حال أضع نفسى فى يدى جـلالتك حتى تتحقق أنى لست مذنبا ! »

فقال الملك متداركا : « انى ما قصدت ذلك يا مسيو فوكيه . كلا .. لم أقصد ذلك قط ، وأؤكد لك أنه برغم القناع الذى كان على وجه ذلك الشرير فقد خيل الى أنه هو . وقد كان معه رجل ضـخم الجسم هائل القوة كان يتوعدنى بقوته ولست أدرى من هو »

فقال فوكيه : « لابد أنه صـديقه البارون دى فالون أحد الفرسـان الاربعة »

فقال الملك : « صديق دارتانيان والكونت دى لافير ؟!. يجب ألا ننسى العلاقة التى بين المتآمرين وبين المسيو دى براجلون ! »

فقال فوكيه : « لا يذهبن بك الفكر بعيدا يا مولاى .. ان دى لافير هو أشرف رجل فى فرنسا . فاقنع بأولئك الذين سأسلمهم الى جلالتك ! »

فعض الملك على شفتيه وقال : « حسنا !. اذن أنت ستتقدم الى المجرمين الاوغاد عقب وصولنا الى فو على رأس الجيش ، وانى لأرجـو ألا ينجو أى واحد منهم حتى لا يفلت عنقه من الجزاء الذى استحقه ! »

فقال الوزير : « هل جلالتك ستأمر بقتلهم ؟ »

فقال الملك فى كبرياء : « ليفهم كل منا الآخر يا مسيو فوكيه .. اننا لا نعيش الآن فى تلك العصور التى كان الاغتيال فيها وحده وسيلة الملوك

الى الانتقام من أعدائهم !٠ ان عندى برلمانا يجتمع ويقضى باسمى ، وعندى مشانق تنفذ عليها سلطتى العليا ! »

فامتقع وجه فوكيه وقال : « اسمح لى يا صاحب الجلالة أن أعارضك ، فان أى اجراء يتخذ فى هذا الشأن سيجر الفضيحة على العرش ، ولا يجوز أن يذكر اسم الملكة آن مصحوبا بالابتسام ! »

فعقب الملك على ذلك قائلا : « ومع هذا يجب أن يأخذ العدل مجراه ! »

فقال فوكيه . « حسنا يا مولاى !٠ ولكن الدم الملكى لا يصح أن يسفك على المشنقة ! »

فصاح الملك غاضبا : « الدم الملكى ؟!٠٠ اذن أنت تصدق تلك القصة؟٠ ان قصة التوأمين هذه مخترعة ، وانى أرى فى اختراعها نفسه أكبر جرم اقترفه دربلاى ٠ انى أريد أن أعاقب على الجريمة ذاتها قبل عقابهم على اتخاذهم العنف معى أو اهانتهم اياى ! »

فقال الوزير فى حزم : « مولاى ٠٠ ان جلالتك تستطيع أن تقضى على حياة أخيك فيليب اذا شئت فان هذا أمر يعنيك وحدك ، وأحسب أن جلالتك ستستشير الملكة الوالدة ، وفى هذا ما يكفى ٠٠ ولست أحب أن أتدخل فى هذا الأمر ، على أن لى رجاء واحدا أحب أن تحققه جلالتك »

فقال الملك : « أى رجاء لك يا مسيو فوكيه ؟ ثق بأننى لن أتوانى لحظة عن تحقيقه جزاء اخلاصك ! »

فقال : « شكرا لك يا مولاى !٠٠ ان رجائى أن تعفو عن دربلاى ودى فالون ! »

فنظر اليه الملك متعجبا وقال : « أعفو عمن أرادا اغتيالى ؟! »

فقال فوكيه : « أنهما ثائران لا أكثر من ذلك يا مولاى ! »

فقال الملك : « لقد فهمت ٠٠ أنك تطلب العفو عن صديقيك ؟ »

فأحس الوزير أن هذه العبارة جرحت احساسه وغمغم مرددا : « صديقى ؟ » ٠ بينما قال الملك : « نعم أنهما صديقاك٠ولكن سلامة الدولة تتطلب عقابا رادعا للمجرمين ! »

فقال فوكيه : « مولاى ٠٠ انى لا أسمح لنفسى بأن أذكر جلالتك بأنى أعدت اليك حريتك وأنقذت حياتك !٠ بل لست أسمح لنفسى بأن أقول لجلالتك ان المسيو دربلاى لو أراد حقا أن يغتالك لكان من السهل عليه أن يقتلك فى هذا الصباح بغابة سينار فينتهى الأمر ! »

فبدا الفزع فى وجه الملك ، واستطرد فوكيه فقال : « كان دربلاى يستطيع أن يطلق رصاصة على رأس لويس الرابع عشر فتشوه وجهه حتى لا يعرفه أحد حين تكتشف جثته وبذا كان مشروع دربلاى يبلغ نهايته ! »

فامتقع وجه الملك اذ لاح له عظم الخطر الذى كان يواجهه ٠ واستمر

فوكيه يقول : « لو كان المسيو دربلاى قاتلا مغتالا ما كان ليخبرنى بخطته، لقد كان على يقين من أن مؤامرته لن تكشف ، وكان يرى أن ذلك الغاصب فى نظرنا ليس الا ملكا حقا ما دام ابنا للويس الثالث عشر ٠ ولو أن الملكة آن عرفته فانه على أى حال ابنها ! »

وبدل أن يتأثر الملك بهذه الصورة التى رسمها له فوكيه عن سماحة أراميس ، شعر بالمزيد من المهانة ، ولم يطق أن يتصور أن حياته الملكية كانت بيد ذلك الرجل حينا من الزمن ٠ وما لبث أن قال لفوكيه : « انى لا أدرى حقا لماذا تطلب العفو عن هؤلاء المجرمين ؟٠٠ ما جدوى المطالبة بشىء يمكن أن يتم دون رجاء ؟ »

فقال فوكيه : « لست أفهم ما تعنيه يا مولاى ! »

فقال : « ان ما أقوله واضح مفهوم ٠ فأنا الآن فى الباستيل ، والحراس يحسبوننى مخبولا ٠ ولا أحد هنا يعرف أنى لست مارشيالى السجين العادى ٠ وعلى هذا تستطيعون أن تتركوا هذا السجين المجنون حيث هو حتى ينتهى ، فلا يحتاج المسيو دربلاى ولا المسيو دى فالون الى عفو لأن ملكهما الجديد سيعدهما بريئين ، بل سيكافئهما على أنهما جاءا به من السجن الى العرش ! »

فامتقع وجه فوكيه تأثرا وقال : «ان جلالتك تسىء الى بغير حق يا مولاى! انى لست طفلا كما أن المسيو دربلاى ليس أبله ٠ ولو أنى أردت تنصيب ملك جديد على العرش كما تقول لما جئت الى هنا لأقتحم الابواب وأطلق سراحك بل ان ذلك كان ينبىء عن نقص فى الذكاء ٠ ان الغضب وحده هو الذى جعلك تكافىء خدمتى بهذه الاساءة ! »

فأدرك الملك ماكان من شططه وتذكر أن أبواب الباستيل ما زالت مغلقة عليه ٠ ونفذت كلمات فوكيه الخالصة الى قلبه فرق قليلا وقال له : « انى لم أقصد أن أسىء اليك ، والله يعلم ذلك ٠ ولكنك طلبت الى العفو فأجبتك بما أملاه ضميرى ٠ وعلى ذلك ما دمت أحكم ضميرى فان المجرمين اللذين تتحدث عنهما لا يستحقان عندى أدنى شفقة ! »

وبقى فوكيه ساكتا بينما استطرد الملك فقال : « اننى أقول لك هذا وأنا أعلم أنى لا أزال فى قبضة يدك ، وأن حريتى بل حياتى نفسها قد تتوقف على قبول ما تطلبه منى ! »

فقال فوكيه : « لا شك انى أخطأت اذ قدمت ملتمسى هذا الى مولاى فى صورة توحى بأنى أفرض قبوله فرضا !٠ وأنا آسف على ذلك وأرجو صفح جلالتك ! »

فابتسم الملك وقال : « لقد صفحت عنك يا عزيزى فوكيه »

فسكت فوكيه قليلا ثم قال : « لقد نلت الصفح عن نفسى ولكن المسيو دربلاى والمسيو دى فالون ٠٠٠ »

فقطع الملك كلامه قائلا : « انهما لن ينالا منى عفوا ما دمت حيا ، وأرجو ألا تحدثنى عنهما مرة أخرى ! »

فقال فوكيه : « سمعا وطاعة يا مولاى ! » . ونظر اليه الملك متفحصا ثم قال له : « وأرجو أيضا ألا يترك هذا أثرا فى نفسك ! »

فقال الوزير : « فليطمئن مولاى !. انى فى الواقع فكرت فى هـذا من قبل ، وقد اتخذت اجراءاتى على أساس أن جلالتك قد لا تعفو عنهما ! »

فسأله الملك فى دهشة : « ماذا تعنى بذلك ؟ » . فأجاب بقوله : « لقد قدرت للمسيو دربلاى أنه بافشاء سره الخطير لى قد هيأ لى فرصـــة انقاذ الملك والدولة . وعلى هذا لم أستطع أن أبعث به الى الموت ، ولم أستطع أن أعرضه لمثل غضبك هذا لانه يوازى قتله بيدى ! »

فقال له الملك : « حسنا !. وماذا فعلت اذن ؟ » . فقال : « لقد أعطيت المسيو دربلاى أحسن جيادى ، وتركت له أربع ساعات يسبق بها من يمكن أن تبعثهم جلالتك لادراكه ! »

فتمتم الملك قائلا : « فليكن ذلك !. ان القبض عليه بعد هذه الساعات الاربع ليس من المحال ! »

فقال فوكيه : « الواقع يا مولاى أنى ما سمحت له بذلك السبق الا لكى أنقذ حياته،ومن أجل ذلك وهبته جزيرة (بل ـ أيل) لتكون مرفأ أمان له!»

فقال له الملك : « ولكنك أهديت الى (بل ـ أيل) هذه من قبل ؟ »

فقال : « عفوا يا مولاى!.. اننى لم أهدها اليك لكى تقبض فيها علـى أصدقائى ! »

فبدا الاهتمام فى وجه الملك ، ونظر الى فوكيه بعينين تقدحان شررا،ولكن هذا كان مطمئنا الى أنه أدى واجبه طبقا لما أملاه عليـه ضميره فقابل نظرة الملك بابتسامة هادئة ، واضطر الملك الى أن يهدىء من غضبه وقال بعد سكت هنيهة : « أعائد أنت الى فو ؟ »

فأجاب فوكيه : « انى أنتظر أمر جلالتك . ولكنى أحسبك محتاجا الى تغيير ملابسك قبل الظهور أمام الحاشية »

فقال الملك : « سنمر على اللوفر . هيا بنا ! »

وخرجا من السجن مارين ببيزمو ، فنظر هذا الى الملك فى دهشة وهو يحسبه مارشيالى يخرج من السجن مرة ثانية ، وفيما كان واقفا يعض على شفتيه من الغيظ لعدم استطاعته شيئا حيـال ذلك ، ناداه فوكيه وأعطاه أمرا بالافراج عن السجين موقعا عليه باسم الملك ، فتسلم الأمر وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة حزينة،اذ حسب أن السجين الراحل(مارشيالى) هو الذى كتب ذلك الأمر فى نوبة من نوبات الجنون !

فيليب الملك

استطاع فيليب توأم لويس الرابع عشر ان يقوم بدوره الملكى خير قيام بعد أن حل محل الملك فى غرفة نومه بقصر (فو) بأن أصـدر أمره باعداد استقبال حافل عند قيامه من النوم ، وقد اتخذ هذا القرار برغم أن المسيو دربلاى لم يعد اليه فى الموعد المنتظر ، ولعله اعتقد أن غيبته لن تطول فأراد أن يجرب مقدرته وحظـه دون أى سند او ارشاد !. على ان سببا آخر حفزه الى ذلك هو أن أمه الملكة آن النمسوية التى ضحت به فيما يعتقد ستكون بين يديه عما قليل !

وفتح فيليب أبواب الجناح الملكى فدخل كثيرون فى سكون . ولم يتحرك حين أخذ خادمه يلبسه ثيابه ، وكان قد درس فى الليلة السابقـة عادات أخيه ليمثل دوره بصورة لا تثير أية شبهة . فلما اتم ارتداء ثياب الصيد الكاملة سمح باستقبال زائريه . وبفضل ذاكرته ومذكرات اراميس عرف كل واحد منهم ، وأولهم الملكة آن والدته التى كانت مستندة الى ذراع ابنها الأصغر ، ثم قرينة هذا الأمير مع المسيو ذى سان اينيان.وقد اختفت ابتسامته حين رأى أمه وبدا كأنه يرتعد ، وحدث نفسه قائلا : « أهـذه الملكة النبيلة المظهر البادية الألم هى التى ضحت ابنا لها فى سبيل سياسة الدولة ؟ » . ولحظ أنها ما زالت تبدو جميلة برغم تقدم السن بها ، وكان يعرف أن لويس الرابع عشر يحبها ، فآلى على نفسه أن يحبها كذلك وألا يعاقبها على فعلتها وقد بلغت الكبر . ونظر الى أخيه الأصغر نظرة عطف وحنان ، فان هذا لم يغتصب منه شيئا ولم يسبب له شقاء.وعاهد نفسه على أن يلبى كل مطالبه . ثم انحنى انحناءة ودية لسان اينيان الذى كان يبتسم ويبدى كل ما يستطيع من اجلال . ومد يدا مرتعشة الى الأميرة هنريتا زوجة أخيه الأصغر التى بهره جمالها لأول وهلة ، ولكنه راى فى نظرتها جفاء فقال يحدث نفسه : « انه لأيسر لى أن أكون بمثابة الأخ لزوجة أخى هذه من أن أكون عشيقا لها »

والواقع انه لم يكن يخشى سوى استقبال الملـكة زوجة لويس الرابع عشر ، ولكنها لحسن حظه لم تأت الى حفلة الاستقبال . ثم بدأت الملـكة الوالدة خطابا سياسيا علقت به على ترحيب المسيو فوكيه بالبيت المالك ومزجت فيه عداوتها لفوكيه بمديحها للملك وسؤالها عن صحته قائلة : « والآن يا بنى لعلك اقتنعت بما هناك عن المسيو فوكيه ؟ »

وهنا التفت فيليب الى سان اينيان وقال له : « ياسان اينيان أرجو أن تذهب وتسأل عن صحة الملكة ! »

وكانت هذه الكلمات أول ما نطق به بصوت مرتفع ، فاسترعى الاختلاف الزهيد الذى بين صوته وصوت لويس انتباه الملكة آن ، فنظرت اليه مليا ، بينما خرج سان اينيان من الغرفة لتنفيذ الأمر الصادر اليه

ثم قال فيليب لوالدته : « سيدتى .. انى لا أحب أن أسمع ذما فى المسيو فوكيه ، وأنت تعلمين ذلك ، ولقد أطريته أنت نفسك ! »

فقالت : « هذا صحيح ولذا اسألك عن شعورك نحوه ! »

وقالت هنريتا : « مولاى ، انى من جانبى أميل دائما الى المسيو فوكيه. انه رجل ذو ذوق رفيع فهو اذن رجل ممتاز ! »

وقال الأمير : « انه وزير مالية غير ضنين ولا شحيح . ويدفع بالذهب كل ما احيله اليه من المطالب ! »

فقالت الملكة الوالدة : « ان كل انسان فى هذا الأمر يفكر فى صالحه لا فى صالح الدولة !. ان المسيو فوكيه فى الواقع يخرب مالية الدولة ! »

فقال فيليب بصوت اقل ارتفاعا : « حسنا يا أماه !. أأنت ايضا تجعلين من نفسك درعا للمسيو كولبير ؟ »

فدهشت الملكة العجوز وقالت : « وكيف ذلك ؟ »

فأجاب فيليب : « لأنك فى الحقيقة تتكلمين كما لو كانت صديقتك القديمة مدام دى شيفريز تتكلم ! »

فتساءلت الملكة آن متعجبة : « مدام دى شيفريز ؟ » بينما استطرد فيليب فقال :

ــ أليست مدام دى شيفريز دائما فى حلف ضد اى انسان ؟.. وهل لم تزرك أخيرا يا أماه ؟

فقالت : « سيدى .. انك تحدثنى الآن بلهجة تجعلنى أتصور أنى أستمع الى أبيك ! »

فقال لها : « ان أبى لم يكن يميل الى مدام دى شيفريز ، وكان له الحق فى ذلك !.. أما أنا فانى لا أحبها أكثر مما كان يحبها ... واذا كانت تحسب انها ستعود الينا لتبذر بذور الفرقة والبغضاء تحت ستار استجداء المال ، فانى سأنفيها خارج المملكة وأنفى معها كل من يتدخل فيما لا يعنيه من الأسرار ! »

ولم يكن قد قدر أثر هذه الكلمات الرهيبة ، أو لعله أراد أن يرى أثرها ، والواقع أن الملكة آن أوشكت أن يغشى عليها فمدت يديها صوب ابنها الأصغر فسندها وأحاطها بذراعه . وتمتمت هى قائلة : « مولاى . انك تقسو على والدتك ! »

فأجاب قائلا : « كيف ذلك ؟. انما تكلمت عن مدام دى شيفريز . افتؤثر والدتى مدام دى شيفريز على سلامة الدولة وسلامة شخصى ؟. حسنا اذن يا سيدتى !. انى أقول لك ان مدام دى شيفريز انما عادت الى فرنسا لكى تقترض مالا ، وانها لجأت الى المسيو فوكيه لكى تبيعه سرا معينا ! »

فصاحت الملكة آن : « سرا معينا ؟ ! »

فقال : « اجل !. لقد زعمت أن هناك اختلاسات اقترفها وزير المالية . وقد ردها المسيو فوكيه ردا غير كريم ، مؤثرا تقدير الملك له على كل صلة بالدساسين . وهنا باعت مدام دى شيفريز ذلك السر المزعوم الى المسيو كولبير . ولما كانت لا تشبع ، ولم تقنع بمائة الف كرون ابتزتها من ذلك الموظف ، فقد صعدت الى أعلى وحاولت أن تجد ينابيع أعمق غورا .. أليس هذا صحيحا يا سيدتى ؟ »

فقالت الملكة الوالدة بقلق : « انك لا يفوتك شىء يا مولاى ! »

فاستمر فيليب قائلا : « والآن لى الحق فى أن أبغض هذه السيدة التى تدبر الفضيحة لانسان والخراب لآخر . واذا كان الله قد شاء أن ترتكب بعض الجرائم وأخفاها فى ظل رحمته ، فانى لا أسمح لمدام دى شيفريز أن تكون لها قوة تعارض بها مشيئة الله ! »

وقد تأثرت الملكة آن بهذا الشطر الأخير من عبارة ابنها ، حتى لقد شعر بالشفقة عليها ، فأمسك بيدها وقبلها بحنو ، ولم تدر أنه بهذه القبلة قد غفر لها ما سببته له من آلام طول السنوات الأخيرة . ثم ترك فيليب فترة من الصمت تمحو الانفعالات الأخيرة ، وعاد يقول وعلى فمه ابتسامة مشرقة :

ــ اننا لن نخرج اليوم فان عندى خطة !

والتفت نحو الباب وقد بدأ يشعر بالقلق لغياب أراميس ، وارادت الملكة الوالدة أن تغادر الغرفة فقال لها : « ابقى هنا يا أماه فانى اريد أن أعقد صلحا بينك وبين المسيو فوكيه ! »

فقالت له : « انى لا آكن ضغنا للمسيو فوكيه وانما يزعجنى اسرافه »

فقال لها : « سنعالج ذلك ، ولن نأخذ من وزير المالية سوى صفاته الحسنة ! »

ولحظت الأميرة هنريتا انه ينظر كل لحظة الى الباب ، وحسبته ينتظر دى لافاليير فأرادت أن تسدد نحوه سهما صغيرا مسمما وقالت له : « ماذا ينتظر مولاى ؟ »

فأدرك فيليب ما يدور بخلدها وقال لها : « أختاه .. انى أنتظر رجلا ممتازا وناصحا عظيم القدرة وأريد أن أقدمه اليكم جميعا وأن ينال عطفكم وتقديركم ! »

ورأى دارتانيان بالباب فقال له : « أدخل يا دارتانيان »

فجاء دارتانيان وقال له : « ماذا تريد يا صاحب الجلالة ؟ » . فسأله : « اين أسقف فان صديقك ؟. انى أنتظره ولكنه لم يات بعد .. دع أحدا يبحث عنه »

فوقف دارتانيان هنيهة ذاهلا ثم حسب ان اراميس غادر (فو) فى مهمة سرية كلفه الملك اياها وأن الملك يريد كتمان امرها عن الجميع ، فانحنى أمامه وقال :

ـ مولاى .. اتريد جلالتك احضار المسيو دربلاى اليك حتما ؟

فقال : « ليس حتما . ولكن اذا وجدتموه ! »

فقال دارتانيان يحدث نفسه : « هذا ما حسبته » . ثم سألت الملكة آن : « هل المسيو دربلاى هذا هو أسقف فان ؟ »

فأجابها فيليب : « أجل يا سيدتى .. انه فارس قديم ! »

فاحمر وجه الملكة واستطرد فيليب فقال : « أحد الفرسان الأربعة المشهورين الذين أتوا من ضروب البسالة ما يدعو الى العجب ! »

وهنا ندمت الملكة آن على ملاحظتها وارادت ان تغير مجرى الحديث فقالت : « على أية حال .. انا موقنة بانك تحسن الاختيار يا مولاى ! »

فانحنى الجميع تأييدا لهذا القول .. ثم قال فيليب : « ستجدين فيه فطنة المسيو دى ريشيليو وسعة حيلته ، دون شح المسيو دى مازارين ! »

وهنا سأل الأمير الشاب : « هل سيكون رئيسا للوزراء يا مولاى ؟ »

فقال فيليب : « سأخبرك عن ذلك فيما بعد أيها العزيز »

ثم صاح قائلا : « لينبأ المسيو فوكيه بانى اريد ان أكلمه . امامكم لا تنسحبوا »

وهنا عاد المسيو دى سان اينيان وقال : « ان الملكة بخير ، وقد لزمت فراشها من باب الحيطة لتقوى على تحقيق جميع رغبات الملك »

وبينما كان البحث جاريا عن فوكيه واراميس ، مضى الملك الجديد فى احاديثه هادئا دون ان يرتاب فى أمره أحد من أفراد الأسرة المالكة أو الضباط ورجال البلاط والخدم . ولم يسعه ازاء هذا الا أن يحمد الله وان يعجب بنفسه اذ اتقن تمثيل دوره !.. غير انه مع هذا شعر بأن ظلا يقف بينه وبين مجده الجديد ، وذلك لأن اراميس لم يأت !.. ونسى فيليب فى غفلته ان يصرف أخاه وقرينته هنريتا ، وقد دهش هذان وبدأ يفقدان صبرهما . وانحنت الملكة آن على أذن ولدها وكلمته باللغة الأسبانية ، وكان يجهل هذه اللغة جهلا تاما فامتقع وجهه ازاء هذه العقبة غير المتوقعة، ولكنه تجلد فلم يبد عليه اضطراب ، واكتفى بأن نهض واقفا فقالت له الملكة آن : « ماذا تريد ؟ »

فالتفت الى باب السلم الثانى وقال : « ما هذه الضجة ؟ »

وفى الوقت نفسه سمع صوت يقول : « من هنا .. من هنا !.. بضع خطوات أخرى يا مولاى ! »

فقال دارتانيان : « هذا صوت المسيو فوكيه »

وهنا قال فيليب : « اذن لا يمكن أن يكون المسيو دربلاى بعيدا ! »

وما كاد يتم عبارته حتى ظهر القادمون ، واتجهت الأنظار كلها الى الباب الذى كان ينتظر أن يلجه المسيو فوكيه ، ولكن لم يكن فوكيه هو الذى دخل .. بل ترددت فى القاعة صيحة رهيبة اشترك فيها فيليب وكل الحاضرين ، فقد بدا امامهم فى الضوء الخافت منظر لم يكن أحد منهم يتوقع ان يراه حتى فى الأحلام !

كان القادم هو الملك لويس الرابع عشر نفسه ، وقد وقف شاحب الوجه مقطب الجبين بباب السلم السرى ، بينما ظهر وجه فوكيه وراءه !

وكانت الملكة الوالدة حين رأت هذا المنظر لا تزال ممسكة بيد فيليب ، فصاحت مرتاعة كأنها أبصرت شبحا أمامها !.. وذهل الأمير الأصغر واخذ يردد بصره بين اخيه لويس الرابع عشر الواقف بجانبه وبين هـذا الآخر الواقف بالباب وكأنه خيال فى المرآة ، وخطت الأميرة هنريتا خطوة الى الأمام وهى تفرك عينيها غير مصدقة أن ما تراه حقيقة !

والواقع أن لويس وفيليب كان كلاهما شاحب الوجه يرتجف جسمه وتتقبض يداه وقد أخذ كل منهما يفحص الآخر بنظراته وكان اعينهما تتبادل السهام !

وكان لويس قد مر باللوفر وبدل ملابسه فبدا هو وفيليب كأنهما شخص واحد !

ولم يكن فوكيه اقل دهشة وذهولا حين رأى فى فيليب تلك الصورة الحية للملك لويس الرابع عشر وقال لنفسه : « ان أراميس معذور حقا فى اختياره هذا الأسير ليحل محل شقيقه التوأم وشبيهه الى هذا الحد ! »

ومضت دقائق ساد خلالها سكون رهيب ، وكان دارتانيان مستندا الى الحائط امام فوكيه ، وقد وضع يده على جبينه يسائل نفسه : كيف حدثت هذه المعجزة ؟.. ثم اتضح له ما كان فى مسلك اراميس طول الأيام الأخيرة من خفاء يرتاب فيه !. ثم بدا كأن الحاضرين جميعا يستيقظون بجهد من نوم مضطرب . غير ان لويس كان اقلهم صبرا واكثرهم اعتيادا للسلطان ، فجرى الى احدى النوافذ وفتحها على مصراعيها فى عنف مزق ستائرها !.

وما غمر الضوء المكان حتى تراجع فيليب الى الوراء فى حركة آلية ، وانتهز لويس هذه الفرصة فخاطب الملكة الوالدة قائلا : « أماه . الا تعرفين ولدك ما دام الجميع هنا لا يعرفون ملكهم ؟ »

فارتاعت الملكة آن ورفعت بصرها الى السماء دون أن تنطق ببنت شفة !

وعلى أثر ذلك التفت اليها فيليب بدوره وقال لها : « أماه .. الا تعرفين

ابنك ؟ » . ولم يسع لويس الا ان يتراجع بدوره !. أما الملكة الوالدة ، فقد اشتد بها اضطراب الذهن وقلق الضمير ففقدت توازنها ولم يهرع أحد لعونها فسقطت على كرسي وهي تتنهد فى ألم واعياء . ولم يقدر لويس أن يصبر على هذا المنظر وتلك المهانة فاندفع نحو دارتانيان وكان هذا قد بدأ يحس دوارا فاستند الى الباب وقال له الملك : « ياكابتن..انظر الى وجهينا وقل اينا أكثر شحوبا ، أنا أم هو ؟ »

فأيقظت هذه الصيحة دارتانيان من ذهوله وحركت فى نفسه عوامل الطاعة وهز رأسه ، ومضى بدون تردد صوب فيليب فوضع يده على كتفه قائلا : « سيدى .. انك سجينى ! »

فلم يتحرك فيليب من مكانه ، وبقي واقفا كأنه سمر به واخذ يحدق فى وجه أخيه الملك ، ولم يسع هذا ازاء نظراته الصامتة البليغة الا ان يطرق متأثرا ، ثم رفع رأسه بغتة وسحب أخاه الآخر وقرينته هنريتا ، مخلفا وراءه أمه الملكة جالسة بلا حراك ، وعلى مسافة ثلاث خطوات ولدها التعس الذى حكم عليه بالموت مرة أخرى !

وهنا اقترب فيليب منها وقال لها بصوت رقيق تغلبه العاطفة : « لو لم أكن ابنك للعنتك يا أماه اذ جعلتنى بهذا الشقاء ! »

واحس دارتانيان رعدة تسري فى جسده وانحنى باحترام للأمير وقال له : « معذرة يا صاحب السمو .. انى لست الا جنديا وقد اقسمت يمين الطاعة والولاء لذلك الذى غادر الغرفة توا ! »

فقال له فيليب : « شكرا لك . ولكن ماذا حدث للمسيو دربلاى ؟ »

فأجاب صوت وراءهما : « ان المسيو دربلاى فى أمان يا صاحب السمو ، ولن يمس أحد شعرة فى رأسه ما دمت حيا ! » . وكان فوكيه هو المتكلم ، فالتفت فيليب اليه وقال له بابتسامة حزينة : « شكرا لك يا مسيو فوكيه ! »

وهنا ركع فوكيه أمامه وقال : « معذرة يا صاحب السمو !. ولكن ذلك الذى خرج الآن من هنا كان ضيفي ! »

فتمتم فيليب قائلا : « هاهنا أناس شجعان ذوو نفوس عالية . انكم تجعلوننى آسف على العالم . هيا بنا يا مسيو دارتانيان .. انى اتبعك ! »

وفى اللحظة التى هم فيها قائد الفرسان بالخروج من الغرفة مع أسيره ، جاء المسيو كولبير فسلم المسيو دارتانيان ورقة بها أمر من الملك ثم خرج ، وما ان قرأ دارتانيان هذا الأمر حتى سحق الورقة فى يده ، فسأله فيليب : « ماذا فيها ؟ » . فلم يجب دارتانيان ، واكتفى بأن أعطاه الورقة

فقرأ فيليب الأسطر الآتيــة وقد كتبها الملك بسرعة بخط يده : « على المسيو دارتانيان أن يذهب بالسجين الى جزيرة سانت مرجريت بعد أن يغطى وجهه بخوذة حديدية لا يستطيع رفعها الا بخطر على حياته »

الوداع الاخير

افاد أراميس وبورتوس من المهلة التي أتاحها لهما فوكيه ، فأطلقا لجواديهما العنان ، ومضيا يطويان بهما المسافات الشاسعة بما عهد فيهما من براعة فى الفروسية ، ولم يكن بورتوس يدرى تماما نوع المهمة التى اشتركا فى أدائها ، ولكنه رأى أراميس يعدو به جواده ففعل مثله . فلما بعدا من (فو) بمقدار اثنى عشر فرسخا ، وقفا لأول مرة لابدال الجوادين . وفى خلال ذلك سأل بورتوس أراميس همسا عما هما بسبيله فأجابه قائلا : « صه . يكفى أن تعلم أن حظنا يتوقف على سرعة جيادنا ! »

وكأنما عاد بورتوس فارسا شابا كما كان فى سنة ١٦٢٦ فاستحث جواده وقد فعلت فيه كلمة أراميس عن الحظ والسرعة فعل السحر ثم حدث نفسه قائلا : « ترى أى حظ يجرى وراءه الآن ؟. ان الحظ عادة يعنى الكفاية لمن لا مال له ، ويعنى الكثير الوفير لمن عنده ما يكفيه . ولا شك أن أراميس يعنى أن الملك سيجعلنى دوقا ! »

ولم يطق صبرا على الانتظار فصاح بأراميس قائلا : « أتعنى أن الملك سيجعلنى دوقا ؟ ». فلم يسع هذا الا أن أبتسم لسذاجة زميله القديم وقال له : « ربما ! » . على أنه برغم ابتسامه وجلده كان يكاد ينفجر لشدة الحنق والغيظ ، فزاد فى ركض جواده وحثه على ذلك بسبه تارة وضربه تارة أخرى حتى سال الدم من جنبيه واضطر بورتوس برغم جمود احساسه الى أن يزجر حانقا . وبقي الفارسان هكذا زهاء ثماني ساعات حتى وصلا الى (أورليانز) فى الساعة الرابعة بعد الظهر . وأدرك أراميس أن اللحاق بهما فوق الاستطاعة ، وعلى هذا قرر الاستراحة حتى الساعة السابعة مساء ، على أن يستأنفا الرحلة لقطع الفراسخ العشرين الباقيــة أمامهما بالسرعة نفسها ، وبعد ذلك لا يمكن لأحد ــ حتى دارتانيان نفسه ــ أن يدركهما !

وقبل أن يصلا الى (بلوا) ببضعة فراسخ ، صادفتهما عقبة كأداء ، لم تكن فى حساب أراميس ، فقد سقط جواداهما لفرط الاجهاد ولم تكن هناك جياد أخرى ليستأجرا اثنين منها بدلا من الجوادين المتعبين . وكاد اليأس يتملكه ، ولكنه تذكر فجأة أن الكونت دى لافير يقيم على مقربة من المنطقة التى بلغاها ، فقال للمشرف على محطة البريد :

ــ اننا لا نطلب جيادا لمسافات بعيدة ، بل يكفى أن تأتينا بعربة نصل بها الى رجل من النبلاء يقيم على مقربة من هنا !

فسأله رجل البريد عن النبيل الذى يقصدانه ، ولما علم أنه الكونت دى لافير خلع قبعته اجلالا وقال : « انه نبيل عظيم حقا »

ثم ســارع الى اعداد عربة ذات جواد واحد ، بينمــا كان بورتوس مسرورا معجبا بنفسه ، اذ حسب انه أدرك اخيرا سر هذه الرحلة الغريبة ، وارتاح الى فكرة زيارة آتوس ، لشوقه الى لقاء هــذا الصديق القــديم ، ولحاجته الى التماس الراحة عنده فى فراش وثير بعدما لقيه من جهد وارهاق

ولما اعدت العربة أمر رجل البريد تابعا له بأن يسوقها براكبيها الى مزرعة الـكونت دى لافير ، وجلس بورتوس الى جانب أراميس ثم همس فى أذنه قائلا : « لقد فهمت ! »

فقال له اراميس : « وماذا فهمت يا صديقى ؟ »

فقال : « اننا قادمان من قبل الملك لنعرض على آتوس امرا عظيما ! . أليس كذلك ؟ »

وسكت أراميس مكتفيا بابتسامة غامضة ، فواصل بورتوس كلامه قائلا :

ــ لست فى حاجة الى ان تخبرنى عن ذلك الأمر ، ان فى استطاعتى أن أدركه من تلقاء نفسى !

فقال أراميس : « حسنا ! » . ولم يزد على ذلك

ووصلا الى دار آتوس فى الساعة التاسعة مساء ، وكانت الليلة مقمــرة فزاد ضوء القمر من سرور بورتوس وتفاؤله ، ولما لاحظ على أراميس أنه ما زال ساهما ، قال له هامسا وهو يهم بالنزول من العربة :

ــ لا شك ان المهمة سرية يا أراميس، على أنى فهمت على كل حال !

ولم يجب أراميس ، بل نزل من العربة أمام القصر الصغير ، وذهنــه مشغول بما هو فيه !

□

كان راءول قد غادر باريس بعد أن وقف على خيانة لافاليير له . وراح يعزى نفسه بأن الجرح الذى أصاب قلبه كان له الفضل فى أن قربه من أبيه ، والواقع أن ذلك الجرح لم يكن قد اندمل ، ولكن أحاديث أبيه معه كانت تنزل على قلبه بردا وسلاما ، اذ أخذ هذا يعزيه ويرفه عنــه بما يقص عليه من ذكريات شبابه ، محاولا أن يدخل فى روعه أن الألم الذى يحسه ازاء خيــانة حبيبته يكاد يكون لازمة من لوازم الحيــاة . على أن راءول كان كثيرا ما يصغى الى حديث والده بانتباه دون ان يفقه شيئا منه ، لعجزه عن تناسى ذكرى الحبيبة التى هجرته . وكان أحيانا يرد على حجج أبيه قائلا :

ــ ان كل ما تقوله حق ، ولعل أحدا لم يتألم من جراء عاطفته كما تألمت

انت ، ولكنك رجل خارق الذكاء حنكتك المآسى ، ولذا أرجو ان تعفو عن ضعف جندى شاب مثلى يتألم لأول مرة ، انى أدفع جزية لن ادفعها مرة اخرى . فاسمح لى أن أغوص فى قرارة حزنى حتى أنسى نفسى !

وكان الكونت أول الامر يحاول أن يقنع ولده بأن خطيئتــه لا تستحق منه الا الاهمال ، لتعمدها خيانته والاساءة الى كرامته . ولكن راءول قال له يوما وهو يحاوره : « يا سيدى : انى لا أقدر ابدا ان أعتقــد أن لويز الطاهرة البريئة خدعت محبا صادق الحب مثلى ، أو أن وجهها العذب الجميل كان يخفى وراءه تلك الدعارة والدناءة ! آه يا سيدى ، ان هذه الفكرة اقسى علىَ من الموت ! »

ومنذ ذلك اليوم لم يسع آتوس الا أن يعدل خطته ، فعمد الى وسائل جديدة لمواساة ولده وشفائه من ذلك الغرام المكين ، ومن ثم اخذ يدافع عن لويز قائلا له : « ان المرأة التى تستســلم للملك لا لشىء ســوى أنه ملك تستحق أن توصف حقا بالفجور ، ولكن لويز تحب لويس لشخصه ، وهما فى غرامهما وشبابهما قد نسيا مركزيهما ، فهو قد نسى أنه الملك وهى قد نسيت يمين الاخلاص لك ، ان الحب يحرر الانسان من روابطه يا بنى ! »

وكان راءول حين يسمع مثل ذلك من أبيه يهرع الى الغابة أو يعتكف فى غرفته ، ثم يعود اليه بعد ساعة فيقبل يده ويجلس بين يديه مستأنفــا سماع نصائحه وارشاداته !

وهكذا مضت الأيام منذ ذلك الموقف الذى اختلف فيه آتوس مع الملك . غير أنه لم يشر الى ذلك الموقف اية اشارة وهو يحدث ولده ، ولم يذكر له قط تفصيل ما قاله للملك . حتى اذا لج راءول فى سخطه وغضبه ، لم يسع والده أن يعارضه ، بل قال له بصوته الرزين : « انك على حق يا راءول . ولكن يجب على الناس جميعا ، رجالا ونساء ، حكاما ورعية ، أن يعيشوا فى الحاضر لأن المستقبل بيد الله وحده ! »

وقد جرى هذا الحديث الاخير بينهما وهما يسيران معا فى الطريق الذى تظلله أشجار الليمون فى حديقة الدار ، وانهما لكذلك اذ وصل الى سمعهما رنين الجرس الذى يدق عادة عند اعداد المائدة أو قدوم زائر ، فاتجها صوب الدار ، وهناك عند نهاية الدرب وجدا نفسيهما وجها لوجه أمام أراميس وبورتوس !

ولما فرغوا من العناق والتحيات قال أراميس لصديقه القديم آتوس : « اننا لن نمكث معك طويلا يا صديقى »

فسأله الكونت : « ولم لا ؟ » . وكذلك التفت اليه راءول وفى نظراته مثل هذا التساؤل . وهم أراميس بأن يجيب ، ولكن بورتوس سبقه قائلا : « لن نمكث سوى الوقت الذى نحدثكما فيه عن الحظ السعيد الذى واتانى ! »

فاشتد عجب راءول ، بينما نظر أبوه فى صمت الى أراميس وكأنه لا يرى فى الجد البادى عليه ما يتفق مع ما قاله بورتوس . وبعد هنيهة قال راءول

لبورتوس وهو يبتسم : « ما هو ذلك الحظ السعيد الذى أتيح لك ؟ »

فهمس بورتوس فى أذن الشاب قائلا : « ان الملك جعلنى دوقا ! »

وكان همس بورتوس كما هو شأنه دائما من الارتفاع بحيث سمعه جميع الحاضرين ، فبدت الدهشة فى وجه آتوس وهم بالكلام ولكن اراميس امسك يده وانتحى به جانبا حيث قال له : « يا عزيزى آتوس .. انك ترانى فى أشد حزن »

فقال الكونت : « فى أشد حزن ؟ لماذا يا صديقى العزيز ؟ »

فقال اراميس : « لقد تآمرت على الملك وفشلت المؤامرة ، وانا فى هذه اللحظة مطارد بلا ريب ! »

فازدادت دهشة آتوس وقال : « مؤامرة على الملك ومطاردة ؟ ! ما هذا الذى تقوله يا صديقى ؟ ! »

فتنهد اراميس وقال : « هذه هى الحقيقة المؤلمة مع الأسف الشديد ! »

فسأله آتوس : « اذن ما معنى قول بورتوس ان الملك جعله دوقا ؟ »

فأجاب بقوله : « ان هذا أشد ما يؤلمنى يا صديقى . فانا قد أشركت بورتوس فى المؤامرة لشدة ايمانى بنجاحها ، وسرعان ما اندفع اليها على عادته بكل قوته ، دون أن يدرى شيئا من أمرها ، وهو الآن متهم مثلى وقد ضاع كما ضعت ! »

وهنا التفت آتوس الى بورتوس ، فوجده يتحدث مسرورا مع راءول ، بينما استطرد اراميس فقال : « يجب أن اطلعك على الامر بحذافيره يا آتوس »

ثم اخذ يقص عليه ما حدث . وكان آتوس يستمع له والعرق يتصبب من جبينه ، واخيرا قال له : « لقد كانت فكرة عظيمة . ولكنها كانت أيضا غلطة جسيمة ! »

فقال اراميس : « وانا الآن القى جزائى عليها ! »

فسكت آتوس هنيهة ثم قال : « اذا شئت أن تسمع رأيى صريحا يا صديقى ، فانت قد جنيت على نفسك وعلى بورتوس المسكين أكبر جناية . وكان عليك ألا تنسى ان فوكيه رجل شريف لا يمكن أن يقرك على تلك المؤامرة الخطيرة ، ولا سيما انك اخترت قصره لتنفيذها »

فقال اراميس : « لا شك انى كنت احمق اذ لم أعرفه على حقيقته ، على ان الحرص والحذر لا يغنيان شيئا عن المرء ازاء مشيئة الأقدار »

ثم سأله آتوس : « ماذا تعتزمه الآن وقد انتهى الامر ؟ »

فأجاب قائلا : « سآخذ بورتوس معى ، لأن الملك لن يصدق ابدا انه اشترك معى فى المؤامرة بحسن نية . ولا انه كان طول الوقت يعتقد انه يخدم الملك . انه سيدفع راسه ثمنا لغلطتى وهذا لا يصح أن يكون »

فعاد آتوس يسأله : « الى اين تذهبان ؟ »

فقال : « سنذهب أولا الى (بل ــ أيل) فهى مرفأ منيع ، ثم هناك البحر وفى الامكان ركوب سفينة تصل بنا الى انجلترا حيث لى أصدقاء كثيرون ! »

وغمغم آتوس متعجبا : « أنت لك أصدقاء فى انجلترا ؟ ! » . بينما واصل اراميس كلامه فقال :

ــ وفى الامكان أيضا أن نذهب الى أسبانيا حيث لى أصدقاء أكثر عددا ، وهناك أستطيع أن أحصل على عفو من لويس الرابع عشر ، وأن أعيد بورتوس الى حظوته لديه !

فابتسم آتوس وقال : « انك تستمتع بنفوذ كبير يا اراميس »

فقال اراميس : « وسأكون فى خدمة أصدقائى دائما . اننى لست وحدى الساخط على لويس الرابع عشر ، وليتك وراءول تلحقان بنا الى (بل ــ أيل) حيث أنه لن يمضى شهر واحد حتى يقوم النزاع بين أسبانيا وفرنسا من أجل حبس فيليب ابن لويس الثالث عشر وهو أمير أسبانى بتلك الطريقة المنافية للانسانية ، ولما كان لويس الرابع عشر لا يميل الى نشوب حرب بشأن هذا الموضوع ، فأنا كفيل بالوصول الى تسوية تأتى بالمجد لبورتوس ولى ، وبدوقية فى فرنسا لك أنت الذى صرت نبيلا أسبانيا من قبل ! »

فقال آتوس : « شكرا لك يا صديقى العزيز ، ولكننى أوثر ان ابقى على ما انا عليه ، فهذا يتيح لى أن أشبع رغبتى فى السمو على الملك ولومه كما تعلم ، اما اذا نفذت اقتراحك فان ما أربحه من وراء هذا مهما يكن جزيلا لا يوازى تأنيب ضميرى على اذلال كبرياء سلالتنا والنزول الى صفوف أذناب الملك ! »

وهنا قال له أراميس : « اذن اعطنى جوادين من عندك لنركبهما الى المحطة الاخرى ، فقد رفض رجل البريد أن يعطينى جيادا بحجة ان دوق بوفور اخذ جياده كلها ! »

فقال له آتوس : « سيكون لك أحسن جيادى يا اراميس . ومرة اخرى أوصيك خيرا ببورتوس »

فابتسم أراميس وقال : « لك أن تطمئن عليه كل الاطمئنان »

فقال آتوس : « ان الملك لا يمكن أن يعفو عنه ، أما انت فان المسيو فوكيه لن يتخلى عنك وان كان هو نفسه فى موقف شديد الحرج برغم عمل البطولة الذى قام به »

فأومأ أراميس موافقا وقال : « أنت على حق . ولهذا آثرت ان ابقى على أرض فرنسية بدل أن ألجأ الى البحر مباشرة ، هذا الى ان جزيرة (بل ــ أيل) ستكون لى كما أريد ، سواء أحسبتها انجليزية أم أسبانية أم رومانية . لأننى توليت تحصينها بنفسى ، وما دمت اتولى الدفاع عنها فلن يستولى عليها أحد ، ثم ان المسيو فوكيه هناك كما قلت انت منذ لحظة . ولن تهاجم الجزيرة الا باذنه وتوقيعه »

فقال آتوس موافقا : « هذا صحيح يا أراميس ، ولكن لا تنس أن الملك يجمع بين القوة والدهاء ، فكن دائما على حذر »

فابتسم أراميسُ وعاد آتوس يقول : « مرة أخرى أوصيك خيرا ببورتوس » . ثم شد على يديه مشجعا ومودعا ، وعادا الى حيث كان بورتوس ما يزال منهمكا فى الحديث مع راءول عن الدوقية التى ينتظرها ، فتعانقوا جميعا ، ثم خرج راءول ليأمر باعداد الجوادين طوعا لاشارة أبيه ، وقال بورتوس فى سذاجته المحببة :

ــ حقا لقد ولدت تحت كوكب سعد . أليس كذلك يا آتوس ؟

فأومأ آتوس موافقا ، وما كاد يرى صديقيه القديمين يهمان بالرحيل حتى احس غشاوة على عينيه وضيقا فى صدره ، وقال لنفسه : « لا أدرى لماذا أميل الى أن أعانق بورتوس مرة أخرى ؟ » . وكان الجوادان قد أعدا ، فنهض بورتوس وعانق آتوس وراءول ثم ركب جواده ، وكذلك فعل أراميس . وبقى آتوس يرقبهما وهما يبتعدان فى الطريق برداءيهما الابيضين ، وكانا أشبه بشبحين يكبران وهما يبعدان عن الارض ، لكنهما لم يختفيا فى الضباب مثل الأشباح ، بل اختفيا عند منحدر الطريق .

وهنا عاد صوب الدار وهو يقول لابنه فى صوت حزين :

ــ لست ادرى ماذا دهانى ؟ ان قلبى يحدثنى بأنى لن أرى هذين الصديقين مرة أخرى !

فقال راءول : «ان ذلك لايدهشنى لأنى انا أيضا شعرت بهذا الشعور ! »

فقال أبوه : « انك يا عزيزى حزين لسبب آخر يجعلك ترى الأشياء كلها سوداء.على انك ما زلت شابا فاذا قدر ألا ترى هذين الصديقين الشيخين مرة أخرى لأنهما لن يكونا فى هذا العالم ، فان أمامك سنوات كثيرة تحياها ، أما أنا . . . »

وسكت الكونت دون أن يتم عبارته ، فهز راءول رأسه أسفا ، ومال على كتف الكونت دون أن يجد أحدهما كلمة يقولها ليفرج عن قلبه المكروب

وانهما لكذلك اذا بأصوات تأتى من نهاية الطريق المؤدية الى (بلوا) وجياد ترمح بفرسانها وحملة مشاعل يجرون متفادين الجياد ، وكان هذا المنظر وسط الليل على طرف نقيض من منظر أراميس وبورتوس وهما يختفيان وسط الظلام !

بين الحب والحرب

ما كاد آتوس وراءول يعودان الى المنزل حتى رأيا ضوء المشاعل يغمر مدخله وسمعا صائحا يقول : « سمو دوق بوفور ! » . فجرى آتوس الى الباب ليستقبل الدوق القادم ، وكان هذا قد ترجل عن جواده ووقف ينظر حوله . فهتف به آتوس قائلا :

ــ انى هنا يا صاحب السمو

فقال الدوق : « عم مساء يا عزيزى الكونت . لعل الوقت ليس وقت زيارة . ولكن هذا لا يهم كثيرا بين الاصدقاء »

فاقترب منه آتوس مرحبا ، وصافحه الأمير بحرارة،ثم دخل معه المنزل مستندا الى ذراعه ، وتبعهما راءول ومعه ضباط الأمير ، وكان يعرف كثيرا منهم . ولما وصلا الى غرفة الجلوس أراد أن يتركهما وحدهما فيها ليلحق بأولئك الضباط فى الغرفة الاخرى التى نزلوا فيها ، ولكن الدوق لمحه فقال لوالده :

ــ دعه يبق معنا.انه جندى من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، وقدسمعت عنه ثناء كثيرا من المسيو (لى برانس)

فصاح آتوس بولده : « ابق معنا يا راءول ما دامت هذه ارادة الدوق »

وقال الدوق وهو ينظر الى الفتى مليا : « انه طويل القامة وسيم الوجه. ألا تعطينى اياه يا كونت ؟ »

فقال له آتوس متعجبا : « أعطيك اياه ؟!.. ماذا تقصد يا صاحب السمو ؟ »

فقال الدوق : « لقد جئت اليك لكى أودعك ، ولعلك لا تدرى أى مصير اخترته لنفسى أو اختاره لى الملك ! »

فقال آتوس : « أنا أعرف أنك أمير باسل وسيد كامل »

وواصل الدوق كلامه قائلا : « سأصير أميرا افريقيا وسيدا من أسياد البدو !. ان الملك عهد الى فى القيام بفتوحات فى افريقية »

فازداد تعجب آتوس وقال : « ما هذا الذى تقوله يا صاحب السمو ؟ »

وقال الدوق وهو يبتسم : « انه لأمر عجيب حقا أن أنتقل الى هناك أنا البارىسى حاكم الضواحى الذى لقبه الناس بملك الاسواق ، وأحد قواد

الحرب الداخلية . ولكن هذه هى الحقيقة يا صديقى ، وعما قريب يتم اعداد الحملة وابحارها الى تلك الاصقاع »

فقال الكونت : « حقا ؟. لولا أنك قلت لى ذلك بنفسك ما كنت لأصدق حرفا منه ! »

فقال الدوق : « هذه عاقبة العودة الى الحظوة عند الملك يا صديقى ، ولكنك لم تعلم بعد يا عزيزى الكونت لماذا قبلت هذه المهمة ؟ »

فقال الكونت : « أنا أعلم أن سموك تبحث عن المجد قبل كل شيء »

فابتسم الدوق وقال : « أكبر الظن أنى سألقى هناك شيئا غير المجد !. لقد أردت يا صديقي أن تكون لحياتى هذه الخاتمة بعد كل الأهواء التى اتبعتها خمسين سنة . وأية خاتمة أروع من هذه ، لحياة انسان مثلى ولد حفيدا للملك واشترك في حروب ضد ملوك ، واستطاع أن يحتفظ برتبته وأن يكون قائد البحرية الفرنسية ؟.. انى ذاهب الى (جيجلى) بأفريقية يا عزيزى الكونت لكى أقتل هناك بين الأتراك والمغاربة ! »

فقال آتوس : « كيف تقول ذلك يا صاحب السمو ؟. كيف تتصور أن حياة مجيدة كحياتك يمكن أن تنطفىء هكذا فى عتمة وشقاء ؟! »

فنظر اليه الدوق متعجبا وقال : « لا تظن ياعزيزى أنى بانهاء حياتى على هذا النحو فى افريقية سأكون مغبونا !.. ولا تنس أنى سأجعل الناس يتحدثون عن فعالى هناك ويذكرون اسمى بجانب (لى برانس) و (دى تورين) وغيرهما من الابطال المعاصرين . وهكذا تجد أنى لم يبق أمامى سوى أن أرحل الى ميدان القتال لأظفر بتلك الخاتمة الرائعة ان لم يكن فى شمال أفريقية ففى بقعة أخرى من الارض ! »

وهنا قال له آتوس : « انك تغالى يا صاحب السمو ، وما عهدتك قبل الآن مغاليا الا فى اظهار الشجاعة ! »

فابتسم الدوق ساخرا وقال : « يا صديقى العزيز .. ان الشجاعة الآن هى مواجهة داء الأسقربوط ومرض الدوسانتاريا والجراد والسهام السامة كما فعل سلفى (سان ــ لويس) .. نعم ان القوم هناك لا يزالون يستخدمون السهام السامة فىحروبهم ، وأنت تعرفنى حق المعرفة، وتعرف أنى اذا عزمت على أمر فانى أبذل فيه قصارى ما أملك من جهد ونشاط »

فقال آتوس مبتسما : « أجل يا صاحب السمو ، أنا أعرفك حق المعرفة، ولم أنس بعد تصميمك على الفرار من (فينسين) منذ سنين »

فقال له الدوق : « وأنا لم أنس مساعدتك لى فى ذلك . ولهذه المناسبة أين المسيو (فوجريمو) ؟. ألم يأت معك الى هنا ؟ »

فقال آتوس : « ان جريمو لا يزال خادمك المخلص ، وستراه الآن »

فقال الدوق : « حسنا !. ان معى مائة بستول أحضرتها معى تنفيذا لوصيتى التى أعددتها ! »

وهنا ضحك الدوق ثم التفت الى راءول وقال له : « انى أعلم أن عندكم هنا مقدارا من نبيذ فوفراى وأحسب ... »

فخرج راءول من الغرفة فورا لكى يأمر باحضار النبيذ ، وعندئذ أمسك الدوق بوفور بيد آتوس وسأله : « ماذا اعتزمت أن تصنع بهذا الشاب ؟ »

فقال آتوس : « لا شيء فى الوقت الحاضر يا صاحب السمو »

فقال الدوق : « اذن فالأمر صحيح !.. عجيب حقا أن يقع الملك في غرام تلك الفتاة ، وأظن أنى رأيت لافاليير هذه ... انها ليست فائقة الجمال !. على أنها تذكرنى بسيدة لطيفة كانت أمها تقيم فى هالى ، ألا تذكر يا كونت ؟ »

فابتسم آتوس وزفر زفرة حرى ، بينما استطرد الدوق فقال : « ماكان أجمل الايام الماضية !.. أجل ان لافاليير تذكرنى بابنة تلك السيدة »

فقال آتوس : « لقد كان لها ابن أيضا !.. أليس كذلك ؟ »

فقال الدوق : « نعم ، أظن أنهاكان لها ابن.. لكن خبرني أولا يا كونت: هل راءول غاضب لأن الملك أخذ منه فتاته ؟ »

فأجاب آتوس قائلا : « انه فعل ما هو خير من ذلك.. لقد اعتزل القصر الملكى ! »

فقال الدوق متعجبا : « اذن .. لماذا تدعه للصدأ يعلوه هنا ؟ .. انك مخطىء يا كونت . أعطنى اياه ! »

فقال آتوس : « الواقع أنى أحب أن أبقيه معى ما دام يقبل هذا، وبخاصة أنى ليس لى ابن سواه ! »

فقال الدوق : « انى أتبين فيه معدن الرجولة الذى خلق منه قواد فرنسا العظام . ونظرى لا يخطىء ! »

فهز الكونت رأسه أسفا وقال : « ماذا نصنع يا صاحب السمو ؟. ان الملك وحده هو الذى يرفع الضباط الى مرتبة القواد . وراءول لن يقبل أى شيء من الملك ! »

وقطع حديثهما أن عاد راءول للغرفة ، وخلفه جريمو يحمل صينية عليها زجاجة من النبيذ الذى يؤثره الدوق ، ولما رأى هذا محسوبه القديم صاح صيحة فرح وقال : « جريمو ؟. عم مساء يا جريمو .. كيف حالك ؟ »

فانحنى الخادم بين يديه فى اجلال ووجهه يفيض بالسرور ، بينما ربت الدوق كتفه ملاطفا وقال للكونت : « اننا صديقان قديمان ! » . ثم نظر الى الصينية وقال : « ما هذا يا كونت ؟!. كأس واحدة ؟ »

فقال الكونت : «انه ليس لى أن أجرؤ على الشرب مع سموك الا اذا أذنت لى فى ذلك ! »

فقال الدوق : « أهكذا ؟.. اذن قد أصاب جريمو اذ جاء بكأس واحدة لأننا سنشرب منها معا ! »

فقال آتوس : « ان هذا شرف كبير لى يا صاحب السمو »

وملأ الدوق الكأس وشرب بعضهـا ثم ملأها وناولها لآتوس فشربها وأعادها أمام الدوق ، فأخذ يملؤها قائلا : «انى لا أزال ظمآن ! »٠ثم التفت الى راءول وواصل كلامه قائلا : « ثم انى أريد أن أشرب نخب هذا الشـاب الوسيم ٠ انى أحمل معى حسن الحظ يا فيكونت !٠ وفى اسـتطاعتك أن تتمنى أى شيء يخطر ببالك وأنت تشرب من كأسى هذه فتتحقق أمنيتك ! »

ومد الى راءول يده بالكأس ، فتناولها وتجرعها مرة واحدة ، ثم انحنى للدوق قائلا : « لقد تمنيت شيئا يا صاحب السمو !٠ وأرجـو أن تنجز وعدك بتحقيق أمنيتى ! »

فقال له الدوق مبتسما : « لك هذا يا فيكونت !٠٠ ماذا تمنيت ؟ »

فقال راءول : « تمنيت أن أصحب سيدى الدوق الى جيجلى ! »

فامتقع وجه آتوس ولم يستطع أن يخفى تأثره ، ونظر اليه الدوق كأنه يريد أن يعاونه على تحمل هذه الصدمة ٠ ثم قال لراءول : « حسنا جـدا يا عزيزى الفيكونت ٠ ولكن والدك يحب ألا تتركه ٠ على أنك على صواب ٠ فليس هنا ما تستطيع عمله ، أوليس هنا ما ينسيك ما تحاول نسيانه ! »

فاحمر وجه راءول ، بينما استطرد الدوق فقال : « ان فى القتال تسلية عظيمة ولا شك !٠ ونحن نكسب به كل شيء ، ولا نخسر سوى شيء واحد هو الحياة ! »

فقال راءول : « حتى فى هذه الحالة يكون هناك كسب عظيم ! »

وقد ندم على هذه الكلمة ، لأن أباه قام على أثرها وتظاهر بفتح النافذة لكى يخفى تأثره ، وهم راءول أن يلحق به ، ولكن آتوس كـان قد تمالك جأشه فعاد الى مجلسه بادى الهدوء والسكينة ، ثم قال الدوق : « اذا ذهب معى راءول فسيكون أركان حربى ، بل سيكون ولدى ! »

فجثا راءول على احدى ركبتيه بين يدى الدوق وقال : « شـــكرا كثيرا يا صاحب السمو ! »

وقال آتوس وهو يمسك بيد الدوق : « ان راءول سيفعل ما يعجبه ! »

فقال راءول : « لا ٠٠ بل سأفعل ما يعجبك أنت يا أبتاه ! »

فصاح بهما الدوق قائلا : « سيكون ما يعجبنى أنا !٠ وقد قررت أخذك معى يا عزيزى راءول ٠٠ ان البحرية تهيء لك مستقبلا باهرا ! »

فابتسم راءول ابتسامة حزينة كان لها فى نفس أبيه أثر شديد فنظر اليه نظرة صارمة ٠ ثم قام الدوق وقد لحظ أن الوقت تأخر به وقال : «انى على عجل !٠ ولكن اذا كنت قد ضيعت وقتا فى التحدث الى صـديق قديم فقد كسبت جنديا بارعا ! »

فقال له راءول : « معذرة يا صاحب السمو ، أرجو ألا تخبر الملك بذهابى معك لأنى لا أقصد أن أخدمه ! »

فالتفت اليه الدوق وقال له : « ماذا تقول يا صـــديقي ؟!٠ ومن الذى تخدمه اذن ؟!٠٠ لقد مضى العهد الذى كان يمكنك أن تقول فيه : انى من جيش دوق بوفور ! اننا الآن كلنا فى خدمة الملك كبارا وصغارا ٠ فأنت اذ تصبح من رجال أسطولى يا عزيزى الفيكونت ، ستكون فى خدمة الملك ولا شك ! »

ونظر آتوس الى راءول منتظرا ما يجيب به وقد أمل أن يكون فيما ذكره الدوق عقبة فى سبيل ذهابه معه ، ولكن هذا أجاب قائلا : « يا سـيدى الدوق ٠٠ لقد فكرت فى الأمر٠وسأخدم على ظهر سفنك لان هذا يشرفنى، ولأنى فى الوقت نفسه سأكون فى خدمة سـيد أعظم سلطانا من الملك ٠ سأكون فى خدمة الله ! »

وتبادل الدوق والكونت نظرة متسائلة ٠ فمضى يوضح الأمر قائلا :

ــ الواقع أنى اعتزمت أن أصبح فارسا من فرسـان مالطة !٠ أن أهب حياتى كلها خالصة لله !

فترنح آتوس من هذه الصدمة الجديدة وغلب التأثر الدوق ، وسقطت من يد جريمو زجاجة النبيذ وتحطمت دون أن ينتبه اليها أحد ٠ ثم نظر الدوق الى راءول مليا فلما تبين صدق العزم فى ملامحه سـكت ولم يقل شيئا ٠ أما آتوس فكان يعرف قوة ارادة ولده ، ولهـذا لم يجد فائدة من محاولة ارجاعه عن عزمه ٠ فضغط يد الدوق الممدودة اليه ساكتا ، وقال هذا وهو يودعه : « سأسافر بعد يومين الى طولون ، فهل تقابلنى فى باريس لأعرف ما عولت عليه ؟ »

فأجابه الكونت : « سيكون لى شرف مقابلتك فى باريس لكى أقدم لك شكرى على عطفك الجم ! »

فقال الدوق : « اذن ٠٠ لا تنس أن تحضر الفيكونت معك ، سواء أكان سيذهب معى أم لا ٠ لقد أعطيته كلمتى ولكن بقى أن أعرف كلمتك أنت ! »

ثم جذب الدوق أذن جريمو ملاطفا ، ومضى الثـلاثة يودعونه حتى ركب جواده وانطلق به ومن خلفه ضباطه على جيادهم ، وسرعان ما انطلقت بهم الجياد مسرعة بعد أن أخذت كفايتها من الراحة !

وحينما خلا آتوس الى راءول قال له : « أبعد يومين تكون قد تركتنى الى الأبد يا راءول ؟! »

فأجابه بقوله : « اننى يا سيدى كنت قد اعتزمت أن أطعن قلبى بسيفى ولكنى عدلت مخافة أن تعد هذا جبنا من ولدك ٠ وهـذه هى فرصة طيبة قد لاحت لانقاذى من ذلك المصير المهين ، ومن ميتة أحقر وأمر اذا أنا بقيت هنا فريسة للحزن أو الحب الخائب ! »

وأوى آتوس الى فراشه بعد ذلك ٠ أما راءول فذهب الى الحديقة ومضى بقية الليل تحت أشجار الليمون هناك !



« وإذا بالصندوق ينفتح فجأة ويخرج منه شبح مغطى الرأس بخوذة »

ذو القناع الحديدى

مضت الرحلة فى سبيلها ، وكان آتوس وولده يقطعان أرض فرنسا من الشمال الى الجنوب بمعدل خمسة عشر فرسخا فى اليوم. ووصلا أخيرا الى طولون بعد سفر أسبوعين وقد فقدا كل أثر لدارتانيان فى الانتيب. وأدركا أن قائد الفرسان قد حرص فى طريقه على اخفاء شخصيته . وقد أسف راءول اذ لم يقابل دارتانيان فقد ود لو يودعه ويلتمس العزاء من صلابته. وكان آتوس يعلم أن دارتانيان يصيبه البكم كلما أراد القيام بمهمة فى خدمة الملك !

ولما بدأ راءول يجمع عمارته البحرية ليرسلها الى طولون ، علم الكونت من أحد صيادى السمك أن سفينته يجرى أصلاحها بعد رحلة قامت بها لحساب سيد استأجرها منذ ستة أيام للتوجه الى جزيرة (سان ــ أونورا) وكان مع ذلك السيد صندوق كبير وعربة أصر على أخذهما معه. ولما عارض الصياد كان جوابه أن ضربه بعصاه ضربات موجعة على كتفيه ، فشكاه الصياد الى رئيس نقابته فى الانتيب ، وما كاد هذا يطلع على ورقة أبرزها له ذلك السيد حتى انحنى اجلالا له وأمر بوجوب الامتثال لمشيئته دون أية معارضة .

فقال له آتوس : « كيف أصيبت سفينتك ؟ »

فأجاب الصياد : « ان ذلك السيد غير رأيه فى الطريق الى (سان أونورا) وطلب التوجه الى جزيرة سان مرجريت ، وقد حاولت أن أعصى أمره ولكنه أمسكنى من عنقى وهددنى بأن يخنقنى !. ثم حدث أن هجمت عليه بمساعدة زميلى ومع كل منا بلطة لكى ننتقم منه ، ولكنه سرعان ما جرد سيفه وأخذ يعمله بطريقة عجيبة حالت دون اقترابنا منه، وهنا هممت بأن أرميه بالبلطة التى معى ، واذا بالصندوق الذى معه يفتح فجأة ويخرج منه شبح مغطى الرأس بخوذة وعلى وجهه قناع أسود جعل منظره بشعا مخيفا ، ثم اقترب الشبح منى مهددا بقبضة يده ! »

فسأله آتوس : « من كان ذلك الشخص أو الشبح كما تسميه ؟ »

فقال الصياد : « لقد كان الشيطان نفسه ، ولكن السيد خاطبه عندئذ قائلا : (شكرا لك يا صاحب السمو) .. »

فتمتم الكونت وهو ينظر الى راءول قائلا : « انها لقصة عجيبة ! »

وسأل راءول الصياد : « ماذا فعلت أنت بعد ذلك ؟ »

فأجاب : « انك تعرف يا سيدى أن رجلين مثلى وزميلى لا يستطيعان أن يواجها خصمين عنيدين أحدهما شيطان ، وعلى هـــذا قفزنا الى الماء نطلب النجدة ، بينما مضت السفينة الى سانت مرجريت تساعدها ريح غربية · ولما استعدناها بعد ذلك لم نجد بها أحدا ، وقدمت شكوى الى حاكم الجزيرة فأنذرنى بالجلد اذا ضايقته مرة أخرى بمثل هذه القصة مؤكدا سخافتها ، برغم التلف الذى أصاب السفينة وطلب النجار لاصـــلاحه مائة وعشرين ليفر ! »

وهنا قال الكونت للصياد : « ســنعفيك من الخدمة » · ثم صرفه وقال لراءول : « سنذهب الى سانت مرجريت · أليس كذلك ؟ »

فقال راءول : « أجل يا سيدى ، ويخيل الى أن ذلك الصياد لم يصدقنا القول »

فقال الكونت : « هذا ما أرجحه أنا أيضا · ولعل ذلك الصـــندوق كان يحتوى على مؤونة مهربة·غير أنى أخشى أن يكون ذلك السيد هو دارتانيان، وأن يكون ذلك الصياد وزميله قد نالا منه ما عجزت عنه السيوف والرصاص خلال أربعين سنة ! »

وفى اليوم نفسه أبحرا قاصدين الى سانت مرجريت على ظهر زورق جىء به من طولون·ولما هبطا أرض الجزيرة سرا بمنظرها اذ كانت أرضها مملوءة بالازهار والفاكهة · وكان الجزء المزروع بها بستانا للحـــاكم ، به أشجار البرتقال والليمون والتين ، وكانت العصافير الملونة تتنقل بين الاشـــجار والغصون·وكلما سار آتوس وراءول صادفهما أرنب برى روع من مرآهما· وكانت هذه الجزيرة غير مسكونة وأرضها مبسوطة وبشاطئها خليج صغير يصلح لرسو السفن وابحارها · وكان مهربو البضائع يستخدمونها مرفأ لهم تحت حماية الحاكم الذى يشاركهم أرباحهم ، ويقطن قلعة تحيط بهـــا بركة عميقة تحميها ولها ثلاثة أبراج

وطاف آتوس وراءول حول سياج الحديقة دون أن يلقيا أحدا يقدمهما الى الحاكم·وأخيرا دخلا الى الحديقة ــ وكان ذلك فى أشد ساعات القيلولة ــ فلم يريا أحدا فيها أول الأمر ، ثم وجدا جنديا يحمل سلة مملوءة بالمؤونة فوق رأسه ، ولكنه سرعان ما اختفى خلف كشك الديدبان ، ثم سمعا بغتة صوتا يصيح بهما من خـــلال قضبان نافذة ، وأبصرا يدا تلوح بشىء أبيض لامع سقط على الارض ، فجرى راءول نحوه والتقطه فوجده طبقا فضيا كتب عليه بحافة سكين ما يأتى : « انى أخو ملك فرنسا · انى سجين اليوم وقد أكون مخبول العقل غدا · أيها السادة الفرنسيون المسيحيون : صــــلوا لله من أجلى ! »

وسقط الطبق من يد آتوس بينما كان راءول يحاول أن يفهم معنى لهذه الكلمات ، وفى اللحظة نفسها سمعا طلقة من البرج الاوسط،ومرت فوقهما رصاصة أطلقت من البرج · فصاح آتوس قائلا : «رباه ! ان الناس يقتلون

هنا ! » · ثم وجه كلامه الى مصدر الطلقات قائلا : « اهبطوا الينا أيهـــا الجبناء ! »

وهز راءول قبضة يده صائحا : « أجل اهبطوا الينا ! »

وهم أحد المهاجمين أن يطلق الرصاص ، ولكنه لما سمع صيحة آتوس وراءول رد بصيحة دهشة ، ودفع بندقية زميل له ، فانطلقت رصاصتها فى الهواء · ثم اختفيا من الشرفة ، فانتظر آتوس وراءول أن يأتيـــا اليهما ، ووقفا ينتظران فى ثبات وعزم · وبعد خمس دقائق قرع طبل لدعوة الجنود الثمانية الذين بالحصن الى التأهب ، فظهروا على الجانب الآخر من الحفرة وبنادقهم فى أيديهم · وكان عـــلى رأســـــهم ذلك الضابط الذى كان أطلق الرصاص ، ورآه راءول يأمر جنوده بأن يستعدوا فصاح بأبيه قائلا : «انهم سيطلقون علينا الرصاص ، فلنجرد السيف ولنقفز الى الحفرة · وسنقتل اثنين على الأقل من هؤلاء الاوغاد حين تفرغ بنادقهم ! »

وقرن القول بالفعل وهم بالقفز وأبوه من ورائه ، واذا بهما يســـمعان صوتا مألوفا يصيح بهما قائلا : « آتوس !·· راءول ! » · فصـــاحا معا : « دارتانيان ! »

ثم سمعاه يأمر الجنود بانزال بنادقهم ، وبعد دقيقة كان بجانبهما فسأله آتوس : « ما معنى هذا كله ؟· لقد أوشكنا أن نقتل دون تحذير ! »

فقال دارتانيان : « لقد كنت أنا الذى سأطلق عليكما الرصاص ، ولو أخطأ الحاكم المرمى لما أخطأته أنا يا صديقى العزيزين · ولـــكن من حسن الحظ انى اعتدت أن أمضى وقتا فى تصويب البنـــدقية بدلا من أن أطلقها فور رفعها ، ولقد حسبت انى عرفتكما · آه يا صـــديقى العزيزين : ما أسعدنى ! »

ومسح العرق الذى كان يتصبب من جبينه اذ كان قد أتى يجرى · فقال له آتوس : « كيف ذلك ؟ ولماذا يطلق الحاكم علينا الرصاص ؟ »

فقال : « لأنكما التقطتما الطبق الذى رماه الســـجين لكما ، وقد كتب بأسفله شيئا · أليس كذلك ؟ »

ولما أجابا موافقين ، تناول الطبق منهما فى فزع شديد ثم قال : « ها قد جاء الحاكم فاسكتا !· آه لو علم انكما استطعتما الاطلاع على السر الذى كتبه السجين ؟!· انى أحبكما أيها الصديقان العزيزان ولا أتردد فى أن أفديكما بنفسى ولكن ما كنت لأنقذكما من السجن المؤبد ان أنقذتكما من الموت · فاسكتا الآن ! »

وجاء الحاكم بعد أن بسطت له قنطرة مر عليهـــا فوق الحفرة ، ونظر الى دارتانيان وقال له :« والآن ماذا يمنعنا ·· ؟ »

فهمس دارتانيان لصديقيه : «انكما اسبانيان ولا تعرفان كلمة فرنسية!» ثم قال للحاكم : « لقد كنت على صواب · ان هذين السيدين ضابطان

اسبانيان عرفتهما السنة الماضية فى (ايبر) ٠ وهما لا يعرفان أية كلمة من الفرنسية ! »

فقال الحاكم : « ومع هذا كانا يحاولان أن يقرآ ما كتب على الطبق ! »

فأمسك دارتانيان الطبق بيده ومحا الكتابة بطرف سيفه ٠ بينما صاح به الحاكم : « ماذا تفعل ؟ انى لا أقدر أن أقرأ الآن ما كان مكتوبا ! »

فقال دارتانيان : « انه سر من أسرار الدولة ، وبناء على أمر الملك ليس لأحد أن يقف على هذا السر والا كان الموت جزاءه ، فلا مانع عندى من أن أدعك تقرؤه ثم تعدم بالرصاص توا ! »

وفى خلال هذا الحوار الذى يتخلله الجد والهزل معا ، كان آتوس وراءول ساكتين بشكل يدل على غاية الهـــدوء وعدم الاكتراث ٠ ثم قال الحـــاكم لدارتانيان : « ولكن ألا يعرف هذان الســـيدان على الأقل بعض كلمات فرنسية ؟ »

فقال له : « لنفرض أنهما يعرفان بعض كلمات للحديث فانهما لا يقدران أن يقرآ ما هو مكتوب ٠ انهما لا يعرفان أن يقرآ حتى الكتابة الاسبانية ٠ تذكر أن النبلاء الاسبانيين لا يليق بهم أن يعرفوا القراءة والكتابة ! »

فاضـــطر الحاكم الى أن يقتنع بهذا الايضـــاح ، ولكنه كان عنيدا فقال لدارتانيان : « ادع هذين السيدين الى دخول القلعة »

فقال له : « هذا يسرنى وقد كدت أعرض عليك ذلك »

والواقع أن دارتانيان كان يتمنى لو كان صديقاه على بعد مائة فرسخ ، ولكنه اضطر الى أن يجارى الموقف ٠ ثم خاطب آتوس وراءول باللغة الاسبانية موجها اليهما الدعوة فقبلاها ، واتجهوا جميعا نحو مدخل القلعة ، بينما عاد الجنود الثمانية الى راحتهم التى قطعها عليهم وقوع ذلك الحادث غير المنتظر !

□

ولما دخلوا القلعة قال آتوس لدارتانيان : « ألا تقول كلمة توضح هـــذا اللغز ؟ »

فقال دارتانيان : « ان الأمر لا يعدو أنى جئت الى هنا بسجين أمر الملك بألا يراه أحد ، وقد كنت أتناول الغداء مع الحاكم فرأيت الطبق الذى قذف به من نافذته والتقطه راءول ، فحسبت أنكما على موعد معه وأمرت بأن يطلق عليكما الرصاص »

فقال له آتوس : « لو انك قتلتنى يا دارتانيان لكان هذا من حسن حظى اذ كنت أموت فى سبيل البيت المالك بيدك أنت أنبل من يدافع عنه ! »

فسأله دارتانيان : « ماذا تعنى بذكر البيت المالك هنا ؟ ٠٠ انك لا يمكن أن تصدق ما كتبه رجل معتوه ؟ »

فأجاب الكونت : « بل أعتقد أنه لم يكتب الا الحقيقة » ٠ وأضاف راءول الى ذلك قوله :

ـ لو أنه كان غير صادق ما أمرك الملك بأن تقتل كل من يسمع قصته !

فقال له قائد الفرسان : « لا تنس أن كل فرية مهما يكن من سخافتها يسهل رواجها بين الشعب ! »

فقال آتوس : « كلا يا دارتانيان ! ٠ بل قل أن الملك لا يريد أن يشيع سر أسرته بين الناس فيوصم بالعار ! »

فقال له دارتانيان : « لا تتكلم هكذا كالأطفال يا آتوس ، انك لم تفقد عقلك لكى تصدق خرافة ان لويس الثالث عشر له ابن هنا فى جزيرةسانت مرجريت ! »

فقال الكونت فى هـــدوء : « ولم لا أصدق هـــذا وأنت قد جئت به الى هنا فى سفينة صيد ؟ »

فسأله دارتانيان متعجبا : «من أين علمت أنى جئت فى سفينة صيد ؟»

فأجاب : « اننى أعلم كل شىء يا صـــديقى ، ألم يكن معك فى السفينة صندوق به هذا السجين ، وكنت تخاطبه بلقب صاحب السمو ؟ »

فعض دارتانيان على طرف شاربه من الغيظ وقال له : « على كل حال اذا صح انى جئت الى هنا فى سفينة ومعى سجين فى صندوق فليس فى ذلك ما يدل على أن هذا السجين أمير من البيت المالك فى فرنسا ! »

فأجاب آتوس فى برود : « انك لا تعلم أنى قابلت أراميس بعد حبوط مشروعه فى فو ! ٠ وقد قص على ما يكفى لأن أصدق الشكوى التى كتبها ذلك الشاب البائس ! »

فارتسم الحزن على وجه دارتانيان وقال : « هكذا تتبدد ارادة الانسان شعاعا أمام ارادة الله ! ٠٠ اننى يا آتوس لألعن الظروف التى جعلتك تقف على هذا الذى وقفت عليه ، لأنى الآن ٠٠٠ »

فقطع آتوس كلامه قائلا بصلابته المعتادة : « هل ذاع سرك لأنى وقفت عليه ؟ ٠٠ سل ذاكرتك يا عزيزى : ألم تكن فى صدرى أسرار لا تقل شأنا عن هذا السر ؟ »

فقال دارتانيان فى أسف : « لكن هـــذا السر أخطر كثيرا ، انه مشئوم يجلب النحس ، ويخيل الى أن كل من وقف عليه سيموت ميتة غير سعيدة ! »

فقال آتوس : « لن يكون الا ما يريده الله ! » ٠ ثم بدا الحاكم قادما ، فعاد دارتانيان وصديقاه يمثلون دورهم ٠ وكان الحـــاكم سىء الظن قاسى القلب لكنه كان يعامل دارتانيان باجلال كبير ، وعلى هذا حرص طول وقت تناول الطعام على احترام ضيفيه ، ولكنه فى الوقت نفسه لم يحد عنهما ببصره ٠ وحاول أكثر من مرة ارباكهما بهجوم مفاجىء فى الحديث ، ولكنهما لزما جانب الحذر ، فلم يبد منهما ما يجعله يشك فى أنهما اسبانيان لا يعرفان

الفرنسية ولا الكتابة والقراءة. فلما فرغوا من تناول الطعام وانصرف الحاكم الى مسكنه الخاص ليأخذ نصيبه من الراحة ، قال آتوس لدارتانيان باللغة الاسبانية : « ما اسم هذا الرجل ؟ . انى لا أرتاح الى منظره ! »

فأجابه دارتانيان : « اسمه دى سان مارس ، وقد أخبرته أنكما جئتما الى هذه الجزيرة لصيد الطيور ولزيارة الدير الذى فيها لطائفة البندكتيين وسترحلان غدا »

ثم اقترح عليهما أن يخرجوا لصيد الارانب البرية قائلا : « ان الحياة هنا لا تلائمنى كثيرا . وهذا الرجل يضجرنى الى حد بالغ مع أنى رئيسه ! . على أن المشى فى الجزيرة لذيذ لا يجهد ، فطولها لا يزيد على فرسخ ونصف، وعرضها فرسخ واحد فكأنها حديقة كبيرة ! »

ونادى دارتانيان أحد الجنود وقال له : « أحضر للسيدين بندقيتين » .

ولما غادروا القلعة قال لهما دارتانيان : « الآن أسألكما بدورى : ما الذى جاء بكما الى هذه الجزيرة ؟ »

فقال له آتوس : « جئنا لنودعك فان راءول مسافر بعد أيام »

فقال دارتانيان : « لا شك فى أنه ذاهب مع دوق بوفور الى أفريقا . أليس كذلك ؟ »

فقال الكونت : « أجل يا عزيزى . انك دائما تصيب فى حدسك ! »

وكان راءول قد تركهما يتحدثان ومضى الى صخرة يغطيها العشب فجلس فوقها وقد وضع بندقيته بين ركبتيه وجعل ينظر الى البحر نظرة شاردة ، فقال دارتانيان لآتوس : « انه لم يشف من الصدمة بعد . ولكن قلبه الكبير النبيل كفيل بأن يجنبه المخاطر ! »

فقال آتوس فى أسف : « ان راءول لن يشفى من أثر تلك الصدمة الا بالموت الذى ينشده فى رحلته ، وقد أصر عليها لهذا الغرض ، وليس فى وسعى أن أصحبه لأنى لا أريد أن أراه يموت ! »

فنظر دارتانيان الى صديقه مليا بينما استطرد هذا فقال : « انك تعرف انى طول حياتى لم أعرف الخوف ، ولكنى لا أكتمك انى أخاف منذ الآن ذلك اليوم الذى أتلقى فيه نعى راءول ! »

فقال له دارتانيان : « دعنى اذن أحدثه فى الأمر ، ولن أحاول أن أعزيه بل سأؤدى له خدمة أجل ! » . ثم تركه ومضى الى حيث جلس راءول ، وأخذ فى الحديث معه الى أن تطرق الحديث الى الآنسة دى لافاليير ، فقال راءول : « عندى كلام كثير أريد أن أقوله لها ولكنى لا أحب أن أكتب اليها!»

فقال له دارتانيان : « اذن تعال الى القصر الملكى لتقابلها وتقول لها ما تريد . ان هذا خير من الكتابة اليها ، ثم انها فيما أعتقد فتاة صادقة . ولعلها تحبك أنت الذى هجرتك حبا أشد من حبها للملك ، أعنى أنها تعدك صديقا مخلصا يركن اليه ويسعدها أن تكون على مقربة منها دائما ! »

فقال راءول : « انى لا أرضى ذلك لنفسى فانه أمر مهين ! »

فقال له دارتانيان : « كلا ! . ليس بالأمر المهين أن تخضع لقوة أقوى من ارادتك . واذا كان قلبك يقول لك : (اذهب اليها أو مت) فاذهب اليها دون تردد !.. انها كانت شجاعة حقا بل كانت أشجع النساء حين آثرت الملك عليك ، فلماذا تكون أنت أقل شجاعة منها ؟! »

فقال راءول : « كلا ! . لست أريد أن أراها ثانية ، لأنى لا أريد أن أنسى حبها ، وعلى هذا أرجو منك أن تسلمها هذا الخطاب الذى كتبته فى الليلة الماضية . وهذا هو فاقرأه لترى أنى على حق ! »

ثم ناوله الخطاب فقرأ دارتانيان فيه ما يلى :

« يا آنسة . انك فى اعتقادى لم تخطئى اذ لم تحبينى وانما ارتكبت ذنبا واحدا نحوى هو أنك تركتنى أعتقد انك تحبيننى . على أنى اذ أصفح عنك لا أقدر أن أصفح عن نفسى . وقد قيل ان المحبين السعداء فى حبهم تصم آذانهم عن سماع شكوى المحبين المنبوذين ، ولكنى على يقين من اننى أستطيع أن أقلب صداقتك لى حبا حين لا تخشين وجودى ولا لومى . فمهما يكن الغرام الحديث ذا فتنة لك ، فان الله لم يجعلنى دون الذى اخترته لنفسك فى شىء ، وستحبيننى لأن اخلاصى وتضحيتى ونهايتى المؤلمة ستجعل لى فى نظرك امتيازا على الآخر . ان كثيرا من الناس أكدوا لى انك أحببتنى الى حد ما ، وفى هذا ما يكفى ليزيل من قلبى كل أثر لما حدث ، فاقبلى منى هذا الوداع الأخير ، وستباركيننى لاننى التمست لنفسى ملاذا يمحى فيه كل بغض ، ويدوم فيه كل حب الى الأبد . وداعا يا آنسة ، وثقى بأن سعادتك لو كانت تشترى بآخر نقطة من دمى لما ضننت بها !..

راءول فيكونت دى براجلون »

وقال دارتانيان بعد أن قرأ الخطاب : « انه لا بأس به ، ولكنى أجد به عيبا واحدا ، فقد ذكرت فيه كل شىء ما عدا الشىء الذى ينبعث كالسم القاتل من عينيك ومن قلبك ، وهو ذلك الحب الذى لا معنى له والذى يكاد يلتهمك . لماذا لم تكتب لها بكل بساطة قائلا : (يا آنسة .. انى بدل أن العنك ، أحبك وأموت) ..؟! »

فقال راءول مبتهجا : « صدقت يا سيدى ! » . ثم تناول الخطاب من يد دارتانيان ومزقه ، وكتب بدلا منه أسطرا على رقعة ورق أخرى وقدمها لدارتانيان فقرأ فيها :

« لكى أسعد بأن أقول لك مرة أخرى انى أحبك ، أرانى أنحط الى الكتابة اليك . ولهذا سأموت لأعاقب نفسى على هذه الدناءة ». ثم قال لدارتانيان: « أرجو أن تعطيها هذه الورقة يا كابتن ، فى اليوم الذى يمكنك أن تضع فيه تاريخا تحت هذه الأسطر ! »

وكان أبوه قد أقبل نحوهما بخطى بطيئة فسارعا الى مقابلته ، ثم عادوا

الى القلعة ، وقبل أن يبلغوها لحظوا أن الامواج قد علت ايذانا باقتراب عاصفة ، ثم لمحوا شيئا قذفته الى الشاطىء فسأل آتوس : « ما هـذا ؟ · زورق محطم ؟ » · فقال دارتانيان : «كلا انه ليس زورقا ، بل هو الصندوق المغلق الذى رميته فى البحر بعد انزال السجين ! »

فقال آتوس : « اذن يحسن أن تحرقه يا دارتانيان حتى لا يبقى له أثر »

فقال دارتانيان : « الحق معك يا آتوس وسأتولى ذلك بنفسى فيما بعد ، أما الآن فهيا ندخل القلعة لان المطر يهطل مدرارا والبرق مخيف ! »

ومروا فوق الاستحكامات الى رواق كان مفتاحه مع دارتانيان ، فرأوا المسيو سان مارس يتجه صوب غرفة السجين ، فأشار اليهما دارتانيان أن يختبئا فى ركن بالسلم · وسأله آتوس : « ما هـذا ؟ » · فأجابه : « ان السجين عائد من المصلى ! »

وعلى وميض البرق شاهدوا الحاكم وفى أثره رجل يرتدى ثيابا سوداء وعلى وجهه قناع من صلب لامع ، يمتد من الخوذة التى على رأسه ، ولم يبد من وجهه سوى عينين تقدحان بالشرر · ووقف السـجين لحظة فى وسط الرواق لينظر الى الأفق ويستنشق الهواء ويتنهد بما يشبه الزئير · فقال له سان مارس بحدة : « هيا واصل السير يا سيدى ! »

فصاح آتوس من الركن الذى اختبأ به : «بل قل : (ياصاحب السمو) »· وكان صوته مخيفا جعل الحاكم يرتعد وجعل السجين يتلفت حـوله ، ثم صاح الحاكم قائلا : « من الذى تكلم ؟ »

فسارع دارتانيان الى الاجابة قائلا : « أنا !·· انك تعلم أن الأمر يقضى باستعمال هذا اللقب ! »

وهنا قال السجين للحاكم : « كلا !· لا تلقبنى بالسيد ولا بصـاحب السمو ، ان اللقب الذى يليق بى الآن انما هو لقب (الملعون) !·· » · ثم مضى فى طريقه حيث أغلق عليه باب زنزانته

وتمتم دارتانيان مخاطبا راءول وهو يشير الى ذلك الباب : « مسكين ! »

بين الجنس اللطيف

ما كاد دارتانيان يعود الى جناحه مع صديقيه حتى جاء أحد الجنود ينبئه بأن الحاكم يبحث عنه ليسلمه رسالة حملتها اليه سفينة شراعية ، ومضى دارتانيـان فتسلم الرسـالة وكانت بخط الملك ، وقد جاء فيها ما يلى :

« أحسبك قد انتهيت من تنفيذ أوامرى يا مسيو دارتانيان ، واذن عد فورا الى باريس والحق بى فى قصر اللوفر ! »

فصـاح دارتانيان فرحا : « حمدا لله !· هذه خاتمة نفيى بهذه الجزيرة ولم أعد سجانا ! »

ثم أطلع آتوس عـلى ذلك الخطاب فقال له هـذا فى أسف : « اذن ستتركنا ؟! » · فقال له : « سنلتقى ثانية أيها الصديق العزيز ، ان راءول فى سن تسمح له بالذهاب وحده مع دوق بوفور · ولا شك فى أنه يؤثر أن يعود والده الى باريس مع زميله دارتانيان بدلا من أن يقطع مائتى فرسخ وحده لكى يصل الى بيته فى لافير ! »

ثم نظر الى راءول كأنما يستطلع رأيه فى ذلك ، فقال هذا بلهجة أسى : « هذا أحسن ! »

وقال آتوس لدارتانيان : « أحسب أننا نستطيع أن نغادر هذه الجزيرة معا فى السفينة الشراعية التى جاءت بالرسالة فتقلنا الى الانتيب »

فأومأ دارتانيان موافقا ، ثم غادرالاصدقاء الثلاثة جزيرة سانت مرجريت بعد أن ودعوا الحاكم ، وبعد أن اطمأن دارتانيان الى حرق الصندوق الذى كان به السجين · وحينما وصلوا الى الانتيب فىالليلة نفسها ودعدارتانيان صديقيه قبل أن يمتطى صهوة جواده وقال لهما : « انكما تشبهان جنديين يفران من موقعهما · وقلبى يحدثنى بأن راءول سيحتاج الى مساعد ، فهل تسمحان لى أن أطلب الى الملك أن يرسـلنى الى أفريقا عـلى رأس مائة من الفرسان القادرين ؟·· ان الملك لن يرفض هذا الطلب ، وسآخذك معى يا آتوس ! »

فضغط راءول يده قائلا : « شـكرا لك يا مسيو دارتانيان !· اننى ما زلت شابا أحتاج الى ما يجهد الجسم والفكر · أما أبى فانه فى شـدة الحاجة الى الراحة · وأنت أعز أصدقائه ولهذا أعهد اليك فى العناية به ، ولا شك فى أن هذا يجعل روحينا فى اطمئنان ! »

فقال له دارتانيان : « انك ستمكث هنا ثلاثة أيام على الأكثر · فمتى يصل الكونت الى بيته ؟ »

فأجاب آتوس : « ان هذا يحتاج الى وقت طويل ، والواقع أني لا أريد أن أعجل بالافتراق عن رآءول • ان الوقت نفسه يمضى بسرعة فلا ينبغى لى أن أزيد فى سرعته • ولذا سأوثر السفر البطىء ، وسأشترى جوادين من صنف أزرقى من جياد البريد التى جئت بها الى هنا • ولكى أصل بهما فى حالة جيدة يحسن ألا أقطع أكثر من سبعة فراسخ فى اليوم »

فسأله دارتانيان : « وأين جريمو الآن ؟ » • فأجاب قائلا : «ان جريمو وصل صباح أمس مع متاع راءول ، وقد تركته ينام ويستريح » • ثم ودعهما دارتانيان مرة ثانية ومضى فى سبيله • وماكادا يستأنفان سيرهما بعد أن اختفى بجواده عن أنظارهما حتى سمعا خلفهما وقع حوافر جواد يعدو ، وشد ما كانت دهشتهما اذ تبينا أن الفارس القادم هو نفسه صديقهما قائد فرسان الملك ، وما وصل اليهما حتى قفز من فوق جواده وعانقهما عناقا حارا ، ثم عاد فركب جواده ومضى مرة أخرى دون أن يقول كلمة !

وعاد الكونت وولده الى طولون وقد بدأت تمتلىء بضجة العربات والاسلحة والجياد والجنود تأهبا لسفر الحملة الى شمال أفريقا • وكانت الطبول تقرع أمام طوابير الجند والبحارة •وأخذ دوق بوفور يتنقل فى كل مكان ويشرف على اعداد السفن وركوب القوة فى همة وحماسة • وكان يشجع أقل الجنود، ويؤنب الضباط حتى كبارهم !• ويصر على أن يتفقد بنفسه المدافع والمؤونة والمتاع ، ويفحص جهاز كل جندى ويستوثق من صحة كل جواد وقوته • وهكذا انقلب الى عسكرى لا مثيل له بعد أن كان فى قصره مثالا للسيد الأنانى المغرور !• على أن العناية الكبيرة التى بذلت فى اعداد الحملة كان يشوبها التسرع الذى لا يؤمن معه الخطر على جنودها • وكانت الليلة مقمرة وقد أخذ البحارة والجنود ينشدون أناشيدهم على ظهر السفن ، يتخللها صوت السلاسل وهى تسحب أو تبسط • بينما جلس آتوس وولده على لسان فى البحر ساكتين والسفن والزوارق تمر حولهما ثم قال الكونت لولده :

ــ تبارك الله الذى خلق هذا كله كما خلقنا نحن الذرات الضئيلة فى هذا العالم العظيم !• اننا نسطع مثل تلك النجوم والكواكب ، ونتأوه مثل هذه الامواج ، ونعانى كما تعانى هذه السفن الكبيرة التى يصيبها البلى من مغالبة البحار والرياح • ان كل شىء يريد أن يحيا ويعيش يا راءول • وكل شىء فى الكائنات الحية له جمال وبهاء ! »

فقال راءول : « حقا يا سيدى ان أمامنا منظرا جميلا ! »

ثم قال آتوس فجأة : « ما أطيب قلب دارتانيان ! ان من حسن حظى أن عاوننى صديق مثله طول حياتى • انك فى حاجة الى صديق مثله يا راءول •• ان المسيو دى جيش رفيق مناسب ولكنى أعتقد أن عصركم هذا يشغل

كل انسان بشؤونه ومسراته ، على عكس الحال فى عصرنا • لقد التمست لنفسك حياة العزلة ، وفيها هناءة كبيرة ، ولكنك ضيعت قواك فى عزلتك• أما نحن الفرسان الاربعة ، فقد نشأنا بعيدين عن مسرات العصر الحاضر ، ولذا كنا قادرين على مغالبة البأساء كلما حلت بساحتنا »

فقال راءول : « ان المسيو دى جيش صديق لطيف مخلص،ولكنى عشت ناعما بصداقة أخرى من النوع الذى حدثتنى عنه ، وتلك هى صداقتك يا أبتاه ! »

فقال آتوس : « انى لم أكن صديقا لك يا راءول ! »

فسأله : « وكيف ذلك يا سيدى ؟ »

فقال : « لأنى جعلتك تعتقد أن الحياة ليس لها سوى جانبها المحزن القاسى • وا أسفاه ! لقد أبعدتك دائما ــ دون قصد كما يعلم الله ــ عن مسرات الشباب ، ولذا ترانى الآن آسفا على أن لم أتح لك شيئا من طيش الشباب ونزعاته ! »

فقال راءول : « لست أنت الذى جعلتنى جادا صادفا عن مسرات الحياة يا أبتاه ، ولكنه الحب الذى دهمنى فى ابان عهدى بالحياة ، أو هو الوفاء الذى فطرت عليه !•• اننى كنت حتى عهد قريب أحسب أن طريق الحياة ممهدة تقوم على جانبها الازهار والفاكهة • وكنت أحسب انى مثلك صلابة وقوة ، فكنت أنت تسهر على بما أوتيت من يقظة ومقدرة !•• وبقى الأمر كذلك حتى كانت تلك الكارثة التى كشفت حجاب غفلتى وجردتنى من كل قوتى وشجاعتى وتركتنى حطاما •• وهكذا ترى يا سيدى ألا لوم عليك فى شىء من أمرى ، وانك فى ماضى حياتى لم تكن الا سعادة لى ، كما انك كل أملى فى مستقبلى • ولهذا أحبك يا أبى وأباركك ، ومن أجلك وحدك أعيش ! »

فقال الكونت : « يا عزيزى راءول •• ان كلماتك بلسم لجراحى ، فهى تدلنى على أنك ستذكرنى فى الايام القادمة !•• ولسوف أكون لك فى المستقبل أكثر مما كنت حتى اليوم •• سأكون صديقك يا بنى العزيز ، وسأنتظرك حتى تعود لنعيش عيشة مرحة سعيدة بدل أن نحيا هكذا فى عزلة • وسأهب لك يومئذ كل أملاكى ، وان ايرادها ليكفى لأن تعيش عيشة راقية ، وأرجو أن يسعدنى الحظ قبل موتى فأرى حفيدا لى ولا تنقرض سلالتى ! »

فقال راءول متأثرا : « سأفعل كل ما يرضيك »

ثم قال آتوس : « ان مركزك الجديد لا يوجب عليك المجازفة • لقد امتحنتك الوقائع وعرف الناس شجاعتك • وليس من الفخر أن يقع الانسان فى كمين فيموت غير مأسوف عليه • ومعاذ الله أن أنصح لك بأن تتفادى القتال ولكنى أحذرك أن تقع فى كمين ! »

فقال راءول : « انى بطبيعتى حذر يا سيدى ، وقد اشتركت فى القتال أكثر من عشرين مرة ، فكان من حسن حظى أنى لم أجرح الا مرة واحدة ! »

فقال آتوس : « يجب أيضا أن تحذر جو افريقا ! • ان الموت بالحمى موت رهيب • هذا وقد وعد دوق بوفور أن يأتى البريد من أفريقا كل أسبوعين ، وستشرف أنت على ارساله بوصفك أركان حربه • فلعلك لا تنسى أن تكتب الى مع كل بريد ! »

فقال راءول وقد غلبه التأثر : « سأكتب اليك يا سيدى »

ولم يقدر آتوس أن يقاوم عاطفته فأحاط ولده بذراعيه وعانقه بقوة • ثم عادا الى المدينة حيث كان جريمو ينتظر أوبة سيده • فصاح به راءول : « لا شك أنك جئت لتخبرنا بأن الوقت قد حان للرحيل ؟ »

فقال جريمو موجها الخطاب الى الكونت : « ينبغى ألا يذهب وحده الى تلك البلاد الغريبة »

فقال الكونت : « نعم ، يجب أن يكون مع راءول أحد يعاونه ويذكره بكل من أحب »

فقال جريمو : « أنا يا سيدى أذهب معه ، صحيح أنى كبير السن ولكن هذا أفضل ! »

فقال له راءول : « لكن الابحار قد بدأ وأنت لم تستعد »

فقال جريمو : « بل تأهبت يا سيدى ! » • ثم أبرز مفاتيح حقائبه وقد اختلطت بمفاتيح حقائب راءول • فبدا التأثر على الكونت وولده وساد السكوت قليلا ثم قال له راءول : « كلا يا جريمو ! • ينبغى ألا تترك الكونت وحده ، انك لم تفارقه قط قبل الآن ! »

فردد جريمو بصره بينهما وكأنه يسائل نفسه أيهما أولى به ؟ • • ولم ينطق آتوس ببنت شفة ، ثم قال جريمو : « ان سيدى الكونت يؤثر ذهابى مع ولده »

فأومأ آتوس برأسه موافقا • ثم دقت الطبول فجأة ، وانطلقت أبواق السفن فملأت الجو بصوتها • وبدأ الجنود يأخذون طريقهم الى سفنهم • فخف جريمو فى نشاط الشباب للاشراف على نقل أمتعة سيده الشاب الى سفينة القيادة • وكان آتوس ممسكا بيده يد راءول وكأنه لا يريد أن يفترق عنه ، حتى جاء ضابط يجرى لينبىء راءول بأن الدوق يطلبه • فمضى ووالده الى منعطف الطريق حيث وجدا الدوق ممتطيا جوادا أبيض فنادى راءول وصافح الكونت بيده • ثم عانق آتوس ولده فقال له الدوق : « اصحبنا الى السفينة فان أمامنا نصف ساعة قبل أن نبحر »

فقال الكونت : « لقد ودعت راءول يا صاحب السمو ، ولا أحب أن أودعه ثانية ! »

فقال الدوق لراءول : « اذن اذهب الى السفينة الآن يا فيكونت » • ثم

حمله بين ذراعيه ووضعه فى زورق ، وركب هو زورقا آخر ، وسرعان ما عملت المجاذيف ، ثم رأى آتوس ولده يصعد درج سفينة القيادة ويقف عند الحاجز حتى لا يغيب عن بصر والده • وأطلق مدفع ايذانا بالابحار • واشتدت الضجة من المودعين بالشاطىء ، وتعالى دخان السفن ، ولكن هذا كله لم يحل دون تتبع الكونت لابنه ببصره حتى اختفت السفينة فى الأفق • ثم رأى دخانا أبيض ينبعث خلفها من قذيفة المدفع التى أمر الدوق بأن تطلق تحية أخيرة لأرض فرنسا

□

لم يستطع دارتانيان أن يخفى شعوره عن صديقيه • لقد خضع ذلك الجندى الجامد الحس للضعف البشرى لحظات ، حتى اذا تغلب على تأثره واستعاد رباطة جأشه ، قال لخادمه الذى اعتاد أن يصغى ولا يتكلم : « رايو • • يجب أن نقطع الطريق الى باريس بمعدل ثلاثين فرسخا فى اليوم ! »

ثم أخذ يسأل نفسه : « لماذا استدعانى الملك ؟ • ولماذا رمى ذو القناع الحديدى ذلك الطبق الفضى عند قدمى راءول ؟ »

ثم رجع بذاكرته الى اللحظة التى أوشك فيها أن يقتل صديقيه ، والى القدر العجيب الذى جعل آتوس يقف على ذلك السر الخطير ، وفكر فى المستقبل الغامض المخيف الذى ينتظر راءول فشعر بانقباض زاد فيه تذكره نكبة صديقيه بورتوس وأراميس

ولم يكن الملك يرتقب أوبة دارتانيان بمثل تلك السرعة ، وعلى هذا سافر الى ميدون للصيد ، فلما علم بذلك دارتانيان لم يشأ أن يلحق به كما كان يفعل فى ظروف أخرى ، بل خلع ثيابه وحذاءه واستحم وقبع فى بيته انتظارا لعودة الملك الى باريس

وقد علم الكثير مما جرى خلال الاسبوعين الاخيرين ، فالملك صار دائم الاكتئاب ، والملكة الوالدة مريضة حزينة ، والأمير الشقيق الأصغر للملك أصبح يغالى فى ابداء الولاء ، أما الأميرة قرينته ففى ثورة غضب لا تنتهى ، وقد سافر الكونت دى جيش الى مزرعته • وبينما المسيو كولبير صار بادى السرور والتفاؤل كان المسيو فوكيه يستشير طبيبا جديدا كل يوم دون أن يلقى الشفاء على يد أحد منهم لان مرضه سياسى لا طبى !

أما الآنسة دى لافاليير فعلم دارتانيان أن الملك أصبح لا يستغنى عن صحبتها ، واذا لم تكن معه فى رحلات الصيد فانه يكتب اليها بلا انقطاع !

وفكر دارتانيان فى الخطاب الذى يحمله اليها من راءول ، فرأى أن ينتهز فرصة غياب الملك لكى يقابلها ويتحدث معها قليلا لعله يجد ما يعزى به راءول ، وكان يسيرا عليه أن يقابلها أثناء خروج الملك للصيد ، لأنها كانت تتسلى عادة بالسير مع بعض سيدات البلاط فى أروقة القصر الملكى حيث

يمر هو لتفقد الحراس • وعلى ذلك سدد خطاه الى حيث كانت لافاليير وسط دائرة من نساء البلاط ، وكأنها الشمس وسط الكواكب، ولم يكن دارتانيان يجرى وراء النساء ولكنهن كن يحترمنه كما كانت شهرته تثير اعجابهن • فلما رأينه قادما أحطن به ، وأخذن يهاجمنه بالأسئلة عن أسباب غيبته طول تلك المدة •• فأجاب فى جد وهدوء : « لقد كنت فى بلاد البرتقال ! »

وأثارت اجابته ضحكاتهن اللطيفة، ثم سألته الآنسة دى توناى شارنت:

« ماذا تعنى ببلاد البرتقال ؟•• أكنت فى اسبانيا ؟ »

ولما أجاب بالنفى قالت له : « اذن •• كنت فى مالطة ؟ » • فهز رأسه نافيا أيضا وقال : « لقد اقتربتن من الحقيقة ! » • وهنا سألته دى لافاليير:

« هل هى جزيرة ؟ » • فابتسم وقال : « لن أتعبك أكثر من ذلك يا آنسة •• لقد عدت من الجهة التى يبحر منها دوق بوفور فى هذه الساعة الى الجزائر ! »

وانهالت الأسئلة عليه من أولئك الحسان عن الجيش والاسطول ، فيجيبهن اجابات مقتضبة ، الى أن سألته الآنسة دى توناى شارنت : «ألم تر أحدا من أصدقائنا هناك ؟ »

فقال : « أجل !• رأيت ضمن الحملة المسيو دى لاجيلوتيير ، والمسيو دى مانشى ، والمسيو دى براجلون ••• »

وهنا امتقع وجه دى لافاليير، بينما استطردت دى توناى شارنت فسألته فى خبث غير ملحوظ : « ماذا تقول ؟• هل المسيو دى براجلون ضمن الحملة أيضا ؟•• اذن لقد صح ما توقعته فهؤلاء الرجال الذين اشتركوا فى الحملة كلهم ممن خانهم الحظ فى الحب ، فذهبوا الى الشرق للبحث عن نساء سوداوات يكن أشفق عليهم من حسان باريس ! »

وضحك أكثر الأوانس لنكتتها ، بينما اضطربت دى لافاليير ، وسعلت مونتاليه متشاغلة !•• فقال دارتانيان : « الواقع أن نساء الجزائر لسن سوداوات ، بل هن سمراوات فاتنات ، ولهن عيون نجل وشفاه قرمزية لم أر مثلها فى حياتى ! »

فقالت الآنسة دى توناى شارنت : « هذا من حسن حظ المسيو دى براجلون ، فلعله هناك يعوض عن خسارته هنا !• »

وأعقب ذلك صمت شامل ، ولحظ دارتانيان قسوة هذه الفتاة الخبيثة على دى لافاليير وتجاهلها اضطرابها وشحوبها ، ثم استأنفت الحوار بعد لحظة قائلة : « كل هذا ذنبك أنت يا عزيزتى لويز ! »

فقالت دى لافاليير متلعثمة : « أنا ؟• وأى ذنب لى فى هذا يا آنسة ؟ »

فردت عليها قائلة : « ان ذلك الشاب البائس كان خطيبك وكان يحبك ولكنك نبذته ! »

وهنا قالت مونتاليه فى رياء : « هذا حق كل امرأة شريفة • اننا حين يتضح لنا أننا لا نقدر أن نسعد رجلا فالأفضل أن ننبذه ! »

فقالت دى توناى شارنت : « حقا لا شىء فى أن تنبذ الفتاة خطيبها فى مثل هذه الحالة ، ولكن ليس لها أى حق فى أن تبعث به الى الموت ، أو الى الحروب حيث يلقى حتفه ! »

فوضعت لويز يدها على جبينها ، بينما استطردت الفتاة الماكرة فقالت : « اذا مات المسيو دى براجلون فى افريقا ، فلا شك فى أنه يكون قد مات متأثرا بفشله فى حب لويز ! »

وهنا استندت لويز الى ذراع دارتانيان اذ ترنحت للسقوط ، وكانت ملامح وجهه تنم عن تأثر عميق • ثم قالت له فى صوت يشوبه الغضب والألم : « لقد أردت أن تحدثنى يا كابتن • ماذا عندك لكى تقوله لى ؟ »

فجذبها دارتانيان الى ركن بعيد فى الرواق ثم قال لها : « ان ما أردت أن أقوله لك يا آنسة ، قد قالته الآنسة دى توناى شارنت •• صحيح انها قالته بعنف وقسوة ولكنها قالته كله على أى حال ! »

فصرخت صرخة واهنة ثم انفلتت وانطلقت الى باب قريب فى الرواق فدخلته واختفت خلفه ، وفى اللحظة نفسها بدا الملك داخلا من باب آخر واتجه بنظره لأول وهلة الى الكرسى الذى كانت خليلته تجلس عليه فلما لم يجدها وقف هنيهة عابسا ، ثم لمحت عينه دارتانيان وقد وقف حانى الرأس اجلالا له فهتف به : « أهذا أنت ؟• لقد جئت بسرعة••انى راض عنك » • وكان هذا أقصى تعبير عن الارتياح الملكى ••• وكثير من الرجال كانوا يضحون أرواحهم فى سبيل كلمة كهذه من الملك• بينما انسحبت وصيفات الشرف، وتبعهن رجال البلاط اذ لحظوا أن الملك يتحدث حديثا خاصا مع قائد الفرسان ، ثم قاده الملك خارج الرواق وسأله : « حسنا يامسيو دارتانيان• ماذا فعلت بالسجين ؟ »

فقال : « انه فى السجن يا مولاى• وقد تمرد الصياد الذى نقلنا بسفينته الى سانت مرجريت ، وحاول أن يقتلنى، فدافع السجين عنى بدل أن يحاول الفرار ! »

فامتقع وجه الملك وقال له : « كفى ! » • ثم أخذ الملك يدور حول مكتبه فى خطى قلقة سريعة ، وقال لدارتانيان بعد قليل : « هل كنت فى الانتيب حين وصل اليها المسيو دى بوفور ؟ »

فقال دارتانيان : «لقد غادرتها فى الوقت الذى دخلها فيه سموالدوق !»

فسكت الملك لحظة ثم سأله : « من الذين رأيتهم هناك ؟ » • فأجاب فى برود : « رأيت هناك كثيرا من الناس ! »

وأدرك الملك أنه راغب عن الكلام فقال له : « لقد بعثت فى طلبك لكى تعد مسكنى فى نانت باقليم بريتانى »

فقال دارتانيان : « أتقوم جلالتك بهذه الرحلة الطويلة الآن ؟ »

فقال : « ان برلمان الطبقات مجتمع هناك ، وعندى طلبان سأقدمهما له•

وعلى هذا أرى أن أسافر الى هناك في هذا المساء ، ولكنك محتاج الى الراحة ولا شك ، واذن ليكن السفر غدا ٠! »

فقال دارتانيان : « لقد ارتحت يا مولاى » ٠ فقال الملك : « حسنا !٠٠ اذن نبدأ السفر بين هذا المساء ومســـاء غد ! » ٠ فانحنى دارتانيان كأنه يستأذن فى الانصراف ، ولكنه لحظ اضـــطراب الملك فسأله : « أتصحب جلالتك معيتك ؟٠ أعنى هل تحتاج جلالتك الى الفرسان ؟ »

ففكر الملك قليلا ثم قال له : « خذ فرقة منهم ٠ وقد علمت أن قصر نانت غير منظم كما ينبغى ، وعلى هذا لا تنس أن تضع فارسا بباب كل كبير من الكبراء الذين سيصحبوننى مثل المسيو دى ليون والمسيو لتلين والمسيو بريين ووزير المالية ! »

فقال دارتانيان : « غدا أكون قد سافرت ونفذت أمر مولاى ! »

فقال الملك : « حسنا !٠ ولكن كلمة أخرى يا مسيو دارتانيان٠٠ ستقابل فى نانت دوق جيفر قائد الحراس ، فاحرص على تدبير أماكن لفرسانك قبل وصول حراســه ٠ ان السبق هو دائما لمن يأتى أولا ٠٠ واذا سألك دوق جيفر عن شيء فلا تقل له أى شيء ! »

وقال قائد الفرسان لنفسه بعد أن خرج : « الى نانت ؟!٠ لماذا لم يجرؤ على القول بأنه ذاهب الى (بل ـ أيل) من هناك ؟ »

ولما وصـــل الى باب القصر لحق به أحد كتبة المســيو بريين وقال له : « سيدى ٠٠ ان جلالة الملك أعطانى هذا الأمر لأسلمه اليك ! »

وتناول منه الأمر ، فوجد عليه خاتم المسيو فوكيه لكنه بخط الملك نفسه وخاص بصرف مائتى بستول له ٠ فقال لنفسه بعــد أن صرف الكاتب : « المسيو فوكيه هو الذى ينفق على هذه الرحلة ؟!٠٠ ان هذا لأشبه بألاعيب لويس الحادى عشر ٠ لماذا لم يصدر الملك هذا الأمر الى المسيو كولبير ؟!»٠ ثم ذهب من فوره الى دار المسيو فوكيه ليتسلم المبلغ ثم يتأهب للسفر !

العشاء الأخير

كان وزير المالية قد نمى اليه نبأ الرحلة التى اعتزم الملك القيام بهـا ، فأقام بداره مأدبة عشاء لتوديع أصدقائه . وكانت الدار حين وصل اليها دارتانيان تموج بالخدم رائحين غادين يحملون ألوان الطعام وصنوف الشراب. فلما اراد قائد الفرسان صرف قيمة الاذن الذى فى يده من المكتب قيل له ان الوقت متاخر وقد اغلقت الخزانة حتى صباح اليوم التالى . فطلب أن يقابل المسيو فوكيه ، وكان هذا مع ضيوفه فى الجناح المخصص لسكناه بالدار وليس من عادته أن يستقبل أحدا فى مثل هذه الساعة ، ولكنه ما كاد يعلم بوجود المسيو دارتانيان قائد فرسان الملك حتى أوفد الشــاعر بليسون لاحضاره من غرفة الانتظار فقاده هذا الى حجرة المائدة بعد أن اطمأن الى ان الأمر لا يعدو اذن صرف معه يريد قبض قيمته

وكان الوزير جالسا فى مقعــد وثير ومن حوله جماعة الابيقوريين من الشعراء الذين اثبتوا اخلاصهم ووفاءهم له حين اقتربت منـــه العاصفة واهتزت من تحته الارض ، فبقوا على ولائهم له كما كانوا فى عهــد رخائه وابان نعمته . وقد جلست الى يساره مدام دى بلبير ، وجلست الى يمينه قرينته ، ضاربتين عرض الحائط بقواعد العرف ونوازع الغيرة !

ونهض الوزير لاستقبال قائد الفرسان قائلا : « معذرة يا مسيو دارتانيان اذ لم أخرج للقائك وقد جئت باسم الملك ! »

فأجاب دارتانيان قائلا : « يا صاحب الفخامة . اننى جئت باسم الملك لأصرف اذنا بمبلغ مائتى بستول ! »

وعندئذ انقشعت السحب التى كانت مخيمة على الوجوه ، ما عدا المسيو فوكيه فقد ظل واجما وقال : « اذن انت أيضا مسافر الى نانت ؟ »

فقال دارتانيان : « الواقع أنى لا أدرى لماذا أسافر يا صاحب الفخامة »

فقالت مدام فوكيه وقد زال عنها ما اعتراها من وجل : « لكنك لا تتعجل السفر بحيث لا تجلس معنا قليلا ؟ »

فانحنى لها وقال : « ان هذا شرف كبير لى يا سيدتى ، غير ان وقتى ضيق بحيث اضطررت الى أن أقطع عليكم عشاءكم لكى اصرف هذا الاذن ! »

فقال المسيو فوكيه : « اذن يصرف بالذهب ! ».ثم دعا أحد الكتبة وناوله الاذن الذى تسلمه من دارتانيان ، فقال هذا : « انى لم اكن قلقــا بشأن الصرف فان سمعة هذا البيت المالى لا تدع مجالا لأى قلق ! »

فارتسمت ابتســامة حزينــة على شفتى فوكيه ، وسألتــه مدام دى

بليير : « اتشعر بألم ؟ » . وأردفت قرينته قائلة له : « أتشعر بأعراض النوبة ؟ » . فأجابها بالنفى شاكرا ، وهنا تساءل دارتانيان : « أية نوبة ؟.. هل صاحب الفخامة يشكو مرضا ؟ » . فقال فوكيه : « انى أعانى حمى متقطعة أصابتنى بعد مهرجان فو »

فقال قائد الفرسان : « ربما أصبت بالبرد ليلا ؟ » . فقال فوكيه : « لا يا سيدى ، كل ما فى الأمر انى لم أتحمل شدة التأثر ! »

وهنا قال الشاعر فى هدوء : « حقا ! انك أبديت مزيدا من الحماسة فى استقبال الملك ! » . ولم يدر الشاعر أنه بهذه الكلمات قد عاب فى حق الملك . فقال له المسيو فوكيه : « اننا مهما تبلغ حماستنا فى استقبال الملك لا نكون مبالغين ! »

فلم يسع دارتانيان الا أن يقول : « الواقع أن كرم الضيافة لم يوجد قط كما وجد فى مهرجان فو ! »

وهنا جاء الكاتب وسلم المال المطلوب للمسيو دارتانيان ، فلما هم هذا بالانصراف نهض المسيو فوكيه وتناول كأسا من النبيذ وأمر بكأس أخرى للمسيو دارتانيان ثم تجرع كأسه قائلا : « فى صحة الملك دائما ! »

فتجرع دارتانيان كأسه قائلا : « فى صحتك يا صاحب الفخامة دائما » . ثم انحنى مودعا وغادر الحجرة !

وقال المسيو فوكيه بعد انصراف قائد الفرسان وهو يحاول أن يضحك : « لقد حسبت لحظة انه لم يأت من أجل نقودى ! »

فصاح أصدقاؤه متعجبين سائلين عن السبب ، فقال فى هدوئه المعهود : « لا تخدعوا انفسكم يا أخوتى فى الابيقورية . معاذ الله أن أقارن بينى أنا المذنب الوضيع وبين يسوع ، ولكن تذكروا أنه أدب يوما لأصدقائه مأدبة تسمى (العشاء الأخير) كانت بمثابة التوديع لهم كمأدبتنا هذه ! »

فانبعثت صيحات الانكار من كل جانب ، وعندئذ أمر فوكيه بخروج الخدم واغلاق الأبواب ثم قال بصوت خافت : « أى أصدقائى الأعزاء ، ماذا كنت من قبل ؟ . وماذا أنا الآن ؟.. ان رجلا مثلى لا بد أن ينحدر اذا لم يرتفع باطراد . فما بالكم وأنا لم يعد لى مال ولا يثق بى دائن ؟ ! »

فوقف بليسون وقال : « ما دمت تصارحنا هكذا فان من واجبنا أن نصارحك كذلك . هناك سبعمائة ألف ليفر هى كل ما بقى لك كما نعلم ، وهى ... »

فقالت مدام فوكيه متممة : « وهى تكفى ثمنا للخبز القفار ! »

فقال بليسون : « بل تكفى لكى يهرب بها !. يهرب الى سويسرا ، أو الى سافوى ، أو أى مكان ! »

فقالت مدام دى بليير : « اذا هرب صاحب الفخامة فسيقال انه مذنب وانه خاف ؟ ! »

وقال المسيو فوكيه : « بل يقال اكثر من ذلك فسيذاع عنى أنى هربت ومعى عشرون مليونا ! »

فقال لافونتين : « سنكتب مذكرات فى تبرئتك !.. واذن ينبغى لك أن تهرب كما قال بليسون ! »

فقال فوكيه : « بل سأبقى يا أصدقائى !.. ان كل شىء فى مصلحتى ! »

وهنا تكلم الأب فوكيه فقال : « عندك (بل ــ ايل) فاذهب اليها »

فقال فوكيه : « سأذهب بالبداهة الى هناك ولكن بعد أن تنتهى رحلة نانت ! »

فالتفتت اليه قرينته وقالت : « ما أبعد الشقة الى نانت ! » . فقال لها : « أعرف ذلك . ولكن الملك سيدعونى هناك الى حضور برلمان الطبقات ، ولا شك فى أنه بذلك لا يريد غير احراجى !.. ولكنى لا أريد أن أرفض حتى لا أتهم بالخوف ! »

وحينئذ قال بليسون : « لقد وجدت وسيلة لاصلاح كل شىء. ستسافر الى نانت . ولكنك ستسافر بعربتك أولا مع أصدقائك الى أورليانز ، ثم تستقل زورقك الشراعى حتى نانت على أن تكون على أهبة دائمة للدفاع عن نفسك اذا هوجمت ، وللفرار بنفسك اذا هددت بل تحمل معك مالك لمواجهة كل الظروف . وأنت فى طريقك الى الفرار انما تكون مطيعا للملك وفى خدمته . حتى اذا وصلت الى البحر ، سارعت الى الانتقال الى (بل ــ ايل) .. ومن هناك تدافع عن نفسك فى ذلك الحصن المنيع ! »

فلقيت كل كلمات بليسون موافقة عامة ، وقالت مدام فوكيه لزوجها : « أجل هكذا يجب أن تفعل »

وصاح جميع أصدقائه قائلين : « أجل هذا هو الرأى ! »

فقال فوكيه : « اذن سأفعل ذلك ، وسأبدأ هذا المساء بعد ساعة واحدة بل فى الحال ! »

ثم قال الأب فوكيه : « انك بسبعمائة ألف ليفر يمكنك أن تضع نواة لثروة جديدة. وماذا يمنعنا من تزويد القرصان بالذخيرة من (بل ــ ايل) ؟ »

وقال لافونتين بحماسة : « واذا تطلب الأمر فسنبحر لاكتشاف عالم جديد ! »

وفيما هم فى حديثهم سمعت قرعة على الباب قطعت حديثهم وجاء الحاجب يقول : « رسول من قبل الملك » . فساد المكان صمت عميق . وترقب كل واحد من الحاضرين ما يفعله الوزير ، وكان جبينه يتصبب عرقا ، وقد عاودته الحمى حقا فى تلك اللحظة . ثم انتقل الى مكتبه ليتلقى رسالة الملك وسمع الجميع صوته وهو يقول للرسول : « هذا حسن » وكان صوته مرتعشا يغلبه التعب والتأثر . وبعد برهة نادى جورفيل ثم عاد أخيرا الى ضيوفه وهو فى حالة من الاعياء واليأس فصاحوا به قائلين :

« ماذا هنالك ؟ » . فكان جوابه ان مد رسالة الملك التى كانت فى يده الى بليسون ، فقرأ هذا فيها ما يلى :

« عزيزى المسيو فوكيه . أعطنا مما بقى لنا مبلغ سبعمائة ألف ليفر لأننا فى حاجة اليه للاستعداد للسفر . واذ علمنا أن صحتك ليست على ما يرام نسأل الله لك الشفاء والعافية . . . لويس

« حاشية ــ هذا الخطاب يعد ايصالا »

فتمتم الجميع بما يدل على الفزع . وسأله بليسون : « ماذا عولت عليه ؟ »

فقال : « لقد دفعت المبلغ ! »

فصاحت مدام فوكيه : « دفعته ؟ . . اذن لقد ضعنا ! »

وقال بليسون : « لا فائدة من الكلام ، بعد أخذ المال ستؤخذ الحياة !. الى جوادك اذن !. انك اذا انقذت نفسك فكأنك انقذتنا جميعا ! »

وعارضت مدام فوكيه قائلة : « لكنه لا يستطيع أن يمسك نفسه على الجواد ؟ ! »

وفى هذه اللحظة جاء جورفيل يلهث من التعب وقال : « لقد رافقت رسول الملك بالمبلغ الى القصر الملكى ، وهناك وجدت الفرسان على ظهور جيادهم متأهبين ! »

فصاح الجميع قائلين : « اذن يجب إلا تضيع دقيقة واحدة ! »

واندفعت مدام فوكيه تأمر باعداد الجياد . بينما جرت مدام دى بليير وراءها فاحتضنتها قائلة : « سيدتى ٠٠ فى سبيل سلامته ، لا تبدى أى انزعاج ! »

وجرى بليسون ليستوثق من ربط الجياد الى العربة ، وفى الوقت نفسه جمع جورفيل فى قبعته كل ما أمكن أولئك الصحاب أن يضعوه فيها من الذهب والفضة ، ثم حمل بعضهم المسيو فوكيه الى العربة فوضعوه فيها. وصعد جورفيل فأمسك زمام الجياد . وساعد بليسون مدام فوكيه التى أغمى عليها . أما مدام دى بليير فكانت أقوى منها وتلقت جزاءها على ثباتها فى شكل قبلة أخيرة من فوكيه . وفسر بليسون للخدم والكتبة هذا السفر المفاجىء بأن أمرا من الملك قد صدر بدعوة الوزير الى نانت فورا !

□

لم يشأ دارتانيان أن يقيد نفسه بفرقة الفرسان فى الرحلة ، فسافر الى نانت بجياد البريد ، وترك الفرقة تلحق به بعد أن أوصى وكيله فيها بسرعة المسير ، ولما مر بشارع (بتى ــ شان) رأى المسيو كولبير يخرج من بيته ليركب عربته التى كانت تنتظر أمام الباب ، ولمح فى تلك العربة رأس سيدتين قد أخفت قبعتاهما وجهيهما ، فحفزه الفضول لأن يعرف شخصيتيهما

ولذا استحث جواده حتى صار الى جوار العربة ، وتبين فيها امرأة شابة هى مدام فانيل وأخرى عجوزا هى دوقة شيفريز . فقال لنفسه : « ان الدوقة العجوز قد ودعت كبرياءها وها هى ذى تتزلف الى خليلة كولبير ؛ يا لفوكيه المسكين ٠٠ ان هذا لا يبشر بخير له ! » ٠ ثم مضى فى سبيله

واستقل كولبير عربته عقب ذلك الى غابة فنسين حيث نزلت مدام فانيل عند بيت زوجها ، وبقيت مدام دى شيفريز وحدها معه بالعربة . فأخذت تحدثه مثنية على مقدرته ، مؤكدة أنه لن يلبث قليلا حتى يصبح وزيرا خطيرا بينما لا يكون فوكيه شيئا مذكورا ، ثم وعدته بأن تكسب له ، حين يصبح وزيرا للمالية ، تأييد جميع الأسر النبيلة القديمة فى المملكة ثم قالت له : « لن أقول لك أكثر مما قلته عن المسيو فوكيه . ان الرحلة التى سيقوم بها الملك الى نانت ستسوى حسابه تماما ! ان الملك يتلمس أية ذريعة يتذرع بها ، ومتى عاد من نانت فسيقول : ان برلمان الطبقات لم يسلك المسلك الواجب ولم يقدم الا تضحيات قليلة ، بينما يقول البرلمان : ان المكوس المطلوبة فادحة وان وزير المالية أرهق كاهل البلاد ، وحينئذ ينحى الملك باللائمة كلها على المسيو فوكيه فلا يجرؤ أحد من الذين يؤيدون المسيو فوكيه على الدفاع عنه ٠٠ فالآنسة دى لافاليير مثلا ليس لها الا نفوذ ضئيل ، وهى لا تعرف شؤون السياسة ٠ وقد غازلها المسيو فوكيه يوما ، فاذا هى دافعت عنه فكأنها تتهم نفسها !. أما الملكة الوالدة فاذا كانت قد استطاعت من قبل أن تحول بين الملك وبين الأمر بالقبض على المسيو فوكيه فى فو ، فهى لن تستطيع ذلك الآن ، لأنها لا تطيق أحدا ممن اشتركوا بأى شكل فى كشف سر خاص كانت جد حريصة على كتمانه ، وقد كان المسيو فوكيه احد هؤلاء ! »

فقال المسيو كولبير : « اذن نثق بتأييد الملكة الوالدة ؟ »

فقالت له : « نعم ، وقد كنت عندها منذ برهة وجيزة وأكدت لى ذلك ! ولكن هناك مسألة أخرى . أتعرف صديقا حميما للمسيو فوكيه يسمى المسيو دربلاى وأحسبه أسقفا ؟ »

فقال كولبير : « أجل أعرفه ، وهو أسقف مدينة فان »

فقالت الدوقة : « ان المسيو دربلاى هذا يعرف ذلك السر أيضا ، ولذا تطارده الملكة الوالدة الآن بكل ما فى وسعها حتى أنها لا تكتفى بأقل من رأسه لكى تستوثق من أنه لن يتكلم ثانية ! »

فقال كولبير : « سنبحث عن المسيو دربلاى هذا حتى نعثر عليه ما دامت هذه رغبة الملكة الوالدة ! »

فقالت : « ان مكانه معروف، فهو الآن فى جزيرة (بل ــ أيل ــ آن ــ مير) التى يملكها المسيو فوكيه ! »

فقال : « اذن سنقبض عليه هناك فى أقرب وقت ! »

فابتسمت الدوقة وقالت له : « لا تظن أن ذلك أمر يسير »

فنظر اليها كولبير نظرة جادة وقال : « لقد مضى الزمن الذى كان الرعايا فيه يكسبون دوقيات بمحاربة الملك . واذا كان المسيو دربلاى ثائرا فسيموت على المشنقة ، ولن يهمنا أن يسر هذا أصدقاءه أو لا يسرهم ! »

فقالت الدوقة : « انك لا تعرف الكثير عن المسيو دربلاى ! انه أراميس أحد الفرسان الأربعة الذين جعلوا الكاردينال ريشيليو يرتعد فرقا فى عهد الملك السابق ، ثم سببوا متاعب جمة للمسيو مازارين فى عهد الوصاية على العرش ! »

فقال لها : « فليكن يا سيدتى ، ولكن ماذا يستطيع أن يفعل الا اذا كان وراءه مملكة تؤيده ؟ »

فقالت جادة : « الواقع أن وراءه مملكة يا سيدى »

فقال : « حسنا !. ما دمت يهمك ألا يهرب هذا الثائر فانى أعدك بألا ندعه يهرب ! »

فقالت : « انك تعلم ان (بيل ـ ايل) محصنة ، وأنه هو نفسه قام بتحصينها »

فقال : « سنحاصرها حتى يسلم ! »

فبدا البشر فى وجهها وقالت : « كن واثقا يا سيدى أن هذا الاخلاص الذى تبديه لصالح الملكة الوالدة سيلقى منها التقدير ، وأنك ستكافأ أجزل المكافأة على اعتقال ذلك الفارس المسمى دربلاى الذى هو أكثر من جاسوس أسبانى .. انه قائد الجزويت . وهكذا ترى أننا ان لم نقض عليه فسيقضى علينا جميعا ! »

فقال : « قائد الجزويت ؟ !.. اذن لا شىء غير السجن يسوى هذه المسألة يا سيدتى ! »

فابتسمت الدوقة ثانية وقالت : « لعلك لا تعلم أن أراميس فر أكثر من مرة من السجن ؟ !.. انه كان أحد الفرسان الأربعة الذين يخشاهم ريشيليو ، ولا تنس أن أولئك الفرسان لم يكونوا وقتئذ يملكون ما يملكونه الآن من المال والخبرة ! »

فعض كولبير شفتيه وقال : « اذن نترك فكرة السجن ، وسنجد له مكانا لا يخرج منه الانسان ! »

فابتسمت وقالت : « أصبت أيها الحليف !. ويحسن بنا أن نعود الآن فان الوقت تأخر بنا » . فوافق على ذلك قائلا : « حسنا يا سيدتى ، فلنعد الآن الى باريس وبخاصة أن على أن أعد معدات السفر لأكون فى معية الملك خلال رحلته ! »

فرار المسيو فوكيه

كانت المرحلة الأولى من سفر المسيو فوكيه أو فراره يسودها القلق والخوف من كثرة الجياد والعربات التى كانت ترى خلفه . والواقع أن لويس الرابع عشر ما كان ليترك فريسته تفلت منه بسهولة . ولكن الوزير الهارب عاوده بعض الاطمئنان حين سبق مطارديه بمسافة بعيدة كما أن اسراعه لم يكن يدعو الى الريبة اذ المعروف أنه مسافر ليلحق بالملك فى نانت . وهكذا وصل مطمئنا برغم تعبه الى أورليانز ، وهناك وجد زورقا جميلا ، ذا ثمانية مجاذيف وبه قمرة صغيرة على سطحه ، فاستقله ومعه جورفيل الى بوجنسى عبر اللوار ، ووصلا اليها دون حادث يذكر فقوى أمل الوزير فى أن يبلغ نانت قبل غيره ، وهناك يرى (الأعيان) ويكسب لنفسه أنصارا بين أعضاء البرلمان ، وبذلك يرجىء النكبة ان لم يستطع منعها ، كما يجد جيادا تقله الى بواتو حيث يركب زورقا يبلغ به حصن (بل ـ ايل) المنيع

على أنهما قبل الوصول الى نانت بساعات لمحا سفينة مسرعة خلف زورقهما كأنها تطارده ، ثم تبينا أن كولبير هو الذى يستقلها ومعه رجال مسلحون ، فلما وصل الجميع الى ميناء نانت اقترب كولبير من فوكيه وحياه باحترام كبير ، وكانت الجماهير قد اجتمعت هناك ، فوقف فوكيه رابط الجأش ورد تحية خصمه قائلا وهو يتصنع الدهشة : « أهذا أنت يا مسيو كولبير ؟ !.. اذن كانت سفينتك تلك التى رأيناها خلفنا وفيها أثنا عشر مجذافا ؟!.. ما هذا الترف يا مسيو كولبير ، لقد حسبت أن تلك السفينة تقل الملكة الوالدة ! »

فاحمر وجه كولبير وغمغم قائلا : « يا صاحب الفخامة ! » . بينما استطرد فوكيه فقال له : « ان هذه الرحلة ستتكلف كثيرا ولكنك وصلت لحسن الحظ . ولعلك رأيت كيف وصلت قبلك مع أن زورقى ليس به سوى ثمانية مجاذيف ! »

ثم أدار له ظهره وركب العربة التى كانت البلدية قد أعدتها لتقله الى دارها . ولم يكد يستقر بالدار حتى خرج جورفيل ليأمر باعداد جياد تقلهما الى بواتييه وفان ، وزورق يقلهما من هناك الى بامبيف . وقد حرص على أن يؤدى هذه المهمة خفية دون أن يعلم بها فوكيه

وذاع فى خلال الليل أن الملك قادم بسرعة على جياد البريد ، وقد يصل بعد عشر ساعات أو اثنتى عشرة ساعة ، ووقفت الجماهير تنتظر المليك ،

وكانت قد سرت بمنظر الفرسان الذين وصلوا مع المسيو دارتانيان قائدهم ليكونوا حرس شرف بالقصر

وحوالى الساعة العاشرة جاء المسيو دارتانيان لزيارة المسيو فوكيه بدافع الأدب والمجاملة ، فلم يجد هذا بدا من مقابلته فى حجرة النوم ، برغم تألمه من الحمى التى جعلت العرق يتصبب من بدنه ، وحياه بصوت واهن ، فسأله دارتانيان : « كيف كانت رحلة صاحب الفخامة ؟ »

فقال فوكيه : « لا بأس بها وشكرا لك . وها أنذا أتجرع دواء مهدئا كما ترى ! »

فقال قائد الفرسان : « يجدر بك ان تنام أولا يا صاحب الفخامة »

فقال : « يسرنى أن أنام لو استطعت ذلك ، ولكن كيف أنام مع هذه الحمى ، ومع توقع زيارة قائد الفرسان لى باسم الملك ؟ ! »

فقال دارتانيان : « كلا ، ليس الأمر هنا كما كان فى باريس ، وثق يا صاحب الفخامة بأننى فى اليوم الذى أزورك فيه باسم الملك للغرض الذى تفهمه ، لن أجعلك فى شك من الأمر . بل ستراني أضع يدى على سيفى ، وستسمعنى أقول لك بلهجة رسمية : (باسم الملك أقبض عليك !) . ولكنا لم نصل الى هذا .. وأقسم لك بشرفى ! »

فقال فوكيه : « شكرا لك يا مسيو دارتانيان ، ولكن ما الذى جعلك تعتقد عكس هذا الذى أعتقده ؟ »

فقال : « اننى لم أسمع أى شىء تشتم منه تلك الرائحة ، وثق يا سيدى بأنك رجل لطيف برغم الحمى التى بك ، وليس يسع الملك الا أن يحبك من قرارة فؤاده ! »

فبدا الشك فى وجه فوكيه وقال له : « وهل يحبنى المسيو كولبير أيضا ؟ »

فأجابه دارتانيان : « انى لا اتحدث عن المسيو كولبير . انه رجل شاذ ، ولا يحبك . ولكن السنجاب يستطيع أن يحمى نفسه من الثعبان بقليل من الجهد ! »

فقال له الوزير : « أتدرى أنى لم أصادف فى حياتى أحدا بمثل ذكائك وطيبة قلبك ؟ »

فحنى دارتانيان رأسه شاكرا وقال : « انك لم تشرب الدواء بعد ياصاحب الفخامة ! » . ثم ناوله الدواء فى مودة ظاهرة فأخذه منه فوكيه وهو يبتسم ، وقال قائد الفرسان : « لقد قضيت عشر سنوات تحت بصرك وأنت تنثر الذهب ، وتنفق معاشا قدره أربعة ملايين فى السنة ، لكنك لم تلحظ وجودى قط ، ولكن ثق يا سيدى بأنى أقدرك كل التقدير ! »

فقال فوكيه : « شكرا لك !.. هذا يجعلنى أنسى سوء التقدير الذى يلاحقنى به المسيو كولبير ! »

فقال دارتانيان : « يبدو أن المسيو كولبير أثقل عليك من الحمى التى تشكوها ! »

فقال فوكيه : « ان لى ما يبرر ذلك ، وقد كان يطارد الزورق الذى جئت به الى هنا مطاردة الواثق من أن نكبة يجب أن تحل بى ! »

وهنا بدا الجد فى هيئة دارتانيان وقال : « الحق معك يا سيدى ! » . بينما واصل الوزير كلامه قائلا : « الا تحسب الملك قد جاء بى الى نانت لكى يبعدنى عن باريس حيث لى أعوان كثيرون ، ثم يستحوذ على (بل – أيل) ..؟ »

فقال دارتانيان : « أنت تعنى رغبة الملك فى الوصول الى المسيو دربلاى الذى لجأ الى هناك ، على أننى أذكر لك يا صاحب الفخامة ان الملك لم يقل لى شيئا ضدك . لقد أمرنى جلالته أن أسافر الى نانت ومعى فرقة من الفرسان ، وأمرنى كذلك بألا أذكر شيئا عن ذلك للمسيو دى جيفر الذى تنطق عيناه بغير ما تنطق به شفتاه . أما الفرقة فتضم تسعة وتسعين فارسا ، أى مثل عدد الفرسان الذين خولوا القبض على دى شاليه ودى سانت مارس ومونتمورنسى »

فأصغى فوكيه الى هذه الكلمات التى كان دارتانيان يقولها بغير اكتراث . ثم سأله : « ألم يأمرك الملك بغير ذلك ؟ »

فأجاب قائلا : « لقد أصدر الى أوامر أخرى غير ذات شأن ، مثل حراسة القصر وحراسة كل مسكن فيه وألا أترك حراس دى جيفر يحتلون أى موقع فيه »

فنظر اليه فوكيه مليا ثم قال له : « يا عزيزى المسيو دارتانيان .. ان شرفى وربما حياتى نفسها ، فى خطر شديد ، فبماذا أمرك الملك فى شأنى ؟ »

فقال دارتانيان فى هدوء : « ألم أقسم بشرفي أن ليس عندى فى شأنك أى أمر من الملك ؟ .. ثق يا سيدى بأن جميع الأوامر التى تلقيتها من الملك ليس فيها ما يتعلق بك ، فهى كلها اجراءات بوليسية كهذه التى ذكرتها لك ، وكمنع الجياد والعربات من أن تغادر نانت دون أمر موقع عليه من الملك ... »

وهنا قطع فوكيه كلامه هاتفا : « رباه ! أأمر الملك بهذا أيضا يا مسيو دارتانيان ؟ »

فضحك دارتانيان وقال : « نعم يا صاحب الفخامة ، ولكن كل هذا لا ينفذ الا بعد وصول الملك الى نانت . وهكذا ترى أن الأمر لا صلة له بك ! »

فبدا التفكير فى وجه فوكيه وتظاهر دارتانيان بانه لا يلحظ ما هو فيه من قلق وقال : « انى اذ أذكر لك الأوامر التى أصدرها الملك انما أريد أن أثبت لك أنها لا تتعلق بك ، والا ما كان لى أن أوقع نفسى فى ورطة باتاحة

الفرصة أمامك للهرب حيث لا شرطة ولا حراس ولا أوامر ، والنهر حر والطريق حرة ، بل انى لا مانع لدى من اعادة جيادك لك اذا شئت مغادرة نانت قبل وصول الملك ، ويمكنك أن تطلب الى ما تشاء فانى فى خدمتك . وليس لى ما أطلب فى مقابل ذلك الا أن تؤدى لى خدمة مشكورة بأن تبلغ تحياتى الى أراميس وبورتوس اذا أبحرت الى (بل ـ أيل) ، ما دام لك الحق فى ذلك الآن ! »

ثم انحنى أمام الوزير وغادر جناحه . ولم يصل الى درج الردهة حتى دق فوكيه الجرس وصاح بالخدم قائلا : « أعدوا جيادى وزورقى ! »

ثم ارتدى الملابس التى وجدها فى متناول يده وصاح وهو يضع ساعته فى جيبه : « أين جورفيل ؟ » . وجاء هذا مسرعا وهيئته تدل على الرعب ، فما رآه فوكيه حتى صاح به : « هيا بنا ! »

فقال جورفيل : « لقد فات الوقت يا سيدى ، لأن الملك وصل الى القصر الآن ! »

فتمتم فوكيه قائلا : « اذن لقد ضعنا ! »

والواقع أن الملك كان فى تلك اللحظة يدخل المدينة ، فأطلقت المدافع من الحصون تحية لقدومه وجاوبتها مدافع من سفينة حربية بالنهر . وتملك فوكيه اليأس فنادى وصفاءه وارتدى ثيابه الرسمية ، ورأى من وراء ستائر النافذة تحمس الجماهير وحركة الجيوش . ومضى موكب الملك الى القصر وسط مظاهر فخمة ، ثم رآه يهمس شيئا فى أذن دارتانيان بعد أن نزل من فوق ظهر جواده عند الباب . فاتجه دارتانيان صوب البيت الذى نزله فوكيه ولكن ببطء وتردد . ففتح فوكيه النافذة ليكلمه وهو فى الردهة . ولما رآه دارتانيان صاح به قائلا : « الا تزال هنا يا صاحب الفخامة ؟ . . لقد جئت أسأل عن صحتك ، ولكى أرجو أن تذهب الى القصر اذا سمحت بذلك حالتك الصحية . ان وصول الملك لم يدع لأحد حرية المرور بل هناك كلمة سر تتحكم فينا جميعا ! »

فتنهد فوكيه من أعماق قلبه ، ثم ركب عربته متهالكا فيها على المقعد وذهب الى القصر فى صحبة دارتانيان !

القبض على فوكيه

ما كاد فوكيه يهبط من عربته أمام القصر حتى خف اليه رجل وضيع المظهر وانحنى له فى اجلال كبير ثم ناوله خطابا ، وقد حاول دارتانيان أن يحول دون اقتراب ذلك الرجل من الوزير ، ولكن هذا كان قد تسلم منه الخطاب . ولما قرأه بدا عليه فزع لم يفت دارتانيان . ثم وضع فوكيه الورقة فى حافظة أوراقه التى يحملها تحت ابطه وقصد الى جناح الملك

وفيما كان دارتانيان يتطلع من نوافذ السلم الى خارج القصر لمح الرجل الذى جاء بالخطاب الى الوزير ، ولاحظ أنه يخاطب بعض الافراد باشارات معينة اختفوا عقبها فى الشوارع المجاورة بعد أن كرروا تلك الاشارات . وفى طريقه الى المقصورة الملكية مر أمام فوكيه الذى كان واقفا ينتظر بالشرفة المجاورة للردهة الصغيرة ، وما كاد لويس الرابع عشر يرى قائد فرسانه حتى هتف به قائلا : « حسنا . . هل نفذت الأمر ؟ . أين المسيو فوكيه ؟ »

فانحنى دارتانيان وقال : « انه يتبعنى يا مولاى »

فقال له الملك : « اذن دعه يدخل بعد عشر دقائق »

ثم صرف دارتانيان باشارة من يده ، على أن هذا لم يكد يصل الى حيث كان فوكيه ينتظر حتى دق الملك الجرس طالبا أن يعود اليه ، ثم سأله قائلا : « ألم تلاحظ على فوكيه شيئا من الدهشة ؟ » . ولما أجاب بالنفى صرفه الملك مرة أخرى ، فخرج دارتانيان وقد أكد ظنه أن الملك لم يذكر كلمة (مسيو) قبل اسم الوزير . ولم يكن فوكيه قد غادر الشرفة التى وقف بها ينتظر ، وعاد يقرأ الرسالة التى وضعها ذلك الرجل فى يده ، وكان فيها ما يلى : « ان شيئا يعد ضدك . ولعلهم لا يجرؤون على تنفيذه بالقصر ، على أن ينفذوه فى الطريق عند أوبتك . ان القصر الآن محاط بالفرسان فلا تدخل . هناك جواد أبيض ينتظرك خلف الميدان »

وكان فوكيه قد أدرك منذ وقعت عينه على الخطاب أنه بخط صديقه المخلص جورفيل ، فأشفق أن يقع هذا الصديق فى مأزق بسبب خطابه هذا اذا هو قبض عليه ، وسرعان ما مزق الخطاب قطعا صغيرة وقذف بها من الشرفة فحملتها الريح الى كل ناحية . وفيما هو ينظر اليها وهى تطير جاءه دارتانيان وقال له : « ان الملك فى انتظارك يا سيدى »

فمشى فوكيه بخطى ثابتة فى الردهة الصغيرة حيث كان (دى بريين)

و (روز) يعملان ، بينما جلس (سان ـ اينيان) على كرسى صغير وسيفه بين ساقيه ينتظر الاوامر فى صبر نافد · وعجب فوكيـــه كيف لم يلتفت اليه هؤلاء الثلاثة أقل التفات مع أنهم كانوا عادة كثـيرى الأدب نحوه ، ولكنه تجاهل ذلك قائلا لنفسه : « ماذا ينتظر من رجال البـلاط غير ذلك بعد أن أدركوا غضب الملك على وزيره ؟ » · ثم مضى فى طـريقه وقد رفع رأسه أمام الجميع ، الى أن دخل جناح الملك بعد أن أعلن قدومه جرس صغير هناك

ولما رآه الملك أومأ له برأسه دون أن يقـوم للقائه ، ثم سأله : « كيف أنت يا مسيو فوكيه ؟ »

فقال : « اننى أشعر بحمى شديدة ، ولكننى فى خدمة الملك على كل حال! »

فقال الملك : « حسنا ! ·· ان البرلمان سيجتمع غدا فهل أعددت خطابا؟ »

فنظر فوكيه الى الملك مندهشا وقال : «لم أعد أى خطاب يا مولاى،ولكنى لن أجد مشقة فى الارتجال ما دمت ملما بكل صـــغيرة وكبيرة من شئون الوزارة · على أنى أريد أن أسأل جلالتك سؤالا واحدا فهل تسمح جلالتك بذلك ؟ »

قال : « سل ما تريد »

فقال : « لماذا لم تذكر جلالتك لوزيرك الأول أن عليه أن يعد خطابا ؟ »

قال : « لم أرد أن أجهدك لعلمى بأنك مريض ! »

فقال الوزير : « ان العمل لا يجهدنى كما يعلم مولاى ، وعلى كل حال أرجو أن يسمح لى مليكى باستيضاح أمر آخر »

فاحمر وجه الملك ، وسأله : « أى أمر يا مسيو فوكيـــه ؟ » · فأجاب الوزير : « ان بعض الناس قد افتروا على كذبا ، ولهـــذا أطمع فى عدالة جلالتك »

فبدا الضجر فى وجه الملك وقال : « انى أعـــرف كل شىء ولا يمكن أن أسمح لأحد بأن يسىء اليك ! »

فقال الوزير : « شكرا لك يا مولاى ، على أنى أرجو أن تسمح لى جلالتك بأن أدفع عن نفسى ما بلغوك عنى من الوشايات والاتهامات ! »

فقال الملك وقد اشتد ضجره : « أكرر لك أنى لا أتهمك بشىء »

فانحنى فوكيه قليلا وتراجع خطوة الى الوراء وهو يقول لنفسه : «لا ريب أنه قد صمم على قرار · انه اعتاد ألا يتراجع بأى حال »

ثم قال للملك : « هل بعثت جلالتك فى طلبى لأجل اجتماع البرلمان غدا فقط ؟ »

فقال الملك : «كلا يا مسيو فوكيه ، بل أردت أن أنصح لك بأن تستريح وتستجم ولا تبدد قوتك هبـاء · ان اجتماع البرلمان لن يطول ، ولن تكون هناك بعد ذلك أعمال عاجلة فى باريس لمدة أسبوعين ! »

فقال الوزير : « أليس لدى الملك ما يقوله لى بشأن اجتماع البرلمان ؟ »

قال : « كلا ·· كل ما أريده أن تستريح ! »

فعض فوكيه شـفتيه من الغيظ ، وحنى رأســه متظاهرا بالاقتناع ، لكن الملك لم يفته أنه مشغول البال فسأله متلطفا : « أيغضبك أن تستريح يا مسيو فوكيه ؟ »

فتنهد الوزير وقال : « الواقع يا مولاى انى لم أعتد الراحـة حتى حين أكون مريضا ، ثم انى سمعت جلالتك الآن تتحـدث عن خطاب ألقيه فى البرلمان ! »

فبهت الملك لهذه الملاحظة القوية ، ولحظ فوكيه تردده وخيـــل اليه أنه يقرأ نذير الخطر فى عينيه فقال لنفسه : « لو أبديت خوفا لضعت » · ثم قال للملك : « ما دام مولاى يشفق على صحتى الى حد الاستغناء عن عملى ، فهل لى أن أطمع فى أن يسمح لى بالتخلف عن اجتماع المجلس غدا لأعتكف فى الفراش ؟ »

فقال له الملك : « كما تشاء يا مسيو فوكيه ، اعتكف غدا وسأبعث اليك طبيبى ليعالجك من الحمى التى تشكوها »

فانحنى فوكيه شاكرا ، ثم أراد أن يرمى آخر سهم فى جعبته فنظر الى الملك متفرسا وقال : « هل لى أن أرجو تفضل جلالتك بزيارة قصر (بل ـ أيل) ·· ؟ »

فاحمر وجه الملك ثانية وقال وهو يحاول أن يبتسم : « هذا ما اعتزمته يا مسيو فوكيه ، وأنت تذكر طبعا أنك أهديت الى هذا الحصن ! »

فقال فوكيه : « نعم أذكر ذلك يا مولاى · وانه لشرف عظيم لى أن أرى كل هذه الحاشية العسكرية تأتى من باريس لهذا الغرض ! »

فقال الملك متلعثما : « ان الفرســـان لم يأتوا من باريس لأجـل ذلك وحده · وقد سمعت مديحا كثيرا فى فلاحيك هناك ولهذا أريد أن أراهم · واذا كانت لديك وسائل للانتقال فلنسافر غدا الى (بل ـ أيل) اذا شئت! »

فشعر الوزير بهذه الضربة وقال : « الواقع يا مولاى أنى كنت أجهـل رغبة جلالتك هذه ـ وعلى الأخص رغبتك فى السفر بهذه السرعة ـ ولهذا لا تزال الزوارق الخمســـة التى عنـدى كلها فى الميناء ، أو فى بامبيف ، واحضارها الى هنا يستغرق على الأقل أربعا وعشرين ساعة · فهل أبعث رسولا لاحضارها ؟ »

فقال الملك : « يجب أن تشـفى أولا من الحمى · فلننتظر الى غد ! » · ثم هم الملك بدق الجرس فحال فوكيه دون ذلك قائلا : « معذرة يا مولاى! · ان بى ألما ورعدة من الحمى · واذا بقيت لحظة أخرى فربما أغمى على · ولذا أرجو من جلالتك السماح لى بالذهاب لآوى الى فراشى ! »

فنظر اليه الملك وقال : « انك ترتعد حقا يا مسيو فوكيــه ، فاذهب الى فراشك وسوف أستعلم عن صحتك »

فقال فوكيه : « شكرا لمولاى على هذا العطف الكريم ، وانى لأشعر بأن صحتى ستتحسن بعد ساعة على الأكثر ، وسيسرنى أن أعتمد الآن على ذراع أى انسان ! »

فدق الملك جرسه الصغير وصاح قائلا : « يا مسيو دارتانيان »

فضحكفوكيه وقال : «أتعطينى قائد فرسانك لكىيأخذنى الى مسكنى؟٠ ان هذا شرف يحتمل معنيين يا مولاى ٠ ان حاجبا يكفى لهذا الغرض ! »

فقال الملك دون أن يضحك : « ان المسيو دارتانيان كثيرا ما يقودنى ! »

فرد فوكيه قائلا : « انه حين يقود جلالتك يا مولاى انما يكون فىخدمتك ورهن اشارتك فقط ، أما حين أعود الى بيتى وذراعى فىذراع قائدالفرسان فسيقال فى كل مكان انك أمرت بالقبض عــلى ٠٠ ولا شك فى أن بعض الناس سيضحكون فرحا لذلك ! »

وكان فوكيه بارعا فى هذا الهجوم فقد جعل لويس الرابع عشر يتراجع أمام الأمر الذى ينتويه ٠ فلما جاء المسيو دارتانيان قال له : « كلف أحد فرسانك أن يرافق الوزير »

فقال فوكيه : « ان جورفيل ينتظر فى الخارج ، وهــذا يكفى ٠ على أنى يسعدنى أن المسيو دارتانيان سيرى (بل ـ أيل) وهو الخبيربالاستحكامات»

فانحنى دارتانيان دون أن يفهم شيئا ، وانحنى فوكيه للملك ثانيــة ثم غادر الجناح الملكى وحده فى وقار حتى اذا صار خارج القصر قال لنفسه : « لقد نجوت !٠٠يا لك من ملك غادر ! انك سترى (بل ـ أيل) ولكن حين لا أكون هناك ! »

وقال الملك لدارتانيان بعد أن انصرف فوكيه : « اســمع يا كابتن ٠٠ ستتبع المسيو فوكيه على بعد مائة خطوة ، وستقبض عليه باسمى وتحجزه فى عربة بحيث لا يتكلم فى الطريق مع أحد ولا يرمى ورقة لأحد !٠ وقد أعدت لذلك عربة ذات قضبان متشابكة ، وقد ربطت بها الجيــاد وأخذ سائقها مكانه فيها ، وهى الآن والفرسان ينتظرون فى فناء القصر »

فانحنى دارتانيان وقال : « والى أين نقود المسيو فوكيه ؟ »

فقــال : « الى قصر أنجير أولا ، ولا تنس أن المسيو دى جيفر سيغضب لأننا اســـتخدمنا الحرس الخاص دون حرســه هو فى القبض على المسيو فوكيه ! »

فانحنى دارتانيان وقال : « ان جلالتك لم تستخدم حرسك الخاص الا لأنك تحرص على ألا يهرب المسيو فوكيه ، واذا كان هــذا قد يحدث مع سواى فانه لا يحدث معى يا مولاى ، برغم اعتقادى التام بأن المسيو فوكيه

ليس رجل سوء ٠ والآن عندى أوامر أنفذها ويمكنك أن تعد المسيو فوكيه مقبوضا عليه وأنه محبوس فى قصر أنجير »

فقال الملك : « لكنك لم تقبض عليه بعد يا كابتن ! »

فقال : « هذا أمر يخصنى ٠كل انسان له صناعته يا مولاى ٠ ولكن اذا كان مولاى جادا فى هذا الأمر الذىأصدره الى بالقبض على المسيو فوكيه ، فأرجو التفضل باعطائى هذا الأمر مكتوبا »

فناوله الملك ورقة وقال : « هاك الأمر مكتوبا ! »

فانحنى دارتانيان وغادر الغرفة ٠ ولمح من الشرفة جورفيــل ذاهبا فى سوور صوب مسكن فوكيه !

قال دارتانيان يحدث نفسه : « هذا عجيب حقا ٠ جورفيل يمشى هكذا فى الشوارع مسرورا مع أنه يعلم علم اليقين أن المسيو فوكيه فى خطر ، ومع أن من المؤكد أن جورفيل نفسه هو الذى حذر المســيو فوكيه بتلك الرسالة التى مزقها الوزير اربا فى الشرفة »

ثم تتبع دارتانيان وهو ينظر من شرفة القصر العالى شوارع نانت،فرأى خارج أبواب المدينة طريقين أبيضين ، وشارع ايرب يقود الى أحد هــذين الطريقين ، وهم بأن يهبط الدرج ويأخذ العربة ذات القضبان المتشــابكة ويذهب الى مسكن المســـيو فوكيه ، ولكن اتفق أن لفت نظره وهو يهبط الدرج نقطة تتحرك فى ذلك الطريق ٠ فسأل نفسه : « ما هذا ؟ انه جواد يركض ، وعليه أحد الناس٠لابد أن يكون غلاما قد ظمىء جواده فهو يذهب به الى نقطة بشاطىء النهر لكى يشرب » ٠ ثم وجــد على بعض الدرج قطعا من الورقة التى مزقها فوكيه فتناولها وقال : « انهــا بخط جورفيل ٠ ان الخط حليف لويس الرابع عشر على فوكيه » ٠ وما لبث أن قرأ عــلى تلك الورقة كلمة « جواد » وتناول ورقة ثانية فلم يجد بها شيئا ثم ثالثة فوجد بها كلمة « أبيض » ٠ فارتاب فى الأمر وقال : « انه اذن جــواد أبيض ٠ ليس غير فوكيه يركب هكذا وسط الحقول فى وضح النهار٠ليس غير وزير المالية يهرب هكذا نحو البحر ليستقل زورقا الى بل ـ أيل »

وسرعان ما أمر بالمضى بالعربة ذات القضبان الحديدية الى غاية فى خارج المدينة ، ثم اختار أحسن جياده وقفز فوق ظهره وجرى به فى شارع ايرب، ثم لم يتخذالطريق الذى سلكه فوكيه بل سار علىشاطىء اللوار وهو موقن أنه بذلك يقتصد عشر دقائق فى المسافة كلها ، وانه عند مفترق الطريقين يستطيعادراك الهاربالذى لا يدرى أنه مطارد٠ومنعجب أنه ـ وهوالشفيق على فوكيه ـ قد صار الآن قاسيا يكاد يطلب دمه ٠ وظل مدة طويلة يجرى

به جواده دون أن يلمح الجواد الابيض،فخاف أن يكون فوكيه قد اختفى فى طريق تحت الارض ، أو أن يكون قد أبدل بجواده الابيض أحد تلك الجياد السوداء الشهيرة التى تسابق الريح ، وكان دارتانيان قد رآها فى (سان ـ اندبه) وأعجب بها ٠ وأعمل مهمازه فى الجواد حتى كاد يقتله من السرعة وصار يلوم نفسه اذ ترك جورفيل يخدعه ويقول لنفسه انه لا شك قد بلغ به الكبر مبلغه ، وتصور أن الناس سوف يقولون انه أخذ من فوكيه مليون فرنك ليدعه يهرب ٠ وانه لكذلك اذا به يرى بغتة شبحا أبيض على بعد ، وكان يسير بسرعة البرق،فقال لنفسه : «ان فوكيه ليس فوق جواد عادى ! يجب أن أدركه ولو قتلت جوادى ٠ لعل الجواد الابيض يضعف ، واذا لم يسقط من التعب فقد يسقط راكبه » ٠ ولكن الجواد وراكبه ظلا ينهبان الارض نهبا ٠ فصاح دارتانيان صيحة مرعبة جعلت فوكيه يلتفت وراءه ويزيد فى سرعة جواده ٠ وعندئذ صرخ دارتانيان بأعلى صوته : « يا مسيو فوكيه ! قف ! قف ! باسم الملك ! »٠ولكن فوكيه لم يجب٠وعاد دارتانيان يصيح : « أتسمعنى ؟ قف ! » ٠ وكاد دارتانيان يجن جنونه ، وغلا الدم فى عروقه حتى صعد الى عينيه ٠ ثم صاح : « قف باسم الملك والا أطلقت عليك الرصاص » ٠ فصاح فوكيه قائلا : « أطلق » ٠ ولم يقف

فأمسك دارتانيان بمسدسه وصوبه وصاح به : « ان معك مسدسك فاستدر ودافع عن نفسك »

واستدار فوكيه ولكنه لم يلمس جراب المسدس ٠ ولم تكن المسافة التى بينهما تزيد على عشرين خطوة ٠ فقال له دارتانيان : « انى لا أريد أن أغتالك ٠ اذا كنت لن تطلق الرصاص على فاستسلم ! »

فأجاب فوكيه : « انى أوثر الموت ، فانه أخف ألما ! »

فغلب اليأس على دارتانيان وقذف بمسدسه الى الارض وقال : «سآخذك حيا ! »

وبراعة لا تتاح لغير ذلك الفارس جعل جواده أمام الجواد الابيض بعشر خطوات ، ثم مد يده استعدادا لامساك فوكيه ٠ فصاح به هذا : « اقتلنى٠ اقتلنى ٠ ان ذلك أقرب الى الانسانية ! »

فتمتم الكابتن قائلا : « كلا بل آخذك حيا ! »

واتفق فى هذه اللحظة أن عثر جواده فاستطاع جواد فوكيه أن يتقدمه !

وعادت المطاردة من جديد فتملك دارتانيان اليأس وأمسك بمسدسه وصوبه قائلا : « الى جوادك لا اليك »٠وأطلقه فأصاب الجواد الابيض ولكنه ظل يعدو . وفى تلك اللحظة وقع جواد دارتانيان ميتا فصاح دارتانيان بخصمه يقول : « اقذف الى مسدسا لأطلقه على رأسى .. أننى أوثر أن أموت ميتة شجاع بهذا الطريق على أن أقتل نفسى بعد ساعة ! »

ثم أخذ يجرى على قدميه وراء فوكيه ، وتخلص من قبعته وردائه وغمد



وقال الملك للمسيو فوكيه : « لا يمكن أن أسمح لأحد بأن يسىء اليك »

سيفه لكى يخف حمله ، وما لبث قليلا حتى القى سيفه أيضا حتى لا يعوقه عن العدو . وبدأ الوهن يصيب الجواد الابيض فتعثر فى مشيته وظهر الزبد على فمه ممزوجا بدم . وبذل دارتانيان جهدا مضاعفا حتى وصل الى فوكيه فأمسك به من احدى ساقيه وقال له وهو يلهث من التعب : « باسم الملك اقبض عليك !. اطلق الرصاص على رأسى اذا شئت . لقد أدى كل منا واجبه ! »

وكان جواب فوكيه أن القى فى النهر بالمسدسين اللذين كانا معه ، ثم نزل من فوق جواده قائلا : « انى أسيرك يا سيدى ، استند الى ذراعى فانى أراك مشرفا على الاغماء ! »

فتمتم دارتانيان قائلا : « شكرا لك ! » . وكان يحس أن الارض تتحرك تحت قدميه وأن السماء تذوب فوق رأسه ، بينما انطلق فوكيه الى حافة النهر فاغترف بعض الماء فى قبعته ورجع بها الى دارتانيان وأعطاه رشفات من الماء وراح يربت عارضيه بالقبعة المبللة وهو يبتسم له فى عطف ، فغمغم الفارس القديم قائلا : « شكرا لك يا سيدى . ان هذا النبل العظيم من محكوم عليه مثلك لا يمكن أن يرقى اليه لويس الملك الجالس على عرش فرنسا، ولا فيليب نزيل سانت مرجريت ! »

فابتسم فوكيه فى مرارة وقال : « لقد كان جديرا بى أن اتخذك صديقا يا مسيو دارتانيان ، ولكن هكذا كان . والآن كيف نعود الى نانت وقد صرنا على مسافة بعيدة منها ؟. ان الجواد الابيض قد يستعيد قوته ، وعلى هذا تستطيع أن تركب أنت وامشى أنا حتى تستريح ! »

فقال دارتانيان : « ان هذا الجواد المسكين لا يستطيع السير لأنه جريح ! »

فقال فوكيه : « أؤكد لك أنه يستطيع السير . انى أعرفه جيدا يا مسيو دارتانيان ، بل هو يستطيع أن يحملنا معا ويسير بنا فى بطء . فهيا نحاول ذلك »

ثم ركبا الجواد معا ، فمضى بهما بضع دقائق فى الطريق الى نانت ، ثم غلبه التعب فتعثر فى مشيته وما لبث قليلا حتى سقط ميتا !

ووقف فوكيه ودارتانيان هنيهة صامتين ، ثم قال فوكيه : « سنسير على أقدامنا . ان القدر يريد ذلك ! »

ثم تأبط ذراع دارتانيان ، ومشيا فى بطء كأنهما يتنزهان ، حتى اذا قطعا الفراسخ الاربعة التى تقع فى نهايتها الغابة حيث خبئت العربة ذات القضبان المتشابكة ، قال فوكيه لدارتانيان وهو يشير الى العربة : « لماذا تلك القضبان المتشابكة يا مسيو دارتانيان ؟.. انها ليست فكرتك ولا شك ! »

فقال قائد الفرسان وهو يكاد يذوب خجلا : « هكذا أراد الملك حتى لا تلقى رسالة الى أحد فى الطريق . على انك ان لم تستطع الكتابة الى من تشاء ففى استطاعتك أن تقول ما تريد فيبلغ الى من تريد ! »

فنظر اليه فوكيه شاكرا وقال : « انها كلمة واحدة هى كلمة (سان ــ مانديه) . فهل تعدنى بأن تبلغها الى مدام دى بليير أو الى بليسون ؟ »

فقال دارتانيان : « أعدك بذلك يا سيدى ! » . ثم ركب العربة فمضت فى شوارع نانت حتى بلغت طريق أنجير

كانت الساعة الثانية بعد الظهر حينما نفد صبر الملك فخرج الى الشرفة وترك باب الردهة مفتوحا ليرى ما يفعله سكرتيروه . وكان المسيو كولبير جالسا يتحدث بصوت منخفض مع المسيو دى بريين . فدخل عليهما الملك فجأة وسأل : « ماذا تقولان ؟ »

فنهض المسيو دى بريين وقال : « كنا نتحدث عن اجتماع البرلمان »

فقال الملك : « حسنا » . ثم رجع الى غرفته . وبعد خمس دقائق دق الجرس داعيا اليه روز سكرتيره الخاص وسأله : « هل انتهيت من النسخ ؟ وهل رجع المسيو دارتانيان ؟ »

ولما علم بأن دارتانيان لم يرجع بعد ، بدت فى وجهه أمارات الدهشة والقلق ، وأمر بأن يدعى اليه المسيو كولبير ، وكان هذا فى انتظار ذلك منذ الصباح ، فلما رآه الملك قال له : « يا مسيو كولبير .. أريد التأكد مما حدث لدارتانيان »

فقال كولبير بصوته الهادىء : « أين تريد جلالتك أن نبحث عنه ؟ »

فقال الملك : « الا تدرى أين بعثته ؟.. اننى لم أخبرك بهذا ولكن هناك أشياء تستطيع أن تعرفها بالحدس والتخمين ! »

فقال كولبير متلعثما : « ان الظن يخطىء أحيانا كما يصيب أحيانا »

ولم يكد ينطق بهذه الكلمات حتى دخل دارتانيان شاحب الوجه وقال للملك : « مولاى .. هل جلالتك أصدرت الى الفرسان أمرا فى شأن المسيو فوكيه ؟ »

فقال الملك : « كلا » وهنا عض دارتانيان على طرفى شاربه وأشار الى كولبير قائلا : « اذن لم أخطىء فى حدسى .. ان هذا السيد هو الذى امر بقلب دار المسيو فوكيه رأسا على عقب ، وبضرب خدمه وتحطيم خزائنه ونهبها ! »

فامتقع وجه كولبير ، وواصل دارتانيان كلامه فقال : « ان الملك وحده هو الذى له الحق فى اصدار الأوامر الى فرسانى . أما أنت فلا حق لك فى ذلك . وأنا اقول لك أمام صاحب الجلالة : ان السادة الذين يحملون السيوف ليسوا مثل أولئك الاشخاص الذين يحملون أقلاما وراء آذانهم ! »

فقال له الملك : « دارتانيان !. علام هذه الضجة كلها ؟ »

ولكن دارتانيان استمر فى كلامه قائلا : « ان هذا مهين !. لقد وصم فرسانى بوصمة العار . انى لا أقود جماعة من الناهبين السالبين ولا كتبة فى المالية . وهذا السيد ما كان يعرف أوامر جلالتك ، ولا انى ذهبت للقبض على المسيو فوكيه ، ولكنه مع هذا أرسل المسيو دى رونشير الى دار المسيو فوكيه بحجة البحث عن أوراق صاحبها ، وكنت قد وضعت فرسانى حولها منذ الصباح ، فأمرهم المسيو كولبير بالاشتراك فى اقتحامها واتلاف أثاثها ونهب ما فيها !. اننا فى خدمة الملك ولسنا فى خدمة المسيو كولبير ! »

وهنا أسكته الملك قائلا فى حدة : « حذار يا مسيو دارتانيان . ان مثل هذه الأقوال لا تقال فى حضرتى ، وبمثل هذه اللهجة ! »

وقال كولبير متلعثما : « لقد فعلت ما فيه مصلحة الملك . وانى ليحزننى أن ألقى مثل هذه المعاملة من أحد ضباط جلالته فلا أستطيع الرد احتراما لمقام الملك ! »

فقال له دارتانيان وعيناه تقدحان شررا : « ان احترام مقام الملك يكون أولا بجعل سلطته تحترم وشخصه يحب . وأما اذا لعن الناس اليد التى تضربهم باسم الملك فهذا شيء آخر !. وانه لعجيب حقا أن يحتاج مثلك الى تعلم الرأفة والشفقة من جندى مثلى قضى أربعين سنة فى ميادين القتال وسفك الدماء !. انك يا سيدى ألقيت القبض على كثير من الأبرياء وكبلتهم بالأغلال ثم قذفت بهم الى السجن . فبأى حق فعلت هذا ؟ ! »

فقال كولبير : « لعلهم شركاء المسيو فوكيه ؟ ! »

فقال دارتانيان : « من الذى قال لك ان المسيو فوكيه كان له شركاء ؟. بل من الذى قال لك انه مجرم ؟. ان الملك يا سيدى هو الذى يستطيع أن يقول ذلك لأن عدالته ليست عمياء !. ثم ما هذا الذى تقوله يا سيدى عن احترام مقام الملك ؟. ان جلالته لا يمكن أن يسمح بمثل هذا التهديد . وثق كل الثقة بأننى أعرف لنفسى حقها واعرف كيف أحميه ! »

ووقف قائد الفرسان أمام الملك وكولبير شامخ الرأس متقد النظرات ويده على سيفه ، وشفتاه ترتعشان ، ولم يخف عليه تردد الملك وحيرته فانحنى له كأنما يستأذنه فى الانصراف . ولكن الملك استوقفه قائلا : « انك فى حاجة الى الراحة يا كابتن ، ويمكنك أن تذهب لتستريح ، ولكن خبرنى أولا : ماذا كانت نتيجة المهمة التى عهدت اليك فيها ؟ »

ولم يسع كولبير الا أن ينحنى للملك ثم يغادر الغرفة وعيناه تشعان بالوعيد لدارتانيان ، فلما صار هذا وحده مع الملك ولى عنه الغضب وقال : « مولاى .. ان الفجر هو الذى يدل الناس على أن اليوم سيكون صحوا أو معتما . وأنت ملك شاب فى فجر عهدك فماذا يقول الناس عن مستقبلهم فى هذا العهد اذا كان بين وزرائك من يحفزهم الغضب الى استعمال العنف

والتنكيل ؟. ولكن عفوا يا مولاى ولأحدثك عن مهمتى أولا .. لقد قبضت على المسيو فوكيه و ... »

فقطع الملك كلامه وقال له فى حدة : « لقد استغرقت وقتا طويلا فى أداء هذه المهمة ! »

فنظر دارتانيان الى الملك متعجبا وقال : « عفوا يا مولاى ، انى أخطأت التعبير فالواقع أنى لم أقبض على المسيو فوكيه ولكنه هو الذى قبض على ! »

فبدت الدهشة فى وجه الملك ، بينما أخذ دارتانيان يروى له ما حدث من هرب فوكيه على جواد أبيض ، ثم مطاردته اياه وما كان من نبل فوكيه بعد ذلك ، ثم قال : « ان رجلا له هذا الخلق الكريم يا مولاى لا يمكن أن يكون عدوا للملك . وانى اذ أصارح جلالتك برأيى هذا لأقدر ما قد تقوله جلالتك من أن القبض عليه يرجع الى أسباب تتعلق بالدولة » . فسكت الملك قليلا ثم قال : « أين المسيو فوكيه الآن ؟ »

فقال له دارتانيان : « انه الآن يا مولاى فى القفص الحديدى الذى أعده له المسيو كولبير ، والجياد تعدو به فى الطريق الى أنجير ! »

فسأله الملك : « لماذا تركته بالطريق ؟ »

فأجاب قائلا : « ان جلالتك لم تأمرنى بالذهاب الى أنجير ، وهناك سبب آخر هو أن المسيو فوكيه المسكين لن يحاول الهرب لو أننى بقيت معه ! »

فبدت الدهشة فى وجه الملك وسأله مستنكرا : « ماذا قلت يا كابتن ؟ »

فأجاب قائد الفرسان : « ان جلالتك تدرك ولا شك أن حريته صارت أعز أمانى بعد تصرفه معى على ذلك النحو . ولقد سلمته الى أغبى جندى بين فرسانى لكى أتيح له فرصة للفرار »

فشبك الملك ذراعيه فوق صدره وقال فى غضب : « هل جننت يا مسيو دارتانيان ؟.. لماذا اذن لم تسر فى ركاب ذلك الذى أراد المسيو فوكيه أن يضعه فوق عرشى ؟ »

فأجاب دارتانيان فى هدوء : « لو ان المسيو فوكيه لم يسارع اليك فى الباستيل ، لسارع اليك رجل واحد هو دارتانيان ! »

فسكت الملك ، وبعد قليل رجع كولبير الى الحجرة فسأله الملك : « هل قمت بتفتيش منزل المسيو فوكيه ؟ وماذا وجدتم فيه ؟ »

فقال كولبير : « ان المسيو دى رونشير الذى ذهب الى هناك مع الفرسان سلمنى بعض الأوراق »

فقال الملك : « سأنظر فيها فيما بعد ، أما الآن فهات يدك لكى أضعها فى يد المسيو دارتانيان ! »

ثم التفت الملك الى دارتانيان وقال له : « انك يا مسيو دارتانيان لا تعرف هذا الرجل حق معرفته ، لكنك ستعرف اى رجل عظيم هو حين أرفعه الى مركز من الدرجة الاولى ! »

فارتبك كولبير سرورا وخجلا ، وغمغم هو ودارتانيان كلمات لم تسمع بينما واصل الملك كلامه فقال : « ان المعارضة الشديدة التى أبداها ازاء المسيو فوكيه كانت موجهة ضد الفساد لا ضد الاشخاص ، وان فى ذهنه من الآراء ما هو جدير بأن يجعل من مليكه ملكا عظيما ويحقق لوطنه رخاء عاما »

ومد كولبير يده فصافح دارتانيان قائلا : « ان لم أستطع أن أكسب لنفسى مودة بطل شريف مثل المسيو دارتانيان ، فانى لأرجو بتصرفاتى أن أكسب تقديرك ! »

وأثرت هذه الكلمات فى نفس دارتانيان فانحنى لكولبير باحترام ، وهنا صرفهما الملك مغتبطا بأنهما تصالحا ، فغادرا الغرفة معا ، ولما صارا خارجها قال دارتانيان للوزير الجديد :

ــ ان شعاع الشمس يمنع الأعين من رؤية اللهب المتوهج . ولكن ما دمت قد وصلت الى مركزك فلماذا تواصل اضطهاد رجل منكوب سقط من شاهق ؟

فقال كولبير : « أنا لا أضطهده يا سيدى وانما أردت أن أدير مالية الدولة واثقا من كفاءتى ونزاهتى ، لكى أنشىء بمال الدولة مدنا وثغورا ، كما أنشىء بحرية تحمل علم فرنسا الى أقصى الأقطار ، وأفتح مكتبات عامة وأكاديميات . ويومئذ لا أرى مانعا من طلب الرحمة للمسيو فوكيه الذى كان يحول دون تلك الاعمال ! »

فقال دارتانيان : « ان الملك لم يسحقه الا من أجلك يا سيدى ! »

فرفع كولبير رأسه وقال : « من أجلى أنا ؟ ! ان الأمر ليس كذلك يا سيدى فعند الملك أسباب خاصة لمعاداة المسيو فوكيه وأنت أدرى بهذه الأسباب ! »

وهنا سمعا صوت الملك يصيح بسكرتيريه أن ينادوا دارتانيان فسارع هذا اليه ، وقال الملك : « أعط المسيو دى (سان ــ اينيان) عشرين من فرسانك ليكونوا حراسا على المسيو فوكيه ، ولكى يقودوه من أنجير الى الباستيل فى باريس ! »

ثم قال لسان اينيان : « أطلق الرصاص على كل من يحاول التحدث مع المسيو فوكيه ! »

فانحنى (سان اينيان) وذهب لينفذ الأمر ، وهم دارتانيان بالانصراف ولكن الملك استبقاه قائلا : « اذهب توا الى (بل ــ أيل ــ أن ــ مير) وخذ معك العدد الكافى من الجنود لمواجهة أى تمرد يقع هناك ! . لقد رأيت ذلك الموقع فى حداثتى ولا أحب أن أراه ثانية ، فاذهب اذن ولا تعد الا بمفاتيح ذلك الحصن ! »

وهنا التفت كولبير الى دارتانيان وقال له : «هذه مهمة جليلة اذا أحسنت أداءها كنت جديرا بعصا المارشالية ! »

فسأله دارتانيان : « وهل لديك شك فى أننى سأحسن أداءها ؟ »

فقال كولبير : « ان لك أصدقاء هناك يا مسيو دارتانيان ، وليس يسيرا على رجل مثلك أن يمشي فوق جثث أصدقائه لكى يصل الى النجاح ! »

فلم يجد دارتانيان كلمة يقولها وخرج

وبعد ربع ساعة تسلم دارتانيان أمرا مكتوبا موقعا عليه من الملك، يقضى بأن يدك (بل ــ أيل) اذا قاومت ، وبمنحه السلطة المطلقة على جميع من بالجزيرة حتى لا يتمكن أحدهم من الفرار

وقال دارتانيان لنفسه : « ان عصا المارشالية ستكلفنى حياة صديقين عزيزين كما قال كولبير ، ولكنهما ليسا أغبى من الطيور ، لكى ينتظرا الصياد ويبسطا له أجنحتهما ليصيبها بسهولة ! »

ثم مضى يعد العدة لحشد الجيش الملكى دون أن يضيع دقيقة واحدة !

القائد الأسير

وقف أراميس وبورتوس يتحدثان معا عند شاطىء البحر في جزيرة (بل ـ ايل) • وقال بورتوس متعجبا : « ان اختفاء جميع زوارق الصيد التى أبحرت منذ يومين يبدو حادثا غير طبيعي ، فالبحر هادىء كما ترى ، بل لو أنه كانت هناك عاصفة ما غرقت تلك الزوارق كلها ! »

فقال له أراميس : « صدقت يا عزيزى بورتوس ، ان هذا الأمر لا يخلو من غرابة »

فقال بورتوس : « وأعجب من هذا أن الزورقين الباقيين بالجزيرة لم يعودا بعد أن أرسلتهما للبحث عن الزوارق الأخرى ! »

وهنا صاح به أراميس قائلا : « ماذا تقول يا بورتوس ؟ هل أرسلت الزورقين الباقيين ليبحثا عن الزوارق الأخرى ؟ •• اذن لقد ضعنا ! »

فارتاع الى بورتوس وسأله : « ماذا تقول ؟ •• أنضيع لأننا لن نجد زورقا نتنزه به فى البحر هنا ؟ ؟

فقال أراميس : « بل ضعنا لأننا لن نستطيع السفر بعد ضياع الزورقين الباقيين ! »

فقال بورتوس : « ولماذا نسافر ما دامت الأوامر التى عندنا تقضى بأن نعتصم هنا فى (بل ـ ايل) وندافع عنها ضد الغاصب ؟ ! »

فتمتم أراميس قائلا : « صدقت ! » • ثم سكت وأخذ ينظر الى البحر نظرات زائغة • وظن بورتوس انه اقتنع بما قاله له فاستطرد قائلا : «انك لم تفسر لى كيف اختفت جميع تلك الزوارق ، على الأقل لكى أستطيع أن أجيب عن الأسئلة التى تنهال على من نساء الصيادين والملاحين وأولادهم ؟»

فقال أراميس : « افرض أى شيء ولا تجب بشيء ! •• المهم هو أن تجيبنى الآن عن هذا السؤال : ألا ترى زورقا فى عرض البحر قادما نحونا ؟ »

فقال بورتوس وهو يدقق النظر الى نقطة سوداء على صفحة الماء : «انهما زورقان بل ثلاثة بل أربعة ••• بل هو أسطول كامل يا عزيزى أراميس!»

فقال أراميس منزعجا برغم تظاهره بالهدوء : « لعلها زوارق الجزيرة عائدة ! »

فقال بورتوس : « كلا •• انها أكبر من زوارق الصيد • ألا تلاحظ انها قادمة من نهر اللوار ؟ •• وها قد اجتمع النساء والأطفال على الشاطىء لرؤيتها ! •• »

ولم يجب أراميس بشيء • ثم مر بهما صياد عجوز وصاح وقد رأى الزوارق القادمة : « انها ليست زوارقنا ! •• فهى تحمل أعلاما كالتى تحملها سفن نقل الجنود ! »

فصاح بورتوس فى فرح : « اذن هو مدد أرسل الينا يا أراميس ؟ »

ففكر أراميس هنيهة ثم قال له : « بورتوس ! قم فأعط اشارة الخطر ، ومر رجال المدفعية بأن يستعدوا خلف مدافعهم ، ثم راقب أنت بطاريات الشاطىء ! »

ففتح بورتوس فاه من الدهشة ونظر الى صديقه ليستوثق من أنه لم يصبه خبل • ولما رأى أراميس تردده قال له : « سأذهب أنا فورا لاعطاء هذه الأوامر ! »

فقام بورتوس وهو يقول : « سأذهب أنا لتنفيذها يا عزيزى ما دمت مصرا على أن القادمين أعداء ! »

ولم تمض دقائق حتى كانت الجزيرة على استعداد للدفاع

وبعد ساعة ، كانت السفن قد اقتربت من الجزيرة ، واستطاع الأهالى والجنود المرابطون فوق الصخور أن يروا فى ضوء الشمس الغاربة علم ملك فرنسا يرفرف فوق أشرعتها ، كما رأوا احدى تلك السفن تقف فى عرض البحر حين وصلت الى مرمى المدافع من الجزيرة ، ثم أنزل منها زورق صغير فيه ثلاثة رجال اتجهوا به صوب الميناء ، وما لبثوا قليلا حتى وصلوا الى سفح الحصن ، فقفز أحدهم الى الشاطىء وكان ممسكا خطابا بيده يلوح به فى الهواء طالبا مقابلة المسيو دربلاى ، فصحبه اثنان من الجنود حتى وصلا به الى أراميس ، وكان هذا واقفا على رصيف الميناء وقد شمل الظلام المكان برغم المصابيح التى يحملها بعض الجنود، على أن أراميس عرف فيه جوناتان دليل الميناء فهتف به سائلا : « أين كنت وممن هذا الخطاب ؟ »

فأجاب قائلا : « بعد أن خرجنا للبحث عن رفاقنا لم نكد نقطع فرسخا حتى أسرتنا سفينة تابعة للملك ، وضمنا رجالها الى رفاقنا الذين أسروهم منذ يومين ، وقد أفرجوا عنا اليوم وأعطانى هذا الخطاب لفخامتك قائدهم وهو الكابتن دارتانيان ! »

فأمر أراميس بادناء المصباح منه،ثم فض الخطاب فوجده بخط دارتانيان وفيه يقول :

« أمر الملك بالاستيلاء على (بل ـ أيل) وبقتل حاميتها اذا قاومت • وأمر بسجن جميع رجال الحامية • وقد قبضت منذ يومين على المسيو فوكيه لزجه فى الباستيل •• دارتانيان »

فامتقع وجه أراميس ، وسأله بورتوس متعجبا : « ما هذا ؟ •• انه لشىء عجيب جدا ! •• »

واستأنف جوناتان كلامه فقال : « وقد ذكر المسيو دارتانيان أنه مستعد لأن يكلمك على ظهر سفينته · وكلفنى أن أكون فى خدمتكما بزورقى اذا شئتما الذهاب اليه للحصول على معلومات أوفى ! »

فقال بورتوس : « اذن نذهب اليه فورا »

فعارض أراميس قائلا له : « كلا ! ·· ربما يكون هنـــاك فخ منصوب لنا ! » . ثم التفت الى دليل الميناء وقال له : « ارجع الى مسيو دارتانيان وأخبره بأننا نرجو حضوره هو الى الجزيرة »

فقال جوناتان : « وماذا أصنع اذا رفض الحضور ؟ »

فقال له أراميس : « اذا رفض فعندنا مدافعنا وسنستخدمها ! »

فصاح بورتوس : « نستخدم مدافعنا ضد دارتانيان ؟ ! »

فقال له أراميس : « اذا كان هو دارتانيان حقا يا بورتوس فانه سيأتى! » ثم أمر جوناتان بالرجوع لتبليغ الرد ، فمضى هذا لتنفيذ الأمر ، بينمـــا تمتم بورتوس قائلا : « لست أفهم شيئا من كل هذه الألغاز ! »

فقال له أراميس : « سأشرح لك الآن كل شيء يا صـــديقى العزيز · هيا اجلس على عربة المدفع هذه وأصغ الى ، فقد آن الأوان لكى تعرف جلية الأمر »

فجلس بورتوس وقال : « انك يا صـــديقى تحسن الكلام حتى ان فى استطاعتى أن أستمع اليك أياما دون أن أضجر · ولكى أسهل عليك الأمر سأوجه أنا اليك أسئلة لكى تجيب عنها · أما السؤال الأول فهـــو : لماذا نحارب هنا ؟ »

فأجاب أراميس بقوله : « الحق ان الاعتراف مهما يكن شاقا فانه يسهل أمام رجل شجاع كريم مثلك · فاعلم يا صديقى العزيز أننى خـدعتك مع الأسف الشديد ! »

فقال بورتوس : « أنت خدعتنى ؟·· حسنا يا عزيزى ، اذا كان هــذا لصالحك فانك تكون قد أديت لى خدمة ، لأنك لو لم تخدعنى لخدعت نفسى فى هذه الحالة ، فبماذا خدعتنى ؟ »

فقال أراميس : « اننى كنت أخدم الملك الغاصب الذى يوجه الآن لويس الرابع عشر جهوده ضده ! »

فحك بورتوس رأسه قائلا : « الملك الغاصب ؟ ! انى لا أفهم تماما ! »

فقال له : « انه أحد اثنين يتنازعان تاج فرنسا ، وليس هو لويس الرابع عشر ! »

فقال بورتوس : « هل لى أن أفهم من ذلك اننا ثائران على الملك لويس الرابع عشر ؟ ! وعلى هذا كانت الدوقية التى وعدت بها لا أساس لها ؟ ! »

فقال أراميس : « ان الملك الآخر هو الذى كان سيمنحك هذه الدوقية،

وثق يا صديقى بأنه لو كان الأمر قد تم طبقا لخطتى لأصبحت أنت أميرا· أما وقد فشلت الخطة لسبب خارج عن ارادتى فسأسوى المسألة فيما بينك وبين الملك لويس الرابع عشر الغاضب علينا الآن بأن ألقى التبعة كلهـــا على عاتقى ، فأنا وحدى الذى دبرت تلك المؤامرة ، وقد كنت فى حاجة الى رفيق فلجأت اليك ولبيت أنت طلبى دون أن تعلم شيئا من أغراضى ! »

فقال بورتوس : « ما دمت قد عملت لصالحك فمن المحال أن الومك . انه لأمر طبيعى أن تلجأ فى ذلك الى صديق حميم ! »

وضغط بورتوس يد صديقه أراميس فى نبل وسماحة . فشعر هذا بأنه برغم ذكائه صغير الى جانبه ، واستطرد بورتوس فقال : « والآن وقد علمت موقفنا من لويس الرابع عشر ، أحسب أنه قد آن الأوان لأن تطلعنى على المؤامرة السياسية التى كنت ضحية لها »

فقال أراميس : « ان دارتانيان صديقنا العزيز قادم الينا وسيقص عليك تفصيل تلك المؤامرة . ولكن ثق بأنى فى أشد الألم من اجلك ، وسأبذل كل جهدى لكى أخرجك من المأزق الذى دفعتك فيه . . اننى أنا وحدى الذى تآمرت ضد الملك لويس الرابع عشر ، أما أنت فلم تكن الا أسيرا عندى ، وسأطلق سراحك الآن لتعود الى مليكك مع صديقنا دارتانيان قائد فرسانه القادم الآن ! »

وهنا سمع الصديقان صوت زورق يرسو على الشاطىء فصاح أراميس : « دارتانيان ؟ »

وكان قائد الفرسان هو القادم حقا فهتف قائلا : « أجل أنا دارتانيان » . ثم صعد سلالم الرصيف مسرعا حتى اذا بلغ وسطها وقف فجأة ثم التفت الى ضابط كان يتبعه وقال له : « لسنا الآن على ظهر السفينة حيث يسرى الأمر الذى معك ! »

فقال له الضابط على مسمع من أراميس وبورتوس : « ان الأمر الذى معى يا سيدى يقضى بأن أتبعك وأقف على كل حديث لك مع أى انسان ! »

فارتعد أراميس وبورتوس من القلق ، بينما عض دارتانيان على طرف شاربه لشدة غيظه واقترب من الضابط وقال له : « لقد سمحت لك بالاطلاع على الكتاب الذى أرسلته الى هنا ، كما سمحت لك بسماع كل كلمة قالها الرسول بعد عودته جوابا عن ذلك الكتاب ، وتركتك تتبعنى حتى وصلنا الى (بل ــ أيل) والأمر الذى معك من المسيو كولبير لا يسرى فيها ، وعلى هذا سأواصل الصعود الى هذين السيدين وحدى ، فان أنت خطوت خطوة أخرى خلفى ، فأقسم لأقطعن رأسك شطرين بهذا السيف ثم لأقذفن بك فى البحر ! »

فامتقع وجه الضابط ولكنه لم يتحرك من مكانه وقال لدارتانيان : « اننى سأؤدى واجبى يا سيدى ! » . ثم رسم علامة الصليب على صدره ومضى

يصعد السلم خلف قائد الفرسان ، وهنا صرخ بورتوس وأراميس وأسرعا ليحولا دون ضربة السيف التى كادت تصيب الضابط ، بينما قال له دارتانيان : « انك رجل شجاع ، ولهذا أقول لك : ان هذين السيدين صديقاى وأريد أن أتحدث معهما دون شاهد ! »

فقال الضابط : « لست أستطيع أن ألبى طلبك هذا يا سيدى ، وفى الوقت نفسه لا أستطيع ان أسىء الى بطل مثلك أجله وأمجده . وعلى هذا سأجلس هنا على السلم ريثما تتحدث مع صديقيك ! »

وتعانق الأصدقاء الثلاثة ، ثم قال دارتانيان لأراميس وبورتوس : « لقد منع الملك دخول اى شيء الى الجزيرة أو خروجه منها . والسفن الحربية واقفة لكما بالمرصاد للقبض عليكما ، وكنت أريد أن آخذكما الى سفينتى لتكونا على مقربة منى ثم أطلق سراحكما . ولكن ما يدرينى الآن أنى حين أرجع الى السفينة لا أجد أوامر سرية تنزع القيادة منى وتعطيها شخصا سواى يتصرف بى وبكما دون أمل لنا فى أى عون ؟ ! »

فقال أراميس : « اذن نبقى فى (بل ــ أيل) وأؤكد لك أننا لن نستسلم بسهولة ! »

ولاحظ دارتانيان أن بورتوس لم يقل شيئا فعجب لذلك ثم قال : « سأجرى تجربة أخرى مع هذا الضابط الشجاع ، انه خصم شريف شجاع كما رأيتما » . ثم التفت الى الضابط وسأله : « اذا أردت أن آخذ هذين السيدين معى فماذا تفعل ؟ »

فأجاب الضابط : « ليس لى أن أعارض ذلك يا سيدى ، ولكن عندى أوامر مشددة بأن أبقيهما فى هذه الحالة تحت حراستى ! »

فغمغم أراميس قائلا : « لقد انتهى الأمر ! » . ثم قال لدارتانيان : « خذ معك بورتوس ، وسيكون فى امكانه بمعاونتك أن يثبت للملك أنه لم تكن له يد فى الأمر كله »

وهنا قال بورتوس : « أحب أن أفكر أولا فى هذا الأمر » . فتبادل صديقاه نظرات اعجاب به واشفاق عليه . ثم همس دارتانيان فى أذن أراميس بضع كلمات ، قال له هذا على أثر سماعها : « انها فكرة بديعة ولا شك ! »

ومرة أخرى عانق دارتانيان صديقيه ، ثم غادر (بل ــ أيل) مع الضابط الذى كان ينتظره صامتا ، وما كاد يصل الى سفينته حتى دعا جميع الضباط الثمانية الذين تحت قيادته وبينهم هذا الضابط وقال لهم : « لقد ذهبت الى (بل ــ أيل) ووجدتها حصينة ذات حامية قوية لديها من معدات الدفاع ما قد يكون متعبا لنا . وعلى هذا أقترح أن ندعو الى هنا الضابطين الرئيسيين فى حامية الجزيرة ليريا بأعينهما القوة التى تحت تصرفنا ويقدران المصير الذى ينتظر الحامية ان لم تستسلم . وسنؤكد لهما أن المسيو فوكيه سجين الآن وأن كل مقاومة لا فائدة منها »

وهم الضابط الذى تبعه بالكلام ، ولكنه منعه قائلا : « اننى أعرف أن هناك أمرا من الملك بمنع كل اتصال سرى بالمدافعين عن (بل ــ أيل) ولهذا لا أريد الاتصال بأحد منهم الا أمامكم »

وبدا من الضباط أنهم موافقون على هذا الاقتراح ، فسر دارتانيان وهم بارسال زورق ليجىء بأراميس وبورتوس ، ولكن ذلك الضابط ناوله ورقة مطوية كتب عليها رقم (١) وقال له : « اقرأ هذا الأمر أولا يا سيدى ! »

فبسط دارتانيان الورقة وقرأ فيها ما يلى : « محظور على المسيو دارتانيان أن يجمع أى مجلس حربى أو أن يفاوض بأى شكل قبل استسلام (بل ــ أيل) واعدام رجال حاميتها بالرصاص .. لويس »

فتمالك دارتانيان نفسه وتصنع الابتسام وقال للضابط : « حسنا يا سيدى !. ان أوامر الملك مطاعة ! »

ثم خاطب الجميع قائلا : « أيها السادة .. ما دام الملك قد عهد الى غيرى فى شأن أوامره السرية فهذا دليل على أنى غير جدير بثقته . وعلى هذا سأعود توا لأقدم لجلالته استقالتى ، وأطلب اليكم جميعا أن تعودوا معى الى شاطىء فرنسا »

وخيل الى دارتانيان ان خطته لانقاذ صديقيه كللت بالنجاح ، اذ يكون فى استطاعتهما متى فك الحصار عن الجزيرة أن يفرا الى انجلترا أو أسبانيا. غير أن الضابط أبرز أمرا ثانيا من الملك هذا نصه : « فى اللحظة التى يبدى فيها المسيو دارتانيان رغبته فى الاستقالة تنتهى قيادته للحملة ولا يدين أى ضابط بالطاعة له . وعليه فى هذه الحالة أن يعود فورا الى فرنسا بصحبة الضابط الذى يبلغه هذه الرسالة ، وعلى هذا الضابط أن يعده أسيرا يسأل عنه ! »

وامتقع وجه دارتانيان برغم شجاعته وقلة اكتراثه ، وقال لنفسه : « فلأضع هذا الأمر فى جيبى حتى لا يطلع عليه أحد قبل أن أنقذ صديقى البائسين ! »

على أنه ما كاد يهم بتنفيذ فكرته هذه حتى أبصر الضباط حوله يقرأون صورا من ذلك الأمر وزعها عليهم الضابط . ثم اقترب منه هذا قائلا : « سيدى .. انى أنتظر ابداء رغبتك فى الرحيل ! »

فقال دارتانيان وهو يكظم غيظه : « انى مستعد ! »

فأمر الضابط باعداد زورق له ولأسيره ، ثم ناول قائد الأسطول ورقة مطوية وقال له : « هذه تعليمات الملك ! »

وما كاد الزورق الذى استقله دارتانيان وأتباعه من الفرسان مع الضابط يقترب من شاطىء فرنسا حتى وصل الى مسامعهم دوى المدافع التى بدأ الأسطول اطلاقها على (بل ــ أيل)

رجع أراميس وبورتوس الى الحصن الكبير بالجزيرة بعد أن تركهما دارتانيان ، وكان بورتوس يبدو مشغول الفكر فقال له أراميس : « عندى

فكرة تجعلنا نستعيد حريتنا بعد اثنتى عشرة ساعة . ان صديقنا دارتانيان سيعود ليقدم استقالته للملك ، وفى أثنـاء رجوعه سيرفع الحصـار عن الجزيرة ، وبذلك نستطيع أن نغادرها سالمين ، أو تستطيع أنت ذلك على الأقل ! »

فهز بورتوس رأسه وقال : « اما ان ننجو معا يا أراميس ، واما أن نبقى هنا معا ! »

فقال له : « حقا انك لنبيل طيب القلب يا بورتوس ، غير أن اكتئابك يحزننى ! »

فقال بورتوس : « انى لست مكتئبا يا أراميس ، ولكنى مشغول البال بكتابة وصيتى لأنى أشعر منذ أيام بشىء من الضعف فى ساقى ، وقد جرت العادة فى أسرتنا بأن يكون هذا الشعور نذيرا باقتراب نهاية صاحبه . وقد كان جدى أنطوان له ضعف حجمى وقوتى وكان فى مثل عمرى الآن حين خرج يوما للصيد فشعر بضعف فى ساقيـه لم يشعر بمثله من قبـل ، ولم يمض قليل حتى صادف خنزيرا بريا فأطلق عليه بندقيته ولكنه أخطأ المرمى فهجم عليه الوحش ومزقه شر ممزق ! »

فقال له أراميس : « ليس فيما تقوله أى داع لأن تقلق على نفسـك يا عزيزى بورتوس ، وأمامك فرص كثيرة . لكن . . . »

فقطع بورتوس كلامه قائلا : « وكذلك كان أبى جاسبار فى مثل قوتى ، وكان جنديا باسلا من جنود هنرى الثالث ثم هنرى الرابع ، فاتفق أن شعر بضعف فى ساقيه يوما وهو ينهض عن المائدة فقال لأمى ضاحكا : (أترانى سيقتلنى خنزير برى كالذى قتل أبى ؟) . فنصحت له أمى بأن يأوى الى فراشه ولكنه أصر على الخروج الى الحديقة وسرعان ما زلت قدمه وهو يهبط أولى درجات السلم فسقط على حجر حطـم رأسه وقضى لساعته ! »

فقال له أراميس : « هذان حادثان لا يقاس عليهما ، وليس يليق برجل فى مثل قوتك أن يؤمن بالخرافات ، ثم انك لم تكن قط بمثل القوة التى تبدو بها الآن حتى لتستطيع أن تحمل بيتا فوق كتفيك ! »

فقال بورتوس : « على كل حال ليس فى الموت ما يخيفنى ولكنه يقلقنى الى حد ما . ان الحيـاة عزيزة على من يملك ثروة ومزارع وجيـادا وله أصدقاء يحبهم مثل دارتانيان وآتوس وراءول وأنت ! »

وأعجب أراميس ببساطة بورتوس كما أعجب بصراحته اذ لم يخف عليه المرتبة الأخيرة التى صار ينزله فيها بين أصدقائه ، فمد اليه يده قائلا : « لا يزال أمامنا سنوات عديدة نحياها لنحفظ للعـالم نماذج من الرجال النادرين . ثق بى يا صديقى . . . اننا لم نتلق جوابا من دارتانيان وهذه علامة طيبة . لا شك أنه قد أصدر أمرا بحشد السفن تمهيدا للعودة بها . وقد أمرت باعداد سفينة شراعية عند فوهة كهف لوكماريا لكى نبحر بها

من هناك فى الظلام . ومتى وصلنا الى أسبانيا فثق بأنك ستنال لقب دوق الذى تستحقه ! »

وانهما لكذلك اذا بصيحة تطرق آذانهما : « الى السلاح ! الى السلاح ! ». وأطل أراميس من النافذة فأبصر جمعا من الناس ، بعضهم يحملون المصابيح وبعضهم جنود يحملون بنادقهـم ، ورآه أحـد هـؤلاء فهتف به قائلا : « الأسطول ! الأسطول ! » . فخرج ومعه أراميس وسارعا الى الميناء حيث وقفا خلف المدافع المعدة للدفاع ، بينما سفن الأسطول تقترب من شاطىء الجزيرة . وبعد خمس دقائق بدأ اطلاق المدافع ، ولم تمض الا دقائق حتى تمكنت بعض السفن من الوصول الى الشاطىء ، وهبط منها الجنود الى البر حيث بدأ الالتحام بين المهاجمين والمدافعين !

وكأنما عاد أراميس وبورتوس الى أيام الشـباب فهجمـا على رجال الأسطول فى قوة وعنف ، وأثار هذا حمية رجالهما فاستبسلوا فى القتال ، واضطر جنود الملك ان يعودوا الى سفنهم حاملين جرحاهم الكثيرين !

وقال أراميس لصاحبـه : « أسرع يا بورتوس ، يجب أن نأسر أحدا منهم ! »

وسرعان ما مد بورتوس يده القوية فقبض بهـا على عنق أحد ضباط الأسطول الملكى وكان واقفا ينتظر حتى يركب جميع جنوده ثم رفعه بيده فى الهواء كأنه يحمل سمكة وقال لأراميس : « أيعجبك هذا الأسير ؟ »

فضحك أراميس وقال له : « ألم أقل لك انك لم تبد فى يوم من الايام أقوى مما أنت الآن ؟ »

فقال بورتوس : « لا تنس أنى اخذته بيدى لا بساقى ! »

وقد سر البريتانيون من أهل الجزيرة بهذا الانتصار ولكن اراميس لم يشجعهم على الزهو والفخر ، بل قال لبورتوس : « ان الملك ستثور ثائرته حين يعلم بنبأ هذه المقاومة وسيصب جام غضبه على اهل الجزيرة الطيبين فيأمر باعدام من يؤسر منهم فيما بعد ! »

فقال بورتوس : « هل معنى هذا أن ما فعلناه لا جدوى منه ؟ »

فقال أراميس : « ربما يكون له بعض الفائدة فى الوقت الحاضر فقد أسرنا أسيرا وسنعلم منه ما يعده أعداؤنا لنا » . فأومأ برأسه موافقا وقال : « اذن هيا بنا نستجوب الاسير ، ولعلنا نحسن أن دعوناه الى العشاء معنا ، حتى اذا لعبت الخمر برأسه أفاض فى الكلام ! » . فوافق أراميس على ذلك

وكان الضابط الاسير قلقا فى البداية ، غير أنه اطمأن بعد قليل فأخذ يقص على أراميس وبورتوس بلا حيطة تفاصيل استقالة دارتانيان ورحيله ، وذكر لهما كيف أمر القائد الجديد للحملة بمداهمة الجزيرة

وسأله أراميس عما يعتزمه قائد الحملة نحو قائدى حامية الجزيرة

فأجاب قائلا : « ان الاوامر تقضى بالقتل فى اثناء القتال ثم الشنق بعد ذلك ! »

فتبادل اراميس وبورتوس نظرات قلقة وعلت وجهيهما حمرة ، ثم قال اراميس : « انى خفيف الوزن لا اصلح للمشنقة ، والناس الذين مثلى لا يشنقون ! »

فقال بورتوس : « أما أنا فثقيل الوزن الى حد أن اى حبل للمشنقة لا بد أن ينقطع اذا علقت به ! »

وهنا قال لهما الأسير معجبا : « انى واثق باننا كنا نسمح لكما بالميتة التى تختارانها ! »

فقال له أراميس : « شكرا جزيلا لك يا سيدى »

وانحنى له بورتوس ثم قدم له كأسا أخرى وتناول كأسه وشرب نخبه ... وطال الحديث معه متنقلا من موضوع الى آخر . وكان الضابط شابا ذكيا وقد فتنه أراميس بذكائه ولباقته كما اعجبه من بورتوس بساطته ومودته . وما لبث قليلا حتى قال لهما : « معذرة اذا سألتكما : الستما من فرسان الملك السابق ؟ »

فأجابه بورتوس : « أجل يا سيدى بل كنا من احسن فرسانه !»

فقال الضابط : « بل أحسن الفرسان جميعا ! وانا اقول هذا برغم أنه يسيىء الى ذكرى أبى ! »

فنظر اليه كلاهما متسائلين عما يقصد باساءته الى ذكرى ابيه ، وواصل هو كلامه فقال :

ــ ان اسمى جورج دى بيسكارا

فصاح بورتوس : « بيسكارا ؟ الا تذكر هذا الاسم يا أراميس ؟ »

ففكر أراميس هنيهة وهو يردد اسم بيسكارا ، ثم سبقه بورتوس الى الكلام قائلا :

ــ بيسكارا الملقب بالكاردينال ، أحد الاربعة الذين اعترضونا بسيوفهم يوم بدأنا صداقتنا مع دارتانيان !

فقال أراميس : « الآن تذكرت !. انه كان الوحيد الذى لم نجرحه يومئذ من أولئك الاربعة ! »

فقال الضابط الاسير : « ذلك لانه كان من أبرع المبارزين بالسيف ! »

فصاح أراميس وبورتوس معا : « يسرنا أن نعرف ابن ذلك الرجل الشجاع ! »

ومدا اليه يديهما فصافحهما بحرارة ، ونظر أراميس الى بورتوس نظرة كأنه يقول بها : «ها هنا رجل سيساعدنا بلا تردد» . ثم قال أراميس للضابط :

« من سوء الحظ أن تعرف اليوم رجلين مقدرا لهما الاعدام بالرصاص أو بحبل المشنقة ! »

فقال الضابط الشاب فى حماسة : « كلا يا سيدى .. انكما لن يقدر لكما مثل هذا المصير ! »

فقال له : « لكنك أنت نفسك قلت ذلك منذ قليل ؟ »

فقال : « نعم قلت ذلك حين لم أكن أعرف من أنتما . أما الآن وقد عرفتكما فأنكما ستتفاديان ذلك المصير اذا شئتما ! »

فصاح أراميس وهو يردد بصره بين الاسير وبورتوس : « كيف ذلك ؟ »

وقال بورتوس : « بشرط الا يكون فى الامر ما يشيننا ! »

فأجاب الضابط : « ليس مطلوبا منكما شيء . انهم اذا وجدوكما قتلوكما بلا ريب . فاحرصا اذن على الا يجدوكما ! »

فقال بورتوس فى شمم : « اذا أرادوا أن يجدونا فليأتوا الينا هنا ! »

فقال له أراميس : « صدقت يا بورتوس » . ثم التفت الى الضابط وقال له : «انك تريد أن تدلنا على مخرج لكنك لا تجرؤ على القول، أليس كذلك ؟»

فقال الضابط : « اذا أنا تكلمت خنت واجبى . ولكنى أسمع الآن صوتا يعلو على صوتى »

فقال بورتوس : « أنه صوت المدافع يا عزيزى ! »

وقال أراميس متمما : «مدافع وبنادق وسيوف ومسدسات !» . ثم التفت الى الضابط وقال له : « ان الهجوم الذى قمتم به لم يكن الا ذرا للرماد فى العيون ، ولا شك فى ان رفاقك قد تظاهروا بالارتداد عن الحصن لكى ينزلوا بالجانب الآخر من الجزيرة . أليس كذلك يا عزيزى ؟ »

فقال الضابط : « أجل يا سيدى . وهم مع الاسف الشديد كثيرون ! »

فقال الأسقف فى هدوء : « اذن .. لقد ضعنا ولا شك ؟! »

وقال بورتوس : « ربما . ولكنا لم نؤسر ولم نشنق بعد ! »

ثم قام بورتوس فتناول سيفه ومسدساته وفحصها فحص جندى قديم يستعد للقتال

وعلى صوت المدافع والهجوم المفاجيء على الجانب الآخر من الجزيرة ، اندفع الاهالى نحو الحصن يطلبون العون والنصح من قوادهم فوقف أراميس بالنافذة بين مصباحين ، شاحب الوجه مكتئبا ، ونظر الى الجنود المحتشدين بفناء الحصن ينتظرون الاوامر ، وقال لهم : « يا أصدقائى : ان المسيو فوكيه صديقكم وحاميكم وواالدكم قد قبض عليه بأمر الملك وزج به فى الباستيل ! »

فصاح الجميع صيحات السخط وأخذوا يهتفون : « الانتقام للمسيو فوكيه ! »

وعاد أراميس فقال لهم : « كلا يا صحاب !. لا مقاومة،ان الملك هوالسيد في مملكته . ان الملك هو ظل الله في أرضه . فاخضعوا ليد الله التى ضربت سيدكم ، ولا تنتقموا له . فانكم بذلك انما تضحون انفسكم بغير طائل ، وتضحون معكم نساءكم واولادكم ومتاعكم وما تملكون . ضعوا سلاحكم أيها الرفاق ما دام الملك يأمركم بذلك ، وعودوا فى هدوء الى بيوتكم . اننى أنا الذى آمركم بذلك باسم المسيو فوكيه ! »

فزمجر الجمهور المحتشد تحت النافذة غضبا ورعبا،ثم قال لهم أراميس: « ان جنود لويس الرابع عشر قد دخلوا الجزيرة . ومنذ هذه اللحظة لن يكون الامر قتالا بينهم وبينكم ، بل يكون مذبحة لكم . فاذهبوا اذن وانسوا ما كان . انى فى هذه المرة آمركم بذلك باسم الله ! »

فتراجعوا فى بطء ساكتين خاضـــعين . والتفت بورتوس الى أراميس قائلا : « ما هذا الذى قلته لهم يا صديقى ؟ »

وقال له الضابط الاسير : « ربما تكون يا سيدى قد انقذتَ الاهالى بذلك ولكنك لم تنقذ نفسك ولا صديقك ؟! »

فالتفت أراميس الى الضابط الاســـير وقال له بلهجة تدل على النبل والادب : « يا مسيو دى بيسكارا ، انك الآن تملك تمام حريتك ! »

فقال الضابط متأثرا : « انى أود ذلك يا سيدى ، ولكن . . . »

فواصل أراميس كلامه قائلا : « ان فى ذلك خدمة لنا ، فانك حين تخبر قائد أسطول الملك باستسلام حامية الجزيرة ، قد تستطيع أن تحصل لنـا على بعض العطف حين تذكر الطريقة التى تم بها ذلك الاستسلام ! »

فصاح بورتوس والشرر يتقد فى عينيه : « بعض العطف ؟ ماذا تقــول يا أراميس ؟ »

فلمس أراميس كوعه بعنف كما كان يفعل فى أيام شبابهما كلما أراد أن ينبهه الى غلطة أتاها أو يوشك أن يقع فيها. ففهم بورتوس قصده وسكت. وعندئذ قال بيسكارا : « اذن . . سأذهب يا سيدى ! »

فقال له أراميس وهو ينحنى له : « فلترافقك السلامة ونحن شاكران لك»

وتردد الضابط قليلا ثم قال : « لكن ماذا يحدث لكما يا صديقى ، ولى الشرف أن ادعوكما كذلك؟. كيف تنتظران هنا بينما الامر بشأنكما صريح ؟!»

فقال له أراميس : « انى أسقف فان يا مسيو دى بيسكارا ، وزميلى من النبلاء كما قد علمت . ولا شك فى أنهم لن يطلقوا الرصاص على مثلنا أو يشنقونا ! »

فقال الضابط : « اجل يا صاحب الفخامة ، أنت على حق . لقد بقيت لكما هذه الفرصة للنجاة . وسأذهب الآن لاخبر قائد جنود الملك . وداعا اذن . بل الى اللقاء ! »

ثم ركب الضابط جوادا أعطاه أراميس اياه وسار فى اتجاه صوت المدافع

الذى حشد الاهالى . ونظر اليه أراميس حتى غاب عن بصره ، حتىاذا صار وحده مع بورتوس قال له : « هل فهمت ؟ »

فهز بورتوس رأسه وقال : « كلا ! لم أفهم شيئا ! »

فقال له أراميس : « ان وجود بيسكارا هنا كان يضايقنا برغم انه ضابط شجاع . ذلك لان مخبأنا الاخير فى كهف لوكماريا يجب ألا يعرفه أحد غيرنا. أفهمت الآنَ يا عزيزى ؟ »

فقال بورتوس : « نعم فهمت !. أننا سنهرب من طريق ذلك الكهف ؟ أليس كذلك ؟ »

فأجاب أراميس فى سرور : « هذا اذا شئت ! . . والآن هيـــا الى الامام يا صديقى بورتوس ، أن زورقنا ينتظرنا والملك لم يأسرنا بعد ! »

معركة فى كهف

كان كهف لكماريا بعيدا من حاجز الميناء ، فبذل أراميس وبورتوس جهدا كبيرا لكى يصلا اليه عند منتصف الليل،وقد حملا معهما أموالهما وأسلحتهما ومشيا فوق المرج الذى بين الرصيف والكهف،وهما يصغيان الى كل صوت، وكانا يتفاديان السير فى الطريق.وحدث أن صادفهما بعض الاهالى الهاربين من داخل الجزيرة عقب سماعهم بنزول جنود الملك فاختفيا وراء كتلة من الصخور حتى مر أولئك الهاربون،وأخيرا بعد مشى يتخلله الوقوف والاختباء مرات ، وصلا الى الكهف الذى نقل اليه زورق متين لانزاله الى البحر . وعندئذ قال بورتوس لصاحبه : « لقد وصلنا أخيرا ولكنك حدثتنى عن ثلاثة رجال أو ثلاثة من الخدم سيصحبوننا فأين هم ؟ »

فقال له أراميس : « لا شك أنهم ينتظروننا فى الكهف ، ولعلهم يرتاحون قليلا بعد نقل الزورق »

وهم بورتوس بدخول الكهف ولكن أراميس أوقفه قائلا : « أتسمح لى بأن أدخل أولا ؟. انى أعرف الاشارة التى اتفقت عليها مع أولئك الرجال ، فاذا لم يسمعوها فلعلهم يقتلون من يدخل بالرصاص أو بالخناجر ! »

فقال بورتوس : « اذن ادخل انت أولا . انك حكيم بعيد النظر . آه . لقد عدت أشعر بذلك التعب فى ساقى ! »

وتركه أراميس جالسا عند مدخل الكهف ، ودخل الكهف بعد ان حنى قامته واخذ يقلد صوت البومة ، فرد عليه من داخل الكهف صوت مثله ، وواصل أراميس سيره بحذر ، وما لبث أن قال : « أأنت هنا يا ايف ؟ » .

فأجابه ايف قائلا : « أجل يا صاحب الفخامة ، وكذلك جين وابنه ! »

فقال له : « هذا حسن ! وهل أعد كل شىء ؟ »

فقال : « أجل ياصاحب الفخامة ! »

ووقف الرجال الثلاثة بين يديه فى انتظار أوامره ، فقال لهم : « اذهبوا الى مدخل الكهف ، ان البارون دى فالون هناك يرتاح من التعب ، واذا وجدتموه عاجزا عن المشى فاحملوه وائتوا به الى هنا ! »

فأطاع الرجال الثلاثة أمر أراميس ، وكان بورتوس قد استراح واستعاد قوته ونشاطه فعاد معهم ماشيا ، ثم أشعلوا مصباحا أضاء داخل الكهف ، وبعد قليل قال أراميس : « ــ هيا بنا لنرى الزورق ونستوثق من متانته ! »

فقال ايف : « لا تقرب منه فخامتك كثيرا ومعك مصباح موقد فانى تبعا

لامر فخامتك قد وضعت فى الزورق صندوق البارود ورصاص البنادق اللذين أرسلتهما الى من الحصن »

فقال أراميس : « حسنا » . وتناول المصباح ، واخذ يفحص بنفسه كل أجزاء الزورق بدقة رجل ليس هيابا وليس جاهلا بالخطر الذى يواجهه . وكان الزورق طويلا خفيفا متين الصنع ، وقد زود بثمان بنادق وبضعة مسدسات ومقادير من الرصاص والخبز المجفف والفواكه الجافة واللحم المقدد وقوارير من الجلد مملوءة بالماء . كما زود بمجاذيف احتياطية وبكل ما يلزم للرحلة

وبدأ البريتانيون الثلاثة يضعون الزورق على عجل لينزلق نحو الشاطىء، واذا بهم يسمعون نباح كلاب من داخل الكهف،وكان الفجر قد انبثق وأوشك النهار أن يبسط نوره وصحت الطيور تعلن بدء يوم جديد . فقفز أراميس وبورتوس الى خارج الكهف عند سماع ذلك النباح ، وقال بورتوس :

ــ انها جماعة من كلاب الصيد . ولا شك أنها فى أثر رائحة !

فقال أراميس : « ترى من الذى يصيد فى هذه الساعة ، وفى هذا الطريق حيث ينتظر مرور الجنود الملكيين ؟! »

واقترب صوت النباح منهم فنادى أراميس ايف من الزورق وسأله : « ما معنى الصيد فى هذه الساعة يا ايف ؟ »

فقال الرجل : « الواقع انى لا أفهم ما هنالك يا صاحب الفخامة . ان السيد دى لوكماريا لا يصطاد فى مثل هذه الساعة .. ومع هذا فان الكلاب ... »

فقال بورتوس : « لعلها هربت منه لحبسها ؟ »

فقال جين : « كلا أنها ليست كلاب السيد دى لوكماريا ! »

فقال أراميس . « اذن من الحكمة أن نعود الى الكهف ، فان صوت النباح يزداد اقترابا ، وسنعرف جلية الامر بعد قليل »

ودخلوا الى الكهف من جديد ولكنهم لم يكادوا يخطون مائة خطوة فى الظلام حتى مرق أمامهم ثعلب كالسهم وقفز فوق الزورق ثم اختفى مخلفا وراءه رائحته فمكثت بضع ثوان تحت قبو الكهف الواطىء

فقال أراميس : « انه ظرف ملعون . لقد كشف المخبأ !»

فقال له بورتوس : « كيف ذلك ، اتخاف ثعلبا يا أراميس ؟ »

فأجابه أراميس : « ألا تعلم أنه بعد الثعلب تأتى الكلاب ، وبعد الكلاب يأتى الرجال ؟ »

وسرعان ما جاءت ستة كلاب فى أثر الثعلب فقال أراميس : « ماهى ذى الكلاب فمن هم الصيادون ؟ »

فقال ايف : « اذا كان هو السيد دى لوكماريا فانه سيترك الكلاب ولا يدخل الكهف بل ينتظر خروج الثعلب عند الفوهة الاخرى للكهف »

فقال أراميس : « ليس السيد دى لوكماريا هو الصائد. انظر يا بورتوس هناك على السفح »

فنظر بورتوس ورأى على سفح التل اثنى عشر فارسا يستحثون جيادهم فى اثر الكلاب . فصاح قائلا : « الحرس ! »

وقال أراميس فى كآبة : « نعم . انهم حراس الملك ! »

وارتاع البريتانيون الثلاثة ورددوا مذعورين : « حرس الملك ؟ »

ثم قال أراميس : « أن بيسكارا فى الطليعة فوق جواد أشهب، أليس كذلك يا بورتوس ؟ » . فأومأ هذا موافقا وبقى ساكتا . وكانت كلاب الصيد فى الوقت نفسه مندفعة فى داخل الكهف وقد ردد صدى نباحها الذى يصم الآذان . فقال أراميس وقد استعاد رباطة جأشه : « انى موقن أننا ضعنا ولكن بقيت لنا فرصة . اذا كشف الحراس الذين يتبعون تلك الكلاب الفوهة الاخرى للكهف فلا أمل لنا ، لانهم اذ يدخلون يروننا ويرون الزورق . اذن لا ينبغى أن تخرج الكلاب من الكهف »

فقال بورتوس : « هذا واضح ! »

فقال أراميس بلهجة القائد السريع البت : « انها ستة كلاب يجب ان تقتل عند الفتحة الضيقة للكهف ! »

فقفز البريتانيون الثلاثة وفى أيديهم المدى ، ولم تمض دقائق حتى ارتفعت صيحات الكلاب من الالم ثم سكتت أصواتها . فقال أراميس : « هذا حسن !. والآن الى أسياد الكلاب ! »

فسأله بورتوس : « ماذا نفعل بهم ؟ »

فقال أراميس : « ننتظر مجيئهم ثم نقتلهم !. أنهم ستة عشر ، ولا يتطلب التخلص منهم أكثر من عشر دقائق . وسنفيد من أسلحتهم بعد ذلك! »

ثم تناول أراميس احدى البنادق ، ووضع سكينا فى فمه وقال : « على ايف وجين وابنه أن يقدموا لنا البنادق ، وأنت يا بورتوس تطلق الرصاص على القوم حين يقتربون ، وسنقتل منهم ثمانية قبل أن يدرى الباقون بما حدث ، ثم نهجم نحن الخمسة على الثمانية الباقين بالمدى ونجهز عليهم ! »

فقال بورتوس : « وبيسكارا المسكين ؟ »

ففكر أراميس هنيهة ثم قال فى برود : « بيسكارا قبل غيره .. لانه يعرفنا ! »

وبعد قليل وصل بيسكارا الى مدخل الكهف قبل رفاقه ، وأدرك أن الثعلب والكلاب محجوزة بداخله . غير أنه ككل انسان يخشى الظلام ويخاف الكهوف ، فوقف عند مدخل الكهف فى انتظار الفرسان الآخرين . حتى اذا وصل هؤلاء وتساءلوا عما جرى للكلاب ولماذا سكتت مرة واحدة ، أجابهم قائلا :

ـ لعله كهف مسحور . هيا بنا ندخله لنرى ماهناك !

وقفز من فوق جواده ليدخل الكهف وأراد رفاقه أن يدخلوا معه ، ولكنه طلب اليهم الانتظار ودخل وحده وسار خطوات فى الظلام وهو باسط يده أمامه ، واذا بها تقبض على أنبوبة البندقية التى بيد بورتوس ، وفى اللحظة نفسها انقض ايف بسكينه يريد أن يجهز عليه ، ولكن بورتوس أوقفه بيده القوية وزمجر قائلا : « لا أريد أن يقتل ! »

وكاد بيسكارا أن يصيح من الدهشة بين ذلك الوعيد وهذا العون ، ولكن اراميس وضع منديلا على فمه ليمنعه من كل صوت وقال له بصوت منخفض : « يا مسيو بيسكارا . اننا لا نريد بك سوءا ولعلك عرفت من نحن . ولكن اذا لفظت أية كلمة فانا سنضطر الى قتلك كما قتلنا كلابك ! »

فقال الضابط بصوت منخفض : «أجل ، لقد عرفتكما. ولكن لماذا أنتما هنا وماذا تفعلان ! لقد حسبتكما بالحصن ؟ »

فسأله أراميس : « هل حصلت لنا على شروط حسنة ؟ »

فأجاب بيسكارا : «لقد بذلت جهدى،ولكن بلا جدوى فالاوامر صريحة!»

فأدرك أراميس وبورتوس أن الاوامر تقضى بقتلهما ، وقال له الاول : « يا مسيو بيسكارا .. اننا راعينا شبابك وذكرنا صلتنا بأبيك ولهذا أبقينا على حياتك ، وفى امكانك الآن أن تخرج من هذا الكهف اذا أقسمت لنا بأنك لن تخبر رفاقك بأنك شهدتنا هنا »

فقال بيسكارا : « انى أقسم لابذلن قصارى جهدى لاحول دون دخول رفاقى فى هذا الكهف »

وهنا سمعت أصوات من خارج الكهف تناديه باسمه فقال له أراميس : « أجبهم يا بيسكارا »

فصاح بيسكارا قائلا : « ها أنذا »

ثم غادر الكهف عائدا اليهم ، وكان بعضهم قد اقتربوا حتى بدت ظلالهم فى الكهف ، فأسرع بيسكارا ليحول دون تقدمهم بينما أراميس وبورتوس يصغيان بكل انتباه

ولما رأى الفرسان زميلهم راعهم الشحوب الذى اعتراه فقال لهم : « ماذا تحسبوننى رأيت ؟ . لقد كنت أشعر بالحر قبل أن أدخل ، ولما دخلت وجدت الهواء باردا . هذا كل ما فى الأمر ! »

فسأله أحدهم : « هل وجدت الكلاب ؟ . وماذا دهاها فأسكتها ؟ »

فأجاب : « أحسبها قد خرجت من فوهة الكهف الاخرى ! »

وصاح ضابط آخر يدعوهم الى الدخول فهتفوا جميعا قائلين : « هيا الى الكهف ! »

وهنا وقف بيسكارا أمام رفاقه قائلا : « بالله لا تدخلوا .. ! »

فتعالت أصواتهم متسائلين عما يحول دون ذلك ، وقال واحـــد منهم : « لا شك أنه رأى الشيطان نفسه داخل الكهف ! »

فقال آخر : « اذا كان قد رآه فلا يصـــح ان يكون أنانيا ويمنعنا من ان نلقى عليه نظرة بدورنا ! »

وعاد بيسكارا يرجوهم ألا يدخلوا ولكن بلا جدوى،فقد أصروا على ولوج الكهف وتقدمهم أحدهم شاهرا سيفه بيده ، فتبعه الآخرون بعد أن أزاحوا بيسكارا جانبا حتى لا يعوقهم،ولم يرد هو أن يدخل معهم فيحسبه أراميس وبورتوس قد خان عهده وحنث بقسمه . وما كادوا يتقدمون داخل الكهف خطوات معدودات حتى دوت فجأة طلقات الرصاص ، وتبعتها صيحات الذين أصيبوا ، واستطاع الذين فى المؤخرة أن يعودوا أدراجـــهم . ولما رأوا بيســـكارا قالوا له : « ما هذا ؟!.. أكنت تعـلم أن الكهف به كمين ولم تحذرنا ؟ انك السبب فى قتل أربعة من رجالنا ! »

وصاح به أحد الضباط : « أنت سبب هذا الجرح الذى أصبت به ، ان دمى فوق رأسك ! »

ثم ارتمى تحت قدميه وقد خارت قواه . بينما ارتفعت أصـــوات أخرى تقول له : « أخبرنا على الأقل من فى الكهف ؟ »

ولكن بيسكارا بقى ساكتا ، فتحامل زميله الضابط الجريح على نفسه وزحف اليه مجردا سيفه فى وجهه قائلا له : « قل لنا من هناك والا فالموت لك ! »

وكان جواب بيسكارا أن فتح أزرار سترته كاشفا عن صـــدره وقال لزميله الذى يهدده : « اضرب يا أخى ! » . ولكن الجريح ارتمى على الارض ثانية وهو يئن أنة خافتة أسلم روحه على أثرها متأثرا بجرحه !

وهنا ارتاع بيسكارا وتملكه اليأس والقنوط ، وصـــاح قائلا : « نعم ، الموت لى ان رضيت باغتيال رفاقى ! » . ثم اندفع الى الكهف وقد رمى سيفه جانبا لانه يطلب لنفسه الموت ، وتبعه بقيـــة رفاقه ، غير أنهم لم يكادوا يتقدمون حتى أطلق عليهم الرصاص ثانية فجنـــدل خمسة منهم ، وتراجع الباقون وهم يتساءلون من أين يأتيهم الرصاص ؟ غير أن بيسكارا لم يتراجع معهم بل جلس فوق صـــخرة ينتظر . وقال واحــد من الستة الباقين : « لا شك أنه الشيطان ! » . فرد آخر قائلا : « بل هو شر من ذلك ! » .

ثم قال ثالث : « اسألوا بيسكارا فانه يعرف خافية الأمر ! »

وأخذوا ينظرون حولهم باحثين عنه ، فلما لم يجدوه قال واحـــد منهم : « لابد أنه قتل بالكهف ! »

فقال آخر : « كلا !. لقد رأيته وسط الدخان جالسا فى هدوء على صخرة هناك داخل الكهف ! »

وقال أحد رفاقه : « لابد أنه يعرف من هم !.. لقد كان أســـيرا لدى الثوار ! »

ثم أخذوا ينادونه ولكنه لم يجب . وما لبث أحـــدهم أن قال : « لسنا بحاجة اليه فقد جاء لنا مدد ! »

وكانت فرقة من الحراس قد وصلت فى هذه اللحظة وهى مؤلفة من خمسة وسبعين جنديا أو أكثر . فأسرع الضباط الخمســـة الى لقائهم ورووا لهم ما حدث ، فسألهم قائد الفرقة : « أين بيسكارا ؟ »

ولما قيل له : « انه بالكهف » . حسب أنه أسير ، ولكن هذا ما لبث أن ظهر عند فوهة الكهف وأشار اليهم بالتقدم فلما وصلوا اليه قال له القائد: « انك تعرف الذين بالكهف ، وأنا آمرك باسم الملك أن تخبرنى من هم ؟ »

فقال بيسكارا : « لا حاجة بك لأن تأمرنى . فقد أحللت من كلمة الشرف منـــذ لحظة . وأنا قادم اليكم من عنـــد أولئك الرجال لكى أخبركم بأنهم ســـيدافعون عن أنفسهم حتى آخر نسمة من حياتهم ، الا اذا منحتموهم شروطا حسنة ! »

فسأله القائد : « كم عددهم ؟ »

فقال بيسكارا فى هدوء : « انهم اثنان ! »

وهنا صــــاح به القائد محنقا : « اثنان ويريدان أن يفرضا شروطهما علينا ؟! »

فقال بيسكارا : « أجل انهما اثنان ، لكنهما قتـــلا عشرة من رجالنا . انهما اثنان من الفرسان الاربعة الذين سبق أن قاوموا جيشا ! »

فسأله القائد : « ما اسماهما ؟ »

فقال : « كانا يسميان فى العهد الماضى بورتوس وأراميس . أما الآن فيسميان المسيو دربلاى والمسيو دى فالون ! وهما يدافعان عن (بل ـ أيل) لصالح المسيو فوكيه ! »

فسرت فى الجنود همهمة حين سمعوا اسمى بورتوس وأراميس.وأخذوا يرددون : « الفرسان الاربعة ! الفرسان الاربعة ! » . وكان كل من يحمل سيفا فى فرنسا يعرف أولئك الفرسان ويكن لهم كل تقدير واعجاب

وسكت الضابط قائد الفرقة قليلا ثم قال : «رجلان اثنان يقتلان عشرة؟! ان هذا محال يا مسيو بيسكارا ! »

فقال بيسكارا : « لقد رأيت هذين الرجلين حين كنت أسيرا عندهما ، وانى موقن أنهما يقدران وحدهما أن يهلكا جيشا كاملا ! »

فقال القائد : « سنرى الآن ! » . ثم أمر رجاله بالتقدم وسار هو على رأسهم يريد اقتحام الكهف ، وعبثا حاول بيسكارا أن يثنيه عن الهجوم اذ أصر عليه قائلا له : « لن نسمح بتقهقر ثمانين من حرس الملك أمام اثنين من العصاة ، ولو أننى قبلت نصيحتك لفقدت شرفى ! »

ثم وقف قائد الفرقة عند مدخل الكهف وقسم رجاله ثلاثة أقسام ، على أن يدخل كل قسم منها بعد الآخر مع اطلاق النيران فى كل اتجاه ، وقال لنفسه : « لا شك أننا فى هذا الهجوم سنفقد خمسة رجال آخرين وربما عشرة ، ولكننا آخر الأمر سنتغلب على الثائرين • وعلى أى حال لن يتـاح لرجلين اثنين أن يقتلا ثمانين رجلا ! »

وهنا قال له بيسكارا : « أرجو أن تسمح لى بالسـير على رأس القسم الاول ! »

فقال له : « فليكن !• انى أمنحك هذا الشرف ! »

فشكره بيسكارا وتقدم دون ان يأخذ سيفه قائلا : « سأذهب هكذا ! »•

ثم صاح برجاله : « هيا الى الأمام ! »

▭

كان طول الكهف نحو مائتى ياردة ، وينتهى الى منحدر يشرف على خليج صغير • وكانت أرضه غير ممهدة وسقفه متفاوت الارتفاع تبعا للصخور التى فوقه • وقد رأى أراميس بعد المعركة التى دارت داخل الكهف أن يركن الى الفرار مع صديقه بورتوس قبل أن يصـل مدد الى الحراس الذين نجوا من القتل • وعلى ذلك أمر بانزال الزورق فى البحر دون ابطاء ، فرفعه بورتوس بكلتا يديه ثم وضعه البريتانيون الثلاثة على اسطوانات خشبية لدحرجته ، ولما وصلوا به الى قرب الفوهة الاخرى للكهف وجـدوا بعض الصخور قد سدتها بحيث يصعب مرور الزورق منها ، وسرعان ما أعمل بورتوس قوته فوضع كتفه تحت احدى الصخور وأزاحها من مكانها • وعندئذ بدأ الرجال الثلاثة يخرجون الزورق ، ولم يكن قد بقى بينه وبين مخرج الكهف سوى عشرين ياردة حين أقبلت فرقة الفرسان ، فأيقن أراميس الذى كان يرقب كل شىء بألا بد من نشوب معركة جديدة رهيبة • ولحظ أن ازاحة الصخرة عن فوهة الكهف قد جعلت الضوء يغمر مدخله بحيث يرى المهاجمون الزورق فيسهل عليهم رميه بالرصاص وقتل ركابه الخمسة • فاشتد غيظه ، وهتف بزميله بورتوس الذى كان يعمل وحده أكثر مما يعمل الرجال الثـلاثة : «ان أعداءنا قد تلقوا مددا لا يقل عن سبعين جنديا ، وسيكون فى مقدورهم أن يهدموا الكهف علينا ، وعلى هذا يجب أن يستمر رجالنا الثلاثة فى دحرجة الزورق بينما نحتفظ نحن الاثنين بصندوق البارود وبالرصاص والبنادق الى جانبنا هنا »

فقال بورتوس : «ان اثنين فقط لا يمكن لهما أن يطلقا أكثر من رصاصتين مرة واحدة ، وعلى هذا أفضل أن أكمن خلف هذا العمود ومعى هذا القضيب الحديدى ، ثم أفاجىء المهاجمين من حيث لا يروننى بضرب جماجمهم بمعدل ثلاثين ضربة فى الدقيقة • فما رأيك فى هذه الخطة ؟ »



« وأخذ بورتوس الجبار يحطم جماجمهم بالقضيب الحديدى واحداً واحداً »

فابتسم أراميس وقال : «انها خطة بارعة وأنا أقرها غير أنك ستخيفهم، فيبقى نصفهم فى الخارج ليحاصرونا ثم يأسرونا بعـــد أن ينال منا الظمأ والجوع ! »

فقال بورتوس : « انك على حق يا أراميس ولـــكن كيف نجذبهم جميعا الى الداخل ؟ »

فأجابه قائلا فى هدوء : « عليك أنت أن تكمن لهم حتى يدخلوا جميعا ، وحينئذ ننفذ معا ما رسمته من خطة لابادتهم.وها هى ذى صيحاتهم تقترب فهيا الى مكمنك »

وسارع بورتوس الى مكمنه المختار وسط الكهف حيث الظلمة شاملة ، وقد أمسك قضيبا ضخما من الحديد يزن نحو خمسين رطلا كان البريتانيون الثلاثة يستخدمونه فى دحرجة الزورق الى الشاطىء . بينما وقف أراميس مختبئا فى الجانب الذى يدخله الضوء من الكهف.ولم تمض دقيقة حتى ارتفع صوت قائد الفرقة يأمر رجاله بالتقدم ، فقفز القسم الاول منهم وعددهم خمسة وعشرون رجلا من الصخور المطلة على الكهف الى مدخله حيث اتخذوا موقفهم وشرعوا يطلقون البنادق . وبعد لحظات صاح بهم بيسكارا : « الى اليسار ! » . فاندفعوا خلفه الى اليسار حيث يضيق الممر تدريجا ، وعندئذ صاح أراميس قائلا : « اضرب يا بورتوس ! » . وسرعان ما أهوى هـــذا بالقضيب الحـــديدى على رؤوسهم فكان بيسكارا أول من أصيب وقد مات لتوه دون أن ينطق ببنت شفة ، وسقط بعـــده عشرة من جنوده ، وحاول البـــاقون أن يعودوا أدراجهم هاربين فأخـــذوا يتعثرون فى الظلام بينما بورتوس الجبار يحطم جماجمهم بالقضيب الحديدى واحدا واحدا حتى قضى عليهم جميعا فى أقل من عشر دقائق !

وكان قائد الفرقة قد تقدم القسم الثانى منها وفى يده مشعل اتخذه من أغصان الشجر الجافة ، فلما وصل بمن معه الى حيث يكمن بورتوس أخذهم الرعب اذ رأوا أنفسهم يمشون فوق جثث اخوانهم وفى بحر من دمائهم . وأراد القائد أن يكشف على ضوء مشعله سر موت أولئك الجنود ، فما كاد ينحنى فوق جثـــة أحدهم حتى مد بورتوس يده فقبض بها على عنقه بكل قوته فسقط المشعل من يده وانطفأ كما انطفأت فى اللحظة نفسها شـــعلة الحياة فى جسده !. وجاء الجنود فى أثره واحدا بعد واحد وهم يتحسسون طريقهم فى الظلام بين الجثث،فكان بورتوس يتلقفهم ويقضى عليهم بالطريقة نفسها ، فسقط أكثرهم جثثا هامدة قبـــل أن يطلق الباقون منهم بنادقهم فتدوى طلقات الرصاص داخل الكهف كالرعد ، وتتساقط قطع من صخوره فيختلط غبارها بدخان البارود ، ثم ساد السكون فلم يعد يسمع ســـوى وقع خطوات الفصيلة الثالثة وهى تدخل الكهف !

نهاية بورتوس

كان بورتوس قد اعتاد الظلام أكثر من أولئك الجنود الآتين من الضوء الى الظلمة ، فنظر حوله لعله يرى أراميس ، واذا بهذا يلمس ذراعه لمسا خفيفا ويهمس اليه أن يتبعه فى سكون الى الجانب الأقصى للكهف دون أن يشعر بهما أحد من رجال الفصيلة الثالثة الاخيرة

وهناك أشار أراميس الى برميل من البارود كان مخبأ فى فجوة بالجدار الصخرى ويتراوح وزنه بين ســـبعين وثمانين رطلا ، ثم قال لبورتوس : « ســـتحمل أنت هـــذا البرميل ، بينما أشعل أنا عود الثقاب الذى به ثم تقذف به وسط المهاجمين ، وتلحق بنا الى الشاطىء حيث أسبقك لمساعدة البريتانيين الثلاثة على انزال الزورق فى البحر ! »

فرفع بورتوس البرميل بيد واحدة وقال : «أشعل عود الثقاب ياعزيزى، حقا انها لفكرة جهنمية ! »

وأشعل أراميس عود الثقاب ومضى مسرعا بعد أن ربت ذراع بورتوس ملاطفا ، وما ان لمح الجنود فى الضوء القليل بورتوس يحمل البرميـــل فى يده حتى اشتد رعبهم وحاول بعضهم أن يهربوا عائدين أدراجهم فسقطوا فوق من خلفهم من زملائهم الذين هموا بتصويب بنادقهم لاطلاقها عليه فطاشت رصاصاتهم وأصابت ثلاثة من الجنود ، بينما أطلق بورتوس ضحكة عالية ، ثم رفع يده بالبرميل وقذف به وسط بقية الجنـــود فانفجر انفجارا مروعا كأنه الرعد ، فتفتتت الصخور وتناثرت وتمزقت الابدان وتبعثرت الاشلاء، وانقلب الكهف كله قبرا رهيبا لأولئك العشرات من الجنود والضباط وقد اختلطت أشلاؤهم بالدماء والحجارة والتراب

أما بورتوس فأسرع بعد أن رمى البرميل قاصدا الى الشـــاطىء ليلحق بأراميس والبريتانيين الثلاثة . واستطاع خلال الغبار المنعقد حوله أن يرى بعينيه الحادتين جانبا من الزورق الذى أعده أراميس وزميلاه للفرار والنجاة!

وملأ المارد المنتصر رئتيه الواسعتين من هواء البحر ، وارتســـمت على شفتيه ابتسامة مرحة،وحث خطاه الواسعة مستعجلا بلوغ الحرية والأمان، حتى اذا لم يبق بينه وبين باب الكهف غير خطوات معدودات شـــعر فجأة بضعف شديد فى ركبتيه ، وكادت قدماه تعجزان عن حمله ، فحدث نفسه قائلا : « لقد عاد الى ذلك التعب الملعون ! »

وكان أراميس ينتظره بالباب وقلبه يرقص فرحا كلما سمع وقع خطاه.

وكان يهم بمناداته لكنه شعر بتوقفه عن المشى اليه فهتف به قائلا : « هيا يا بورتوس · تعال · أسرع ! »

فأجابه فى جهد وهو ما زال واقفا : « ركبتاى يا أراميس !··لا أستطيع المسير ! »

وخذلته ساقاه المجهدتان ، فجثا على ركبتيه ، ولكنه تعلق بالصخر بيديه القويتين فاستطاع أن يقوم ورد على أراميس قائلا : « ها أنذا ! · »

وفى هذه اللحظة دوى فى الكهف صوت انفجار جديد عنيف فاهتزت الارض تحت أقدام الفارسين القديمين الصديقين ، وتهدم جانب كبير من القبو الصخرى من قوة الانفجار ، وكأنما أعادت هذه الهزة المخيفة الى بورتوس قوته الضائعة ، فقام يجرى بين الصخور التى كانت تنهار حوله، وأخذ يمد ذراعيه يمينا وشمالا ليبعدها من طريقه · واستطاع أن يرد بيديه القويتين كتلة هائلة من الصخر كادت تسقط عليه ، ولكن كتلة صخرية أخرى سقطت بين كتفيه ، فاستسلمت ذراعاه القويتان لحظة ، ثم استجمع كل قواه وراح يعالج الصخرة التى كادت تسد فتحة الكهف حتى زحزحها من طريقه ، ولكن الجهد الجبار الذى بذله جعله يفقد توازنه حيال الصخرة التى تثقل كتفيه ، فاضطر مرة أخرى الى أن يجثو على ركبتيه ، وهنا عادت الصخرة التى كان قد زحزحها عن الباب الى وضعها الأول فزادت فى ثقل الصخرة التى فوق كاهله ، واضطر الفارس المارد الى السقوط تحت وطأة هذا الثقل الهائل الذى يكفى لسحق عشرة من الرجال، لكنه لم يصوخ متألما أو مستغيثا !·· وحينما ناداه أراميس مذعورا : « بورتوس ·· بورتوس ·· أين أنت ؟ »·أجابه وهو تحت الصخور بصوت ضعيف : « ها أنذا !· صبرا · صبرا يا أراميس ! »

على أن صخورا أخرى انقضت فوقه فحجبته ، وأدرك أراميس الخطر الذى أحاط بصاحبه فسارع الى انقاذه ومعه اثنان من رجاله ، أما الثالث فبقى ليحرس الزورق ، وأخذوا يحاولون ازاحة الصخور التى تراكمت فوقه بمعاولهم باذلين فى ذلك قصارى جهدهم ، ولكن جهودهم كلها ذهبت سدى ، بينما تمتم بورتوس تحت ثقل الصخور قائلا بصوت واهن : «انها ثقيلة ! » · ثم اظلمت عيناه وأغمضتا وشحب وجهه وابيضت يداه ، ولفظ المارد آخر أنفاسه فسقطت بذلك آخر صخرة كان يدفعها عنه بيديه !

وبقى أراميس واقفا بباب الكهف ينظر الى مثوى بورتوس صامتا واجما، بينما أحاط بأراميس رجاله البريتانيون الثلاثة ثم حملوه الى الزورق حيث وضعوه على مقعد بجانب الدفة وأخذوا يجذفون خارجين بالزورق الى عرض البحر حتى لم يعد يبدو من كهف لوكماريا القديم سوى تل من الانقاض ، ولم يحول أراميس بصره عنه وهو يبتعد عن الشاطىء ، وقد خيل اليه أن ذلك التل من الصخور يقف ممدود القامة مرتفع الرأس مبتسم الثغر كشأن بورتوس ، فأخذ يحدث نفسه قائلا : « يا لبورتوس المخلص الأمين ! لقد

فطر على أن يساعد غيره وعلى أن يضحى نفسه فى سبيل الضعيف ، وكأنما وهبه الله قوته الهائلة لهذا الغرض وحده · ولقد مات وهو يحسب نفسه ينفذ شروط اتفاق بينه وبينى فى حين أنه لم يعرف من مشروعى الا نتائجه الوخيمة ! »

بقى أراميس ينظر الى ذلك القبر الصخرى الذى ضم رفات صاحبه حتى آخر شعاع من ضوء النهار ، وحتى بهت شاطىء الجزيرة فى الأفق على مرمى البصر · ولم ينبس طول الوقت ببنت شفة ، ولم تخرج من صدره آهة ولا زفرة · وكان زملاؤه البريتانيون الثلاثة ينظرون اليه مرتاعين، وقد نشروا الشراع فمضى الزورق مسرعا فى خليج جسكونيا قاصدا الى اسبانيا · وبعد حوالى نصف ساعة من نشر الشراع لاحت لهم من خلفهم نقطة بيضاء كأنها جامدة فى مكانها لا تتحرك · غير أنهم لم يروا أن يخبروا أراميس بأمرها اذ خيل اليهم أنه استغرق فى النوم من الحزن والأسى !

وبعد ساعة أخرى ، كان ضوء النهار قد اختفى ، ولكن المسافة قصرت بينهم وبين تلك النقطة البيضاء التى لاحت لهم ، فتمتم (جين) قائلا : «انه زورق !·· اننا مطاردون ! »

ورأى ايف من الحيطة أن ينزل الشراع حتى لا يراه الذين يطاردونهم ، ولكن السفينة التى يستقلها هؤلاء نشرت شراعين آخرين لتزيد فى سرعتها· وكانت الليلة صافية السماء مقمرة ، فهتف ايف بأراميس قائلا : « ياصاحب الفخامة · انهم يوشكون أن يدركونا ! »

ومد أراميس يده المتخاذلة فأخرج بها تلسكوبا من بين متاعه ، ثم أعطاه لايف قائلا : « انظر ! »

فرفع ايف التلسكوب الى عينه وما ان نظر فيه حتى صاح صيحة رعب فقد حسب أن السفينة التى تطاردهم قد قطعت المسافة كلها بغتة ، لكنه اطمأن حين أبعد التلسكوب عن عينه فرأى السفينة لا تزال بعيدة ·· ثم تمتم قائلا : « انهم على هذا يروننا كما نراهم ·· انهم خمسة وعشرون رجلا على الأقل · وأرى القبطان فى المقدمة ممسكا بمنظار كهذا الذى معى · انه يلتفت جانبا ويصدر أمرا · آه · انهم يدفعون مدفعا الى الامام · انهم يعبئونه ··· ويصوبونه ! رباه · انهم يطلقونه علينا ! »

وأطلق المدفع على أثر ذلك فبدت سحابة من الدخان تحت الأشرعة ، وسقطت قذيفته على مسافة ميل من الزورق فأحدثت فجوة فى البحر جعلت الامواج تضطرب بشدة · فسأل ايف : « ما العمل يا صاحب الفخامة ؟ »

وركع الملاحان الآخران أمام الأسقف قائلين بتوسل : «امنحنا المغفرة!» فنظر اليهما أراميس وقال فى وقار : « انكم تنسون أن أعداءنا يرونكم!

ولا ريب أننا اذا حاولنا الفرار فسيغرقون زورقنا ، ثم ان الظلام نفسه لا يجدينا نفعا فلابد ان عندهم نارا اغريقية يمكنها أن تضيء لهم الطريق !»

وفى اللحظة نفسها ارتفعت سحابة أخرى من الدخان نحو السماء وظهر وسط تلك السحابة سهم من اللهب ما لبث حتى سقط فى البحر وظل مشتعلا وهو يضيء دائرة قطرها ربع فرسخ • ونظر البريتانيون الثلاثة بعضهم الى بعض فى ذعر شديد ، فقال لهم أراميس : « ها أنتم أولاء ترون أن لابد لنا من الانتظار ! »

وعندئذ ترك المجذفون مجاذيفهم فوقف الزورق فوق صفحة الماء متأرجحا بينما أخذت السفينة تقترب ولعلها ضاعفت سرعتها بحلول الليل • وكانت ترسل سهام النار الاغريقية بين الفينة والفينة • وكان جميع رجالها فوق سطحها وفى أيديهم بنادقهم ، بينما ربض رجال المدفعية خلف المدافع ، وكأنهم مقبلون على معركة بحرية كبيرة لا يقل أعداؤهم فيها عنهم عددا وعدة !

وصاح قائد السفينة فى نفير : « انى أدعوكم الى التسليم ! »

فنظر الملاحون الثلاثة الى أراميس متسائلين فأومأ لهم برأسه يائسا ، وعندئذ رفع ايف قطعة قماش أبيض ، فزادت السفينة اقترابا من الزورق وبعثت سهما ناريا آخر سقط على بعد عشرين خطوة من الزورق ، وانبعث منه ضوء كضوء النهار أو أشد • ثم صاح قائد السفينة برجاله قائلا : « اذا بدت أية دلالة على المقاومة فأطلقوا النيران ! »

ثم التفت الى البريتانيين الثلاثة وقال لهم : « انى أؤمنكم على حياتكم أيها الاصدقاء ما عدا الفارس دربلاى ! »

فارتاع أراميس لحظة ونظر الى أعماق المحيط وقد أضاءه السهم النارى ، ثم سأله رجاله الثلاثة : « أسامع أنت يا صاحب الفخامة ؟ »

فقال لهم فى هدوء : « اقبلوا ما قيل لكم ! » • ثم مال الى جانب الزورق أكثر من قبل وأخذ يعبث بالماء بأصابعه البيضاء ، بينما صاح ايف قائلا لضابط السفينة : « اذا قبلنا فأى ضمان لنا ؟ »

فأجاب الضابط : « كلمة الشرف !•• انى سأبقى على حياتكم جميعا ما عدا المسيو دربلاى • انى ضابط السفينة الحربية بومونا واسمى لويس كونستان دى بريسينى ! »

فرفع أراميس رأسه وقال لرجاله وهو يبتسم : « أنزلوا السلم أيها السادة ! »

ولبى رجاله الأمر فأنزلوا السلم توا ، وقام هو فأمسك حبل السلم وهبطه دون أن يبدو عليه شيء من الخوف الذى توقعه رجال السفينة ، ثم قصد توا الى القائد فى خطى ثابتة ورأس مرفوع ، فلما بلغ موضعه نظر اليه نظرة قوية، ثم أشار له بيده اشارة امتقع الضابط على أثرها وارتعد ثم

حتى رأسه • ولم ينبس أراميس بكلمة لكنه رفع يده اليسرى وأرى الضابط فص خاتم فى احدى أصابعها ، فانحنى له هذا مرة أخرى أكثر من قبل ، وكأنه حيال ملك أو امبراطور ، ثم أشار الى قمرته ودعاه الى الدخول قبله!

وعجب البريتانيون الثلاثة الذين جاءوا الى سطح السفينة فى أثر الاسقف ، ولم يكن رجال السفينة أقل عجبا من ذلك المنظر حتى لقد عقدت الدهشة ألسنتهم • وبعد خمس دقائق نادى القائد مساعده وأصدر اليه تعليمات بتوجيه السفينة صوب (كورونا) • ثم عاد أراميس الى ظهر السفينة واتخذ له مقعدا وأخذ ينظر الى (بل – أيل) لا يحيد عنها ببصره!

وجاء ملاح يسأل القائد : « أى اتجاه نتخذه ؟ » • فأجابه القائد : « الاتجاه الذى يأمر به صاحب الفخامة ! » • وأشار الى أراميس !

ومضى أراميس ليلته بقرب حاجز السفينة • ولما دنا منه ايف فى صباح الغد لحظ أن الخشب الذى أسند الأسقف اليه رأسه مبلل بالماء ، فظن أنه قطر الندى ، ولم يدر انها دموعه سكبها حزنا على زميله الراحل العزيز بورتوس

عفو ملكى

عاد دارتانيان الى نانت وهو فى غيظ وهياج وذهب توا الى القصر الذى به الملك وهو يرتعد من الغضب ، وكانت الساعة السابعة صباحا فلما وصل الى الردهة الصغيرة ألفى هناك المسيو دى جيفر ، فوقفه هذا بأدب وطلب اليه ألا يرفع صوته حتى لا يزعج الملك لأنه نائم

فقال دارتانيان : « حسنا !٠ سأدعه ينام ٠ ولكن فى أية ساعة تحسبه يصحو من نومه ؟ »

فقال دى جيفر : « ربما بعد ساعتين ٠ لقد سهر الملك طول الليل ! »

فانحنى له دارتانيان وعاد الى مسكنه ٠٠ ثم رجع الى القصر عند منتصف الساعة العاشرة صباحا فقيل له : « ان الملك يتناول طعام الفطور » ٠ فقال : « ان هذا يلائمنى ٠ سأحدث الملك بينما يأكل ! »

وذكره المسيو دى بريين بأن الملك لا يستقبل أحدا أثناء الطعام ، ولكن دارتانيان قال له : « لعلك لا تعلم أن لى امتياز الدخول عند الملك فى أى مكان وفى أية ساعة ؟! »

فتناول بريين يد دارتانيان بعطف وقال له : « ليس ذلك فى نانت يا عزيزى المسيو دارتانيان ٠ ان الملك قد غير كل شىء فى رحلته ! »

فولى بعض الغضب عن دارتانيان وسأل : « متى ينتهى الملك من تناول طعام الفطور ؟ » ٠ فأجاب بريين : « لست أدرى يا سيدى ! »

فقال له دارتانيان : « كيف هذا ؟ ٠ ألا تعلم كم من الوقت يتطلبه تناول الملك طعامه ؟ ٠ انه فى العادة نحو ساعة ٠ واذا فرضنا أن جو اللوار قد زاد فى شهيته فلنمد الوقت الى ساعة ونصف ساعة ٠ وأحسب ان هذا وقت كاف ٠ وسأنتظر حيث أنا ! »

فقال بريين فى هدوء : « يا عزيزى المسيو دارتانيان ٠٠ ان الأمر يقضى بعدم ترك أحد بالردهة ٠ وأنا هنا لتنفيذ ذلك ! »

فتملك الغضب دارتانيان ، وخرج مسرعا حتى لا يزيد الموقف حرجا ، ولما صار وحده جعل يحدث نفسه قائلا : « ان الملك لا يريد أن يستقبلنى ٠ هذا واضح ٠ ان هذا الشاب غاضب ، وهو يخشى ما سأقوله له ٠ أجل ولكن فى خلال ذلك تكون (بل – أيل) قد حوصرت وأسر صديقاى أو قتلا ٠٠ ان أراميس لا تعوزه حيلة وأنا مطمئن عليه ، أما بورتوس الجبار

فانه ساذج لا حيلة له ، ولكنهما سيجدان ولا شك مخرجا لهما بعد أن يعطيا درسا قاسيا لجنود الملك ٠ ان لديهما مدافع وذخيرة وحامية ٠٠٠٠ ومع هذا لعل الخير فى منع ذلك القتال ٠٠٠٠ لو كان الأمر خاصا بى ما كنت لأتحمل نظرات غضب ولا غدر من جانب الملك ٠ ولكنى يجب من أجل صديقى أن أتحمل كل شىء ٠٠ سأذهب الى المسيو كولبير ٠٠٠ انه الآن هو الذى يجب أن أخيفه ! »

وقصد توا الى المسيو كولبير ، فقيل له : «انه عند الملك فى قصر نانت !» ٠ فصاح قائلا : « لقد عاد الوقت الذى كنت أنتقل فيه من المسيو دى تريفيل الى الكاردينال ، ومن الكاردينال الى الملكة ، ومن الملكة الى لويس الثالث عشر ٠٠ حقا ان الرجال اذا كبروا عادوا أطفالا ! »

ولما رجع دارتانيان الى القصر وجد المسيو دى ليون خارجا ، وصافحه هذا بكلتا يديه قائلا : « ان الملك كان مشغولا طول الليلة الماضية وقد أمر بعدم ادخال أى أحد ! »

فسأله : « حتى ولا قائد الفرسان الذى يتلقى أوامره وكان يدخل دائما فى أى وقت ؟! ٠ ان هذا لا معنى له الا أن الملك قد مات ، أو أن قائدالفرسان مغضوب عليه ٠ وعلى هذا أرجو أن تعود الى الملك لتنبئه باستقالتى ! »

فقال دى ليون بعد تردد : « حسنا ٠ سأفعل يا مسيو دارتانيان ! »

ومكث دارتانيان ينتظر وهو يمشى فى الردهة هائج الاعصاب ٠ ثم رجع دى ليون وقال له :

– لقد قبل الملك يا سيدى !

فانفجر دارتانيان صائحا : « هل قبل الاستقالة ؟ ٠ حسنا ! ٠٠ اذن أصبحت حرا ولست الآن الا مواطنا بسيطا ٠٠ وداعا يا سيدى وشكرا ! »

وقفز دارتانيان الى السلم ثم قصد الى النزل ٠ وبدل أن يرمى سيفه ومعطفه ، أخذ مسدساته ووضع نقوده فى كيس كبير من الجلد وطلب جيادا من اسطبلات القصر ، وأمر بالسفر الى فان ليلا ٠ وقد تم كل شىء طبقا لرغباته ٠ وعند الساعة الثامنة كان يضع قدميه فى الركاب ، واذا بالمسيو دى جيفر قد جاء على رأس اثنى عشر حارسا أمام النزل ، ورأى دارتانيان ذلك بطرف عينه ولكنه تظاهر بعدم رؤيته ، حتى تقدم منه المسيو دى جيفر وناداه باسمه بصوت مرتفع فقال له دارتانيان مدعيا الدهشة : « أهذا أنت يا مسيو دى جيفر ؟ ٠ هل جئت لتقبض على بأمر الملك ؟! »

فقال دى جيفر : « لكى أقبض عليك ؟! ٠ معاذ الله يا سيدى ، اننى انما أقوم بدورتى التفتيشية العادية ، وكل ما هناك أن جلالة الملك يريد أن تقابله الآن ! »

فقال دارتانيان : « لعله يريد أن يرسلنى الى الباستيل لأونس المسيو فوكيه ٠ حسنا ! ٠ انه رجل قدير ويسرنى أن أكون معه ! »

فقال الدوق دى جيفر ملاطفا : « بالله كن هادئا يا سيدى ، ان الملك فى سورة غضب ، ومن الخير ألا تزيد فى غضبه وأنت تكلمه ! »

فقال دارتانيان : « انك تطمح الى توحيد حراسك مع فرسانى ، وهذه فرصة سانحة يا سيدى ! »

فقال الدوق : « ثق بأنى سأحرص على ألا أنتهزها ياكابتن٠٠على الأقل كى أتفادى القتل بيد فرسانك الذين يقدسونك ! »

فتمتم دارتانيان قائلا : «لا رأى لى فى ذلك لأن أولئك الرجال يحبوننى حقا ! »

ثم تركه دى جيفر يدخل أولا وذهب به توا الى غرفة الانتظار وكان الملك جالسا ينتظر قائد فرسانه وهو يتحدث بصوت مرتفع مع المسيو كولبير ٠ وكان الفرسان مصطفين أمام الباب الرئيسى للقصر وقد سرت شائعة فى المدينة بأن قائد الفرسان قد قبض عليه ، وعندئذ تحرك أولئك الفرسان الشجعان كما كانوا يفعلون فى الايام المجيدة الماضية على عهد لويس الثالث عشر والمسيو دى تريفيل ٠ وامتلأت بهم الردهات وسمعت همهمة تصعد الى الطوابق العليا ، وبدأ الدوق دى جيفر ينزعج بينما جلس دارتانيان على قاعدة نافذة وصار ينظر بعين النسر الى ما يجرى حوله دون أن يبدو عليه أى تأثر !

على أن السكون ما لبث أن ساد بعد قليل حين ظهر المسيو بريين وصاح قائلا : « اسكتوا أيها السادة ٠ انكم تعكرون صفو الملك ! »

فتنهد دارتانيان أسفا وقال لنفسه : « لقد انتهى كل شىء ٠ ان فرسان العصر الحاضر ليسوا مثل فرسان لويس الثالث عشر٠لقد انتهى كل شىء !»

ثم صاح حاجب يقول : « المسيو دارتانيان ٠٠ الى جناح الملك ! » ٠

فنهض دارتانيان متثاقلا ومشى فى خطى ثابتة حتى دخل الجناح الملكى ، وكان الملك جالسا فى غرفة مكتبه وظهره الى الباب ، وأمامه مرآة يرى بها الداخل ، فلما رأى دارتانيان داخلا تجاهل رؤيته وأخذ يقلب الاوراق التى على مكتبه ٠ فأدرك دارتانيان غرضه ووقف ساكتا ثم قال الملك : « أهذا أنت يا مسيو دارتانيان ؟٠ ماذا عندك لتقوله لى ؟ »

فقال له : « ليس عندى ما أقوله لك يا مولاى سوى أنك أمرت بالقبض على وها أنذا ٠!»

وهم الملك بأن يذكر أنه لم يأمر بالقبض عليه ولكنه رأى فى ذلك ما يدل على الاعتذار فآثر الصمت ٠ وكذلك سكت دارتانيان فى عناد ، وأخيرا استأنف الملك كلامه قائلا : « ماذا صنعت فى (بل ـ أيل) ؟٠ »

فقال دارتانيان : « لم يكن لى أن أصنع شيئا !٠٠ فمع انى قائد الحملة لم يصدر الى أى أمر معين ، بينما كانت هناك أوامر كثيرة يحملها غيرى من الضباط ! »

فقال الملك : « ان الأوامر قصرت على الموثوق بهم ! »

فقال دارتانيان : «لقد أدهشنى يا مولاى أن ضابطا مثلى يوازى فى الرتبة مارشالا فرنسيا ، يجد نفسه تحت أوامر خمسة أو ستة من الملازمين والبكباشيين الذين قد يصلحون لأن يكونوا جواسيس ولكنهم غير جديرين بقيادة حملات ٠ ولقد جئت الى جلالتك لأطلب ايضاحا عن ذلك فاذا بى أجد بابك مغلقا فى وجهى ، وكانت هذه الاهانة الاخيرة التى لحقت بفارس قديم مثلى ، سببا فى أن أترك خدمة جلالتك ! »

فقال الملك : « انك تحسب أنك تعيش فى العصر الماضى ، ولهذا تنسى أن الملك لا يقدم حسابا عن أعماله لأى أحد ! »

فأحس دارتانيان أن كرامته قد جرحت ورد على الفور قائلا : « أنى لا أنسى شيئا مطلقا يا مولاى ٠ على أنى لا أدرى لماذا يهان الرجل الشريف اذا سأل مليكه عما ساءه منه ؟! »

فقال الملك : « لقد أسأت خدمتى بانحيازك الى أعدائى ! الرجال الذين أرسلتك لتحاربهم ! »

فقال دارتانيان : « أرجلان اثنان يخشى منهما على جيش ضخم ؟٠ هذا أمر بعيد ! »

فقال لويس الرابع عشر : « ليس لك الحق فى أن تحكم بصواب رغبتى أو عليها ! »

فقال : « ولكن لى الحق فى أن أقدر أصدقائى يا مولاى ! »

فقال الملك : « ان الذى يخدم أصدقاءه لا يخدم سيده ! »

فأجاب : « لقد أدركت ذلك يا مولاى ولذا قدمت استقالتى ! »

فقال الملك : « وأنا قبلتها٠وقد أردت أن أبرهن لك على أنى عندكلمتى!»

فقال له : « ان جلالتك ذهبت الى أبعد من ذلك ، اذ لم تقبل استقالتى فقط بل أمرت أيضا بالقبض على ! »

فتجاهل الملك هذه السخرية وقال : « لقد كانت رغبتى هى أسر العصاة وتأديبهم،أفكان واجبا أن أسأل : هل هؤلاء العصاة من أصدقائك أم لا ؟٠٠ ان ارسالك فى هذه المهمة كان امتحانا لاخلاص خدمى المزعومين الذين يتغذون بخبزى ويجب أن يدافعوا عن شخصى ٠ ولقد فشلت فى الامتحان يا مسيو دارتانيان ! »

فقال دارتانيان بمرارة : « أصغ الى يا مولاى ٠٠ انى لست معتادا هذه الخدمة ٠ ان سيفى يعصانى اذا أريد منى عمل سوء ٠ ولقد كان من السوء أن تبعث بى لأقود الى المشنقة صديقين لى توسل اليك منقذك المسيو فوكيه أن تبقى على حياتهما ٠ ثم ان جلالتك أسأت بى الظن قبل أن أفعل شيئا فأحطتنى بالعيون ووصمتنى بالعار أمام الجيش بعد أن خدمته ثلاثين سنة قدمت لك خلالها ألف برهان على اخلاصى وصدق ولائى ؟! »

فقال الملك : « كفى يا مسيو دارتانيان !٠ اننى أعمل على تكوين دولة لن

يكون بها سوى سيد واحد٠وانى لأعلم حق العلم أن أى ملك آخر تختاره سيدا لك لن يرضى لنفسه أن تسيره أنت ٠ وكان فى امكانى أن أبعث بك لتكون فى صحبة المسيو فوكيه وغيره بالباستيل ، ولكن لى ذاكرة قوية ، وعندى أن الخدمات التى تؤدى هى مؤهلات للعرفان والحصافة ٠ وسأكتفى بهذا الدرس يا مسيو دارتانيان ليكون عقابا لك على مخالفة النظام ، ولن أقلد أسلافى فى غضبهم كما لم أقلدهم فى رضاهم وحظوتهم ٠ وهنـــاك أسباب أخرى تجعلنى أتلطف بك ، لأنك رجل قدير ذو مواهب ، وستكون خادما صالحا للرجل الذى يقدر أن يسودك ، ثم انك لم يعـد لك باعث على التمرد فان أصدقاءك قد أهلكتهم أو خربت ديارهم ، وهكذا أزلت أولئك الأعوان الذين كنت تعتمد على معونتهم ٠ وفى هذه اللحظة لابد أن جنودى قد أسروا أو قتلوا العصاة فى (بل – أيل) ٠! »

فامتقع وجه دارتانيان وقال : « أسروا أو قتـــلوا ؟٠٠ لست أريد أن أصدق هذا لأنى لا أريد أن أنسى ما فى كلماتك من نبل ، ولا أريد أن أعدك ملكا وحشيا وانسانا غير طبيعى ! »

ثم ابتسم واســـتطرد قائلا : « ولكننى لا أنسى أن مولاى ملك شـــاب لا يعرف أى رجلين هما دربلاى ودى فالون ؟! »

وهنا اشتد غضب الملك وقال له : « ان كلامك هذا كلام عاص متمرد ٠ خبرنى : من هو ملك فرنسا ؟٠ أتعرف ملكا سواى ؟ »

فرد قائد الفرسان فى برود : « مولاى ٠٠ انى أذكر جيدا أنك فى صباح يوم وجهت هذا السؤال نفسه الى عدد من النـــاس فى فو فلم يجيبوك ، ولكنى أنا الذى أجبتك ٠ فاذا كنت قد عرفت الملك فى ذلك اليوم ، حين لم يكن الأمر ســـهلا ، فأحسب أن من العبث أن أسأل هذا السؤال الآن ، وجلالتك وحدك معى ! »

فأرخى الملك بصره ، وخيل اليـــه أن ظل فيليب المسكين يمر بينه وبين دارتانيان ليثير ذكرى تلك المغامرة الرهيبة ٠ وفى اللحظة نفسها دخـــل ضابط وسلم الملك رسالة فلما قرأها امتقع وجهه وقال لدارتانيان : « ان ما علمته الآن جدير بك أن تعلمه : لقد دارت معركة فى بل – أيل »

فدق قلب دارتانيان وكاد يقفز من بين جنبيه ، ثم قال متصنعا الهدوء : « ماذا كانت النتيجة يا مولاى ؟ »

فقال الملك : « لقد فقدت مائة وعشرة من جنودى ! »

فبان بريق الفرح فى عينى دارتانيان وقال : « والعصاة ؟ »

فأجابه الملك : « لقد فروا ٠٠ ! غير أن أسطولى يحاصر الآن بل – أيل ، ولا يمكن لأى زورق أن يفر ! »

فقال دارتانيان : « وعلى ذلك اذا قبض عن ذينك السيدين ؟٠٠ »

فأتم الملك عبارته قائلا : « سيشنقان ! »

فقال دارتانيان : « اذن يا مولاى لن يؤخذا أسيرين ، انى موقن بأنهما سيؤثران ميتة أنبل ! »

ثم مسح دارتانيان العرق الذى كان يتصبب من جبينـــه ، بينما قال له الملك : « لقد ذكرت لك أنى سأصبح يوما ما سيدا كريما ودودا وفيا ٠ وأنت وحدك الآن كل من بقى من رجال الايام الخالية ، وسأهبك من غضبى أو صداقتى بحسب مسلكك ٠ فهل تحب يا مسيو دارتانيان أن تخدم ملكا له فى مملكته مائة ملك أنداد له ؟٠٠ وهل ترى أنى بذلك الضعف أستطيع أن أحقق الاهداف العليا التى رسمتها لى ؟٠ هل رأيت فنـانا يبدع آيات فنية بأداة عصية ؟٠٠ اننى سيد بلادى يا مسيو دارتانيان وســـيكون لى خدم قد يقلون عنك فى الذكاء ولكنهم سيصلون بالولاء والطاعة الى مرتبة البطولة ! »

وبقى دارتانيان صامتا يصغى الى الملك ، بينما واصل هذا كلامه فقال : « لنعقد بيننا تلك الصفقة التى وعدتك بها يوما حين كنت طفلا صغيرا فى (بلوا) ٠٠٠ ان الرؤوس العالية قد انحنت كلها يا مسيو دارتانيان ، فاما أن تحنى رأسك أنت أيضا ، واما أن تختار المنفى الذى تؤثره ٠ ولعلك حين تفكر فى الأمر ترانى ملكا سمحا كريما !٠٠ انك رجل شجاع ولكنك تحكم على قبل الأوان ! »

وأحس دارتانيان لأول مرة فى حياته أنه لا يقدر أن يبت برأى !٠٠ لقد وجد الآن خصما جديرا به ٠ فليس ما بيديه الملك مكرا ولكنه حســـاب بقدر ، وليس عنفا ولكنه قوة ، وليس عاطفة هوجاء ولكنه ارادة وعزيمة ٠ ثم مضى الملك فقال : « ماذا تنتويه ؟٠ لقد قدمت استقالتك ٠ أفأرفضها ؟ انى أقر بأن من الصعب على فارس شيخ مثلك أن يستعيد صفو مزاجه ! »

فقال دارتانيان وفى صوته رنة أسف : «انى متردد فى سحب استقالتى لأنى شيخ كبير حقا ، ولأنى اعتدت عادات من الصعب تركها ٠ ومنذ الآن ستحتاج الى رجال بلاط يسلونك ، والى مجانين يندفعون نحو الموت لـكى ينفذوا لك ما تســـميه بالفعال العظيمة ٠ انهم قد يصيرون عظماء ولكنى لا أحسبهم كذلك !٠٠ لقد شهدت الحرب يا مولاى وشهدت السلم ، وخدمت ريشيليو ومازارين ، ولفحتنى النار مع أبيك فى حريق روشـــيل ، وفى جسمى ثقوب من الطعان حتى صار كالمصفاة ، وقد جددت جلدى عشر مرات كما تفعل الثعابين ٠ وبعد أن أسىء الى وصبرت على ضروب من الظلم صارت لى قيادة كانت من قبل شيئا مذكورا اذ كانت تبيح لصاحبها أن يخـاطب الملك كما يشاء ٠ ولكن قائد فرسانك سيكون بعد الآن ضـابطا يحرس الابواب الدنيا ٠ حقا يا مولاى اذا كانت الوظيفة ستصبح هكذا فأرجو أن تنتهز فرصة هذه العلاقة الطيبة بيننا لتأخذها منى ٠ ولا تظن أنى أحمل من أجل ذلك ضغنا وان تكن قد صـــغرت من شأنى ٠ انك اذ حنيت رأسى قد أقنعتنى بضعفى ٠ ولا شك فى أنك تأسف مثلى لو أنك علمت كم يسرنى

أن أرفع رأسي وكيف يؤلمني أن أنحني حتى أشم رائحة سجادتك !٠ ان أولئك السادة الوقحين الذين كانوا في الماضي رجال البلاط ، كانوا كذلك أبطالا في الحروب !٠ وكانوا يلعقون اليد التي تطعمهم ، ويعضون اليد التي تضربهم ، فاذا وضعت بعض الذهب على معاطفهم ، وزادت وقفتهم اعتدالا، ووخط شعرهم الشيب ، رأيت أمامك دوقات فرنسا ومارشالاتها ! ولكن لماذا أقول لك ذلك كله ؟ ان الملك هو سيدي ٠ وهو يريد مني أن أقرض أشعارا ، وأن أمسح الفسيفساء في غرفه بقطع من الجلد٠ولكن هذا أصعب من كل صعب تغلبت عليه ، ولست أدري ماذا يدعونني الى أن أقبل كل هذا ؟٠٠ ألأني أحب المال ؟٠ كلا فعندي منه ما يكفي !٠ أم لأني طموح؟٠ كلا فهذه حياتي قد ختمت ٠ أم لأني أحب البلاط ؟٠ كلا !٠ وانما أبقى في الخدمة لأني اعتدت خلال ثلاثين سنة أن أتلقى أوامر الملك وأن أسمعه يقول لي : (عم مساء يا دارتانيان) بابتسامة لا أستجديه اياها ٠ أما الآن فاني سأستجدي تلك الابتسامة ٠ أفيرضيك هذا يا مولاي ؟! »

وحنى دارتانيان رأسه الفضي ، فقال له الملك وهو يبتسم بكبرياء : « شكرا يا خادمي القديم ، يا صديقي الأمين ٠ انني لم يبق لي عدو في فرنسا بعد اليوم ، ولهذا سأرسلك الى ميدان قتالخارجي لتكسب لنفسك فيه عصا المارشالية٠والى أن يحين ذلك كل من أحسن طعامي ونم مطمئنا !»

فقال دارتانيان في تأثر شديد : « هذاكله عطف جميل من جلالتك ولكن ماذا عن الرجلين اللذين في (بل ــ أيل) ٠٠؟ »

فسأله الملك : « أما زلت مصرا على طلب العفو عنهما ؟ »

فقال : « وأنا راكع على ركبتي يا مولاي ! »

فقال : « حسنا !٠٠ اذن اذهب اليهما به اذا كان في الوقت متسع ٠ على أن تضمنهما بعد ذلك ٠ وسأسافر غدا الى باريس فعد الى متى انتهيت من مهمتهما لأني لا أحب أن تبتعد عني في المستقبل ! »

فقبل دارتانيان يد الملك وقال : « كن واثقا من ذلك يا مولاي »

وخرج من القصر وقد غمر الفرح قلبه وأسرع قاصدا الى (بل ــ أيل)

أصدقاء فوكيه

قضى دارتانيان أربعا وعشرين ساعة في (بل ــ أيل) يبحث بكل وسيلة مستطاعة عن أراميس وبورتوس ليبلغهما عفو الملك عنهما ، وقد علم بما قام به صديقاه البطلان من الدفاع ضد جيش كامل ، كما علم بأن زورقا رئي بعد ذلك في عرض البحر وخلفه سفينة حربية بقيت تطارده حتى أسرت من فيه . وعبثا حاول دارتانيان أن يقف على أية معلومات أخرى فغادر الجزيرة يائسا من لقاء صديقيه وان كان كبير الأمل في نجاتهما ، وما لبث أن عاد الى باريس في معية الملك حيث أخبره بما كان

وكان لويس الرابع عشر قد اطمأن الى نجاحه في توطيد سلطانه ، فبدا أكثر ابتهاجا ولطفا ، وأكثر من الخروج على جواده حيث يسير بجانب نافذة العربة التي تقل الآنسة دي لافاليير ، وكان الجميع في مقابل ذلك يبذلون قصارى جهدهم لتسلية الملكتين زوجته ووالدته

وبعد أيام ما كاد الملك يتناول الفطور حتى جاءه دارتانيان شاحب الوجه بادي الحزن وقال له : « لقد دهمتني كارثة شديدة يا مولاي . ان المسيو دي فالون قتل تحت الصخور في « بل ــ أيل ! »

فقال الملك في هدوء : « كنت أعرف ذلك ، ولكني أشفقت عليك من وقع النبأ فلم أخبرك به ، كما أني أعلم أن المسيو دربلاي أخذ احدى سفني مع من فيها وأجبرهم على الذهاب به الى بايون »

فسأله دارتانيان : « لكن يا مولاي كيف علمت بهذه الأنباء ؟ »

فابتسم وسأله : « وكيف علمت بها أنت يا دارتانيان ؟ »

فأجاب : « علمتها من هذا الخطاب الذي أرسله الى المسيو دربلاي من بايون بعد أن أصبح حرا بعيدا عن الخطر »

وأخرج الملك من درج مكتبه ورقة قدمها له قائلا : « هذه صورة من الخطاب الذي أرسله اليك المسيو دربلاي ، سلمها الى المسيو كولبير قبل أسبوع من وصول الخطاب اليك . ان لي خدما مخلصين كما ترى ! »

فتمتم دارتانيان قائلا : « أجل يا مولاي . انك الرجل الوحيد الذي قدر لحظه أن يعلو حظ صديقي ، وقدر لسلطانه أن يغلب قواهما . ولقد استخدمت قوتك يا مولاي ، ولكنك لن تسيء استخدامها ! »

فابتسم الملك برفق وقال له : « يا دارتانيان : لقد كان في استطاعتي أن آتي بالمسيو دربلاي من أسبانيا حيا لتوقيع العقوبة

العادلة عليه . ولكن كن واثقا بأنى لن أستسلم حتى لهذا الحافز الطبيعى . وسأدعه حرا كما هو الآن ! »

فقال دارتانيان : « شكرا يا مولاى . وأرجو ان يبقى لنا دائما هذا النبل وهذه السماحة اللذان أظهرتهما نحوى ونحو المسيو دربلاى . فلا يؤثر فيهما المستشارون الجدد لجلالتك ! »

فقال الملك : « كلا يا دارتانيان . أنت مخطىء فى هذا الظن . ان مستشارى لا ينصحون لى بالعنف . بل الواقع أن فكرة الابقاء على المسيو دربلاى لم تكن الا فكرة المسيو كولبير ! »

فأبدى دارتانيان دهشته ثم استطرد الملك قائلا بلطف غير معتاد منه : « أما أنت فان عندى أنباء سارة لك ، ولكنك ستعلمها حين تنتظم ماليتى . لقد وعدتك بأن أحقق لك حظك وقريبا يتم ذلك ! »

فقال دارتانيان : « الف شكر يا مولاى . انى أقدر أن انتظر . ولكنى أتوسل اليك يا مولاى ان تتنازل جلالتك وتنظر بعين العطف والرحمة الى اناس بائسين ظلوا فى غرفة الانتظار وقتا طويلا ، ومعهم مظلمة يريدون رفعها الى جلالتك »

فرفع الملك رأسه وسأله : « من تعنى ؟ »

فقال : « هم جماعة أصدقاء المسيو فوكيه ، أو ثلاثة منهم هم : المسيو جورفيل والمسيو بليسون الشاعر والمسيو جان دى لافونتين »

ففكر الملك هنيهة ثم سأله : « ماذا يريدون ؟ »

فأجاب : « لست أدرى يا مولاى ، انهم لا يقولون شيئا ولكنهم يبكون ! »

فقال : « دعهم يدخلوا الآن ! »

ووقف الرجال الثلاثة بالباب بعد أن انسحب رجال البلاط كأنما يخشون أن تصيبهم عدوى النكبة والخراب ، بينما سارع دارتانيان فأخذ بأيديهم وهم يرتجفون وقادهم حتى صاروا أمام الكرسى الذى يجلس عليه الملك . وتقدمهم بليسون وقد كفكف دمعه حتى يستطيع أن يخاطب الملك . فقال له الملك دون أن يبدو عليه أى تأثر : « تكلم ! »

فانحنى بليسون ، وركع لافونتين كما يركع الناس فى الكنائس ، وظل الجميع صامتين ، فقال الملك بلهجة جافة : « يا مسيو بليسون ، ويا مسيو جورفيل ، وأنت يا مسيو ... ان سكوتكم مناف للاحترام الواجب نحو الرغبة التى أبديتها لكم الآن ! »

وهنا تكلم بليسون فقال : « مولاى .. اننا لم نأت الا لنعبر لجلالتك عن أعمق الاحترام وأصدق الولاء الواجب على الرعية نحـو الملك . ان عدل جلالتك هائل جبار يخضع له الجميع ، ونحن ننحنى أمامه باحترام . ومعاذ الله أن ندافع عن ذلك الذى كان من سوء حظه أن كسب غضب جلالتك . انه قد يكون صديقا لنا ولكنه الآن عدو للدولة . ونحن نتركه لصرامة عدلك والدمع فى أعيننا ! »

فقال الملك : « ان البرلمان سيبت فى الأمر . انى لا أضرب الا بعد أن أزن الجريمة . ان عدالتى لا تستخدم السيف الا بعد أن تستخدم الميزان ! »

فقال بليسون : « لذلك نحن واثقون بعدل الملك ، ونأمل أن تسمع أصواتنا الضعيفة ، باذن جلالتك ــ حين تحين ساعة الدفاع عن المتهم »

فقال الملك : « ماذا جئتم تطلبون الآن ؟ »

فاستطرد بليسون قائلا : « ان المتهم قد خلف وراءه زوجة وأسرة . والأملاك القليلة التى كانت له لم تكد تكفى للوفاء بديونه ، ومدام فوكيه قد تخلى عنها الناس جميعا منذ قبض على زوجها . ان يد جلالتك تضرب كيد الله . واذا قضى الله بلعنة البرص أو الطاعون على أسرة فان كل انسان يفر منها ، وأحيانا قليلة يجرؤ طبيب على أن يلج بابها معرضا حياته للخطر ، ويكون هو الملاذ الأخير للمريض . اننا نبتهل اليك أن ترحم مدام فوكيه ، فلم يبق لها صديق ولا معين . انها تبكى فى بيتها المهجور ، وقد تركها كل من كانوا يزدحمون ببابها وقت الرخاء . أن المخلوق البائس الذى حلت به نقمتك ، يتناول على الأقل خبزه كل يوم فيأكله مبللا بدموعه . أما مدام فوكيه فلا تقل عن زوجها حزنا وعوزا ، وهى التى حازت شرف استقبال جلالتك على مائدتها ، قد أصبحت الآن لا تجد الخبز ! »

وساد الغرفة صمت رهيب لا يقطعه سوى نشيج بليسون وزميليه ، وكان الملك يحرص على ألا يظهر تأثرا لما سمع ولكن الدم صعد الى خديه ، وقال بصوت يغلبه التأثر : « وماذا تريدون ؟ »

فأجاب بليسون : « لقد جئنا فى خضوع لكى نرجو من جلالتك أن تسمح لنا بأن نعطى أرملة فوكيه ألفى بستول جمعناها من أصدقاء زوجها القدماء »

وامتقع وجه الملك اذ سمع كلمة (الأرملة) تطلق على زوجة فوكيه وهو على قيد الحياة ، ونظر بعطف الى الرجال الثلاثة الذين كانوا راكعين ينشجون عند قدميه وقال لهم : « معاذ الله أن آخذ البرىء بجريرة المذنب . ان الذى يرتاب فى رحمتى بالضعفاء لا يعرفنى حق المعرفة . انى لا أنزل ضرباتى الا بالمتعالى المتعجرف . افعلوا أيها السادة كل ما تحدثكم به قلوبكم لتخفيف ويلات مدام فوكيه ! »

فنهض الرجال الثلاثة صامتين وقد جف الدمع فى مآقيهم وغلبهم التأثر فلم يدروا كيف يشكرون للملك عطفه . ولما خرجوا قال دارتانيان للملك : « لكأن شعارك يا مولاى هو (رفيق بالضعفاء ، عنيف مع الأقوياء) .. » . فابتسم لويس الرابع عشر وذهب الى جناحه الآخر !

مصرع راءول

بعد أن فرقت الظروف بين الفرسان الأربعة الذين كانوا من قبل مرتبطين معا وكانهم شخص واحد ، بقى آتوس وحده بعد سفر ولده راءول ، وقد عاد الى بيته فى بلوا ، ولم يبق له حتى جريمو خادمه الأمين ليؤنس وحدته. وكان يقاوم الشيخوخة بقرب ولده منه ، أما الآن فقد بدأ الكبر يتغلب عليه بما يعتوره من ضعف وألم بعد أن بقى شابا حتى الثانية والستين من عمره ، واحتفظ بقوته وسلامة تفكيره وصفاء روحه برغم مختلف المتاعب والأخطار

أجل ان آتوس بلغ من الكبر عتيا فى أسبوع واحد انقضى منذ سفر ولده الى شمال أفريقا . فقد ترك كل التمارين الرياضية التى كان يمارسها ، وصار يأوى الى فراشه وبيده كتاب غير أنه لم يكن يقرأ ولا ينام . وكان خدمه قد اعتادوا أن يروه يخرج مع الفجـر فدهشوا اذ وجدوه يلازم سريره حتى الضحى ، وكان كثيرا ما يروعهم منظره وهو جالس منهمك فى أحلام اليقظة ، يظنونه نائما وما هو بنائم ، وكانت الساعات تمر به وهو لا يدرى بمرورها ، حتى لقد كان ينسى وقت وجبات الطعام . وقد تنقضى أيام متوالية دون أن يخاطب أحدا أو ينطق ببنت شفة ، وكان يرفض استقبال الزائرين الذين يجيئون لزيارته ، وفى خلال الليـل كان يقضى الساعات وهو يكتب الى جانب مصباح !

وقد كتب خطابا الى أراميس فى فان ، وآخر الى دارتانيان فى فونتينبلو . ولكن الأول كان قد غادر فرنسا بينما الثـانى كان مسافرا من نانت الى باريس !

وكان الطبيب يزور آتوس ويفحصه مرة بعد أخرى محاولا أن يسبر غور المرض الذى يقعده ويسرع به الى الاضمحلال . أما آتوس فلم يكن يعترف بأنه مريض ولا يبالى أن يعالج !

وفى احدى الليالى رأى فى منامه ولده راءول يرتدى ملابسه فى خيمة ليذهب مع حملة يقودها المسيو دى بوفور بنفسه ، وكان الشاب بادى الحزن وقد تمنطق بسيفه ببطء فسأله والده : (ماذا بك ؟) . فأجاب : (يحزننى موت بورتوس . لقد كان صديقا مخلصا . وأنا أتألم هنا للحزن الذى سيغمرك)

وما لبث الكونت آتوس قليلا حتى تلقى فى صباح اليوم التـالى خطابا

واردا من أسبانيا أدرك أنه بخط أراميس لأول وهلة ، وما ان قرأ الأسطر الأولى حتى صاح قائلا : « لقد مات بورتوس ! شكرا لك يا راءول !. لقد وفيت بوعدك أن تخطرنى بكل شيء ! »

ثم تصبب منه العرق وأغمى عليه وهو فى سريره . ولما أفاق من اغمائه أصر على أن يذهب الى بلوا ليستطيع منهـا أن يراسل ابنـه ودارتانيان وأراميس

وكان خطاب أراميس قد أنبأه بفشـل مغامرة (بل ــ أيل) وبموت بورتوس ، فأراد أن يزور المثوى الأخير لهذا الصديق العزيز ، وأن يكون ذهابه الى بل ــ أيل بصحبة دارتانيان . ولكنه لم يكد يرتدى ملابسه ، ولم يكد جواده يعد للرحلة ، حتى أحس اعياء شديدا ، فأمر خدمه بأن يحملوه الى العشب ليرقد تحت أشعة الشمس ، ولما استراح قليلا أيقن أنه عاجز عن الرحيل فحمله خدمه الى البيت ، وما لبث أن استغرق فى تفكير عميق ، فان البريد لم يأت اليه بخطاب من ولده برغم طول الانتظار ، وكان يعرف أن البريد يأتى مرة كل أسبوع ، فعليه أن ينتظر أسبوعا آخر وهو فى قلق شديد !

وجاء الطبيب ففحصه وأمر له ببعض الأدوية ثم عاد الى بلوا . وعندئذ غلبه النوم وهو يفكر فى راءول ، وما لبث حتى رأى فى المنام حقول أفريقا حول جيجيلى حيث رابط دى بوفور بجيشه ، وكانت هناك صخور جرداء ، ورأى دخانا يتصاعد وراء تلك الصخور ، وسمع أصوات حركة تدل على الرعب والاضطراب ، ثم شهد بغتة لهبا يصعد من ذلك الدخان فيزحف على البيوت ثم يشمل المدينة كلها وترتفع صيحات الرعب وصرخات الفزع الى عنان السماء . وسمع صوت بيوت تهدم وسيوف تحطم وأحجار تتساقط وأشجار تحرق . ومن عجب أن آتوس لم ير فى هـذا المنظر الغريب أى انسان . وكانت المدافع تعصف من بعيد ، والبنادق تطقطق والسيوف تقعقع والبحر يزأر وقطعان الغنم تفر فوق السفح الأخضر ، ولكن آتوس لم ير أى جندى يطلق المدفع أو ملاحا يشترك فى حركات الأسطول أو راعيا وراء قطيع الغنم . وانما دمرت البلدة تدميرا كأنه تم بسحر ساحر دون اشتراك أحد من البشر فيه !.. ثم انطفأت النار وهبط الدخان وأرخى الليل سدوله فوق الميدان ، فساد سكون رهيب . وأرسل القمر أشعته الباهتة فوق ميدان المعركة فتبين آتوس فيه جثثا مبعثرة ، وعرف من ملابس أصحابها أنهم جنود فرنسيون سقطوا فى القتال ، فتولاه رعب شديد ، وأخذ يفحص جثة بعد أخرى خشية أن يكون راءول بينهـا . واشتد عجبه حين لم يجد جنديا حيا يقوده الى خيمة بوفور . ونظر حوله فوجد شبحا يرتدى بذلة ضابط وفى يده سيف مثلوم ، وتقدم هذا الشبح صوبه ببطء ، وآتوس ينظر اليه دون أن يتكلم وفتح ذراعيه ليتلقاه اذ تبين فيه ولده راءول ، ولكن الشيخ أشار اليه بالصمت ، وحاول آتوس

أن يصرخ ولكن الصرخة كتمت فى حنجرته ورأى الشبح يتراجع دون أن يبصر له قدمين ، فتبعه وهو يرتعد فرقا وأخذ يعبر الصخور والأحراش والبرك ، والشبح أمامه لا يبدو عليه انه يمشى على أرض . وما لبث الكونت أن تعب من المشى فوقف منهك القوى ، بينما الشبح الذى شبه راءول يشير اليه ليتبعه ، فاستمد الأب من حبه الأبوى قوة وتبعـه فوق التل مسحورا باشارته وابتسامته . وأخيرا وصل الشبح الى قمة التل فمد كل منهما يده للآخر ، ولكن قوة خفية جذبت راءول ورآه آتوس يترك الارض وأبصر السماء الزرقاء بين قدمى ولده وبين الغبراء ، وارتفع راءول الى السماء وهو لا يزال يبتسم لوالده ويشير اليه ليتبعه ، فصاح آتوس صيحة حنان ورعب معا ، ونظر الى تحت فرأى معسكرا قد ضرب ، وأبصر جثث الموتى مبعثرة على الارض ، ثم رفع بصره الى السماء فرأى ابنـه لا يزال يشير اليه ليصعد مثله !

واستيقظ آتوس من نومه بعد هذا الحلم المروع على صوت ضجة عند الباب الخارجى للدار ، ثم سمع صوت جواد يدخل الفناء ، وبعدئذ صوت وقع قدمين على الدرج ، فحسب أن البريد قد جاءه ، لـكنه فوجىء بأن خادمه جريمو هو القادم ، وكانت ملابسه يعلوها غبار السفر ، وقد وقف بالباب يرتعد فما ان رآه آتوس هكذا حتى قال له : « لقد مات راءول .. أليس كذلك ؟ » .

وكان الخدم واقفين وراء جريمو وقد كتموا أنفاسهم . فأجاب جريمو وهو يتنهد : « أجل يا سيدى ! »

ثم ارتفع عويل الخدم بينما كان الأب الثاكل يردد بصره فى الغرفة ليرى صورة ابنه . ولم تصدر عنه زفرة ولم تنحدر من عينه دمعـة بل كان مستسلما صابرا كالشهداء ، ورفع بصره نحو السماء وكأنه يبحث عن ولده الذى رآه فى الرؤيا يصعد اليها فوق التل .. وضم يديه معا فوق صدره والتفت نحو النافذة وصار ينظر الى عالم مجهول وظل على هذه الحالة وقتا ثم قال : «هأنذا !». ولم يدر أحد أقالها مخاطبا ابنه أم ربه ! وعندئذ سقطت يداه الى جانبه برفق وكأنه وضعهما هكذا الى جانب السرير !

لقد كان الموت رفيقا بهذا الانسان النبيل فوقاه ألم الاحتضار ولم يعش بعد ولده . وظن خدمه أنه نائم لما يبدو عليه من هدوء ، وظل جريمو برغم تعبه من الرحلة جالسا على عتبة البـاب لا يريد أن يترك سيده وكأنه ديدبان يؤدى واجبه . وكان السكون يعم الدار وما لبث جريمو أن لحظ أن سيده لا يسمع له تنفس فقام اليه وسرعان ما استوثق من وفاته !

وفى تلك اللحظة سمع وقع حوافر جواد قادم ، ثم سمع صوت دارتانيان وهو يصيح بعد أن ترجل عند الباب : « آتوس أيها الصديق ! » . فتمتم جريمو قائلا : « المسيو دارتانيان ! » . ثم نهض فاستقبله وأمسك ذراعه بأصابعه اليابسة وأشار الى السرير ، وما نظر دارتانيان الى آتوس حتى أدرك أنه

قد فارقته الحياة ، لكنه وضع أذنه على صدره ليتحقق الامر . ثم جاء جريمو فغطى جثمان سيده وجلس عند قدميه يبكى بكاء مرا . وأحس دارتانيان ألما يفتت كبده ووقف برهة أمام جثمان زميله الميت يتـأمله ويودعه ، ثم جلس على حافة السرير يستعيد ذكرياته مع هذا الفارس الذى نعم بعطفه ومودته خمسا وثلاثين سنة . وأخيرا لم يستطع أن يكتم شعوره فقام والعبرات تخنقه حزنا على آتوس وراءول وبورتوس فى آن واحد !

ثم قال لجريمو : « لقد رأيت الأب يموت . حدثنى كيف مات الابن ؟! »

فأخرج جريمو من صدره خطابا كبيرا كتب على ظرفه عنوان آتوس ، فعـرف دارتانيان لتوه خط دوق بوفور وفض الخطـاب وشرع يقرؤه على ضوء الفجر الذى كان قد انبثق وهو يمشى بين أشجـار الليمون ، ولا تزال بالطريق آثار قدمى الكونت الذى مات !

« عزيزى الكونت .. لقد نزلت بنا كارثة شديدة ، وسط انتصـارنا العظيم ، فقد فقد الملك جنديا من أبسل جنوده ، وفقدت أنا صديقا عزيزا. لقد مات راءول ميتة مجد وفخار ، ولكنى لا أجد فى نفسى القدرة على أن أبكيه كما أود . فتقبل عزائى مع جم الثناء على ولدك العـزيز . أن الله يمتحننا بالمصائب على قدر ايماننا . وهذه مصيبة كبيرة ولكنها لا تجل على صبرك وشجاعتك .. صديقك المخلص دوق بوفور »

وكان مع الخطاب رسالة كتبها أحد سكرتيرى الدوق ، وقد حوت وصفا دقيقا للحادث الأليم الذى ذهب براءول . وجاء فى تلك الرسالة ما يلى :

« هجم الجيش صباحا بقيادة سمو الدوق . وبدأت المدفعية باطلاق نيرانها . وتقدمت الفرق فى عزم صادق ، وتتبع الأمير حركات الجنود ، لكى يعد لهم احتياطيا قويا . وكان مع سموه كبار الضباط وأركان حربه . وتلقى المسيو دى براجلون أمرا بألا يترك صاحب السمو . وفى خلال ذلك كان العدو قد نظم تصويب نيران مدافعه وبنادقه ، فقتل عدد من الرجال الذين كانوا بقرب الأمير . وبدا شىء من التردد من جانب رجالنا اذ كانت المدفعية لا تؤيدهم التأييد الكافى . والواقع أن البطاريات التى اتخـذت مواقعها فى الليلة السابقة كانت لا تحكم التصويب لسوء تلك المواقع . فأمر صاحب السمو بانتقالها الى الطريق ، وتطوع راءول فورا لتنفيذ هذا الأمر ، ولكن الأمير رفض رجاءه اذ كان يحبه ويريد أن يبقى على حياته . وكان الأمير على حق لأن الجاويش الذى كلف حمل الرسالة لم يكد يصـل الى شاطىء البحر حتى جندلته رصاصتان من بنادق العدو . وعندئذ التفت الدوق الى راءول وقال له : (أرأيت ؟ لقد أنقذت حياتك . لا تنس أن تخبر بذلك والدك يوما ما ليقدم الى شكره) . فابتسـم الفيكونت راءول دى براجلون ابتسامة حزينة وقال : (هذا صحيح يا صاحب السمو ، فلولا عطفك لقتلت حيث سقط الجاويش المسكين ولكنت وجدت الراحة) . فدهش الدوق وقال : (رباه ! أن من يسمعك تقول هـنا يخيل اليه أنك تتمنى الموت)

« وهنا احمر وجه الفيكونت وقال له : (عفوا يا صاحب السمو .. لقد بحثت دائما عن فرص للمجد . وانه لما يدعو الى السرور أن نمتاز فى عينى قائدنا)

« فارتاح سمو الأمير لهذا الجواب . وأخذ يصدر أوامره . واقترب رماة القنابل من البرك ليرموا قنابلهم . ولكن كان تأثيرها ضعيفا . وفى الوقت نفسه كان المسيو دستريه قائد الأسطول قد لحظ ذلك الجاويش يحاول أن يبلغ السفن ، فأدرك أنه لا بد له أن يعمل ولو لم يتلق أوامر ، وأخذ يطلق المدافع . ورأى الأعداء شدة الاصابات التى حلت بهم من نيران الاسطول ، فصاحوا صيحات فزع ، وهبط فرسانهم من فوق الجبل وهجموا هجمة واحدة على فرق المشاة ، فشبك هؤلاء حرابهم ووقفوا هذا الهجوم ، وعند ئذ تدفق الاعداء فى عنف شديد نحو رجال أركان الحرب ولم يكن هؤلاء على حذر فى تلك اللحظة . وكان الخطر شديدا فاستل الدوق سيفه ، وفعل الرجال الذين حوله مثله ، واشتبكوا مع الأعداء فى قتال عنيف . وحانت لراءول فرصة لتحقيق رغبته فقاتل كما كان يقاتل الرومان القدماء . ولحظ الدوق حماسته البالغة وهو يبتعد نحو الخنادق فأمره بالوقوف ولكنه لم يطع الأمر ، فادهش عصيانه الجميع وصاح به الدوق : (قف !. الى أين أنت ذاهب ؟ قف . آمرك بالوقوف !)

« ولكن راءول لم يطع وظل يتقدم بجواده ، وعاد الدوق يصيح به أن يقف وأخيرا قال له : (آمرك بالوقوف ... باسم أبيك) . وعندئذ التفت خلفه والحزن باد على ملامحه . ولكنه لم يقف . فحسبنا أن جواده قد جمح به ، فأمر الدوق باطلاق الرصاص على ذلك الجواد ولكن خاف الجميع أن يفعلوا فيصيبوا الفارس كذلك . وأخيرا تقدم جندى بارع فى الرماية يدعى لوزرن فسدد بندقيته ورمى الجواد فأصابه ولكنه بدل أن يقع زاد هياجا واستمر مندفعا الى الأمام براكبه ، وأدركنا جميعا أن الفارس سيلقى حتفه وصحنا جميعا نقول : (اقذف بنفسك من فوق الجواد يا فيكونت).وكان راءول ضابطا محبوبا من الجميع . ولكنه كان قد وصل الى مرمى بنادق العدو . فانهال الرصاص حوله وأخفاه الدخان عن أبصارنا ، ثم تبدد الدخان فرأيناه واقفا على قدميه وقد مات جواده !

« ودعاه الأعداء الى التسليم ولكنه أشار لهم برأسه اشارة الرفض ، واستمر يتقدم نحو سياجهم . وكان هذا طيشا منه ولكن جيشنا كله سره منه أنه لم يتقهقر . ومشى بضع خطوات فصفقنا له جميعا . وعندئذ عاد العدو فأطلق عليه الرصاص واختفى ثانية فى الدخان ، ولما تبدد الدخان لم نره واقفا هذه المرة بل كان منبطحا على الارض . وتقدم الاعداء يريدون أن يسحبوا جثته ولكن الدوق صاح برجاله قائلا : (اتدعونهم يأخذون ذلك الجسم النبيل ؟) . ولوح بسيفه واندفع بجواده تجاه العدو فتقدمت الفرق معه وهى تصيح صيحات مرعبة ، وابتدأ القتال عند جثة راءول ، وكان

حامى الوطيس ، وفقد فيه الأعداء مائة وستين قتيلا وفقدنا نحو خمسين من رجالنا . وحمل ملازم من اقليم نورماندى جثة الفيكونت على كتفه وعاد بها الى خطوطنا . ثم تابع جيشنا هجومه وقد انضمت اليه القوات الاحتياطية فحطمت استحكامات العدو وسكتت نيرانه عند الساعة الثالثة . ثم استمر التلاحم بالسيوف ساعتين ولم تواف الساعة الخامسة حتى تم لنا النصر فى جميع النقط . وأمر سمو الدوق برفع العلم فوق قمة الجبل وعندئذ فقط بدأنا نفكر فى راءول ، وقد وجدنا بجسمه ثمانية جروح كبيرة نزف منها دمه كله تقريبا . ولكنه مع هذا كان لا يزال يتنفس وقد فرح الدوق بذلك فرحا شديدا وأصر على أن يكون حاضرا حين يفحصه الجراحون ، وقد صرح اثنان منهم بأنه سيعيش ، فعانقهما الدوق ووعد كلا منهما بمكافأة اذا أمكنهما انقاذ حياته !

« وسمع الفيكونت ذلك فدلت ملامحه على غير الارتياح .أما الجراح الثالث فقد ربط الجروح ولكنه لم يقل شيئا . ولما سأله الدوق صرح بأن بجسم الفيكونت ثلاثة جروح قتالة ، ولكن نظرا الى قوة الشباب فان الامل وطيد فى شفائه ، ثم قال : (وأهم شىء ألا يتحرك أدنى حركة فان ذلك يقتله لا محالة) . وعندئذ تركنا الخيمة وقد ضعف فينا الأمل . وخيل الى أحد السكرتيرين أنه رأى الجريح يبتسم حين سمع تلك النصيحة من الجراح . ودخل الدوق عنده فقال له : (سننقذك من الموت يا فيكونت . سننقذك)

« وفى المساء بعد أن اعتقدنا أن الجريح قد ارتاح دخل أحد المساعدين خيمته ولكنه ما لبث حتى خرج وهو يصرخ صرخة مفزعة ، فدخلنا جميعا ومعنا الدوق واذا براءول ملقى بجانب سريره غارقا فى بقية دمه . واتضح أنه قد تحرك أو تشنج فسقط من فوق السرير . وقد عجلت هذه السقطة بنهايته كما قال ذلك الجراح . ولما رفعناه وجدناه جثة هامدة ، وكان يمسك بخصلة شعر جميل فى يده ويضع هذه اليد فوق قلبه »

ثم تلا ذلك وصف أعمال الحملة ، ولكن المسيو دارتانيان وقف عند موت راءول وقال : « يا للفتى المسكين . لقد انتجر ! »

ثم التفت صوب الغرفة التى سجى بها جثمان الكونت دى لافير وقال : « لقد وفى كل منهما بوعده للآخر . الآن أحسبهما سعيدين ، وقد عاد كل منهما الى صاحبه ! »

ثم مشى بخطى وئيدة كاسف البال حزينا ، وكانت القرية كلها قد علمت بالكارثة المزدوجة فاشتد بها الأسى وأخذت تستعد للجنازة !

الوداع الاخير

في اليوم التالي لموت الكونت آتوس ، جاء جميع النبلاء الذين وصل نعيه الى أقاليمهم ، ليشتركوا في الجنازة • وكان دارتانيان قد حبس نفسه في الدار اذ كان لا يريد أن يكلم أحدا ، فقدكان صعبا عليه أن يفقد آتوس وراءول بعد أيام معدودة من فقده بورتوس • وكان لا يدخل غرفته أحد من الخدم سوى جريمو • وقد كتب الى الملك راجيا مد اجازته • وكان جريمو قد جلس على كرسي بقرب الباب وهو يفكر تفكيرا عميقا ، ثم نهض وأشار الى دارتانيان ليتبعه ، وهبط معه الدرج الى غرفة نوم الكونت وأشار الى السرير الذي خلا من سيده ونظر الى السماء ، فقال له دارتانيان : « أجل يا جريمو • لقد ذهب مع ابنه المحبوب ! »

ثم غادر جريمو الغرفة وقاد دارتانيان الى القاعة حيث تقضي تقاليد الريف بعرض جثمان الميت على الانظار قبل دفنه • وقد عجب دارتانيان اذ رأى هناك تابوتين مفتوحين ولما اقترب منهما بناء علىاشارة جريمو رأى في أحدهما جثمان آتوس وفي التابوت الآخر جثمان راءول • وارتجف دارتانيان لرؤية الأب والابن ميتين ، وتمتم قائلا : « راءول هنا ؟• لماذا لم تخبرني بذلك يا جريمو ؟ »

فهز جريمو رأسه ولم يجب،وانما قاد دارتانيان الى تابوت راءول وأراهمواقع الجروح وقد اسودت ، فأدار الكابتن وجهه من الألم ، وتذكر أن سكرتير الدوق قد كتب أكثر مما طاق هو أن يقرأه • ثم أخرج الورقة من جيبه وقرأ فيها ما يلي : « وقد أمر سمو الدوق بتحنيط جثمان الفيكونت على أن ينقله خادم أمين الى دار الكونت دي لافير »

فقال دارتانيان يحدث نفسه : « وهكذا يا بني العزيز سأشيع جنازتك، أنا الرجل الشيخ الذي لم تعد له قيمة في الحياة ، وسأهيل التراب على جبينك الذي قبلته منذ شهرين اثنين • لقد أردت لنفسك هذه النهاية ، فليس لي الحق حتى في البكاء • لقد اخترت لنفسك الموت بعد اذ آثرته على الحياة »

وأخيرا حان وقت تشييع الجنازة ، ومضى عدد كبير من الضباط والمدنيين الى المقبرة المجاورة لكنيسة صغيرة ، وكان الطريق مملوءا بالفرسان والمارة وكلهم في ثياب الحداد • وكان آتوس قد بنى لنفسه قبرا في نطاق تلك الكنيسة عند حدود مزرعته

ولما تمت المراسم ودفن الأب والابن ، بقي دارتانيان وحده ، وكانت الشمس قد غربت ولكنه نسي مرور الوقت وهو يفكر • ثم قام من فوق مقعده بالكنيسة وأراد أن يذهب الى القبر ليودع صديقيه الوداع الأخير ، واذا به يرى امرأة راكعة هناك على الارض ، فوقف بباب الكنيسة يتأملها وكانت مخفية وجهها في راحتيها البيضاوين كالشمع ، وكانخارج السياج عدد من الجياد يركبها خدم ، وعربة تنتظر • وظلت السيدة تصلي عندالقبر وهي بين حين وآخر تمسح عينيها بمنديل • ورآها دارتانيان تضرب صدرها بيدها وهي تقول : « ألا مغفرة ! » • وأخيرا تقدم دارتانيان نحوها فما أن سمعت وقع خطاه حتى رفعت رأسها فبان وجهها وقد بلله الدمع • فعرف أنها الآنسة دي لافاليير ! وتمتمت قائلة : « المسيو دارتانيان ؟! »

فرد قائلا بلهجة صارمة : « أنت هنا ؟• وددت لو رأيتك مسجاة في دار الكونت دي لافير !• انك أنت التي قتلت هذين الرجلين بلا رحمة ! »

فقالت له : « سيدي •• أشفق علي ! »

فقال : « معاذ الله يا سيدتي أن أهين سيدة•غير أني أصارحك القول بأن مكان القاتل ليس هو قبر فريسته ! »

فأرادت أن تقول شيئا ولكنه واصل كلامه قائلا : « ان هذا الذي قلته لك الآن قد قلته للملك من قبل ! »

فضمت يديها وقالت : «اني أعرف !•لقدكنت السبب في موت راءول!• لقد وصل النبأ الى البلاط أمس • فسافرت خلال الليل مسافة أربعين فرسخا لكي آتي وأطلب المغفرة من الكونت دي لافير اذ حسبته لا يزال على قيد الحياة ، ولكي أسأل الله على قبر راءول أن يقدر لي كل الكوارث التي أستحقها ، ثم علمت أن موت الابن قد عجل بنهاية الأب ، فأدركت أني ارتكبت جريمتين لا جريمة واحدة•والآن أترقب عقوبتين ينزلهما الله بي !»

فقال لها دارتانيان : « سأعيد على سمعك ما قاله عنك راءول حين كان يتوقع لنفسه الموت • لقد قال يومئذ : (لو كانت فتاة طامحة لعوبا وحادت عن الطريق السوي فاني أغفر لها مع ازدرائي اياها • ولو كان الحب هو الذي جعلها تخطيء نحوي فاني أغفر لها وأقسم لها أنه لم يحبها أحد كما أحببتها !) ••• »

فقالت لويز : « أنت تعلم أني في سبيل الحبكدت أضحي نفسي ، وأنت تعلم أني كنت أتألم حين قابلتني وأنا ضائعة مهجورة • اني لم أقاس في حياتي كما أقاسي الآن • فقد كنت وقتئذ ذات أمل ورغبة • أما الآنفليس لي شيء منهما ، لأن موت راءول وأبيه قد قبر معهما كل مسرة لي ، ولا أستطيع الآن أن أحب دون أن أعاني وخز الضمير • واني لأشعر بأن ذلك الذي أحبه سيجزيني بالعذاب الذي سببته لغيري ! »

فلم يجب دارتانيان اذ كان موقنا بأنها صادقة ، وواصلت هي كلامها

فقالت : « والآن يا مسيو دارتانيان لا تقس على !٠٠ اننى كفرع انتزع من شـجرة ٠ فأنا لا أعتمد على شيء وانما يجرفنى تيـار لا أدرى الى أين ٠ اننى أحب بجنون ، أنى أحب الى حد أنى أخبرك بحبى فوق هذا القبر ٠ وأنا لا أخجل من هذا الحب ولا يؤنبنى ضميرى عليه٠ان هذا الحب هو دينى ولكن لما كنت سترانى فى المستقبل منسية منبوذة ، وسـينزل بى العقاب المقدر لى ، فأرجو أن ترحمنى فى سعادتى الموقوتة وأن تتركها لى بضعةأيام أو بضع لحظات ٠ ولعلها فى هذه اللحظة التى أكلمك فيها قد انتهت ! »

وبينما كانت تقول ذلك سمع صوت جياد تقترب ، وجاء المسـيو دى سان اينيان قاصدا الى لافاليير فقال لها : « لقد كان الملك فريسـة الغيرة والقلق ! »

ولم يكن قد رأى المسيو دارتانيان اذ أخفاه عن نظره جذع شجرة تظل القبر ٠ فشـكرت لويز المسيو سان اينيان وصرفتـه ، وعندئذ قال لها دارتانيان : « أرأيت يا سيدتى ؟ ان سعادتك لا تزال قائمة ! »

فرفعت الفتاة رأسها برزانة وقالت : « سيأتى يوم تندم فيه على سـوء ظنك بى ٠ وفى ذلك اليوم سأسأل الله أن يغفر لك ظلمك اياى ٠ وفضلا عن ذلك سأشـقى أنا الى حد يجعلك تتألم لشقائى ٠ فلا تلمنى على هـذه السعادة فقد كلفتنى ثمنا غاليا ولم أسدد دينى بعد ! »

ثم عادت فركعت الى جانب القبر وقالت : « سامحنى يا راءول ٠ لآخر مرة أطلب اليك الغفران يا خطيبى العـزيز ٠ لقد خنت عهدك ، ولـكنى سأموت مثلك من الحزن ٠ واذا كنت أنت قد سبقت الى الرحيل فلا تخش شيئا فسأتبعك عما قريب٠ولعلك الآن تدرك أنى لست دنيئة والا ما جئت الآن لأودعك الوداع الاخير ٠ والله وحده يعلم أنى ما كنت لأتردد فى أن أفتديك بروحى ٠ ولكنى لم أستطع أن أمنحك حبى ٠ مرة أخرى أرجـو الصفح والمغفرة يا راءول ! »

ثم تناولت غصنا وغرسته فى الأرض ، وبعدئذ مسحت الدمع منعينيها وانصرفت بعد أن انحنت تحية لدارتانيان !

ونظر دارتانيان الى الجياد والعربة الذاهبة ، ثم قال لنفسه : « متى يأتى دورى فى الرحيل ؟٠ ماذا بقى لرجل بعد الشباب والحب والمجد والصداقة والقوة والثروة ؟٠٠ لم يبق سوى صخرة يرقد تحتها بورتوس الذىأتيحت له كل تلك النعم ٠ ولم يبق سوى هـذا القبر الذى يرقد تحته آتوس وراءول وكان لهما أكثر مما كان لبورتوس ! »

ووقف لحظة مترددا ثم قال لنفسه : « الى الأمام ! حين تدق سـاعتى سينبئنى الله بها كما أنبأ هؤلاء ! »

ثم لمس الارض وقد بللها ندى المساء ، وغادر المقبرة وركب جواده عائدا وحده الى باريس !

لقاء ووداع

مضى على موت بورتوس وآتوس وولده أربع سنوات ، وفى ذات يوم ، كان اثنان من الفرسان يعبران غابة بلوا فى باكورة الصـباح ليرتبا رحلة صيد للملك ، وكان أحدهما حافظ كلاب الملك والآخر حافظ صقوره ٠ فوجدا فى مكان هناك فرسان الملك وخلفهم قائدهم دارتانيان ، وقد عرفاه بجواده الأصيل وبذلتهالمزركشة وشعره الأشيب ، فقال أحدهما للآخر: « ان المسيو دارتانيان لا يبدو عليه كبر ٠ انه أكبر منا سنا بعشرين سنة ومع هذا يجلس فوق جواده جلسة فارس شاب ! »

فقال الفارس حافظ الصقور : « انى لم ألحظ عليه أى تغيرخلال العشرين سنة الاخيرة ! »

غير أن هذا الضابط كان مخطئا ، فان دارتانيانكان قد حطمتهالسنوات الاربع الاخيرة ٠ ثم اقترب هو منهما وحياهما ثم قال لهما : « ان الملك فى هذه الايام يستخدم فرسانه أكثر مما يستخدم كلابه وصقوره ! »

فقال حافظ الكلاب : « نعم يا سيدى ، ما أجمل تلك الايام الماضية حين كان الملك السابق يطير العقعق (طائر ملون) فى الكروم التى وراء بوجنسى، وكنا جميعا فى ميعة الشباب »

وكان دارتانيان قد منح لقب كونت منذ أربع سنوات ٠ ثم سأله حافظ الصقور : « ألم تتعب من الرحلة التى قمت بها ؟ »

فقال : « لقد قطعت أكثر من خمسمائة فرسخ فى الذهاب والاياب ! »

فسأله فى صوت هامس : « أهو بخير٠٠أعنى المسيو فوكيه المسكين ؟ »

فأجاب دارتانيان : « كلا !٠ انه دائم الشكوى ولا يقدر أن يفهم كيف يكون السجن منة ٠ ويرى أن البرلمان قد حكم بنفيه ، وان النفى معنـاه الحرية ٠ انه لا يتصور أنهم كانوا يريدون اعدامه ، وانه جدير به أن يحمد الله الذى نجاه من مخالب البرلمان ! »

فقال الفارس : « حقا ان ذلك الرجل المسكين كان قد دنا من المشنقة ٠ لقد أشيع أن المسيو كولبير كان قد أصدر أمرا الى الباستيل للاسـتعداد لاعدامه ! »

فقال دارتانيان : « كفى ! ولنترك هـذا الحوار » ٠ وعندئذ دنا منهما الفارس حافظ الكلاب وكان قد ابتعد قليلا وقال : « ان المسيو فوكيه قد

استـــحق ذلك اذ سلب الملك مالا كثيرا • ومن حسن حظه انك أنت الذى ذهبت به الى هناك ! »

فنظر دارتانيان اليه نظرة قاسية وقال له : « لو أن أحدا أنبأنى بأنك أكلت لحم كلابك لما اكتفيت بتكذيبه بل كنت أشفق عليك اذا حكم عليك بالسجن من جراء هـــذه التهمة ، وكنت لا أطيق أن أسمع أحدا يذكرك بسوء • وأنا أؤكد لك أن المسيو فوكيه لا يقل براءة عنك ! »

وتراجع حارس الكلاب بعد هذا الدرس القاسى ، بينما عاد زميله حافظ الصقور فقال لدارتانيان : « انه راض عن نفسه لان كلاب الصـيد رائجة الآن • ولو كان من حملة الصقور لما قال ما قاله ! »

فابتسم دارتانيان ، وعاد بذهنه الى المسيو فوكيه وما كان فيه من عز وبذخ ، وما ينتظره من ميتة محزنة• ثم سأل حارس الصقور : « هل الملك سيأتى قريبا ؟ »

فأجاب : « عند الساعة السابعة أطلق الصقور ! »

فسأله : « من سيأتى مع الملك ؟• وكيف حال الاميرة هنريتا ؟ وكيف حال الملكة ؟ »

فقال : « ان الملكة أحسن حالا من قبـل ، وقد تحسنت صحتها بعد أن ساءت منذ حزنها الأخير ! »

فتساءل دارتانيان متعجبا : « أى حزن ؟• ان هذا النبأ جديد على لأنى لم أعد الا أخيرا ! »

فقال الفارس : « لقد ساءها اهمال الملك اياها بعد موت الملكة الوالدة ، وزاد في حزنها أنها شكت اليه فأجابها بقوله : (حسبك أنى أنام عنـدك كل ليلة !) •• »

فقال دارتانيان : « يا لها من امرأة مسكينة • لابد أنها تكره الآنسـة دى لافالير من أعماق قلبها ! »

فقال الفارس : « ان منافستها الآن ليست الآنسة دى لافالير ! »

وفى تلك اللحظة سـمع صـــوت نفير يدعو الكلاب والصقور ، فمضى الضابطان توا دون أن يتم ذلك الحوار ، وظهر الملك قادما تحيط به السيدات والفرسان • وتقدم الجميع فى نظام ، وتبين دارتانيان وراء ذلك الجمع ثلاث عربات ، كانت الاولى للملكة ولكنها كانت خالية • ورأى دارتانيان الآنسة دى لافالير فى العربة الثانية وكانت وحدها مع اثنتين من الوصيفات• وكان الى يسار الملك ســيدة بارعة الجمال ، والملك يبتسم لها وهى تبتسم له ، وكان يضحك لكل كلمة تقولها !

فقال دارتانيان لنفسه : « يجب أن أعرف من هذه المرأة » • ثم انطلق فلحق بحافظ الصقور ليسأله ، ولكن الملك لمحه فناداه قائلا : « لقد عدت يا كونت • لماذا لم أرك اذن ؟ »

فقال له : « ان جلالتك كنت نائما حين وصلت ، ولم تكن قد استيقظت بعد حين تسلمت عملى صباح اليوم ! »

فقال له الملك : « انك أنت لا تتغير • خذ نصيبك من الراحة يا كونت • انى آمرك بذلك • وستتناول طعام الغداء معى اليوم ! »

فأحاطت بدارتانيان همهمة اعجاب من معية الملك ، وكان كل فرد تواقا لان يحييه• فان تناول الغداء مع الملك صار شرفا لا يسخو به لويس الرابع عشر كثيرا • ثم تقدم الملك بضع خطوات فوجد دارتانيان نفسه بين جماعة أخرى كان المسيوكولبير هو البارز فيها• وقال له هذا الوزير بأدب ومودة: « عم صباحا يا كونت دارتانيان • هل كانت رحلتك ممتعة ؟ »

فانحنى دارتانيان على رأس جواده وأجاب : « أجل يا سيدى ! »

فقال الوزير : « لقد سمعت الملك يدعوك الى مائدته ، وستقابل هناك صديقا قديما لك هو دوق الميدا »

وهنا فتح باب عربة فظهر منها شـــيخ وقور أشيب وقال : « ها أنذا يا كونت ! »

فصاح دارتانيان فى دهشة بالغة : « أراميس ! »

وعانق صديقه القديم ، ثم تركهما كولبير ومضى بجواده• فقال دارتانيان لأراميس : « ما هذا ؟• كيف عدت الى فرنسا ثانية أنت الثائر المنفى ؟! »

فابتسم أراميس وأجاب : « وسأتناول معك الغــداء على مائدة الملك • أجل • ألا تسأل نفسك : ما جدوى الاخلاص فى هذا العالم ؟! ولكن لتقف عربتنا لحظة كى تدع عربة دى لافالير المسكينة تمر • أنظر ما أشـد قلقها واضطرابها • وكيف تتبع الملك وهو على جواده ، بعينين دامعتين ! »

فسأله دارتانيان : « ومن تلك التى مع الملك ؟ »

فأجاب أراميس : « انها (كلير ـ شارنت) وقد أصبحت الآن مدام دى مونتسبان !•• أما لافالير فالملك لم يهجرها تماما ولكنه لا يلبث قليلا حتى ينبذها ! »

وجعل الصديقان يتحدثان وهما يتبعان حملة الصيد • وما لبث الملك قليلا حتى ترجل عن جواده فاقتـدت به مدام دى مونتسبان • وكانا أمام كنيسة صغيرة مهجورة تحيط بها أشجار كثيفة ، وكان خلف الكنيسـة سياج يتوسطه باب ، وكان البازى قد أسقط فريســته وراء ذلك السياج فأراد الملك أن يدخل ليأخذ من الطير المصيد أول ريشة كما جرت العادة • وأحاطت المعية بالكنيسة ولم تقدر أن تدخل السياج لصغر المساحة وكثرة عددهم • وأمسك دارتانيان ذراع أراميس وقال له : « أتدرى يا أراميس الى أين قادتنا المصادفة ؟ »

فأجاب دوق ألميدا : « كلا ! »

فقال دارتانيان فى حزن : « هنا أناس كنا نعرفهم• هنا آتوس وراءول!»

ومضيا فتحه له دارتانيان٠ صغير فدخل أراميس بخطى مرتعشة من باب
الى القبر الذى تظلله شجرة السرو ٠ ولكن الملك كان قادما من تلك الناحية
اذ كان الطائر المصيد قد وقع هناك ٠ فوقف أراميس واختفى فى الظل ٠
وعندئذ رأى الاثنان ــ دون أن يريا ــ وجه دى لافاليير الشاحب وقد تركت
فى عربتها ، فنظرت أولا ثم دفعتها الغـيرة الى النزول من العربة ودخلت
الكنيسة واستندت الى عمود فيها وأخـذت تتأمل الملك وهو يبتسم لمدام
دى مونتسبان ويشير اليها لتقترب منه وانه ليس ثمة ما تخشاه ، فأطاعت
مدام دى مونتسبان ، وتناولت يد الملك التى مدها اليها ، ثم جذب ريشة
من الطائر الذى خنقه البازى ووضعها فى قبعتها ، فابتســمت له وقبلت
يده بحنو ، وعندئذ احمر وجهه من السرور ونظر اليها نظرة حب وله ،
وقال لها : « ماذا تعطينني فى مقابل هذه الريشة ؟ »
فاقتطعت غصنا صغيرا من شجرة السرو الصـغيرة وأعطته الى الملك ٠
وهنا قال أراميس لدارتانيان : « انها هدية حزينة لانها مقطوعة من شجرة
تظلل قبرا ! »
وسمعا خلفهما أنينا ، ونظرا فرأيا امرأة تسقط على الارض مغمى عليها٠
وكانت هى دى لافاليير وقد رأت كل شىء وسمعت كل شىء !
فتمتم دارتانيان وهو يساعد بعض رجال المعية على حملها الى عربتها :
« يا لها من امرأة مسكينة ! »
وفى مساء ذلك اليوم كان دارتانيان جالسا الى مائدة الملك على مقربة من
المسيو كولبير ودوق أليـدا ، وكان الملك بادى السرور ، وقد خاطب دوق
أليدا مرتين أو ثلاثا بلقب (سعادة السفير) ، فزاد ذلك فى دهشة صديقه
دارتانيان !
ولما قام الملك من المائدة مد يده للملكة ، وأشار الى المسيو كولبير ، فأخذ
هذا دارتانيان وأراميس جانبا ، ثم أخذ الملك يتحدث مع زوجة أخيه الأميرة
هنريتا ، بينما كان زوجها الأمير يتحدث مع الملكة وهو لا يحيد ببصره عن
زوجته ٠ ودار الحديث بين أراميس ودارتانيان وكولبير حول شؤون شتى،
فتحدثوا مثلا عن الوزراء الســابقين ، وذكر كولبير أعمال مازارين وسأل
عن أعمال ريشيليو ٠ وقد عجب دارتانيان اذ وجد هذا الرجل سليم الحكم
على الأمور
وكان واضحا من ملامح الأمير أن تحدث الملك مع زوجته يزعجه ،وكانت
عينا الأميرة قد احمرتا تقريبا ، أتراها ستشكو وتثير فضيحة فى البلاط ؟
وأخذها الملك جانبا وقال لها بلطف ذكرها بالوقت الذى كانت فيه محبوبة
له : « أختاه ٠٠ لماذا أرى الدمع فى عينيك الجميلتين ؟٠ ان زوجك يشعر
بالغيرة ٠ أليس كذلك ؟ »
فنظرت صوب زوجها وكان هذا برهانا على أن الحديث يدور حوله ثم
قالت : « نعم ! »

فقال لها الملك : « اصغى الى ٠٠ اذا كان أصدقاؤك يسيئون الى سمعتك
فليست هذه غلطة الأمير ! »
وقد نطق هذه الكلمات برقة جعلتها توشك أن تفضى اليه بأشجانها ،
ثم قال لها : « هيا بثينى شكواك ٠ انى كصهر سأشفق عليهـا ٠ وكملك
سأزيل أسبابها ! »
فرفعت عينيها النجلاوين وقالت برنة حزن : « ان أصدقائى لا يسيئون
الى سمعتى ، فانهم اما غائبون واما مختفون ٠ لقد حل بهم غضب جلالتك
برغم اخلاصهم وولائهم ! »
فقال لها : « أنت تقصدين دى جيش الذى نفيته الى الخارج بناء على رغبة
أخى الأمير ؟ »
فقالت : « قد حاول كل يوم أن يلقى حتفه ! »
فقال لها : « أتحسبين ذلك ظلما منى يا أختاه ؟ »
فقالت : « انه لظلم عظيم ، ولولا انى أكن لك الاحترام ممزوجا بالمودة
للجأت فى ذلك الى أخى تشارلس الذى يمكننى دائما أن أعتمد عليه ! »
فقال لها الملك : « ماذا كنت تطلبين اليه ؟ »
فأجابت : «كنت أطلب اليه أن يبين لك أن زوجى الامير وصديقه الفارس
دى لورين لا ينبغى لهما أن يكونا جلادى شرفى وسعادتى ! »
فسألها : « أتعنين الفارس دى لورين ، ذا الوجه الذى يقبض الصدر؟ »
فقالت : « أجل !٠ انه عــدوى الألد طالما بقى فى قصرى يقربه الامير
منه ويخوله سلطته ، ليجعلنى أتعس امرأة فى المملكة ! »
فقال الملك بتؤدة : « وهكذا تحسبين أخاك ملك انجلترا صديقا أخلص
لك منى ؟ »
فقالت : « ان الاعمال هى التى تتحدث يا مولاى ! »
فقال : « وأنت تؤثرين أن تطلبى المعونة هناك ؟ »
فقالت بكبرياء : « انها بلادى ٠ أجل يا مولاى ! »
فقال الملك : « انك حفيدة هنرى الرابع كما أنا حفيده ، فأنا ابن عمك
وأخو زوجك فى آن واحد ! »
فقالت : « اذن اعمل ما يحقق صالحى ! »
فقال : « هيا بنا نعقد محالفة ٠٠ أنت تقولين انى نفيت دى جيش ظلما،
واذن يعود فى أقرب وقت ! »
فقالت : « حسنا » ٠ ومضى هو فقال : « وتقولين ان وجود الفارس دى
لورين فى معية أخى الأمير يسىء اليك ، واذن لن يزعجك بعد اليوم ! »
فقالت الأميرة : « هذه يا مولاى مقدمة حسنة لمحالفة بيننا ٠ وأنا أقبلها
راضية ٠ ولكن اذا كان هذا نصيبك منها فما هو نصيبى ؟ »

فقال لها : « بدل أن توقعى بينى وبين أخيك تشارلس ، اجعليه أكثر مودة لى ! »

فقالت : « هذا أمر يسير يا مولاى »

فقال : « كلا ! . انه ليس يسيرا كما تتصورين ، لأن الصداقة العادية بين الناس يكفى فيها العناق أو الكرم أما الصداقة السياسية ... »

فقالت الأميرة : « أهى صداقة سياسية اذن ؟! »

فقال الملك : « أجل يا أختاه ! .. وفيها لا يوجد عناق ولا مآدب ، ولكن جنود وذخيرة وعتاد ، يخدم بها الصديق صديقه ... وسفن تقدم بما فيها من مدافع ومؤونة . ان خزائننا لم تكن دائما مستعدة لتوطيد صداقات من هذا القبيل ! »

فقالت الأميرة : « أنت على حق . ان خزائن ملك انجلترا ظلت طنانة رنانة وقتا غير قصير ! »

فاستطرد الملك قائلا : « أنت يا أختاه لك نفوذ على أخيك ملك انجلترا وتقدرين أن تحصلى منه على أكثر مما يحصل عليه أى سفير ! »

فقالت : « هذا يتطلب أن أسافر الى انجلترا ، أليس كذلك يا أخى العزيز ؟ »

فقال لويس الرابع عشر : « أحسب ذلك ، وأرى أن مثل هذه الرحلة تصلح من حالتك النفسية »

فقالت الاميرة : « ولكن ربما أفشل فى مهمتى هذه . فان ملك انجلترا له مستشارون يحسب حسابهم فى المحالفات ولاسيما اذا كانت محالفة حربية تكلف أموالا ورجالا وسفنا . وليس يخفى على جلالتك أن مستشارى ملك انجلترا سبعة هم – أو بالأحرى – هن الآنسات : ستيوارت ووبلز وجوين وأورشى وزونجا وديفيز والكونتس المتكبرة كاستلمين ! »

فقال الملك : « أتخشين فى مثل هذه الحالة أن تفشل مفاوضاتك ؟ »

فقالت الاميرة : « ان أولئك السيدات يسببن فشل كل مفاوضة لا يقمن بها بأنفسهن ! »

فقال : « لقد خطرت لى فكرة هى أن تأخذى معك مستشارة لها من الفصاحة ما يسكت مستشارات أخيك ! »

فقالت : « هذه فكرة صائبة يا مولاى ، وسأبحث عن مستشارة من هذا القبيل »

فقال الملك : « ويجب أن تكون تلك المستشارة جميلة . فان الوجه الحسن خير من الوجه القبيح ! أليس كذلك ؟ »

فقالت : « نعم ، وأن تكون ذات جرأة وحيوية . وأن تكون نبيلة وتعرف اللغة الانجليزية بحيث تخاطب الملك دون أدنى ارتباك ! »

فأومأ الملك لويس الرابع عشر موافقا ، بينما واصلت الاميرة كلامها

فقالت : « ان كل هذه الصفات تنطبق على الآنسة دى كيروال ! »

فقال الملك : « لقد أحسنت الاختيار يا أختاه . وأنا أتصورك الآن فى طريقك الى انجلترا ! »

فقالت : « سأذهب حالما أعرف مهمتى التى سأتفاوض بشأنها ! »

فقال الملك : « ان الهولنديين كما تعلمين يهينوننى كل يوم فى صحفهم ، وهذا عدا أن نظامهم جمهورى وأنا لا أحب الجمهوريات ! »

فقالت الاميرة : « هذا أمر يسهل فهمه يا مولاى » . ومضى الملك فقال : « انى أرى مع الألم أن ملوك البحر هؤلاء – كما يسمون أنفسهم – يسدون على فرنسا طريق الاتجار مع الهند ، وسفنهم لا تلبث حتى تحتل كل موانىء أوربا . ان مثل هذه القوة البحرية صارت قريبة منا أكثر مما يجب ! »

فقالت الاميرة : « لكنهم مع هذا حلفاؤك ! »

فقال : « هذا يدل على مدى خطئهم اذ صنعوا وساما يمثل هولندا وهى تصد الشمس . ان هذا لا يدل على محالفة واخاء . أليس كذلك ؟! »

فقالت : « كنت أحسب أنك نسيت هذا الحادث ! »

فقال لها : « انى لا أنسى شيئا يا أختاه !. واذا كان أصدقائى المخلصون ، كأخيك تشارلس مثلا ، يؤيدوننى ... »

وسكتت الاميرة ولم تتكلم ، فاستطرد لويس الرابع عشر قائلا : « ان مملكة البحار مقسمة ، وانجلترا خاضعة لهذا التقسيم ، فلماذا لا أمثل أنا الشطر الثانى بدلا من الهولنديين ؟ »

فقالت الاميرة : « ان الآنسة دى كيروال ستعالج هذا الموضوع »

وهنا سألها الملك : « الا تشترطين شيئا آخر للموافقة على السفر ؟ »

فقالت : « لا شىء الا موافقة الامير زوجى » . فقال الملك : « انى أضمن موافقته » . ثم أشار الى كولبير فقطع هذا حديثه مع أراميس ودارتانيان ، والتفت الى أولهما قائلا : « يا سعادة السفير . أنتحدث عن الاعمال ؟ »

فانسحب دارتانيان بأدب ، ومضى الى المدفأة بحيث يسمع الحديث الذى سيدور بين الملك وأخيه الامير ، وكان هذا ظاهر القلق بينما الاهتمام يبدو فى وجه الملك بعد أن تخلص من كل معارضة فى فرنسا ، وأوشك أن يقضى على كل مناوأة فى أوربا ، ثم قال لأخيه الامير : « انى غير راض عن الفارس دى لورين ، وأنت الذى تشرفه بحمايتك ، فينبغى لك أن تنصح له بالسفر بضعة أشهر ! »

فانقضت هذه الكلمات على الامير كالصاعقة اذ كان يحب دى لورين ويثق به . وسأل الملك قائلا : « وكيف استطاع الفارس دى لورين أن يثير غضب جلالتك ؟ »

فأجاب الملك : « سأقول لك ذلك بعد أن يرحل ... وأيضا بعد أن تكون الاميرة زوجتك قد سافرت الى انجلترا »

فتمتم الامير مندهشا : « الى انجلترا ؟ ! » . بينما واصل الملك كلامه قائلا : « أجل يا أخي العزيز ، وسنذهب نحن كلانا الى حيث أخبرك فيما بعد ! »

واستدار الملك على عقبيه وهو يبتسم لأخيه ليخفف من مرارة الجرعة التي جرعه اياها . وفي خلال ذلك كان كولبير يتحدث مع دوق الميدا ويقول له : « لقد حان الوقت لكي نصل الى تفاهم . لقد أصلحت بينك وبين الملك وكان هذا واجبا على نحو رجل في مثل مقدرتك . ولكن لما كنت قد عبرت مرارا عن صداقتك لي فقد سنحت فرصة للبرهان عليها . على أنك فرنسي أكثر منك أسبانيا . فأرجو أن تجاوبني بصراحة : أنضمن حياد أسبانيا اذا باشرنا حربا ضد هولندا ؟ »

فقال له أراميس : « يا سيدي ان مصلحة أسبانيا واضحة ، وترمي سياستنا الى بذر بذور الخلاف بين أوربا وبين هولندا ، غير أن هذه الدولة هي حليفة ملك فرنسا. وأنت تعلم أن مثل تلك الحرب ستكون حربا بحرية ، وان فرنسا لا تمكنها ظروفها الحالية من الاستفادة من مثل هذه الحرب ! »

فالتفت كولبير الى دارتانيان وناداه ، وقال لأراميس : « يمكننا أن نشرك المسيو دارتانيان في حديثنا ، أليس كذلك ؟ »

فأومأ أراميس موافقا وقال : « بكل تأكيد ! » . ثم قال كولبير لقائد الفرسان : « لقد كنت أتحدث مع دوق الميدا في شأن الحرب مع هولندا ، ومن رأينا أنها ستكون حربا بحرية »

فقال دارتانيان : « هذا أمر واضح ! »

فسأله كولبير : « ما رأيك في مثل هذه الحرب يا مسيو دارتانيان ؟ »

فأجاب : « أعتقد أنه للنجاح في مثل هذه الحرب يجب أن يكون لنا جيش بري ضخم ! »

فظن كولبير أن دارتانيان لم يفهم قصده وعاد يسأله : « ماذا تقول ؟ » .

وسأله اراميس بدوره : « وما الحاجة الى جيش بري ضخم ؟ »

فأجاب قائلا : « لأن قوات الملك ستهزم في البحر اذا لم تكن انجلترا حليفة لنا . واذا هزمنا بحريا غزيت بلادنا دون ابطاء ، من جانب الهولنديين بحرا ومن جانب الأسبانيين برا ! »

فسأله أراميس : « واذا بقيت أسبانيا على الحياد ؟ »

فأجاب دارتانيان : « ان أسبانيا ستبقى محايدة طالما كانت كفة فرنسا هي الراجحة »

فأعجب كولبير بفطنة دارتانيان وبعد نظره . وابتسم أراميس اذ كان يعرف أن دارتانيان لا يفوقه أحد في الشؤون الدبلوماسية . ثم استأنف الكلام وسأل دارتانيان : « من الذي أنبأك أن الملك لا يملك أسطولا بحريا ؟ »

فقال دارتانيان : « اني لم أعبأ بالتفاصيل ، وليست لي خبرة بحرية . بل أنا ككل رجل عصبي أكره البحر . غير أني أعتقد أنه اذا أصبحت فرنسا تملك سفنا كافية فانها ستجد رجال البحرية الكافين »

فأخرج كولبير من جيبه كراسة صغيرة قسمت صفحاتها الى عمودين ، وفي ناحية منها أسماء السفن ، وفي الناحية الاخرى عدد المدافع والرجال المطلوبين لها . وقال لدارتانيان : « انه احصاء بالسفن الحربية التي نملكها . والمدافع التي بها .. انها خمس وثلاثون سفينة وبها حوالي الفي مدفع . وهكذا يمكن أن يكون لنا ثلاث مجموعات بحرية . ولكن يجب أن يكون عندنا خمس مجموعات »

فصاح أراميس : « خمس مجموعات ؟ ! »

واستطرد كولبير قائلا : « انها ستنزل الى البحر قبل نهاية هذه السنة . وسوف يكون لدى الملك خمسون سفينة . وعندئذ يمكننا أن ننازلهم . أليس كذلك ؟ »

فقال دارتانيان : « ان تشييد السفن صعب ولكنه ممكن . أما تزويدها بالسلاح فما الذي يمكن عمله ؟. ان فرنسا لا تملك مصانع ذخيرة ولا أحواض سفن ! »

فقال الوزير : « لقد أنجزت كل ذلك خلال الشهور الثمانية عشرة الاخيرة . ألم تعلم ذلك ؟ ألا تعرف المسيو ايمفريل ؟ »

فقال دارتانيان : « ايمفريل ؟ كلا لست أعرفه ! »

فقال الوزير : « رجل اكتشفته. رجل عبقري يعرف كيف يغري الرجال بالعمل . وهو الذي صنع المدافع وقطع أشجار الغابات في بورجوني . ثم ان عندي فكرة أفضي بها اليك يا سعادة السفير وربما لا تصدقها »

فقال أراميس : « اني دائما أصدقك يا سيدي ! »

فقال كولبير : « لقد قلت لنفسي : أن الهولنديين تجار وهم أصدقاء الملك ، فيسرهم بلا ريب أن يبيعوه ما يصنعونه لانفسهم . وهكذا زدنا ما نشتريه منهم ... ان عندنا فوران . أتعرف فوران يا دارتانيان ؟ »

وابتسم دارتانيان اذ ناداه الوزير هكذا دون لقب كما يناديه الملك ، ورد عليه قائلا : « لا يا سيدي لست أعرفه ! »

فعاد الوزير يقول : « انه رجل آخر اكتشفته وهو نابغة في الشراء . ان فوران هذا قد اشترى لي ثلاثمائة وخمسين ألف رطل من الحديد ومائتي ألف رطل من البارود ، كما عقد لي اثنتي عشرة صفقة من خشب البلدان الشمالية ، وهذا كله عدا صفقات الكبريت والقنابل والقار وغيرها ، وقد اشتراها لنا أرخص بمقدار سبعة في المائة من تكاليف صنع مثلها في فرنسا ! »

فقال دارتانيان : « انها لفكرة حسنة أن تصنع الذخيرة بأيدي الهولنديين

لتعود اليهم بعد ذلك طلقات تستقر فى صدورهم ! »

فقال الوزير : « ليس هذا فقط بل بخسارة لهم كذلك ! » . ثم ضحك وواصل كلامه فقال : « ان الهولنديين أيضا يبنون للملك الآن ست سفن على طراز أحسن سفنهم الحربية . ويتضح من ذلك كله أن ملك فرنسا اذا أراد أن يحارب الهولنديين فسيكون له أسطول قوى . أما الجيش البرى فأنت ادرى به من كل انسان »

فتبادل دارتانيان وأراميس نظرة بدت فيها دهشتهما مما انجزه كولبير فى وقت وجيز

وسر كولبير من هذا المديح الصامت . ثم قال له دارتانيان : « اذا كنا ونحن فى فرنسا نجهل كل ذلك فلا شك أن غيرنا أجهل به ! »

وعندئذ قال أراميس : « اذا ساعدتكم انجلترا فانى أضمن لكم حياد أسبانيا »

فسارع كولبير الى القول : « انى أسجل عليك وعدك هذا . وعلى ذكر أسبانيا أراك لا تحمل وسام الفروة الذهبية . ولقد سمعت الملك منذ أيام يقول انه يود أن يراك متقلدا وشاح الوسام الاكبر لسان ميشيل ! »

فانحنى أراميس شاكرا ، وقال دارتانيان لنفسه : « لو كان بورتوس حيا لسعد بعدد من هذه الاوسمة ! رحمة الله على بورتوس ! »

ثم قال كولبير : « يا مسيو دارتانيان .. انى أراهن انك تتمنى لو تغزو هولندا بفرسانك ، اتتقن السباحة ؟ »

وضحك كولبير ثانية لنكتته هذه ، فقال له دارتانيان : « انى أسبح كالسمك ! » . فقال كولبير : «ولكن فى هولندا عددا من القنوات والمستنقعات وقد يغرق فيها احسن السباحين !؟ »

فقال دارتانيان : « ان مهنتى هى أن أموت فى خدمة صاحب الجلالة . ولكن فى الحروب يقابل الماء الكثير بنيران كثيرة ، وسأبذل قصارى جهدى لاختيار النيران . انى أوغل فى الكبر . والماء يبرد أطراف جسمى . أما النار فتدفئنى ! »

وبدا كأنه عاد الى شبابه وهو يقول هذه الكلمات بحماسة وعزم ، فلم يسع كولبير الا ان يعجب به . وتذكر أن احسن التجار هو الذى يفرض ثمنا غاليا لسلعته فاستعد لدفع هذا الثمن سلفا . وقال له : « وعلى ذلك تذهب الى هولندا ؟ »

فأجاب دارتانيان : « أجل : ولكن ... »

فسأله كولبير : « ولكن ماذا ؟ »

فأتم كلامه قائلا : « فى كل أمر يوجد أيضا الصالح الشخصى ... ان لقب قائد الفرسان لقب جميل . ولكن لدينا الآن حرس الملك ، وقوة القصور . فقائد الفرسان يجب أن يرأس جميع هذه القوات ، وعندئذ ينبغى أن يكون

راتبه مائة الف ليفر فى السنة لنفقات التمثيل والمآدب وغيرها ! »

فقال له كولبير : « أتظن أن الملك سيساومك ؟ »

فقال له : « انك يا سيدى لا تفهم قصدى . انى أقول اننى بوصفى قائدا للفرسان ، وبوصفى ضابطا أقدم من مارشالات فرنسا ، وجدت نفسى ذات يوم مساويا لقائد الحرس وقائد الحرس السويسرى . فأنا لن أصبر على ذلك . ان لى عاداتى القديمة وسأصر عليها ! »

فقال له كولبير : « لقد فكرت فى كل ذلك . ألم أحدثك منذ لحظة عن القنوات والبرك فى هولندا وعن خوفى أن تغرق ؟. حسنا ! انك اذا غرقت فذلك لانك ينقصك زورق أو لوح من الخشب ... أو ... عصا ... »

فقال دارتانيان : « بل عصا مهما قصرت ! »

وأومأ الوزير موافقا وقال : « لذلك لم أسمع قط بأن مارشالا فرنسيا غرق ! »

فشحب وجه دارتانيان وقال بصوت يغلبه التأثر : « ان الناس فى فرنسا سيفخرون بى اذا صرت مارشالا . ولكن لابد أن يقود الضابط حملة رئيسية لينال تلك الرتبة ! »

فقال له كولبير : « هنا فى هذه الكراسة خطة لحملة ستتولى أنت قيادتها فى الربيع القادم »

فتناول دارتانيان الكراسة بيد مرتعشة وقال لكولبير : « أرجو أن تخبر الملك بأنه فى أول فرصة تسنح سينال نصرا عظيما أو يرانى جثة هامدة ! »

فقال كولبير : « اذن سأعد لك عصا المارشالية توا ! »

وفى صباح الغد جاء أراميس ليودع دارتانيان فى فندقه قبل أن يعود الى أسبانيا ليقنع ملكها بالحياد ، فقال له دارتانيان : « ليحب احدنا الآخر حبا يكفى أربعة ، فقد صرنا اثنين فقط ! »

فقال له أراميس : « لعلك يا عزيزى دارتانيان لن ترانى ثانية !.. آه لو عرفت قدر حبى لك ! اننى الآن شيخ فى الهالكين ! »

فقال له دارتانيان : « يا صديقى ، انك ستعيش بعدى . ان السياسة تتطلب منك أن تعيش . أما أنا فان الشرف يتطلب منى أن أموت ! »

فقال له أراميس : « ان الرجال أمثالنا ، يا فخامة المارشال ، لا يموتون الا بعد ان يشبعوا فرحا ومجدا ! »

فابتسم دارتانيان ابتسامة حزينة وقال : « أؤكد لك يا سيدى الدوق انى صرت لا أشتهى هذا ولا ذاك ؟ »

ثم تعانقا مرة أخرى ، وافترقا !

نهاية الفرسان الأربعة

وفى الملك لويس الرابع عشر بعهده. فاستقدم المسيو دى جيش من منفاه، ونفى الفارس دى لورين من خدمة الامير شقيقه ، وعلى هذا سافرت الاميرة هنريتا الى لندن حيث بذلت جهدها لتغرى أخاها تشارلس الثانى بأن يصغى الى نصائح الآنسة دى كيروال ، وهكذا عقدت محالفة بين انجلترا وفرنسا ، وعاونت بضعة ملايين من الذهب الفرنسى سفن انجلترا على القيام بحملة ذريعة ضد أسطول هولندا . وكافأ تشارلس الثانى الآنسة دى كيروال على نصائحها الطيبة فجعلها دوقة بورتسموث. وكان كولبير قد وعد ملك فرنسا بالسفن والذخائر والانتصارات ، وقد وفى بوعده كما هو معروف . وكذلك أراميس الذى كان أكثر الاعتماد على المفاوضات التى قام بها فى مدريد .

وفى الربيع التالى بدأ الجيش البرى حملته ، وكان دارتانيان يقود اثنى عشر ألفا من الفرسان والمشـــاة ، وعهد اليه فى الاستحـــواذ على النقط الاستراتيجية الهامة . وكان الضباط يعرفون بسالة قائدهم وبراعته ، وانه لن يضحى رجلا واحدا ولن ينزل عن شبر أرض الا عنـد الضرورة . وقد استولى خلال شهر على اثنى عشر موقعا صغيرا . ثم شرع يحاصر الموقع الثالث عشر ومكث فى ذلك خمسة أيام أمر فيها بحفر الخنادق دون أن تبدو من جانب العدو نية التسليم !

وبعث دارتانيان رسولا الى الملك ليخبره بما تم ، فسر الملك بالانبـاء وزاد ميلا لمداعبة السيدات اللاتى حوله،وقد زادته الانتصارات جلالا حتى صارت مدام دى مونتسبان لا تسميه الا باسم « لويس المظفر » . وفقدت الآنســة دى لافاليير كثيرا من حظوتها لديه وصارت عيناها دائمتى الاحمرار من البكاء، وهو أمر لا يلائم ملكا منتصرا يبتسم له العالم ... وبينما أفل نجم لافاليير وسط السحب والدموع ، سطع نجم مدام دى مونتسبان التى تضـــاعف مرحها مع انتصارات الملك . وكان لويس الرابع عشر يعرف أن الفضل فى ذلك يرجع الى دارتانيان ، فكتب الى المسيو كولبير ما يلى :

« يا مسيو كولبير .. ان علينا وعدا للمسيو دارتانيان يجب أن نوفى به ، وقد حان الوقت لذلك .. لويس »

وعلى أثر هذا أرسل كولبير الى دارتانيان خطابا ، وصندوقا من الآبنوس المرصع بالذهب ، حملهما اليه رسول خاص زود بحرس مؤلف من خمســة رجال . وقد وصلوا قبيل الفجر الى الموقع الذى يحاصره دارتانيـــان ، وكان محافظ تلك البلدة قد استطاع أن يهجم مع بعض المحاصرين بحيـــلة

بارعة فقتلوا من جنـــود دارتانيان سبعة وسبعين رجلا وحطمـــوا بعض منشآتهم ، وقد أزعج ذلك دارتانيان وخرج مع عدد من قاذفى القنـــابل ليصلحوا ما تهدم !

وكان رسول المسيو كولبير قد أمر بأن يقابل المسيو دارتانيان حيث يكون، لذا اتجه صوب الخنادق ووراءه الحرس الذى يصحبه وكلهم على ظهـور الجياد . وقد رأوا دارتانيان فى السهل المنبسط وعرفوه بقبعته ذات المخرم الذهبى وعصاه الطويلة وكان يعض على طرفى شاربه ويزيح عن ملابسه التراب الذى يثيره الرصاص الذى يصيب الارض على مقربة منه . ورأوا كذلك جنودا وضباطا يصلحون الخنادق . وبعد ثلاث ساعات تمت هذه المهمة وبدا على دارتانيان الارتياح والهدوء . ولم يكد رسول كولبير يحدث دارتانيان حتى أصابته رصاصة فى احدى قدميه فذهبت بها وسقط بين يدى القائد، فرفعه هذا وحمله الى الخندق بين هتاف رجال فرقتين من الجيش ، ومن تلك اللحظة صار القتال أقرب الى الجنون ، وتقدمت الفرقتان الى المواقع الامامية فدكتها دكا واندفع رفاقهم وراءهم فى هجوم عنيف

وبينما كان دارتانيان يهنىء نفسه بهذا الانتصار،سمع وراءه صوتا يناديه فالتفت وراءه وتناول خطاب كولبير وقرأ فيه ما يلى :

« عزيزى المسيو دارتانيان .. ان الملك قد أمرنى بأن اخبرك بأنه قد عينك مارشالا لفرنسا جزاء لك على خدماتك الجليلة وعلى المجد الذى كسبته لجيوشه . والملك شديد السرور بالانتصارات التى حزتها . والصنـــدوق المرافق هو هديتى الخاصة ، وأنتم يا رجال الحرب بينما تشهرون سيوفكم للدفاع عن البلاد ، أعنى انا بحث رجال السفن على ابداع الهـدايا التى تستحقونها . وانى فخور بصداقتك يا سيدى المارشال ... كولبير »

فتملك دارتانيان الفرح ، وأشار الى الرسول فاقترب بالصندوق، ومد دارتانيان يده ليفتح الصندوق واذا برصاصة من قبل البـلدة قد حطمت الصندوق بين يدى الضابط وأصابت دارتانيان فى صدره فوقع على الارض لتوه ، وسقطت عصا المارشالية من الصندوق المحطم تحت يد المارشال . وحاول أن ينهض ولكنه لم يستطع ، وظن رجاله أنه لم يجرح ولكن اذا به قد لون الدم ثيابه بلون أحمر قان ، وشحب وجهه شحوب الموت !

وصاح ضباط دارتانيان فزعا . ثم اتكأ على أذرعتهم التى امتدت له من كل جانب ، فاستطاع أن يلقى نظرة أخيرة على المكان وأن يرى علم ملك فرنسا مرفوعا على الحصن الرئيسى ، وسمع بأذنيه اللتين بدأتا تصمان عن سماع أصوات الحياة ، صوتا ضعيفا لطبول تعلن النصر . ثم أمسك بيده الواهنة عصا المارشالية ونظر اليها،وبعدئذ تراجع الى الوراء وهو يتمتم هذه الكلمات التى لم يفهمها ضباطه : « يا آتوس ، يا بورتوس ، الى اللقاء . يا أراميس وداعا الى الأبد ! »

وهكذا لم يبق من الفرسان الأربعة سوى جسم واحد ، أما الارواح فقد قبضها الله اليه !